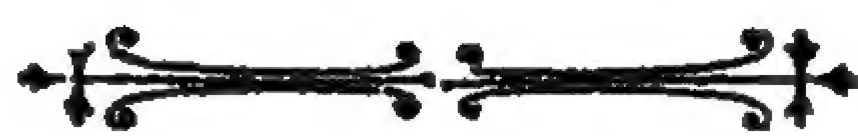
فهرست الجزء الاول من الفتوحات الاسلامية

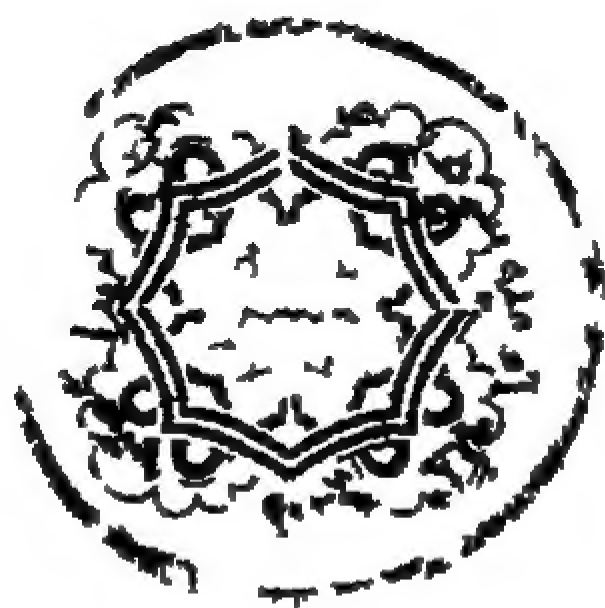
﴿ تمت ﴾

﴿ الجزء الاول ﴾

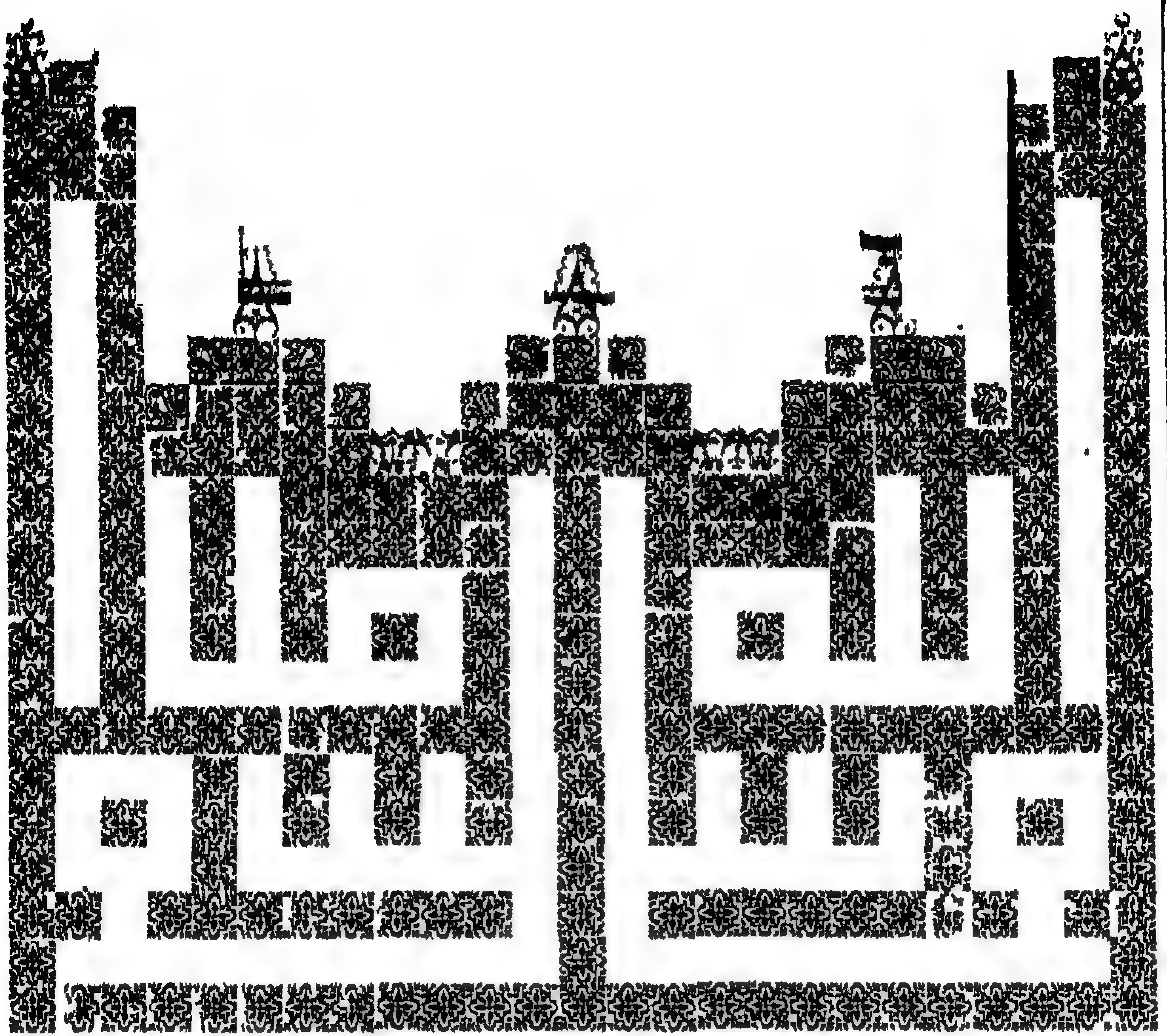
من الفتوحات الاسلاميه * بعد مضى الفتوحات النبوية
لمؤلفها فريد العصر والاوان * على الهمة عظيم
الشان * شيخ الاسلام بالاقطار الحجازية
ومفتى السادة الشافعيــة بمكة المحمية
الاستاذ السيد أحمد ابن السيد
زينى دحلان * أسكنه الله
بحبوحــة الجنان
آمــين آمــين
آمــين



طبع على ذمة حضرة الشريف مولاى أحمد ابن سيدى عبد الكريم
القادرى الحسنى المغربى الفاسى



﴿ طبع بالمطبعة الحسينيه المصريه ﴾
بجوار مسجد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه
﴿ ادارة محمــد افندى عبد اللطيف الخطيب ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين أما بعد فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام * كثير الذنوب والآثام * المرتجي من ربه الغفران * أحمد بن زيني دحلان * غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين هذه وريقات جمعت فيها بغاية الاختصار الفتوحات الاسلامية التى افتتحها اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من الخلفاء والملوك فابتدأت بما كان منها في زمن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه وسميتها الفتوحات الاسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية فأولها بعث جيش أسامة بن زيد رضى الله عنهما لأن النبي صلى الله عليه وسلم جهزه في زمنه الذى توفي فيه وأمره ان يسير الى الموضع الذى استشهد فيه أبوه زيد بن حارثة رضى الله عنه وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارق الشام وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مسير جيش اسامة فلما استخلف أبو بكر رضى الله عنه وارتد كثير من العرب أشار عليه

يعني الصحابة رضي الله عنهم بتأخير جيش أسامة رضي الله عنه فامتنع وقال أول شيء أنفذه سير الجيش الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار أسامة رضي الله عنه بجيشه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبث الجنود في بلاد قضاعة التي ارتدت وأغار على أبنى فسبى وقتل وغنم ورجع لأربعين يوما ولم يحدث أبو بكر رضي الله عنه في مغيبه شيأ وكان أنفاذ جيش أسامة من أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثبتت قريش وثقيف على الاسلام ولم يرتد أحد منهم وأما قريش فثبتهم الله بسهيل بن عمرو العامري رضي الله عنه فانه خطب أهل مكة خطبة تشبه خطبة أبي بكر رضي الله عنه التي خطب بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثبت أهل المدينة بها فلما جاء خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة ارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت ألم تعلموا ان الله قال انك ميت وانهم ميتون * وقال وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل * وتلى آيات أخر ثم قال والله اني أعلم أن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما وقال أيضا ياأهل مكة لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد رأيته قائما مقامي هذا وحده وهو يقول قولوا معي لااله الا الله تدين اليكم العرب وتؤدي اليكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله فمن بين مستهزئ ومصدق فكان مارأيتم فوالله ليكونن الباقي ثم ذكر لهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه وقال ان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه فتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وان الله ناصر من نصره ومقوي دينكم وان الله جمعكم على خيركم يعني أبا بكر رضي الله عنه فتراجع الناس وكفوا عما هموا به وهذه الخطبة هي المقام الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر لما أسر سهيل بن عمرو مع من أسر من كفار قريش يوم بدر وكان فصيحا بليغا يخطبهم ويحثهم ويحرضهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فلما أسر

قال عمر رضى الله عنه يارسول الله دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو فلا يقوم عليك خطيبا في مواطن أبدا لأن سهيلا كان أعلم أى مشقوق الشفة العليا والاعلم اذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه دعه ياعمر فعسى ان يقوم مقاما تحمده عليه ولا تذمه فكان ذلك المقام هذه الخطبة التى قام بها حين جاءهم بمكة خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وثبت الله بها أهل مكة وكان اسلام سهيل بن عمرو عام فتح مكة واستشهد يوم اليرموك سنة ثنتى عشرة وقيل مات في طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة و يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في لؤى بن غالب لأنه من بنى عامر بن لؤى والنبي صلى الله عليه وسلم من بنى كعب بن لؤى وكان سهيل رضى الله عنه من أشراف قريش وله ترجمة واسعة وأما ثقيف فثبتهم الله بعثمان بن أبى العاص الثقفى رضى الله عنه فانه قام فيهم بمثل ماقام به سهيل بن عمرو في مكة فثبتوا وكان قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظهور مسيلمة الكذاب ودعواه النبوة باليمامة وظهور طليحة بن خويلد الأسدى ودعواه النبوة في بنى أسد وغطفان وظهور الاسود العنسى ودعواه النبوة باليمن فأما الاسود العنسى فسلط الله عليه فيروز الديلمى فقتله وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله قبل وفاته ثم جاءتهم الاخبار بقتله في أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه وأما مسيلمة وطليحة الاسدى فسيأتى الكلام عليهما ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عظمت مصيبة المسلمين واشرأبت اليهودية والنصرانية وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية واضطرمت الارض نارا وكانت ردتهم مختلفة فمنهم من قال لو كان نبيا مامات ومنهم من قال انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحدا أبدا ومنهم من قال نؤمن بالله ومنهم من قال نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله ونصلى ولكن لا نعطيكم أموالنا فقال أبو بكر رضى الله عنه ان الزكاة مثل الصلاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم فجادله في ذلك كثير من الصحابة منهم عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ومن مجادلتهم له قول عمر رضى الله عنه له تألف الناس وارفق بهم فانهم بمنزلة الوحش فقال له أبو بكر رضى الله عنه رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك أجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وانا حى والله لأجاهدنهم مهما استمسك السيف في يدى وان منعونى عقالا وقال له عمر أيضاً انما شحت العرب على أموالها فلو تركت للناس صدقة هذه السنة فأبى الا قتالهم وقال له عمر أيضاً كيف تقاتل الناس

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم فقال له أبو بكر رضى الله عنه أليس قد قال الا بحقها ومن حقها اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والله لومنعوني عقالا وفي رواية عناقا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي فقال عمر رضى الله عنه فوالله ماهو الا ان رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق وقال عمر بعد ذلك والله لقد رجح ايمان أبي بكر بايمان هذه الأمة في قتال أهل الردة وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله من علينا بأبي بكر أجمعنا ان لانقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم ثم اتفق الصحابة كلهم رضى الله عنهم على قتالهم واستصوبوا مارآه أبو بكر رضى الله عنه قال أنس بن مالك رضى الله عنه كره الصحابة أولا قتال مانعي الزكاة وقالوا أهل القبلة فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره وهذا دليل على كمال شجاعته وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ماولد بعد النبيين مولود افضل من أبي بكر رضى الله عنه لقد قام مقام نبي من الانبياء في قتال أهل الردة

﴿ ذكر أول وقعة في قتال أهل الردة ﴾

كان بعض أهل الردة طمعوا في استيلائهم على المدينة واستيصال الصحابة ليرجعوا الامر جاهلية كما كانوا فتعجل جماعة من بني عبس وذبيان ونزلوا في الابرق ونزل آخرون بذي القصة وهم قوم من بني أسد وكنانة وبعثوا وفدا الى أبي بكر يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة فأبى أبو بكر من ذلك وأخذ في الاحتراس والتحذر منهم فجعل على أنقاب المدينة عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرهم ورجع وفد المرتدين فأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فاغاروا على من كان بأنقاب المدينة فبعثوا الى أبي بكر فخرج في أهل المسجد الحاضرين في ذلك الوقت على النواضح فهربوا والمسلمون في أثرهم الى ذي خشب وكان للمرتدين كمين في ذي حسى فنفروا ابل المسلمين بشنان نفخوها وفيها حبال ثم دهدهوها على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع مسلم فظن المرتدون بالمسلمين الوهن وبعثوا الى أهل ذي القصة بالخبر فقدموا عليهم وبات أبو بكر رضى الله عنه يعبي الناس وخرج على تعبيته فما طلع الفجر الا وهم

والعدو على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الادبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتلوا رجالاً منهم وتبعهم أبو بكر رضي الله عنه ومن معه حتى نزلوا بذى القصة وكان ذلك أول الفتح ووضع بها النعمان ابن مقرن في عدد و رجع الى المدينة فذل له المشركون واعتز المسلمون بوقعة أبى بكر هذه واستبشروا ولما قدم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر رضى الله عنه على المدينة وخرج بمن معه من المسلمين الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزم الله المشركين وأخذ الحطيئة أسيرا فطأطئت بنو عبس و بنو بكر وأقام أبو بكر بالابرق أياما وغلب على بنى ذبيان و بلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم ثم رجع الى المدينة ولما انهزم بنو عبس وذبيان رجعوا الى طليحة الاسدى وهو ببزاخة ثم قطع أبو بكر رضى الله عنه البعوث وعقد الالوية عقد أحد عشر لواء وجعل لكل لواء أميرا وعزم أبو بكر على الخروج لقتال المرتدين بنفسه وأمر الناس بالجهاد فخرجوا وخرج هو في مائة من المهاجرين والانصار وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بذى القصة ومكث أياما ينتظر الناس وبعث الى من كان حوله من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة فأقبلوا من كل ناحية حتى كثر الناس وجعل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما يكلمان أبا بكر في الرجوع الى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه وقال عمر ارجع ياخليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردأ فانك ان تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل على الحق وأبو بكر يظهر المسير بنفسه وأخرج الدارقطنى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال لما برز أبو بكر واستوى على الراحلة أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بزمامها وقال الى أين ياخليفة رسول الله أقول لك ماقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع الى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لايكون للاسلام نظام أبدا ولما ألحوا عليه في الرجوع رجع بعد أن بعث الامراء في كل ناحية لقتال أهل الردة

• ذكر مسير خالد بن الوليد الى براخة لقتال طليحة بن خويلد الاسدى

من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس

ادعى النبوة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وزعم ان جبريل يأتيه وسجع للناس الأكاذيب والخرافات التى تمجها الاسماع كقوله والحمام واليمام والصرد والصوام قد صمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام وكثر أتباعه من بنى أسد وغطفان وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول ان الله مايصنع بتعفر وجوهكم وتقبيح أدباركم

شيأ اذكروا الله واعبدوه قياما فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه لقتال طليحة ومعه كثير من المهاجرين والانصار ومعه أيضا عدى بن حاتم في ألف من طيئ وكان طليحة قد أسلم ثم ارتد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان كاهنا فادعى النبوة فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم استطار أمر طليحة واجتمعت اليه غطفان وهوازن وغيرهم وارتد أيضاً عيينة بن حصن الفزارى وصار مع طليحة ونزلوا جميعا ببزاخة فقصدهم خالد بن الوليد بمن معه وتقاتلوا واشتد القتال ثم انهزموا فقتل من قتل منهم وأسلم من أسلم فوثب طليحة على فرسه واحتقب امرأته ونجا بها الى الشام روى ان طليحة قال لاصحابه لما رأى انهزامهم ويلكم مايهزمكم فقال له رجل منهم أنا أخبركم انه ليس منا رجل الا وهو يحب ان صاحبه يموت قبله وانا نلقى قوما كلهم يحب ان يموت قبل صاحبه وكان خالد بن الوليد قبل القتال ولقاء القوم أرسل طليعة عكاشة بن محصن الأسدى وثابت بن أرقم الانصارى فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشة وقتل أخوه ثابتا وقيل ان حبال أخو طليحة أسر فأرادوا ارساله الى أبي بكر رضى الله عنه فقال اضربوا عنقي ولا تروني محمديكم هذا ولما وقع القتال من طليحة وقومه كان خالد رضى الله عنه يحرض المؤمنين ويقول يامعشر الانصار الله الله واقتحم وسط القوم وكر على أصحاب طليحة فاختلطت الصفوف واختلفت السيوف بينهم واشتد القتال وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما وقاتل عيينة بن حصن مع طليحة قتالا شديدا وكذلك قومه وكان معه منهم سبعمائة ولما انهزم القوم أسر عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة القشيرى وأرسلا الى أبي بكر رضى الله عنه فرجعا للاسلام فقبله منهما وأما طليحة فانه لما انهزم الناس فر ونزل نحو الشام عند بني غسان الى ان توفي أبو بكر رضى الله عنه ودخل بنو أسد وغيرهم في الاسلام أسلم طليحة وحسن اسلامه ولقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبايعه وقال له عمر رضى الله عنه أنت قاتل عكاشة وثابت والله لاأحبك أبدا فقال باأمير المؤمنين ماتهمك من رجلين أكرمهما الله بالشهادة على يدي ولم يهني بأيديهما ثم كان اما [illegible] [illegible] فيه [illegible] الباب وكان من [illegible] المشهورين [illegible] [illegible] سنة ثمان عشرة ولما أوقع الله ببني أسد ماأوقع وانهزموا بث خالد السرايا ليأتوا ماقدروا عليه فجعلت العرب تسير الى خالد راغبة في الاسلام أو خائفة من السيف ومنهم من مضى الى أبي بكر ولم يأت خالدا ولما فرغ خالد من بني أسد سار الى أرض بني تميم

فلما وصـل الى البطاح من أرض تميم لم يجد بها جمعا ففرق السرايا في نواحيها فلقوا اثنى عشر رجلا فيهم مالك بن نويرة التميمى وكانوا ممن ارتدوا ومنعوا الزكاة فاخذوهم وجاؤا بهم خالدا واختلف الذين أخذوهم في مالك بن نويرة ومن معـه فقال قوم انهم أسلموا فـالنا عليهم من سبيل وقال قوم لم يسلموا وان قتلهم وسبيهم حلال وكان ذلك رأى خالد فيهم فأمربهم خالد فقتلوا وقتـل معهم مالك وتزوج خالد امرأته وقيل ان خالدا سمع من مالك كلاما استدل به على عدم اسلامه من ذلك انه قال ان صاحبكم قد توفى فعلم خالد انه أراد انه صلى الله عليه وسلم ليس بصاحب له فتيقن ردته فقتله بعد ان تكرر من مالك قوله فعل صاحبكم شأن صاحبكم فقال له خالد وليس بصاحب لك وقيـل انه لمـا قدم مالك بن نويرة ومعـه الأسرى على خالد حبسهم عنـد ضرار بن الأزور وكانت ليله ممطرة فنادى مناديه ان أدفئوا أسراكم وكانت في لغة كنانة كناية عن القتـل فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانيا وسمع خالد الداعية فخرج متأسفا وقد فرغوا فقال اذا أراد الله أمرا أصابه ولمـا قدم خالد على أبى بكر رضى الله عنه سأله عن قتل مالك بن نويرة فأخبره بذلك واعتـذر اليه فقبل عذره وأراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان أبابكر رضى الله عنه يقتل خالدا قصاصا في مالك بن نويرة فقال أبو بكر ياعمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فانى لاأشيم سيفا سله الله على الكافرين ودفع أبو بكر رضى الله عنه ديات لأولياء مالك بن نويرة ومن قتل معه وكان مالك بن نويرة أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقدم عليه فجعله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه فجمعها فلما بلغه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ردها من حيث جاءت وكان أمره ماتقدم وكان خالد رضى الله عنه بعد وقعة مالك بن نويرة رجع من البطاح الى المدينة واجتمع بأبى بكر رضى الله عنه واعتذر مما كان في أمر مالك ابن نويرة فقبل عذره وأمره بالسـير الى قتال مسيلمة فسار خالد ومن معه لقتال أهـل اليمـامة التابعين لمسيلمة ولنذكر قبل ذلك خبر سجاح بنت الحارث التميمية

﴿ ذكر خبر سجاح ﴾

لمـا ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبى صـلى الله عليه وسـلم ادعت النبوة سجاح بنت الحارث التميميه وأقبلت من الجزيرة وتبعها كثير من قومها وقـوم من بنى تغلب وكانوا أخوالهـا وسجعت لهم أسجاع طليحة الأسدى ومسيلمة الكذاب من ذلك قولها أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهـم حجاب وأرادت أن تغزو بجموعها أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة ثم أشاروا عليها بغزو مسيلمة باليمـامه فخرجت ...

معها تريد اليمامة وقالت عليكم باليمامة ذوقوا ذفيف الحمامة فانها غزوة صرامة لايامحقكم بعدها ملامة فبلغ ذلك مسيلمة فاحتال عليها وأرسل لها هدية ثم أرسل لها يستأمن على نفسه حتى يأتيها فأمنته فجاءها في أربعين من بنى حنيفة وأرسل لها أبعدى أصحابك ففعلت وقد ضرب لها قبة فجمرها وأكثر فيها من رائحة الطيب المحرك للشهوة واجتمع بها في تلك القبة فقالت له ماأوحى اليك ربك فقال ألم تر الى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشى قالت وماذا أيضا قال ان الله خلق للنساء أفراجا وجعل الرجال لهن أزواجا فتولج فيهن ايلاجا وتخرجها اذا شاءت اخراجا فينتجن لهن سخالا انتاجا قالت أشهد أنك نبي قال هل لك ان أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب قالت نعم قال

ألا قومى الى النيك * فقد هيئ لك المضجع * فان شئت فى البيت
وان شئت فى المخدع * وان شئت سلقناك * وان شئت على أربع
وان شئت بثلثيه * وان شئت به أجمع * قالت بل به أجمع

فانه أجمع للشمل قال بذلك أوحى الى فأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت الى قومها فقالوا لها ماعندك قالت كان على الحق فتبعته وتزوجته قالوا هل أصدقك شيأ قالت لاقالوا فارجعي فاطلبي الصداق فرجعت فلما رآها أغلق باب الحصن وقال مالك قالت أصدقني قال من مؤذنك قالت شبث بن ربعي الرياحي فدعاه وقال له ناد في أصحابك ان مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد صلاة الفجر وصلاة العشاء الأخيرة فانصرفت معها أصحابها فقال بعض منهم

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها * وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف والنصف الثانى تترك عنده من يأخذه فأخذت النصف وانصرفت الى الجزيره وترك عنده من يأخذ النصف الباقى فلم يفاجأهم الا وقد جاء خالد اليهم فارفضوا قيل انها لما قتل مسيلمه سارت الى احوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها ذكر وقيل انها أسلمت وحسن اسلامها وانتقلت الى البصرة وماتت بها وصلى عليها سمرة بن جندب وهو أمير على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة

ذكر مسير خالد بن الوليد رضى الله عنه الى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب ابن حبيب الحنفى

كان أبو بكر رضي الله عنه لما بعث السرايا لقتال المرتدين أرسل عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه في عسكر الى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة التميمي وقيل الكندي وكان حليفا لبني زهرة رضي الله عنها فعجل عكرمة فواقاهم فنكبوه فانهزم وأقام شرحبيل بالطريق حين أدركه الخبر وكتب عكرمة لأبي بكر بالخبر فكتب اليه أبو بكر ان لا ترجع فتوهن الناس امض الى قتال أهل عمان ومهرة وكان قد أرسل الى قتالهم حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة فأمر عكرمة باللحاق بهما ثم لما جاء خالد الى المدينة بعد قصة مالك ابن نويرة أمره بالمسير الى اليمامة لقتال مسيلمة بن حبيب ومسيلمة من بني حنيفة وهي قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وكان مسيلمة رئيسا في قومه فقدم مع وفد بني حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم واجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يجعل له الامر بعده وكان في يد النبي صلى الله عليه وسلم عسيب من سعف النخل فقال لمسيلمة لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتكه فلما رجع الى اليمامة ارتد عدو الله وادعى النبوة وقال اني أشركت في الامر مع محمد فاتبعه بنو حنيفة وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فاني قد أشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وبعث الكتاب مع رجلين من قومه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ كتابه أتشهدان اني رسول الله قالا نعم قال أتشهدان ان مسيلمة رسول الله قالا نعم اشترك معك في الامر فقال أما والله لولا ان الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ثم كتب الى مسيلمة في جوابه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك فلما جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفاه وكتب عن رسول الله كتابا زعم أنه وصله بثبوت الشركة بينهما وأخرج ذلك الكتاب الى قومه فافتتنوا بذلك وكان ذلك في آخر السنة العاشرة من الهجرة قال الزمخشري في ربيع الابرار قال الجاحظ كان مسيلمة قبل ادعاء النبوة يدور في الاسواق التي بين دور العرب والعجم يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم ومما تعلمه من الحيل انه صب على بيضة من خل حاذق قاطع ثلاث حتى اذا مددتها استطالت واستدقت كالعلك ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الاولى فأخرجها الى قومه وهم قوم اعراب وادعى النبوة فآمن به جماعة ووضع الصلاة عن قومه وأحل الخمر

والزنا ونحو ذلك واتفق معه بنوحنيفة الا أفرادا منهم من ذوى عقولهم ومن أراد الله به الخير ثم اشتغل بتأليف سجعات يزعم أنه يعارض بها القرآن وهى ركيكة ضحكة للعقلاء منها قوله الفيل ماالفيل وما أدراك ماالفيل له ذنب وثيل ومشفر وخرطوم طويل ان ذلك من خلق ربنا لقليل ومنها قوله ياضفدع كم تنقنقين اعلاك من الماء واسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين وروى ياضفدع بنت ضفدعين لحسن ماتنقنقين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين امكثى في الارض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لايعدلون وسجع اللعين على سورة انا أعطيناك الكوثر فقال انا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر ان مبغضك لفاجر وفي رواية انا أعطيناك الجماهر فخذ لنفسك وبادر واحذر ان تحرص أو تكاثر وفي رواية انا أعطيناك الكواثر فصل لربك وبادر في الليالى الفوادر ولما سمع اللعين والنازعات غرقا قال والزارعات زرعا فالحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطابخات طبخا والخافرات حفرا والخابزات خبزا فالثاردات ثردا فاللاقمات لقما والآكلات أكلا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر وله غير ذلك مما يدل على سخافة عقله وعقل من صدقه واتبعه روى ان امرأة أتت مسيلمة فقالت ادع الله لنا ولنخلنا ولمائنا فان محمدا دعا لقومه لجاشت آبارهم وكثر ماؤها قال كيف صنع قالت دعا بسجل فدعالهم فيه ثم تمضمض ومج فيه فأفرغوه في تلك الآبار ففعل مسيلمة كذلك فغارت تلك المياه ولما سمع اللعين ان النبى صلى الله عليه وسلم تفل في عين على رضى الله عنه وكان ارمد فبرئ تفل في عين بصير فعمى ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها ويبس ضرعها وحفرت بنو حنيفة بئرا فاعذبوها متاحا فجاؤا الى مسيلمة وطلبوا منه أن يأتيهاوانيبارك فيها فأتاها فبصق فيها فعادت أجاجا وتوضأ مسيلمة في حائط فصب وضوءه فيه فلم ينبت وقال له رجل بارك على ولدى فان محمدا يبارك على أولاد أصحابه فلم يؤت بصبي مسح مسيلمة رأسه أو حنكه الا قرع أو لثغ وجاءه رجل فقال ياأبا ثمامة انى ذو مال وليس لى مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود وهو ابن عشرين ولى مولود ولد أمس أحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره فقال سأطلب لك الذى طلبت فجعل عمر المولود أربعين سنة فرجع الرجل الى أهله مسرورا فتردى الاكبر في بئر ووجد الصغير ينزع في الموت فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعا فقالت أمهما فلا والله مالأبى ثمامة عند الهه مثل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم وكان مسيلمة قبيح الخلقة وذميم الصورة

وصفته على عكس صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزعم ان جبريل يأتيه بالوحي وكان اسمه هارون بن حبيب وكنيته أبو ثمامة ولقبه مسيلمة وكان يقال له رحمن اليمامة قيل انه كان يقول ان الذي يأتيه اسمه رحمن وقيل انه من باب تعنتهم في كفرهم ولما فرغ خالد من البطاح ورجع الى المدينة ورضي عنه أبو بكر رضي الله عنه بعثه الى مسيلمة فتعجل الى البطاح وأمده أبو بكر رضي الله عنه بالرجال فانتظر البعوث حتى قدمت عليه فنهض الى اليمامة وكان جيشه أربعة آلاف وكان أهل اليمامة أربعون ألف مقاتل ولما بلغهم دنو خالد بن الوليد رضي الله عنه خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا اليهم واقبل خالد وجعل على مقدمته شرحبيل بن حسنة فهجم عليه من أصحاب مسيلمة ليلة سرية أربعون أو ستون فبض المسلمون عليهم وقتلوهم ثم سار خالد ونازل بني حنيفة واشتد الحرب ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط وتدامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالا شديدا وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين وتارة للكافرين ثم أنزل الله نصره على المسلمين حتى الجؤا بني حنيفة الى حديقة احتشدوا فيها فدخلها المسلمون عليهم وقاتلوهم أشد القتال فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي مولى جبير بن مطعم الذي قتل حمزة رضي الله عنه ورجل من الانصار اما وحشي فدفع اليه حربته فوقعت بين ثدييه وضربه الانصاري بسيفه واختلف في هذا الانصاري فقيل هو ابو دجانة وقيل هو عبد الله بن زيد قال ابن عمر فصرخ رجل وقال قتله العبد الأسود وقالت جارية على ظهر بيت وا أمير المؤمنين قتله العبد الاسود فولت بنو حنيفة عند قتله مهزومة وأخذهم السيف من كل جانب ثم بقي منهم جماعة بالحصون فصالحهم خالد على كل شيء دون النفوس وفي رواية فصالحهم على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ونصف السبي وكان وحشي يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الاسلام يعني حمزة ومسيلمة وفي تاريخ ابن الوردي لما عزى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة حين قتله وحشي باحد قال بعضهم ويل لوحشي من النار فقال صلى الله عليه وسلم أما حمزة فأجله قد انقضى وأما وحشي فسوف يدرك الشرف من بعده فقالوا كيف يا رسول الله قال هو يقتل مسيلمة الكذاب فكان كما قال صلى الله عليه وسلم واستشهد في هذه الوقعة كثير من مشاهير المهاجرين والانصار وفضلاء الصحابة يطول الكلام بتعداد اسمائهم وجملة من قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلثمائة وستون ومن المهاجرين من غير المدينة ثلثمائة رجال ومن بقية المسلمين سبعمائة فجملة من استشهد من المسلمين ألف ومائتان وقيل ألف وخمسمائة ومن المشركين نحو عشرين ألفا فتل

منهم في الحديقة فقط سبعة عشر ألفا كما في تاريخ ابن خلدون وكانت هذه الوقعة في ربيع الأول من سنة ثنتى عشرة من الهجرة كذا في تاريخ الخميس والذى يقتضيه تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون أنها كانت في أواخر السنة الحادية عشر لأنهم ذكروا ان مسير خالد الى العراق في أول سنة ثنتى عشرة وكان ذلك بعد فراغه من قتال أهل اليمامة وكان القتال يوما كاملا من بكرة النهار الى بعد العصر وقاتل خالد بن الوليد في ذلك اليوم قتالا شديدا وكان يقول شهدت عشرين زحفا فلم أر قوما اصبر لوقع السيوف ولا اضرب بها ولا اثبت اقداما من بنى حنيفة يوم اليمامة وقال أبو برزة الاسلمى لقد اقتحم خالد حتى اعذر وصبر حتى ظفر وقال رافع بن خديج خرجنا ونحن أربعة آلاف فانتهينا الى اليمامة فنتهى الى قوم هم الذين قال الله فيهم ستدعون الى قوم أولى بأس شديد ثم ان الله بمنه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر وكان مع المسلمين امرأة وهى أم عمارة نسيبة بنت كعب الانصارية وهى والدة عبد الله بن زيد الذى قتل مسيلمة مع وحشى وشهدت أمه ذلك اليوم وقطعت يدها في ذلك القتال وكانت أم عمارة هذه جاءت الى أبى بكر رضى الله عنه لما تجهز القوم للخروج واستأذنته في الخروج فقال لها أبو بكر رضى الله عنه ما مثلك يحال بينه وبين الخروج قد عرفناك وعرفنا جرائتك في الحرب فاخرجى على اسم الله وكان مسيلمة قبل خروجهم قد ظفر بابن لها وهو حبيب بن زيد وكان مقبلا من عمان يريد المدينة فسمع به مسيلمة فأرسل من قبض عليه وجيء به أسيرا فقال له مسيلمة أتشهد انى رسول الله فقال لا أسمع فقال له أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فأمر به فقتل وكان كلما قال أتشهد انى رسول الله قال لا أسمع فاذا قال أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم حتى تطعه عضوا عضوا حتى قطع يديه من المنكبين ورجليه من الوركين ثم أحرقه بالنار وهو في كل ذلك لا ينزع عن قوله ولا يرجع عما بدأ به حتى مات في النار فخرجت أمه مع القوم لتأخذ بثار ابنها فلما انتهوا الى اليمامة فكانت تقاتل مع المسلمين قالت فلما انتهينا الى الحديقة ازدحمنا على الباب فاقتحمنا فضاربناهم ساعة وجعلت أقصد عدو الله مسيلمة لان أراه ولقد عاهدت الله لئن رأيته لأكذب عنه أو اقتل دونه وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف وخرس القوم فلا صوت الاوقع السيوف حتى بصرت بعدو الله فشددت عليه وعرض لى منهم رجل فضرب يدى فقطعها فوالله ماعرجت عليها حتى انتهيت الى الخبيث وهو صريع قد قتله ابنى عبد الله وفي رواية وابنى يمسح سيفه بثيابه فقلت أقتلته قال نعم ياامه فسجدت شكرا لله تعالى وقطع الله

دابرهم فلما انقطعت الحرب، رجعت الى منزلي جاءني خالد بن الوليد بطبيب من العرب فداواني بالزيت المغلي وكان والله أشد عليّ من القطع وكان خالد كثير التعاهد لي حسن الصحبة لنا يعرف لنا حقنا ويحفظ فينا وصية نبينا وعن محمد بن يحيي بن حبان قال جرحت أم عمارة يوم اليمامة أحد عشر جرحا بين ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وقطعت يدها سوى ذلك ولما قدمت المدينة كان أبو بكر رضي الله عنه يأتيها ويسأل عنها وهو يومئذ خليفة وممن استشهد يوم اليمامة ثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاخر به وفود العرب اذا قدموا عليه يفتخرون بفصاحة خطبائهم وكان يوم اليمامة معه راية الانصار ولما استشهد ودفنه المسلمون سمعوه حين ادخلوه في قبره يقول محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم فنظروه فاذا هو ميت ذكر ذلك القاضي عياض في الشفا وبعد وفاته رآه رجل من المسلمين في منامه يقول له اني موصيك بوصية فاياك أن تقول هذا حلم فتضيعه أني لما قتلت بالامس جاء رجل من ضاحية نجد وعلم درعي فأخذها وأتى بها منزله فأكفأ عليها برمته وجعل على البرمة رحلا وخباؤه في أقصى العسكر الى جنب خبائه فرس أبلق يستن في طوله فأت خالد بن الوليد فأخبره فليبعث الى درعي فليأخذها واذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ان علي من الدين كذا ولي من الدين كذا وسعد ومبارك غلاماي حران فاياك أن تقول هذا حلم فتضيعه فلما أصبح الرجل أتى خالدا رضي الله عنه فأخبره فبعث خالد الى الدرع فوجدها كما قال وأخبره بوصيته فأجازها ولا نعلم ان أحدا من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته الا ثابت بن قيس بن شماس وقد روى ان بلال بن الحارث رضي الله عنه كان صاحب الرؤيا ولما انقضى القتال اجتمع خالد بن الوليد ببعض أهل اليمامة وسألهم عن اسجاع مسيلمة فقصوها عليه فقال سبحان الله هذا الكلام ماخرج من أل ولا بر فأين يذهب بكم عن أحلامكم وقال أبو بكر رضي الله عنه في حق أهل اليمامة لن يزالوا من كذابهم في بلية الى يوم القيامة الا أن يعصمهم الله تعالى وقصة يوم اليمامة طويلة وقع فيها عجائب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانت معجزات له صلى الله عليه وسلم وكرامات لهم وكلها مذكورة في التواريخ وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم والكلام على بقية أهل الردة الذين قاتلهم غير خالد بن الوليد سيأتي الكلام عليه مؤخرا بعد اتمام الكلام على غزوات خالد بن الوليد بالمشرق والعراق

من المضيخ واجتمع بالثنى فبيتوا القوم وأغاروا عليهم من ثلاثة أوجه وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر وغنم وسبي ولما انهزم من كانوا بالمضيخ كان فيهم الهذيل بن عمران فلحق بجندهم كان بالبشر في عسكر ضخم فبيتهم خالد بغارة شعواء وقتل منهم قتلة عظيمة وقسم الغنائم وبعث الخمس الى أبي بكر رضى الله عنه ثم سار خالد الى الرضاب وبها جمع من نصارى العرب فهربوا وتفرقوا لما سمعوا بمسير خالد فوصل اليها خالد ولم يلق كيدا

ذكر وقعة الفراض

ثم سار خالد من الرضاب الى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة وافطر بها رمضان لاتصال الغزوات وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من الفرس فأعانوهم واجتمع معهم من العرب تغلب واياد والنمر وساروا الى خالد واقتتلوا بالفراض قتالا عظيما وانهزمت الروم ومن معهم وأمر خالد المسلمين ان لا يرفعوا عنهم السيف فقتل في المعركة وفي الطلب مائة ألف واقام خالد بالفراض عشرا ثم آذن بالرجوع الى الحيرة لخمس بقيت من ذى القعدة وخرج هو من الفراض حاجا سرا ومعه عدة من أصحابه يعسف البلاد فأتى مكة وحج ورجع فما نوا في جنده بالحيرة حتى وافاهم ولم يعلم بحجة الا من أعلمه ولم يعلم بذلك أبو بكر رضى الله عنه الا بعد رجوعه فعتب عليه في ذلك وكانت عقوبته اياه ان صرفه الى الشام من العراق ممدا جموع المسلمين باليرموك وكانت غزواته هذه كلها في أقل من سنة لانه توجه الى العراق في المحرم سنة ثنتي عشرة كما تقدم ولنذكر بقية الكلام على قتال أهل الردة الذى جرى من الامراء غير خالد بن الوليد ثم نرجع لما كان في فتوح الشام

ذكر ردة بني عامر وهوازن وسليم

كانت بنو عامر تقدم الى الردة رجلا وتؤخر أخرى وتنظر أمر طليحة وما تصنع بنو أسد وغطفان حتى أحيط بهم واوقع بهم خالد بن الوليد وكان رؤساء بنى عامر قرة بن هبيرة وعلقمة بن علاثة وكان علقمة اسلم ثم ارتد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولحق بالشام بعد فتح الطائف فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم أقبل مسرعا حتى عسكر في بنى كعب فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه فبعث اليه سرية عليها القعقاع بن عمرو فأغار على الماء الذى عليه علقمة وكان لا يبرح الا مستعدا فسابقهم على فرسه فسبقهم واسلم أهله وولده فأخذهم القعقاع وقدم بهم على أبى بكر رضى الله عنه فجحدوا أن يكونوا على ما كان علقمة ولم يبلغ أبا بكر رضى الله عنه انهم فارقوا دارهم وقالوا له ماذنبنا فيما صنع علقمة فارسلهم ثم أسلم علقمة فقبل ذلك منه واقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن

بالله ورسوله وأتوا خالد بن الوليد فبايعهم على مابايع أهل بزاخة واعطوه بايديهم على الاسلام ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطى وسليم وعامر الا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على الاسلام في حال ردتهم فأتوه بهم فمثل بهم وحرقهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم من الآبار وأرسل الى أبي بكر رضى الله عنه يعلمه واما قرة بن هبيرة فكان قد لقى عمرو بن العاص رضى الله عنه منصرفه من عمان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فقال لعمرو اتركوا الزكاة فان العرب لاتدين لكم بالاتاوة فغضب عمرو واسمعه كلاما وابلغ ... أبا بكر رضى الله عنه فكتب الى خالد بذلك نقبض على قرة بن هبيرة وبعث به الى أبي بكر فأسلم واعتذر نقبل ذلك منه أبو بكر وحقن دمه ثم اجتمع قبائل من غطفان وهوازن وطى واسد الى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر في الجوءب وبلغ ذلك خالدا بعد فراغه من أهل بزاخة فقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقر وقتلت وقتل حول هودجها مائة رجل فانهزموا واما بنو سليم فكان الفجاه بن عبد ياليل قدم على أبي بكر رضى الله عنه يستعينه مدعيا اسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره فخرج الى الجون وارتد وبعث نجبة بن أبي المثنى من بني الشريد وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن فبعث أبو بكر الى طريفة بن حاجز وعبد الله بن قيس الجاسي فنهضا اليه ولقياه فقتل نجبة وهرب الفجاه فلحقه طريفة فأسره وجاء به الى أبي بكر رضى الله عنه فأوقد له في مصلى المدينة حطبا ثم رمى به في النار مقموطا وفات بنو سليم كلهم ودخلوا في الاسلام وكان منهم أبو شجرة بن عبد العزى السلمي وهو ابن الخنساء وكان قد ارتد وقال شعرا منه قوله

فرويت رمحي من كتيبة خالد * واني لارجو بعدها ان اعمرا

يعني عمر بن الخطاب فاما أسلم قبل أبو بكر رضى الله عنه منه الاسلام فلما كانت خلافة عمر رضى الله عنه قدم المدينة فرأى عمر يقسم مالا في المساكين فقال اعطني فاني ذو حاجة فقال ومن أنت فقال أبو شجرة بن عبد العزى السلمي قال أى عدو الله لاوالله ألست الذى تقول

فرويت رمحي من كتيبة خالد * واني لارجو بعدها ان اعمرا

وجعل عمر يعلوه بالدرة على رأسه فسبقه عدوا الى ناقته فركبها ولحق بقومه وقال أبياتا منها قوله

ضن علينا أبو حفص بنائله * وكل مختبط يوما له ورق

﴿ ذكر ردة أهل البحرين ﴾

كانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى الى الاسلام وكان قد أسلم ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجع الى قومه دعاهم الى الاسلام فأسلموا فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ارتدوا وقالوا لوكان نبيا مامات فقال لهم الجارود تعلمون ان لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون انهم ماتوا ومحمد صلى الله عليه وسلم قد مات وانا أشهد أن لااله الا الله وان محمدا رسول الله فأسلموا وثبتوا على اسلامهم واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة الا الجارود ومن تبعه وخرج الحطم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة في بكر بن وائل فاجتمع اليه كثير من المرتدين وكثير ممن لم يزل مشركا حتى نزل القطيف وهجر اسم موضع واستغوى من بهما وبعث بعثا الى دارين والى جواثا فحصر المسلمون واشتد الحصر على من بهما فبعث أبو بكر رضى الله عنه العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه لقتال أهل الردة بالبحرين ومعه جموع من المسلمين فنزل هجر وبعث الى الجارود ان ينازل بعبد القيس الحطم بن ضبيعة وخندق العلاء والمسلمون على أنفسهم وقاتلوا المرتدين وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون الى خندقهم فكانوا كذلك شهرا وسمعوا في بعض الليالى ضوضاة شديدة أى جلبة وصياحا في المشركين فبعثوا من يأتيهم بالخبر فجاءهم بأن القوم سكارى فبيتوهم ووضعوا السيوف فيهم وفر القوم هرابا واقتحموا الخندق فمن بين مترد وناج ومقتول ومأسور وأبادوا القوم وكفى الله شرهم وقسموا الغنائم ثم ندب العلاء الناس الى دارين وقال لهم قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر فانهضوا الى عدوكم واستعرضوا البحر وارتحل وارتحلوا وكان بينهم وبين دارين البحر فاقتحموا البحر على الخيل والابل والحمير وغير ذلك وفيهم الراجل ردعا ودعوا وكان من دعائهم ياأرحم الراحمين يا كريم ياحليم ياأحد ياصمد ياحى يامحيي الموتى ياحي ياقيوم لااله الا الله أنت ياربنا فاجتازوا ذلك الخليج باذن الله يمشون على مثل رملة فوقها مايغمر اخفاف الابل وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن البحر فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فظفر المسلمون وانهزم المشركون واكثر المسلمون فيهم القتل فما تركوا بها مخبرا وغنموا وسبوا فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا كما جاؤا وضرب الاسلام بجرانه فيها وكتب العلاء الى أبى بكر رضى الله عنه يعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم بن ضبيعة ولما قسمت الغنيمة كان للفارس ستة آلاف وللراجل ألفان وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فأسلم فقيل له ماحملك على الاسلام قال ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها فيض في الرمال

وتمهيد تسبيح البحر ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرا اللهم أنت الرحمن الرحيم لااله غيرك البديع فليس قبلك شئ والدائم غير الغافل الحي الذي لايموت وخالق مايرى وما لايرى وكل يوم أنت في شان علمت كل شئ بغير معلم فعلمت ان القوم لم يمانوا بالملائكة الا وهم على حق فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسمعون هذا منه بعد والعلاء بن الحضرمي صحابي مشهور توفي سنة أربع عشرة من الهجرة وكان مجاب الدعوة وأصله من حضرموت ونزل جده مكة وكان حليفا لحرب بن أمية وكان له في هذه الغزوة آثار محمودة وكرامات كثيرة منها انهم سلكوا مفازة وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعلى ياعظيم اسقنا فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وأمطرت حتى ملؤا الآنية وسقوا الركاب قال الراوى ثم انطلقنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم وفي رواية أتينا على خليج من البحر ماخيض فيه قبل ذلك اليوم فلم نجد سفنا وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعلى ياعظيم أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال جوازا باسم الله قال أبو هريرة وكان مع القوم فمشينا على الماء فوالله مابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر وكان الجيش أربعة آلاف وقال ابراهيم بن أبي حبيبة حبس لهم البحر حتى خاضوا اليهم وجاوزه العلاء وأصحابه مشيا على أرجلهم وكانت تجرى فيه السفن قبل

ذكر ردة أهل عمان والمهرة

كان على أهل عمان والمهرة عاملان للنبي صلى الله عليه وسلم جيفر وعياذ أبناء الجلندى فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم قام بعمان رجل من الازد يقال له لقيط بن مالك الازدى فارتد وادعى النبوة وتغلب على عمان ودفع عنها الملكين فبعث جيفر الى أبى بكر بالخبر فبعث أبو بكر رضى الله عنه حذيفة بن محصن الحميرى الى عمان وعرفجة البارقى الى المهرة وأمرهما ان يكاتبا جيفرا و يأخذا برأيه وكان قد بعث عكرمة بن أبي جهل الى اليمامة ومسيلمة ووقعت عليه النكبة كما مر فأمره بالمسير الى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان والمهرة ويتوجه اذا فرغ من ذلك الى اليمن فمضى عكرمة فلحق بهما قبل ان يصلا عمان وقد عهد اليهم أبو بكر ان ينتهوا الى رأى عكرمة فراسلوا جيفرا وعياذا وبلغ لقيطا المتغلب مجىء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعياذ بصحار واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكاتبوا رؤساء الذين تقدموا بجيوشهم ثم عمدوا الى لقيط وأصحابه فقاتلوهم وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم

من بنى ناجية وعليهم الحريث بن راشد من بنى عبد القيس وسيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون وقتلوا من العدو بنحو عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء وتم الفتح وقسموا الغنائم وبعثوا بالخمس الى أبى بكر رضى الله عنه وكان الخمس ثمانمائة رأس وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة الى المهرة فهزمهم وقتل رئيسهم وأصابوا منهم ألفى نجيبة وأجاب أهل تلك النواحي الى الاسلام و بعث الى أبى بكر رضى الله عنه بالفتح ثم سارعوا الى اليمن

ذكر ردة أهل اليمن

لما ظهر الاسود العنسى وادعى النبوة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من أهل اليمن ثم لما قتل فيروز الديلمى الاسود العنسى رجع كثير منهم الى الاسلام فلما جاءهم خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد الناس الا القليل وكان أبو بكر رضى الله عنه أقام فيروزا الديلمى أميرا على صنعاء فكان يقاتل كل من قدر على قتاله وكان باليمن عمال للنبي صلى الله عليه وسلم أقامهم قبل وفاته منهم عمرو بن حزم على نجران للصلاة ومعه أبو سفيان بن حرب على الصدقات وعلى مابين زمع وزبيد ونجران خالد بن سعيد ابن العاص وعلى همدان كلها عامر بن شهر الهمدانى وعلى الجند يعلى بن أمية وعلى مارب أبو موسى الاشعرى وعلى وعك الطاهر بن أبى هالة وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضى وعكاشة بن ثور الغوثى وعلى كندة المهاجر بن أبى أمية المخزومى وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن ينتقل على هؤلاء وهؤلاء في أعمالهم فلما ارتد الناس رجع عمرو بن حزم الى المدينة واتبعه خالد بن سعيد وأما المهاجر بن أبى أمية فانه لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على كندة مرض ولم يصل اليها وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه وكان أبو بكر رضى الله عنه قد حارب أهل الردة أولا بالكتب والرسل ولم يرسل الى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والانصار ثم استنفر كلا على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد فكتب الى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبى العاص بالطائف بركوب من لم يرتد على من ارتد وكان قد اجتمع بتهامة أوباش من مدلج وخزاعة فبعث عتاب اليهم ففرقهم وقتلهم واجتمع بشنوءة جمع من الازد وخثعم وبجيلة فبعث اليهم عثمان بن أبى العاص من فرقهم وقتلهم واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والاشعريين فسار اليهم الطاهر بن أبى هالة ومعه مسروق العكى فهزموهم وقتلوهم وأقام بالاجناد ينتظر أمر أبى بكر ومعه مسروق العكى وبعث أبو بكر رضى الله عنه الى نجران وكتب أبو بكر الى عثمان

ابن أبي العاص ان يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف فضرب على كل مخلاف عشرين وأمر عليهم أخاه عبد الرحمن وكتب الى عتاب بن أسيد ان يضرب على مكة وعملها خمسمائة رجل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد وأقاموا ينتظرون أمر أبي بكر رضي الله عنه فأمر المهاجر بن أبي أمية المخزومي ان يسير الى اليمن ليصلح من أمره ثم يسير الى عمله الذي ولاه النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بقتال من بين نجران واقصى اليمن ففعل ذلك ومر بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما ومر بجرير بن عبد الرحمن وعكاشة بن ثور فضمهما اليه وكان عمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح ممن ارتدا فظفر بهما المهاجر فاوثقهما وبعث بهما الى أبي بكر فتابا فقبل توبتهما وردهما وسار المهاجر وقتل كل من ظفر به من المرتدين وقاتل من قاتله وقبل توبة من يتوب الى ان وصل الى صنعا وكتب الى أبي بكر بدخوله صنعا فجاء الجواب ان يسير الى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من المهرة والازد وناجية وعبد القيس وغيرهم فساروا مع المهاجر الى كندة وكتب زياد النائب على كندة الى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمفازة بين مارب وحضرموت فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل الى زياد وشدوا الى كندة وكانوا قد ارتد كثير منهم وارتد الاشعث بن قيس الكندي فجعلوه أميرا عليهم فقاتلهم المهاجر وهزمهم وقتل كثيرا منهم وفروا الى النجير حصن لهم فتحصنوا فيه مع من استغووه فحاصروهم وسدوا عليهم الطريق وقطعوا عنهم المدد ولحق عكرمة المهاجر وهم محاصرون القوم ثم استأمن الاشعث الى عكرمة فخرج اليه فجاء به الى المهاجر فأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه كانوا خرجوا معه فقال لهم المهاجر اكتبوا ماشئتم وهاتوا الكتاب حتى أختمه واشترطوا على أنفسهم ان يفتحوا لهم باب الحصن ففعلوا فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية والنساء فكان في السبي ألف امرأة وكان الاشعث بن قيس لما كتب الصحيفة وختم عليها المهاجر كتب التسعة ونسي ان يكتب نفسه فلما فرغوا من القتل والسبي طلب المهاجر الصحيفة التي كتبوها والتي ختم عليها فاذا الاشعث ليس مكتوبا معهم فقال المهاجر الحمد لله الذي أخطأك نوءك يا أشعث يا عدو الله قد كنت اشتهي ان يخزيك الله وشدد كتافه فقال له أخره وسيره الى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه فسيره الى أبي بكر مع السبي فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه عرف النار وهو اسم الغادر عندهم فلما قدم المدينة قال له أبو بكر ماتراني أصنع بك قال لاأعلم قال فاني أقتلك قال فما الذي راوصت

القوم في عشرة فما يحل دمي قال أبو بكر فاوجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها وانما كنت قبل ذلك مراوضا فلما خشى القتل قال أوتحتسب في خيرا فتطلق الاسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل مافعلت بامثالي وترد على زوجتي وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأخرها الى ان يقدم الثانية فتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وارتد فان فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله فحقن دمه وزوجه أخته وحسن اسلامه وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وشهد فتح القادسية واليرموك وكان مع علي رضي الله عنه في قتال صفين وتوفي بالكوفة سنة اثنتين وأربعين من الهجرة وقيل بعد علي رضي الله عنه باربعين يوما وصلى عليه الحسن بن علي رضي الله عنهما قال ابن الاثير قد اختلف في تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين فقال ابن اسحق كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود الى الشام سنة ثنتي عشرة وقال أبو معشر ويزيد بن عياض وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ان فتوح الردة كلها لخالد وغيره كان سنة احدى عشرة وكان مسير خالد الى العراق في أول سنة ثنتي عشرة الى ذي القعدة منها وهذا القول هو الذي يدل عليه سياق تلك الوقايع

« ذكر فتوح الشام »

لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أهل الردة واستقامت له العرب حدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد فبينما هو كذلك اذ رأى شرحبيل بن حسنة في المنام صورة غزو الشام وبعث الجند فجاءه شرحبيل وجلس اليه فقال ياخليفة رسول الله أحدثت نفسك بالغزو وان تبعث الى الشام جندا قال نعم حدثت نفسي بذلك ولم يطلع عليه أحد وما سألتني الا لشيء فأخبره شرحبيل بما رأى فولاه أبو بكر بعثه جندا الى الشام ووجهها عليهم ثم انه بعد ذلك أمر الامراء وبعث الى الشام البعوث وعن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي رضي الله عنه قال لما أراد أبو بكر رضي الله عنه ان يجهز الجنود الى الشام دعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم وشاورهم وكلهم استصوبوا رأى أبي بكر رضي الله عنه وقالوا مارأيت من الرأي فأمضه فانا سامعون لك مطيعون لانخالف أمرك وعلي رضي الله عنه في القوم لايتكلم فقال له أبو بكر ماذا ترى ياأبا الحسن فقال أرى انك مبارك الامر ميمون النقيبة فانك ان سرت اليهم بنفسك أو بعثت عليهم نصرت ان شاء الله تعالى قال بشرك الله بخير ومن أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لايزال

هذا الدين ظاهرا على كل من ناواه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون فقال أبو بكر سبحان الله ماأحسن هذا الحديث لقد سررتنى سرك الله في الدنيا والآخرة ثم انه قام في الناس خطيبا ورغب الناس في الجهاد ثم أمر بلالا فاذن في الناس انفروا أيها الناس الى جهاد عدوكم الروم بالشام ثم شرع في بعث الجيوش وكان ذلك في افتتاح سنة ثلاث عشرة من الهجرة وقيل في أول السنة التى قبلها حين بعث خالد بن الوليد الى العراق وكتب الكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وغيرها فكتب لهم جميعا بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم فانى أحمد الله الذى لااله الا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد عزمت ان أوجهكم الى ناحية بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام فليبادر الى طاعة الملك العلام ثم كتب انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ثم بعث الكتب اليهم وأقام ينتظر قدومهم وكان الذى بعثه بالكتب التى لليمن أنس بن مالك رضى الله عنه فما مرت الايام حين قدم أنس رضى الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال ياخليفة رسول الله وحقك على الله ماقرأت كتابك على أحد الا بادر لطاعة الله ورسوله وأجابوا دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد وقد أقبلت اليك ياخليفة رسول الله مبشرا بقدوم الرجال فسر أبو بكر رضى الله عنه بقوله سرورا عظيما ثم عقد الالوية وأمر الامراء وبعثهم الى الشام أفواجا يتبع بعضهم بعضا كلما اجتمع جماعة أمرهم بالتوجه فمن الامراء الذين عقد لهم الالوية أبو عبيدة ابن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وربيعة بن عامر وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وغيرهم وجعل كل واحد أميرا على جماعة وأمره بالتوجه الى الموضع الذى عينه له وجعل أبا عبيدة أميرا على الجميع وكلما توجه أمير يودعه أبو بكر رضى الله عنه ويوصيه فكان يوصيهم بوصايا كثيرة منها تقوى الله وحسن الصحبة والمواظبة على الصلوات في أوقاتها جماعة وان يصلح كل منهم نفسه حتى يصلح الله له الناس وان يكرموا رسل العدو اذا قدموا اليهم وان يقللوا لبثهم عندهم حتى يخرجوا من عسكرهم وهم جاهلون لم يطلعوا على شئ من الخلل وان يمنعوا عسكرهم من محادثتهم وان يكون الامير هو المتولى لكلامهم وان يكثروا الحرس ويفرقوهم في العسكر وان يكثروا مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم فمن وجدوه غفل يعاقب بغير افراط وان يعاقب بينهم في الليل ويجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسرهما لقرب الاخيرة من النهار وان لاينقلوا عن العسكر فيفسدوا ولا يجسسوا عايبهم فيفضحوهم ولا يكشفوا على الناس أسرارهم بل يكتفوا بعلانيتهم وان يكثروا

من مجالسة أهل الصدق والوفاء وان يشاوروهم وان لايجبنوا فيجبن الناس وان يجتنبوا الغلول فان الغلول يقرب الفقر ويدفع النصر وقال ستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له الى غير ذلك مما أوصاهم به وكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو لهم اذا خرجوا فمن دعائه اللهم احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم واحطط أوزارهم واعظم أجورهم ولما بلغ هرقل مسير جيوش المسلمين حشد جيوشه وكان بفلسطين فحث الناس وحرضهم على القتال عن دينهم وبلادهم ثم أتى دمشق ففعل مثل ذلك ثم أتى حمص ففعل مثل ذلك ثم أتى انطاكية فأقام بها وبعث الى الروم فحشدهم فجاء منهم مالا يحصى ولما دنى أبو عبيدة من الجابية أتاه آت فأخبره ان هرقل بانطاكية وانه جمع من الجموع مالم يجمعه أحد كان قبله من آبائه فكتب الى أبي بكر رضى الله عنه بذلك فجاءه الجواب بعده بالنصر ثقة بوعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له انه ممده بالرجال ثم أمدهم بجند مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وسعيد بن عامر وبجند مع معاوية مددا لاخيه يزيد وكان الناس أقبلوا من كل جهة يريدون الجهاد فكان أبو بكر رضى الله عنه كلما اجتمع أناس بعثهم مددا لمن سبقهم

ذكر أول وقعة بالشام

أول وقعة بالشام كانت بالعربة من أرض فلسطين خرج ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمائة فكانوا ثلاثة آلاف فبعث اليهم يزيد بن أبي سفيان أبا امامة الباهلى في خمسمائة فحملوا عليهم وهزموهم وقتلوا كثيرا منهم وقائدا من قوادهم فاجتمع كثير من الروم بالدثنة فساروا اليهم فهزموهم وزحفت جيوش المسلمين حتى قربوا من الشام فعند ذلك فزع الروم وأرسلوا الى ملكهم فأمدهم بجموع كثيرة نحو تسعين ألفا فنزلوا بثنية جلق بأعلى فلسطين وعليهم أخو هرقل شقيقه ونزل هرقل بحمص وكان في جهة فلسطين عمرو بن العاص بمن معه من المسلمين وبعث هرقل ستين ألفا نحو أبي عبيدة بالجابية وبعث جيشا قريبا من ذلك نحو يزيد بن أبي سفيان وكان نازلا بالبلقاء وجيشا نحو شرحبيل بن حسنة وكان نازلا ببصرى فرأى المسلمون ان الاجتماع اليق بهم من التفرق فاجتمعوا باليرموك وهو واد بناحية الشام وجاء الروم أيضاً واجتمعوا باليرموك وصار الوادى خندقا لهم وأقام الجميع شهر صفر وشهرى ربيع لا يقدرون منهم على شئ من الوادى والخندق ولا يخرج الروم خرجة الا أخذهم المسلمون واديلوا عليهم فكانت بينهم وقعات ومناوشات في تلك المدة ولما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر رضى الله عنه فكتب الى خالد بن الوليد وهو بالعراق

يأمره بالمسير اليهم وان يأخذ نصف الناس الذين عنده ويستخلف على النصف الآخر المثنى ابن حارثة الشيباني فسار خالد من العراق في تسعة آلاف وقيل في ستة وأغار في طريقه على كثير من المشركين وأخذهم وناله مشقة كثيرة في مسيره هذا وسار في مفاوز ليس فيها ماء فأمر صاحب كل جماعة ان يعطشوا بعض الابل المسنة ثم يسقوها الماء عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ساروا يوما وليلة وشقوا بطون عشرة من الابل فمزجوا مافي كرشها من الماء بما كان من الالبان وسقوا ذلك للخيل فعلوا ذلك أربعة أيام ولما وصل ثنية العقاب وهي من أرض الشام ناشرا رايته وهي راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب اغار على غسان وهم من نصارى العرب الذين بالشام فضجهم وقتل وسبى وارسل سرية الى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال الى خالد ثم سار حتى وصل الى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم ثم صالحهم فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد واهل العراق وقيل ان فتح بصرى كان بعد اليرموك ثم سار خالد فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب لخالد ان يسير من العراق الى الشام ويلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين فاذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام فكتب خالد كتابا لابي عبيدة وارسله مع عمرو بن الطفيل الازدي وفيه أما بعد فأني اسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني بالمسير الى الشام وبالقيام على جندها والتولي لامرها والله ماطلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته فأنت على حالك التي كنت عليه لانعصيك ولا نخالفك ولانقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لاننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من احسان ورحمنا واياك من صلى النار والسلام عليك ورحمة الله وبركاته فلما قرأ ابو عبيدة كتاب خالد قال بارك الله لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رأى وحيا الله خالدا وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب لابي عبيدة رضي الله عنه أما بعد فاني قد وليت خالدا قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فاني لم أبعثه عليك ان لاتكون عندى خيرا منه ولكني ظننت ان له فطانة في الحرب ليست لك أراد الله بنا وبك خيرا والسلام

ذكر وقعة اليرموك

لما وصل خالد بن الوليد وتكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا تسعة وثلاثين ألفا سوى ستة ألف مع عكرمة بن أبي جهل وقيل كانوا ستة وثلاثين ألفا سوى من كان مع عكرمة

فيكونون جميعا أربعين ألفا وكان فيهم ألف صحابى منهم نحو مائة ممن شهد بدرا وكان الروم
في مائتى ألف وأربعين الف مقاتل منهم ثمانون الف مقيد واربعون الف مسلسل للموت
واربعون الف مربوط بالعمائم لئلا يفروا وثمانون الف راجل وكان قتال المسلمين لهم
على التساند كل أمير على أصحابه لم يجمعهم أحد حتى تدم خالد من العراق وكان القسيسون
والرهبان يحرضون الروم شهرا ثم خرجوا الى القتال الذى لم يكن بعده قتال في جمادى
الآخرة فلما احس المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين كما كانوا قبل ذلك فمنعهم
خالد وسار فيهم فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا
البغى احلصوا فيه جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على
نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لايحل ولا ينبغى وان من ورائكم لو يعلم علمكم حال
بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه رأى قالوا هات فما الرأى قال ان
أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى انا سنتياسر ولو علم بالذى كان لما جمعكم ان الذى أنتم فيه أشد
على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا قد فرقت
بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لاينتقصه منه ان دان من الامراء ولا يزيد
عليه أن دانوا له ان تأمير بعضكم لاينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم هاموا فان هؤلاء قد تهيؤا وان هذا يوم له مابعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم
لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعده فهلموا فلنتناوب الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر
غدا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعونى اتأمر اليوم فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم
فخرجت الروم في تعبية لم ير الراؤن مثلها قط وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل
ذلك فخرج في ستة وثلاثين كردوسا فجعل القلب كراديس وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة
كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها
يزيد بن أبي سفيان وجعل القعقاع بن عمرو على كردوس وجعل على كل كردوس رجلا
من الشجعان وكان القاضى أبو الدرداء والقاص أبو سفيان بن حرب وعلى الطلايع
قباث بن اشيم وعلى الاقباض عبد الله بن مسعود وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل
المسلمين فقال خالد ما أكثر المسلمين وأقل الروم انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان
والله لوددت ان الاشقر يعنى فرسه برآ من توجيه وانهم اضعفوا في العدد وكان فرسه قد حفى
في مسيره فأمر خالد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس
وتطارد الفرسان وتقاتلوا فاذهم على ذلك تدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم

فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد مع انه انما جاء بخبر وفاة أبي بكر رضي الله عنه واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وولاية أبي عبيدة فبلغه خالدا وأبا عبيدة سرا وبينما هم كذلك اذ خرج فارس من فرسان الروم يقال له جرجة الى بين الصفين وطلب خالدا فخرج اليه وأمن كل منهما صاحبه فقال جرجه ياخالد اخبرني واصدقني ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم قال لا قال فبم سميت سيف الله فقال ان الله بعث فينا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم ان الله هداني فتابعته فقال أنت سيف الله سله الله على المشركين ودعا لي بالنصر قال فأخبرني الى ماتدعو قال خالد الى الاسلام أو الجزية أو الحرب قال فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم قال منزلتنا واحدة قال فهل له مثلكم من الاجر والذخر قال نعم وأفضل لاننا اتبعنا نبينا وهو حي يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحق لمن رأى مارأينا وسمع ماسمعنا أن يسلم وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا فمن دخل منكم بنية وصدق كان أفضل منا فقلب جرجة فرسه وسار مع خالد وأسلم وعلمه الاسلام واغتسل وصلى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم الى المحامية وعليهم عكرمة بن أبي جهل وعمه الحارث بن هشام رضي الله عنهما فقال عكرمة قاتلت مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أفر اليوم ثم نادى من يبايع على الموت فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الازور في أربعة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى اثبتوا جميعا جراحا فمنهم من برئ ومنهم من مات وقاتل خالد وجرجة قتالا شديدا فقتل جرجة عند آخر النهار وصلى الناس الظهر والعصر ايماء وتضعضع الروم وحمل خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسانهم وتركوا الرجالة ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للهرب افرجوا لها فتفرقت وقتل الرجالة واقتحموا في خندقهم فاقتحموه عليهم وهوى فيه المقترنون وغيرهم ثمانون ألفا من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة وتجالل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانيسهم وجلسوا فقتلوا متزملين ودخل خالد الخندق ثم نزل في خيمة تذارق أخي هرقل فلما أصبحوا أتى خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر في حلوقهما الماء وكان مع المسلمين كثير من النساء فقاتلن في ذلك اليوم قتالا كثيرا وفي السيرة الحلبية وكان أبو سفيان بن حرب في ذلك

اليوم يقاتل ويحرض المسلمين على القتال ويقول الله الله عباد الله انصروا دين الله ينصركم الله واصيبت احدى عينيه في ذلك اليوم فصار أعمى لأنه أصيبت عينه الأخرى في غزوة الطائف فجاء بها الى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يدعو الله ويردها له فقال له ان شئت دعوت الله وان شئت خيرا منها في الجنة فرمى بها وقال خيرا منها في الجنة قال أنس بن مالك رضى الله عنه رأيته في خلافة عثمان رضى الله عنه وهو أعمى يقوده قايد فيدخل به على عثمان رضى الله عنه ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميرا كما أمر على دمشق وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمر وعمه الحارث بن هشام وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وابان بن سعيد والطفيل بن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص وعياش بن أبى ربيعة وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى السهمى ونعيم بن النحام والنضير بن الحارث العبدرى أخو النضر بن الحارث الذى قتل كافرا يوم بدر وأبو الروم بن عمير العبدرى أخو مصعب بن عمير وقيل قتلوا يوم اجنادين أخرج ابن عساكر عن الزهرى ان عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه كان يوم اليرموك أعظم الناس بلاء وأنه كان يركب الاسنة ويقاتل قتالا شديدا حتى جرحت الاسنة صدره ووجهه فقالوا له اتق الله وارفق بنفسك فقال كنت أنا وأبى من أشد الناس على النبى صلى الله عليه وسلم وكنت أقاتل عن اللات والعزى فابذل نفسى لها فكيف استبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبدا قال فلم يزدد الا اقداما حتى مات يومئذ ووجدوا به بضعا وسبعين مابين ضربة وطعنة ورمية وأخرج ابن المبارك والبيهقى ان عكرمة بن أبى جهل ترجل يوم كذا يقاتل فقال خالد بن الوليد لا تفعل فان قتلك على المؤمنين شديد فقال خل عنى ياخالد فانه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة وانى وأبى كنا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى وقاتل حتى قتل وكان عكرمة يعظم القرآن غاية التعظيم وذكر الامام الغزالى في كتاب آداب تلاوة القرآن من احياء علوم الدين ان عكرمة المذكور كان اذا نشر المصحف غشى عليه ويقول هو كلام ربى هو كلام ربى وروى أبو نعيم وابن منده وابن عبد البر عن حبيب بن أبى ثابت ان الحارث ابن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبى جهل وعياش بن أبى ربيعة أخو الحارث بن هشام لامه جرحوا يوم اليرموك فلما أثبتوا دعى للحارث بن هشام بماء ليشربه فنظر اليه عكرمة فقال ادفعه الى عكرمة فلما أخذه عكرمة نظر اليه عياش فقال ادفعه الى عياش فما وصل الى عياش حتى مات ولا وصل الى واحد منهم حتى ماتوا رضى الله عنهم وهذا شأنهم كلهم في هذا الايثار

ومما يدل على ذلك أن مثل هذه القصة بعينها قد تكررت من كثير منهم فقد روى ابن المبارك عن أبي جهم بن حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لى ومعى شنة من ماء وإناء فقلت ان كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه فاذا أنا به ينشغ فقلت أسقيك فأشار أى نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضى الله عنهما فأتيته فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فأشار هشام ان انطلق اليه فجئت فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذاهو قدمات فأتيت ابن عمى فاذا هو قد مات رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وهذا الذى ذكرناه في وقعة اليرموك هو أصح الاقوال وكذا كونها في سنة ثلاث عشرة هو أصح الاقوال وأنها قبل فتح الشام وقيل بعد وقعة اجنادين وبعد فتح الشام وان وقعة اليرموك واجنادين كانا سنة خمس عشرة وقيل في وقعة اليرموك ان جيش الروم كان ستمائة ألف وقيل ألف ألف وكان مع الروم من العرب المتنصرة ستون ألفا من غسان ولخم وجذام وان القتال كان بين المسلمين ومتنصرة العرب فلما هزموا زحف الروم بجيوشهم ودام الحرب اياما كثيرة الى أن تمت الهزيمة على الروم وكان القتلى من الروم لايحصى عددهم وقيل كانوا مائة ألف وخمسة آلاف والاسرى كانوا أربعين ألفا وان قتلى المسلمين أربعة آلاف ولما قسمت الغنائم أصاب الفارس أربعة وعشرين ألف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة واتبع خالد بن الوليد المنهزمين من الروم الى قريب دمشق الشام ومعه كثير من المسلمين يقتلون ويأسرون فيهم وكانت وقعة اليرموك من أعظم وقائع الاسلام ومن المعجزات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أعلم

- ﴿ ذكر وقعة أجنادين ﴾ -

الاكثرون على أنها بعد اليرموك وقيل انها كانت قبل اليرموك وحاصلها ان الروم اجتمع كثير من جنودهم قيل انهم كانوا تسعين ألفا بأجنادين فسار لهم جيوش المسلمين ونازلوهم وكان على الروم تذارق أخو هرقل لابويه وقيل كان على الروم القيقلان وأجنادين يروى بكسر الدال وفتحها بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين ولما نزلت الروم باجنادين واجتمعت المسلمون وعسكروا عليهم بعث القيقلان رجلا غريبا الى المسلمين يأتيه بخبرهم فدخل فيهم وأقام يوما وليلة ثم عاد اليه فقال ماوراءك قال وجدت قوما رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجموه لاقامة الحق فيهم فقال ان كنت صدقتنى لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ثم انتشب القتال بين المسلمين والروم وكان قتالا شديدا

قتل فيه من المشركين في المعركة ثلاثة آلاف وقيل ان قتلاهم بلغوا خمسين ألفا وقتلى المسلمين أربعمائة وخمسة وسبعون واتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون ثم تحصن المنهزمون منهم في المدائن العظام كدمشق وحمص وايليا وقيسارية واستشهد رجال من المسلمين منهم الفضل ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وضرار بن الخطاب الفهرى وآخرون رحمهم الله ورضى الله عنهم وقتل تذارق أخو هرقل في وقعة أجنادين وقيل في وقعة اليرموك

ذكر فتح دمشق

لما انهزم الروم جاء الخبر لابي عبيدة انهم اجتمع لهم جيش بفحل بكسر الفاء وهو موضع بناحية الشام وأتاه الخبر أيضا بأن أهل دمشق جاءهم مدد من حمص فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك فجاءه الجواب يأمره فيه بأن يبدأ بدمشق فانها حصن الشام وبيت ملكهم وان يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم واذا فتح دمشق سار الى فحل فاذا فتحت سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالاردن وفلسطين فامتثل أبو عبيدة أمر عمر رضى الله عنه فارسل الى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها وبثق الروم الماء حول فحل فوحلت الارض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وفلسطين وبعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق وأرسل جندا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها فسطاس فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العاص على ناحية ويزيد بن أبي سفيان على ناحية فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق وجاءت خيول من هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون واتخذ خالد بن الوليد حبالا كهيئة السلالم وادهاقا والدهق الحبل يرمى في انشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور واثبتوا الحبال بالشرف وكان ذلك الموضع احصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم تحدر خالد وأصحابه وترك بذلك الموضع من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون الى الباب والى الحبال وانتهى خالد الى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لايدرون ماالحال وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا الجهة الاخرى التى فيها أبو عبيدة وقصدوا أبا عبيدة وبذلوا الصلح فقبل منهم

وفتحوا له الباب الذى من جهته وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ولم يعلم أبو عبيدة بما صنع خالد ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم غير الباب الذى دخل منه أصحاب خالد ودخل خالد عنوة فالتقى خالد وأبو عبيدة في وسط المدينة هذا قتلا ونهبا وهذا صلحا وتسكينا فامر أبو عبيدة خالدا ان يكف وقال انى صالحت القوم فقال خالد انى دخلتها عنوة فتنازعا في ذلك ثم أجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التى عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو رده للمسلمين هذا هو الصحيح في كيفية دخول خالد وأبى عبيدة وقيل ان خالدا ومن معه نقبوا جانبا من السور ودخلوا معه ويمكن ان جماعة منهم دخلوا بالحبال التى صنعها وجماعة آخرون نقبوا جانبا من السور وأما أبو عبيدة وبقية الامراء فانهم دخلوا بالصلح الذى عقد مع أبى عبيدة وقد تقدم ان خبر وفاة أبى بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة جاءهم وهم في قتال اليرموك سنة ثلاث عشرة وفتح دمشق كان في رجب سنة أربع عشرة في خلافة عمر رضى الله عنه وقيل انما جاءهم خبر وفاة أبى بكر بعد فتح دمشق سنة ثلاث عشرة وان وفاة أبى بكر رضى الله عنه كان في الليلة التى دخلوا فيها دمشق وكان ذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة والقائلون بان خبر وفاته انما جاء بعد فتح دمشق هم القائلون بان وقعة اليرموك كانت بعد فتح دمشق وانها سنة خمس عشرة والقول الاول أصح وانما عزل عمر رضى الله عنه خالدا لانه كان ينقم عليه قتل مالك بن نويرة وقال أيضاً ان خالدا فيه تبذير للمال يعطى الشاعر اذا مدحه ويعطى للمجاهد والفارس بين يديه فوق مايستحق ولا يبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيأ وكان ذلك اجتهادا من عمر وما وقع من خالد كان أيضاً باجتهاد وكل منهما مأجور ولا يريد الا الحق ولما جاء أمر عمر رضى الله عنه بعزله امتثل أمره وما زال أبو عبيدة يستشيره ولا يعمل الا برأيه ومشورته وكان كل منهما يعرف قدر صاحبه وما خص به من الفضائل رضى الله عنهم ولما فتحت دمشق أرسل أبوعبيدة لعمر رضى الله عنهما بالفتح فكان لعمر وأهل المدينة سرور كثير عند ورود خبر الفتح وكتب له عمر ان يرسل الجند الذى جاؤا من العراق مع خالد فأرسلهم الى العراق وأمر عليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص و بقى خالد مع أبى عبيدة وسيأتى ان شاء الله الكلام على بقية فتوحات العراق

﴿ ذكر غزوة فحل ﴾

بكسر الفاء وبالحاء المهملة لما فتحت دمشق سار أبو عبيدة الى فحل واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان وبعث خالدا على المقدمة وعلى الناس شرحبيل بن حسنة وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص وعلى الخيل ضرار بن الازور وعلى الرجال عياض بن غنم وتقدم ان الروم بثقوا الماء حول فحل فوحلت الارض فنازل المسلمون أهل فحل وبينهم وبين الروم تلك المياه والاوحال وكتب المسلمون الى عمر رضي الله عنه وأقاموا ينتظرون الجواب فاغترهم الروم فخرجوا عليهم وكان على الروم سقلار بن الخارق فأتوهم والمسلمون حذرون وكان شرحبيل بن حسنة لايبيت ولا يصبح الا على تعبية فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد القتال ليلتهم ويومهم وأظلم الليل عليهم فانهزم الروم وهم حيارى وقد أصيب رئيسهم سقلار والذى يليه تسطوس وظفر المسلمون بهم وركبوهم ولم تعرف الروم مأخذهم فانتهت بهم الهزيمة الى الوحل فركبوه ولحقهم المسلمون فأخذوهم بحيث انهم صاروا لا يمنعون بدلامس فزحزحوهم بالرماح فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالردغ فأصيب الروم وهم ثمانون ألفا لم يفلت منهم الا الشريد وقد كان الله يصنع بالمسلمين خيرا وهم كارهون كرهوا البثوق والوحل فكانت عونا لهم على عدوهم وغنموا أموالهم واقتسموها ثم سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما الى حمص وسيأتي ذكر ذلك

- ﴿ ذكر فتح بلاد ساحل دمشق ﴾ -

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن سفيان على دمشق وسار الى فحل بعث يزيد دحية الكلبي الى تدمر وأبا الازاهر القشيرى الى حوران فصالحوهما ووليا عليهما وسار يزيد الى مدينة صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحا يسيرا وجلا كثير من أهلها وتولى فتح عرقه معاوية بنفسه في ولاية أخيه يزيد ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول ولاية عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ولما ولى عثمان الخلافة جمع لمعاوية الشام كله فوجه معاوية سفيان بن نجيب الازدى الى طرابلس وهي ثلاث مدن مجتمعة ثم بنى في مرج على أميال منها حصنا يسمى حصن سفيان قطع المادة عن أهلها من البر والبحر وحاصرهم فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا الى ملك الروم يسألونه ان يمدهم أو يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى الروم فوجه اليهم بمراكب كثيرة وركبوا فيها ليلا وهربوا فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو

والمسلمون في حصنه ثم يغدو على العدو فوجد الحصن خاليا فدخله وكتب بالفتح الى معاوية فاسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذى فيه المينا اليوم ثم بناه عبد الملك ابن مروان وحصنه ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد في زمانه

﴿ ذكر فتح بيسان وطبرية ﴾

لما قصد أبو عبيدة حمص من فحل أرسل شرحبيل بن حسنة ومن معه الى بيسان فقاتلوا أهلها فقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم صالحهم من بقى مثل صلح دمشق فقبل ذلك منهم وكان أبو عبيدة قد بعث أبا الاعور السلمى الى طبرية يحاصرهم فصالحه أهلها على مثل صلح دمشق أيضاً وان يشاطروا المسلمين المنازل فنزلها القواد وخيولها وكتبوا بالفتح الى عمر رضى الله عنه ولقرب الزمن في تلك الغزوات وقرب بعضها من بعض اختلفوا في تقدم بعضها على بعض والامر في ذلك سهل

﴿ ذكر الوقعة بمرج الروم ﴾

لما سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما من فحل قاصدين حمص بلغ الخبر هرقل فبعث جيشا عليهم توزر البطريق فنزل بمرج الروم غربى دمشق ونزل أبو عبيدة أيضاً بمرج الروم ونازله يوم نزوله شغش الرومي في مثل جيش توزر مدد التوزر وعونا لاهل حمص فلما نزل أصبحت الارض من توزر بلاقع وكان خالد بازائه وأبو عبيدة بازاء شغش وسار توزر يطلب دمشق فلما علم خالد بمسيره سار خلفه في جمع ممن معه وبلغ يزيد بن أبى سفيان فعل توزر فخرج من دمشق واستقبله فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وغنم المسلمون مامعهم فقسمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد وعاد يزيد الى دمشق ورجع خالد الى أبى عبيدة وقد قتل توزر وقاتل أبو عبيدة شغش فاقتتلوا بمرج الروم فقتلت الروم مقتلة عظيمة وقتل شغش وتبعهم المسلمون الى حمص فلما بلغ هرقل ذلك أمر بطريق حمص بالمسير اليها وكان عنده وسار هو الى الرها وسار أبو عبيدة الى حمص

﴿ ذكر فتح حمص وبعلبك وغيرهما ﴾

لما فرغ أمر مرج الروم سار أبو عبيدة والمسلمون الى حمص فنازلوها وقاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقى المسلمون بردا شديدا ولقى الروم حصارا طويلا فصبر المسلمون والروم وكان هرقل قد أرسل الى حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز الى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين فسير سعد بن أبى وقاص من العراق السرايا الى هيت وحصروها وسار بعضهم الى قرقيسا فتفرق أهل

الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين أصبع فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم الى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه وقام آخر فلم يجيبوه فناجزهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت فكبروا ثانية فاصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها اليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على مثل صلح دمشق وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الاسود الكندى في بنى معاوية والاشعث بن ميناس في السكون والمقداد في بلى وأنزلها غيرهم أيضاً وبعث بالاخماس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع عبد الله بن مسعود وكتب عمر الى أبى عبيدة ان أقم بمدينتك وادع أهل القوة من عرب الشام فانى غير تارك البعثة اليك ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار الى حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤسهم والخراج على أرضهم ومضى نحو شيزر فخرج اليه أهلها يسألونه الصلح على ماصالح عليه أهل حماه فصالحهم وسار الى معرة حمص وهى معرة النعمان نسبت معره الى النعمان بن بشير الانصارى رضى الله عنه فاذعنوا له بالصلح على ماصالح اليه أهل حمص ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس فعسكر المسلمون على بعد منها ثم أمر بحفر حفاير عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبا ثم أظهروا انهم عابرون عنها ورحلوا فلما جنهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفاير وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون ان المسلمين قد انصرفوا عنهم فاخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد فلم يرعهم الا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة وملكت عنوة وهرب قوم من النصارى ثم طلبوا الامان على ان يرجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجدا جامعا بناه عبادة بن الصامت ثم وسع فيه بعد ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبله من الروم عنها فلما كان زمن معاوية بنى حصنا خارج الحصن الرومي وشحنه بالرجال وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت انطرسوس وكان حصنا فجلا عنه أهله فبنى معاوية مدينة نطرسوس ومصرها واقطع بها القطائع المقاتلة وكذلك فعل ببابياس وفتح سليمة أيضاً

﴿ ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية ﴾

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل الحاضر زحف اليهم الروم وعليهم ميناس وكان من أعظم الروم بعد هرقل فاقتتلوا وقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا

مثالها فقاتوا على دم واحد وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال المسلمون لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أولا نزلكم الينا فنظروا في أمرهم و رأوا مالقى أهل حمص فصالحوهم على مثل صلح حمص فأبى خالد الا على خراب المدينة فأخربها فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية وسببه ان خالدا وعياضا ادربا الى هرقل من الشام وادرب عمر و ابن مالك من الكوفة فخرج من ناحية قرقيسا وادرب عبد الله بن المعتمر من ناحية الموصل ثم رجعوا فعندها دخل هرقل القسطنطينية فلما بلغ عمر صنيع خالد قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى وقد كان عزله والمثنى بن حارثة وقال انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت ان يوكلوا اليهما ولما سار هرقل الى القسطنطينية خرج من الرها فنزل بشمشاط ثم ادرب منها الى القسطنطينية فلما أراد المسير من شمشاط علا على نشز ثم التفت الى الشام فقال السلام عليك ياسورى سلام لااجتماع بعده ولا يعود اليك رومى أبدا الا خائفا حتى يولد المولود المشؤم وياليته لم يولد فما أحلى فعله وأمر فتنته على الروم ثم سار فدخل القسطنطينية وأخذ أهل الحصون التى بين اسكندرونة وطرسوس معه لئلايسير المسلمون في عمارة مابين انطاكيه و بلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لايجدون بها أحدا و ربما كمن عندها الروم فأصابوا من المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك

﴿ ذكر فتح حلب وانطاكية وغيرهما من العواصم ﴾

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار الى حلب فبلغه ان أهل قنسرين نقضوا وغدروا فوجه اليهم السمط الكندى فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقرا وغنما فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيته في المغنم ووصل أبو عبيدة الى حاضر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافا من العرب المتنصرة فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنايسهم وحصنهم فاعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ثم سار أبو عبيدة الى انطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها وحاصرها من جميع الجوانب ثم انهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعض وأقام بعض فأمنهم ثم نقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الاول وكانت انطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر الى أبى عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولاتحبس عنهم العطا وبلغ أبا عبيدة ان جمعا من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم فلقيهم فهزمهم وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرة مصرين على

مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وتيزين وغلبوا على جميع أرض قنسرين وانطاكية ثم أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلها فلم يزل بهم حتى أزعنوا وفتحوا المدينة وسار أبو عبيدة يريد قورس فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فصالحه على مثل صلح انطاكية وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس وفتح تل عزاز ثم سار الى منبج وصالحه أهلها على مثل صلح انطاكية وسير عياض بن غنم الى ناحية دلوك وعبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جماعة وشحن النواحي المخوفة وسار الى بالس وبث جيشا مع حبيب بن مسلمة الى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا أكثرهم الى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية الى الفرات وعاد أبو عبيدة الى فلسطين وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها جرجومة وأهلها يقال لهم الجراجمة فسار اليهم حبيب بن مسلمة من انطاكية فافتتحها صلحا على أن يكونوا عونا للمسلمين وسير أبو عبيدة جيشا مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس من اعمال انطاكية الى بلاد الروم فلقي جمعا للروم معهم عرب من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ولحق به مالك بن الحارث الاشتر النخعي مددا من قبل أبي عبيدة وهو بانطاكية فسلموه وعادوا وسير أبو عبيدة جيشا آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على جلاء أهلها بالاما وأخربها وسير جيشا آخر مع حبيب بن مسلمة الى حصن الحدث فملكه وكل هذه الفتوحات كانت من سنة ثلاث عشرة الى سنة خمس عشرة يتلو بعضها بعضا في أزمان متقاربة وكان فيها أيضا فتح قيسارية وحصر غزة

﴿ ذكر فتح قيسارية وحصر غزة ﴾

في سنة خمس عشرة على الصحيح كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى يزيد بن أبي سفيان ان يرسل معاوية الى قيسارية وكتب عمر أيضا الى معاوية يأمره بذلك فسار معاوية اليها فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم الى حصنهم ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين فهزمهم وقتل فيهم مقتلة عظيمة وبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفا وكملها في هزيمتهم مائة ألف وفتحها وكان علقمة بن مجزز قد حصر القيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه أحد بما يريد فأتاه كأنه رسول علقمة فامر القيقار رجلا ان يقعد له في الطريق اذا رجع فاذا مر به قتله ففطن علقمة فقال للقيقار ان معي نفرا يشركونني في الرأى فأنطلق فآتيك بهم فبعث القيقار الى ذلك الرجل أن لا يتعرض له فخرج علقمة من عنده فلم يعد فكان فعله هذا

كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون كما سيأتي ومجزز بجيم وزايين

﴿ ذكر فتح بيسان ووقعة اجنادين ﴾

لما انصرف أبو عبيدة وخالد رضى الله عنهما الى حمص نزل عمرو بن العاص وشرحبيل رضى الله عنهما على أهل بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الاردن واجتمع عسكر الروم بغزة واجنادين وبيسان وسار عمرو وشرحبيل الى الارطبون ومن معه وكان الارطبون باجنادين واستخلف على الاردن أبا الاعور السلمى وكان الارطبون ادهى الروم وأبعدها غورا وكان قد وضع جندا عظيما بايليا وجندا عظيما بالرملة فلما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخبر قال قد رمينا ارطبون الروم بارطبون العرب يعنى عمرو بن العاص فانظروا عم تنفرج وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسى ومسروقا العكى على قتال ايليا فشغلوا من به عنه وجعل أيضا أبا أيوب المالكى على من بالرملة من الروم فشغلهم عنه وتتابعت الامدادات من عند عمر الى عمرو واقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الارطبون على شئ ولا تشفيه الرسل فسار اليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ففطن به الارطبون وقال لاشك ان هذا هو الامير أو من يأخذ الامير برأيه فأمر انسانا ان يقعد على طريقه اذا رجع ليقتله وفطن عمرو لفعله فقال له قد سمعت منى وسمعت منك وقد وقع لك منى موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمرو اليك فأرجع فآتيك بهم الآن فان رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الامير وأهل العسكر وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم فقال نعم ورد الرجل الذى أمره بقتله فخرج عمرو من عنده ثم علم الرومى انها خدعة اختدعه بها فقال هذا ادهى الخلق وبلغت خديعته عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لله در عمرو وعرف عمرو مأخذه اذا قاتله فقاتله باجنادين قتالا شديدا حتى كثرت القتلى بينهم وانهزم ارطبون الى ايليا ونزل عمرو اجنادين وافرج المسلمين الذين يحصرون بيت المقدس لارطبون فدخل بيت المقدس

﴿ ذكر فتح بيت المقدس ﴾

كان فتح بيت المقدس سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقيل سنة ست عسرة في ربيع الاول وسبب ذلك انه لما دخل ارطبون بيت المقدس فتح عمرو بن العاص غزة ثم فتح سبطية وفيها قبر يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام وفتح نابلس بامان على الجزية وفتح مدينة لد ثم فتح تبق وعمواس وبيت جبرين ويافا وقيل فتحها معاوية وفتح عمرو مرج عيون فلما تم له ذلك أرسل الى ارطبون رجلا

يتكلم بالرومية وقال له اسمع مايقول وكتب معه كتابا فوصل الرسول ودفع الكتاب الى أرطبون وعنده وزراؤه فقال ارطبون لايفتح والله عمرو شيأ من فلسطين بعد اجنادين فقالوا له من أين علمت هذا فقال صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرجع الرسول الى عمرو بن العاص وأخبره بالخبر فكتب الى عمر بن الخطاب يقول له انى اعالج عدوا شديدا وبلادا قد ادخرت لك فرأيك فعلم ان عمرا لم يقل ذلك الا بشئ سمعه فسار عمر من المدينة وقيل ان الروم الذين كانوا ببيت المقدس طلبوا من المسلمين ان يروهم أميرهم فاروهم أبا عبيدة وخالد بن الوليد فقالوا لا نسلم أحدا من هذين مدينة بيت المقدس ولو حصرتمونا عشر سنين وانما نسلمها لرجل صفته كذا وكذا وذكروا صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب أبو عبيدة وبقية الامراء بذلك لعمر بن الخطاب فقدم عليهم وكان أبو عبيدة رضى الله عنه لما حصر بيت المقدس أراد أن يصالحهم على مثل صلح أهل مدن الشام فقالوا لا نصالحهم الا أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وأتى بيت المقدس وفي تاريخ ابن الوردى وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لعمر رضى الله عنه انك ستفتح بيت المقدس بلا قتال فكان في مجيئه اظهار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في اخباره بالغيب ففتحها بلا سيف كما أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم ولما سار عمر من المدينة استخلف عليها على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال له على أين تخرج بنفسك انك تريد عدوا كلبا فقال عمر ابادر بالجهاد قبل موت العباس رضى الله عنه انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه فانتقض الناس وسار عمر رضى الله عنه من المدينة وهو على بعير له وعليه غرارتان في احداهما سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد ومعه جماعة من الصحابة وكان اذا نزلوا منزلا لايبرح به حتى يصلى الصبح ثم يأخذ الجفنة يملأها سويقا ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول كلوا هنيئاً مريئاً فيأكل ويأكل المسلمون ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيره حتى قدم الشام وقيل انه لما قدم الجابية كان على فرس وكان قدومه الى الشام أربع مرات الاولى على فرس والثانية على بعير والثالثة على بغل ورجع لاجل الطاعون والرابعة على حمار وكتب الى أمراء الاجناد ان يوافوه بالجابية ليوم سماه ويستخلفوا على أعمالهم فكان أول من لقيه يزيد بن سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة

ورماهم بها وقال ماأسرع ماورجتم من رأيكم لستقبلونى في هذا الزى وانما شبعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين انها يلامعه وان علينا السلاح قال فنعم اذن واليلامع من السلاح مابرق فلما دخل الجابية جاءه أهل بيت المقدس وقد هرب عنهم ارطبون الى مصر فصالحوه على الجزية وفتحوها له ويروى ان الروم امتنعوا من فتح باب السور حتى يروا عمر ويجدوا فيه الصفة التى يجدونها في كتبهم فأمر عمر ببعيره فقدم اليه فاستوى الى ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبى عبيدة رضى الله عنهما سائرا بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور فنظر اليه البطريق وهو خلف السور وزعق بأعلى صوته هذا والله الذى نجد نعته وصفته في كتبنا وهو الذى يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ثم قال لاهل بيت المقدس ويحكم انزلوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة ففتحوا الباب وخرجوا الى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة وعقد الجزية فخر ساجدا لله على قتب بعيره ثم نزل اليهم وقال ارجعوا الى بلادكم ولكن العهد والذمة اذا سألتمونا واقررتم بالجزية فرجع القوم ولم يغلقوا الابواب ورجع عمر الى معسكره وبات فيه ليلة فلما كان من الغد قام فدخل اليها ومعه المسلمون وعقد الجزية أيضا لاهل الرملة وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأسكنه بيت المقدس وضم اليه عمرو ابن العاص وشرحبيل ولقياه بالجابية راكبا فقبلا ركبته وضم كل واحد منهما محتضنها ثم سار الى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى فيه عرجا فنزل عنه فأتى ببرذون فركبه فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه وقال لاأعلم من علمك هذه الخيلاء ثم لم يركب برذونا قبله ولا بعده وبقى ارطبون بمصر فلما ملك المسلمون مصر قتل ولما دخل عمر بيت المقدس كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وأقام عشرة أيام ثم رجع الى المدينة وكان في هذه السنة والتى بعدها كثير من الفتوحات بالعراق وسنذكرها أن شاء الله بعد تمام الكلام على فتوحات الشام ومصر

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

في سنة سبع عشرة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص وكان المهيج للروم أهل الجزيرة فانهم أرسلوا الى ملك الروم وحثوه على ارسال الجنود الى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة ففعل ذلك فلما سمع المسلمون باجتماعهم عسكروا بفناء

مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين اليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة والتحصين الى مجيء الغياث فاشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فاطاعهم وكتب الى عمر ذلك فكتب عمر الى أمراء الاجناد بالعراق ان يبعثوا جندا لاغاثة أبي عبيدة وكان عمر رضى الله عنه قد اتخذ في كل مصر خيولا على قدر ذلك المصر من فضول أموال المسلمين عدة يكون ان كان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلى ونفر من أهل الكوفة وفي كل مصر من الامصار على قدره فان تأتهم آتية ركب الناس وساروا الى ان يتجهز بقية الناس فلما سمع عمر الخبر كتب الى سعد بن أبي وقاص بالعراق ان اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم فان أبا عبيدة قد أحيط به وكتب اليه أيضا سرح سهيل بن عدى الى الرقة وهى بلدة على الفرات بتشديد الراء والقاف المفتوحتين فان أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم على أهل حمص وأمره ان يسرح عبد الله بن عتبان الى نصيبين ثم ليقصد حران والرها وان يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وان يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة ان كانت حرب فمضى القعقاع من يومه على أربعة آلاف الى حمص وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل أمير الى كورته وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه من المدينة يريد حمص مغيثا لأبي عبيدة ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص خبر الجنود الاسلامية فارقوا هرقل ورجعوا الى بلادهم وزحف أبو عبيدة الى الروم فانهزموا وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث فكتبوا الى عمر بالفتح وبقدوم المدد اليهم فكتب اليهم أن أشركوهم في الغنيمة فانهم نفروا اليكم وانفرق لهم عدوكم وقال جزى الله أهل الكوفة خيرا يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار فلما فرغوا رجعوا وبلغ عمر في مسيره هذا الى الجابية فوافاه خبر انهزام الروم فكتب الجواب لابى عبيدة ورجع من الجابية وأصحب معه خالد بن الوليد ومن معه ولما قدم سهيل بن عدى على الرقة سرح الوليد بن عقبة الى عرب الجزيرة فقبض أهل الرقة عن هرقل وساروا مع سهيل بن عدى الى اياد بن نزار فانهم دخلوا أرض الروم فكتب عمر الى هرقل بلغنى ان حيا من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى اليك فاخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة

﴿ ذكر فتح الجزيرة وارمينية ﴾

الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة بين دجلة والفرات اليها ينسب الامام

الجزرى وارمينية كورة كانت للروم لمـا أرسل سعد العساكر الى الجزيرة ارفض به أهل الجزيرة عن الروم وساروا الى كورهم حين سمعوا بارسال العساكر من الكوفة فنزل عليهم سهيل بن عدى وحاصرهم حتى صالحوه ونازل عبد الله بن عتبان الموصل ونصيبين فصالحوه كصنع أهل الرقة وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فينهض معـه مسلمهم وكافرهم الا اياد بن نزار فانهم دخـلوا أرض الروم فكتب الوليد بذلك الى عمر فكتب عمر الى هرقل كما تقدم ولمـا أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض اليه سهيلا وعبـد الله بن عتبان وسار بالناس الى حران فلما وصل أجابه أهلها الى الجزيرة فقبل منهم ثم ان عياضا سرح سهيلا وعبد الله الى الرها فاجابوهما الى الجزية وأجروا كل ماأخـذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحا و رجع سهيل وعبد الله الى الكوفة وكتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد انصرافه من الجابية يسأله ان يضم اليه عياض بن غنم اذ أخذ خالد بن الوليد معه الى المدينة فصرفه اليه فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربهـا وأبى الوليد بن عقبة ان يقبل من تغلب الجزية وقال ليس الا الاسلام فكتب اليه عمر انمـا ذلك بجزيرة العرب لايقبل منهم الا الاسلام فدعهم على ان لاينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الاسلام وكان في تغلب عز وامتناع فهم بهم الوليد فخاف عمر ان يسطو عليهم فعزله وأمر عليهـم فرات بن حيان وهند بن عمر الجلي والصحيح الذى عليـه الأكثر ان فتح الجزيرة معدود من فتح أهل الشام وأنه سنة سبع عشرة وقيـل انه من فتح العراق وانه سـنة تسع عشرة وانمـا أخـذ عمر خالدا معه وعزله عن امارة الاجناد لأنه رأى منـه تبذيرا وسرفا في الأموال أعطى مرة للاشعث بن قيس عشرة آلاف وله عطايا كثيرة فلما قدم المدينة شكا خالد عمر على النـاس وقال له انك في أمرى غير مجمل فقال له عمر من أين هذا الثرا فقال من الغنائم والسهمان مازاد على ستين ألفا فهو لك فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفا فجعلها في بيت المـال ثم قال ياخالد والله انك على لكريم وانك الى حبيب وكتب الى الامصار انى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن النـاس فخموه وفتنوا به فخفت ان يوكلوا اليـه فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لايكونوا بعرض فتنة وعوضه عمـا أخذه منه وكان خالد ابن خال عمر رضى الله عنهما لان أم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وخالد بن الوليد بن المغيرة وكان في قلنسوة خالد التى يقاتل فيها شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسـلم فيستنصر بها وببركته صلى الله عليه وسلم فلايزال

منصورا وكان يقول اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة اعتمرها فحلق شعره فاستبق الناس الى شعره فسبقت الى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدم القلنسوة فما واجهته في وجه الا وفتح له وسماه النبي صلى الله عليه وسلم سيفا من سيوف الله يوم غزوة مؤتة لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمدينة بما وقع في تلك الغزوة يوم وقوعها فذكر لهم استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وقال ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه ومناقبه كثيرة وله ترجمة واسعة توفي رضى الله عنه في خلافة عمر رضى الله عنه بحمص وقيل بالمدينة سنة احدى وعشرين من الهجرة ولما حضرت خالدا الوفاة قال لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة أوطعنة أو رمية وهاأنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل عندي أرجى من لااله الا الله وأنا متترس بها وفي سنة ثمان عشرة وقع بالشام الطاعون المسمى طاعون عمواس مات فيه خمسة وعشرون ألفا ومات فيه أبو عبيدة واستخلف معاذ بن جبل فطعن أيضاً فيه ومات فاستخلف عمر على الناس عمرو بن العاص وطعن فيه يزيد بن أبي سفيان فاستعمل عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان على دمشق وخراجها واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الاردن وخراجها ولما حصل ذلك الطاعون قام أبو عبيدة خطيبا في الناس فقال أيها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ووعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان أبا عبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال أيها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم و وعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان معاذا يسأل الله ان يقيم لآل معاذ حظهم فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ثم قال فدنا به لنفسه فطعن في راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ماأحب ان لى بمافيك شيأ من الدنيا فلما مات واستخلف عمرو بن العاص خرج بالناس الى الجبال ورفعه الله عنهم وكان الناس قد أصابهم من الموت مالم يروا مثله قط وطمع فيهم العدو وطال مكث ذلك الطاعون فانه مكث شهورا وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم الى الشام في مدة ذلك الطاعون فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الاجناد فيهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبروه بالوباء وشدته وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازيا فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ومنهم القائل انه بلاء

وفناء فلا نرى ان نقدم عليه فقال لهم قوموا ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود فنادى عمر في الناس انى مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر الله فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة أى لانتقمت منه نعم نفر من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو كان لك ابل فهبطت واديا له عدوتان احداهما مخصبة والاخرى مجدبة اليس ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه وكان عبد الرحمن بن عوف غائبا فحضر فاخبر انه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثا في ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم بهذا الوباء ببلدة فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه فكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر رضى الله عنه فانصرف بالناس الى المدينة ومات في ذلك الطاعون كثير من الصحابة منهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو رضى الله عنهما ولما فرغ الطاعون كتب أمراء الاجناد الى عمر رضى الله عنه بما في أيديهم من المواريث فسار عمر الى الشام واستخلف على المدينة على ابن أبي طالب رضى الله عنه فلما قدم الشام قسم المواريث والارزاق وسد فروج الشام ومصالحها وأخذ يدورها ورجع الى المدينة في ذى القعدة ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس لو أمرت بلالا فاذن فامره فأذن فما بقى أحد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن الابكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذكر فتح مصر والاسكندرية

كان ابتداء الامر وانتهاؤه في ذلك من سنة ثمانى عشرة الى سنة عشرين وقيل ان فتوح مصر كان في سنة ست عشرة لان عمرو بن العاص رضى الله عنه حمل الطعام لاهل المدينة عام الرمادة التى اشتد القحط فيه في بحر القلزم من مصر الى المدينة وعام الرمادة كان سنة ثمانى عشرة وقال الجلال السيوطى في كتابه المسمى بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لما كانت سنة ثمان عشرة وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص رضى الله عنه فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى ان أسير الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك فأذن له في المسير وسبب قوة رجاء عمرو بن العاص في ان الله يفتح مصر

على يديه قصة وقعت له في الجاهلية ذكرها السيوطى أيضاً في حسن المحاضرة ولنذكرها وان كان فيها طول تتميما للفائدة قال اخرج ابن عبد الحكم عن خالد بن يزيد أنه بلغه ان عمرو بن العاص قدم الى بيت المقدس بتجارة في نفر من قريش واذاهم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح وكان عمرو بن العاص يرعى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم فبينما عمرو يرعى ابله اذمر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ثم نام الشماس في مكانه وكان الى جانب الشماس فى مكانه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصربها عمرو فنزع لهـا سهما فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد نجاه الله منها فقال لعمرو ماهذا فاخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هـذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجو ان تصيب من تجارتك قال رجائى ان اصيب مااشترى به بعيرا فانى لاأملك الا بعيرين فأملى ان أصيب بعيرا آخر فيكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا أصحاب ابل نحن أصحاب دنانير قال عمرو تكون ألف دينار فقال له الشماس انى رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلى في كنيسة بيت المقدس وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع الى بلادى فهل لك ان تتبعنى الى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أنى أعطيك ديتين لان الله تعالى أحيانى بك مرتين فقال له عمرو أين بلادك قال مصر في مدينة يقال لهـا الاسكندرية فقال له عمرو لاأعرفها ولم أدخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق فقال الشماس نعم لك الله على بالعهد والميثاق انى افي لك وأردك الى أصحابك فقال عمرو وكم يكون مكثى في ذلك قال شهر تنطلق معى ذاهبا عشرا وتقيم عندنا عشرا وترجع في عشر ولك على ان احفظك ذاهبا وأبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انتظرنى حتى أشاور أصحابى فانطلق عمرو الى أصحابه فاخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لاتخرجوا وأقيموا حتى أرجع اليكم ولكم على العهد ان اعطيكم شطر ذلك على ان يصحبنى منكم رجل آنس به فقالوا نعم وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما

بها من الاموال والخير ماأعجبه ذلك وقال مارأيت مثل مصر قط وكثرة مافيهامن الاموال
ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الاموال فازداد
تعجبا ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم
ولهم اكرة من ذهب مكللة يترامى بهـا ملوكهم وهم يتلقونها باكمامهم وفيما أخبروا عن
تلك الاكرة على ماوضعها من مضى منهم ان من وقعت الاكرة في كمه واستقرت فيه
لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب
ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة
وهم يتلقونها باكمامهم فرمى بهـا رجـل منهـم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو
فتعجبوا من ذلك وقالوا ماكذبتنا هذه الاكرة قط الا هذه المرة أترى هـذا الاعرابي
يملكنا هذا لايكون أبدا وان ذلك الشماس مشى في أهـل الاسكندرية وإعلمهم ان عمرا
أحياه مرتين وانه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم ان يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها
الى عمرو فانطلق عمرو وصاحبـه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما
حتى رجع هو ومن معـه الى أصحابه فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى
منها ماعلم انها أفضـل البلاد وأكثرها مالا فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم
ألف دينار وأمسـك لنفسه ألفا قال عمرو فكان ذلك المـال أول مال تأثلته فلما أكرمه
الله بالاسـلام وفتح على يديه كثيرا من أرض الشام مالت نفسـه الى فتح مصر ورجا ان
يتحقق له وقوع الاكرة في كمه مع ماصح من قول النبي صلى الله عليه وسلم لتفتح عليكم
بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خـيرا فان لكم منهم صهرا وذمة فرغب عمر بن الخطاب في
ان يسيره اليها حتى وافقه على ذلك فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك ويقال
على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتي كتابي اليك
سريعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها
أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن
بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار
عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم فكتب الى عمرو بن العاص ان ينصرف بمن
معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص ان هو أخـذ
الكتاب وفتحه ان يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخـذ الكتاب من الرسول
ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيـل له انهـا من

مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو أنتم تعلمون ان هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الى وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل مصر ان ارجع وان لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش فكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتله الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله على يديه فهزم الروم وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواحر فنزل ومن معه فقال بعض القبط لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وانما هم في قلة من الناس فاجابه رجل آخر منهم ان هؤلاء القوم لايتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه حتى يقتلوا آخرهم فتقدم عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب اليون حينا وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم انه صار معك اثنا عشر الفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو الى صاحب الحصن كأنه رسول فتناظر معه في شئ مما هم فيه فقال اخرج واستشير أصحابى وكان صاحب الحصن أوصى الذى كان على الباب اذا مر به عمرو راجعا ان يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال انى أريد ان آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت فقال العلج في نفسه قتل جماعة أحب الى من قتل واحد

فارسل الى الذى أمره بقتــل عمرو ان لايتعرض له وجاء ان يأتى بأصحابه فيقتلهم وخرج عمرو فلما أبطأ عليــه الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله ارجــو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوا جميعا فمــا شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر معه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا ان ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشــك أهل الحصن ان العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فحينئذ طلب الصلح من عمرو بن العاص على ان يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وقال ابن عبد الحكم شهرا قال ان المسلمين لمــا حصروا باب اليون شهرا كان به جمــاعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فلما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ورغبتهم فيــه خافوا ان يظهروا فتنحى المقوقس وجمــاعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جمــاعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وتخلف الاعرج في الحصن بعــد المقوقس فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ثم لحقوا بالمقوقس في الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص انكم قوم ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانمــا أنتم عصــبة يسيرة وقد أظلكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العــدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى في أيدينا فأرســلوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعــله ان يأتى الامر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفا لطلبتكم ورجائكم فابعث الينا رجالا من أصحابكم نعاملهــم على مانرضى نحن وهم به عن شئ فلما أتى الى عمرو بن العاص رســل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم يستحلون ذلك في دينهم وانمــا فعل عمرو ذلك لاجل ان يروا حال المسلمين وماهم فيه ثم رد عليهم عمرو مع رسله أنه ليس بيني وبينك الا احــدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاســلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فلماجاءت رسل

المقوقس اليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لاحدهم رغبة في الدنيا ولا نهمة وأنما جلوسهم على التراب وأ كلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس والذى يحلف به لو ان هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقدروا على الخروج من موضعهم فرد اليهم المقوقس رسله ان ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ماعسى ان يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة أنفار أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وهو أحد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين وأمره عمرو ان يكون متكلم القوم وان لا يجيبهم الى شئ دعوه اليه الا احدى هذه الخصال الثلاث فان أمير المؤمنين أمرني ان لا أقبل شيأ سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنه اسود فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى فقالوا ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانا نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بما أمره به فقال المقوقس لعبادة تقدم ياأسود وكلمنى برفق فانى أهاب سوادك وان اشتد على كلامك ازددت لك هيبة فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل اسود وكلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منى وأنا قد وليت وأدبر شبابى وانى مع ذلك بحمد الله ماأهاب مائة رجل من عدوى ولو استقبلونى جميعا وكذلك أصحابى وذلك لاننا انما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في الله تعالى واتباع رضوان الله وليس غزونا عدونا من حارب الله رغبة في الدنيا ولا طلبا للاستكثار منها الا ان الله قد أحل لنا ذلك وجعل ماغنمنا من ذلك حلالا وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لايملك الا درهما لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها فيسد بها جوعته وشملة يلتحفها فان كان أحدنا لايملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا لان نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة أحدنا من الدنيا الا فيما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه فلما سمع المقوقس

ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب عندى من منظره وان هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما أظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرته عنك وعن أصحابك ولعمرى مابلغتم مابلغتم الا بما ذكرته ولا ظهرتم على ماظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالايحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة من لايبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين ظهرنا شهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرأف عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة مابأيديكم ونحن تطيب أنفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين ولا ميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفوا الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا قوة لكم به فقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه ياهذا لاتغرن نفسك ولا أصحابك اما ماتخوفونا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لانقوى عليهم فلعمرى ماهذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ان كان ماقلتم حقا فذلك والله ارغب مايكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا لان ذلك أمكن لنا في رضوانه وجنته وما من شئ أقر لاعيننا ولا أحب الينا من ذلك وانامنكم حينئذعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا وانها لاحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله تعالى قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما من رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة وان لايرده الى بلده ولا الى أهله وولده وليس لاحد مناهم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وانما همنا ماأمامنا واما أنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ماأردنا لانفسنا منها أكثر مما نحن فيه فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك أمرنى الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الينا من قبل اما ان أجبتم الى الاسلام الذى هو الدين الذى لايقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته أمرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتي يدخل فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا وكان أخانا في دين الله فان قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة

ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وان أبيتم الا الجزية فادوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون نعاملكم على شئ نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا مابقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وتعرض لكم في شئ من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد الله علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب منكم ماتريد هذا ديننا الذى ندين الله به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم فقال له المقوقس هذا مما لايكون أبدا ماتريدون الا ان تأخذونا لكم عبيدا ماكانت الدنيا فقال له عبادة هو ذاك فاختر ماشئت فقال له المقوقس أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث فرفع عبادة يديه فقال لا ورب السماء ورب هذه الارض ورب كل شئ مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس عند ذلك الى أصحابه فقال قد فرغ القول فما تقولون فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل اذا ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لايكون أبدا ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين لانعرفه وأماماأرادوا من ان يسبونا ويجعلونا عبيدا أبدا فالموت أيسر من ذلك لورضوا منا ان نضعف لهم ماأعطيناهم مرارا كان أهون علينا فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى فراجع صاحبك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ماتمنيتم وتنصرفون فقام عبادة وأصحابه فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة وان لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبونهم الى ماهو أعظم منها كارهين فقالوا أى خصلة نجيبهم اليها قال اذن أخبركم اما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به واما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثلاث قالوا فنكون لهم عبيدا أبدا قال نعم تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من ان تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلوكم وذراريكم قالوا فالموت أهون علينا وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة و بالقصر من الروم والقبط جمع كثير فالح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا بهم ومكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير واسر من اسر وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لايقدرون على ان ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المداين والقرى والمقوقس يقول لاصحابه الم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ماتنتظرون فوالله لتجيبونهم الى ماأرادوا طوعا أولتجيبونهم الى ماهو أعظم منه كرها فاطيعونى قبل ان

تندموا فلما رأوا منهم ماوأوا وقال لهم المقوقس ماقال اذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يوفونه وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص رضى الله عنه انى لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الى بها فأبى ذلك من يحضرنى من الروم والقبط فلم يكن لى ان أفتات عليهم وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ورجعوا الى قولى فاعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك لنا جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمر وأصحابه في ذلك السؤال فقالوا لانجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا ونصير كلها فيئا لنا وغنيمة كما صار القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ماعهد الى أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الى فيها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ماقد حال من الماء بيننا وبين مانريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى ان للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أوأكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم في شئ منها فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية فرض الله عليهم الدينارين ورفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما احصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف وذلك ستة ملايين فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار أى اثنى عشر مليونا من الدنانير كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف وشرط المقوقس للروم ان يتخيروا فمن أحب منهم ان يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على ان للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه مافعل فان قبل ذلك و رضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه على وجه الامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول في كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة

ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط اذلا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك وكتب ملك الروم مثل ذلك الى جماعة الروم فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم والله انهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ويتمنى ان لا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ويرون ان لهم أجرا عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون انهم ان قتلوا أدخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة الا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا معشر الروم والله انى لاأخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه وانى لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولي ورأيي وتتمنون ان لو كنتم أطعتمونى وذلك انى قد عاينت ورأيت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ويحكم أما يرضى أحدكم ان يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ثم أقبل المقوقس على عمرو بن العاص فقال له ان الملك قد كره مافعلت وعجزنى وكتب الى والى جماعة الروم ان لانرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن لاخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاهدتهم وأما الروم فانا منهم برئ وأنا أطلب منك ان تعطينى ثلاث خصال قال له عمرو وماهن قال لاتنقضن بالقبط وأدخلنى معهم والزمنى مالزمهم وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ماعاهدتك فهم متمون لك على ماتحب وأما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا فانهم أهل لذلك فانى نصحتهم فاستغشونى ونظرت اليهم فاتهمونى وأما الثالثة فاطلب اليك ان أنا مت ان تأمرهم ان يدفنونى في أبى حنش بالاسكندرية فانعم له عمرو بن العاص وأجابه الى ماطلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعا ويقيموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا وصارت لهم القبط أعوانا كما جاء في الحديث واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم انتقلوا بسلطيس فاقتتلوا بها

قتالا شديدا ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله يومئذ على المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوه الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الاسكندرية ان ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لانه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وانما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية فقال الملك لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها فامر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه اعظاما لها وأمر أن لايتخلف أحد من الروم وقال مابقي للروم بعد الاسكندرية حرمة فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته سنة تسع عشرة وقال الليث بن سعد مات هرقل سنة عشرين فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع كثير ممن قد توجه الى الاسكندرية وانتشرت العرب عند ذلك وألحت القتال على أهل الاسكندرية فقاتلهم قتالا شديدا وحاصروا الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة شهر المحرم سنة عشرين وقال ابن عبد الحكم أقام عمرو بن العاص محاصرا الاسكندرية أشهرا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ماأبطأ بفتحها الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ماأحب عدوكم وان الله تبارك وتعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك ان الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف الا ان يكون غيرهم ماغيرهم فاذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة في صدور الناس وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وأمر الناس جميعا ان تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم ففعلوا ففتح الله عليهم قال ابن عبد الحكم حدثني أبي قال لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الاسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس

فقال أنى فكرت في هذا الامر فانه لا يصلح آخره الا من أصلح أوله يريد الانصار فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك ثم روى ابن عبد الحكم عن الامام مالك ان ذلك كان سنة عشرين ولما هزم الله الروم وفتحت الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر ورجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره ان لا يجاوزها ويقبح رأيه في اتباعه من هرب والذى قتلوا من المسلمين من حين حصار الاسكندرية الى ان فتحت عنوة اثنان وعشرون رجل ولما فتحت بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدا الى عمر بن الخطاب مبشرا له بالفتح فقال معاوية بن خديج لعمرو بن العاص الا تكتب معى كتابا فقال عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله وقيل بل كتب عمرو بن العاص مع الرسول كتابا لعمر بن الخطاب وقال فيه أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف متنه وهى المكان الصلب المرتفع بأربعة آلاف حمام واربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك قال ابن عبد الحكم لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر ورحل منها سبعون ألف يهودى في الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو بن العاص قيل ان سبب فتح الاسكندرية ان رجلا كان يقال له ابن بسامه كان بوابا فسأل عمرو بن العاص ان يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والاهل وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج فاحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمتهم وكان أكثر الناس يريدون قسمتها فقال عمرو لا أقدر أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه ان المسلمين طلبوا قسمتها فكتب اليه عمر لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد

عمرو واحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها [illegible] دينارين دينارين على كل رجل لايزاد على كل واحد في جزية أكثر من دينارين الا انه يلزم بقدر مايتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة واخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطس وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل الذمة وأخرج عن يحيي ابن أيوب ان أهل سلطيس وحصيل وبليهت ظاهروا الروم على المسلمين في جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو ابن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلوا فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك وأخرج ابن عبد الحكم عن هشام بن أبي رقية اللخمى ان عمرو بن العاص رضى الله عنه لما فتح مصر قال لقبط مصر من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته وان قبطيا من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكروا لعمرو أن عنده كنزا فارسل اليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا لا انما سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه من يده فكتب عمرو الى ذلك الراهب ان ابعث الى بما عندك وختمه بخاتم بطرس فجاءه رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوبا فيها مالكم تحت الفاسقية الكبيرة فارسل عمرو الى الفاسقية فحبس عنها الماء ثم قلع منها البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين اردبا ذهبا مضروبة فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقة ان يسعى على أحد منهم فيقتل قتل بطرس ثم ذكر الجلال السيوطى في حسن المحاضرة اختلاف العلماء في ان مصر فتحت صلحا أو عنوة فنقل عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب ان مصر كلها صلح الا الاسكندرية فانها فتحت عنوة ونقل عن عون بن حطان انه كان بقريات من مصر منهن أم دنين عهد واخرج عن يحيي بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين

سلطيس وهصيل وبلهيت ونقل عن ابن هبيرة ان مصر فتحت عنوة وأخرج عن عبد الرحمن بن زياد قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج عن أبي العالية انه سمع عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول لقد قعدت مقعدي هذا وما لاحد من قبط مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا يوفي لهم به وزاد في رواية عن ابن لهيعة ان عمرا قال ان شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت وفي رواية عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص ان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها ان يخرج منه شئ نظرا للاسلام وأهله وأخرج عن زيد بن اسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لاهل مصر عهد وأخرج عن الصلت بن أبي عاصم انه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان ابن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج نحو ذلك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعراك بن مالك وسالم بن عبد الله بن عمرو اخرج ابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزى من طرق عن سفيان بن وهب الخولانى قال لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير ابن العوام فقال ياعمرو اقسمها فقال عمرو بن العاص لاأقسمها فقال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فقال عمرو لم أكن لاحدث حدثا حتى اكتب بذلك الى أمير المؤمنين فكتب اليه عمر بن الخطاب أقرها حتى يغذوا منها حبل الحبلة يعنى ولد الولد وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعا ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم الى اليوم قال القضاعى ان فتح مصر كان يوم الجمعة في شهر محرم سنة عشرين وأنهم ساروا الى الاسكندرية في شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل في جماد الآخرة وان عمرو ابن العاص رضى الله عنه قفل من الاسكندرية بعد فتحها والمقام بها في ذى القعدة سنة عشرين وقال الليث بن سعد اقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم ان يسكنها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم ياأمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو لاأحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وأخرج ابن عبد الحكم أيضا عن يزيد بن أبي حبيب ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص

وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ان لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم اليكم قدمت فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط قال ابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص لما كان بمصر كان له فسطاط فلما أراد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال لقد تحرم بنا فأمر به فاقره كما هو حتى يطير الفراخ وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا أين ننزل قال الفسطاط يعنى فسطاطه الذى خلعه وكان مضروبا في موضع الدار الذى يعرف اليوم بدار الحصا فلذلك سميت مصر الفسطاط قال القضاعى لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عليهم امراء فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وقال ابن قتيبة ان العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط قال ابن فضل الله في المسالك مسجد عمرو بن العاص مسجد عظيم بمدينة الفسطاط بناه عمرو موضع فسطاطه وما جاوره وموضع فسطاطه حيث المحراب والمنبر وبنى عمرو بن العاص دارا لعمر بن الخطاب وكتب له انا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع فكتب الى عمرو انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره ان يجعلها سوقا للمسلمين قال ابن لهيعة هى دار البركة فجعلت سوقا فكان يباع فيها الرقيق وبنى خارجة بن حذافة غرفة عالية فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك اما بعد فقد بلغنى ان خارجة بن حذافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فأهدمها ان شاء الله والسلام فلما جاءه الكتاب هدمها وسأل المقوقس عمرو بن العاص ان يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين الف دينار فعجب عمرو من ذلك فكتب في ذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا تزرع وهى لا يستنبط بها ماء ولا ينتفع بها فسأله فقال انا لنجد صفتها في الكتب ان فيها غراس الجنة وفي رواية انا لنجد في كتابنا ان مابين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة فكتب بقوله الى عمر بن الخطاب فقال صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين وفي رواية انا لا نعلم غراس الجنة الا للمؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشئ فكان أول من دفن فيها رجل من مغافر يقال له عامر فقيل عمرت وروى عمرو ابن العاص عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض فقال أبو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله قال لانهم وأزواجهم في رباط الى يوم القيامة ثم قال عمرو بن العاص فاحمدوا الله معاشر المسلمين على ماأولاكم ولما فتح عمرو مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنه من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم وما ذاك قالوا اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال لهم عمرو ان هذا لايكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ماقبله فأقاموا بؤنه وابيب ومسرى لايجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في داخل النيل اذا أتاك كتابى فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الواحد القهار ان يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لايقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر وعن يزيد بن أبى حبيب ان موسى عليه السلام دعا على فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء حتى طلبوا موسى أن يدعو الله رجاء ان يؤمنوا فدعا الله فاصبحوا وقد أجراه الله ستةعشر ذراعا فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام

﴿ ذكر فتوحات العراق بعد مسير خالد بن الوليد الى الشام ﴾

لما أراد خالد بن الوليد المسير الى الشام بأمر أبى بكر رضى الله عنه أخذ معه بعض الجند كما تقدم واستخلف على من بقى بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى وهو صحابى من نسل ذهل ابن شيبان وينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار وفد المثنى على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه وسيره أبو بكر الصديق رضى الله عنه في صدر خلافته الى العراق قبل مسير خالد بن الوليد الى العراق وهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس وهون أمر الفرس عندهم وكان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأى أبلى في قتال الفرس بلاء لم يبلغه أحد وكان استخلاف خالد له على جيش العراق بأمر من أبى بكر رضى الله عنه فلما توجه خالد الى الشام واستخلفه على الجند أقام بالحيرة وذلك سنة ثلاث عشرة وكان

الفرس قد هلك ملكهم كسرى كما تقدم ثم استقام أمرهم على تملك شهرزان بن ازدشير بن شهريا بن سابور فوجه الى المثنى بن حارثة جيشا عظيما عليهم هرمز جاذويه فخرج المثنى من الحيرة نحوه فأقام ببابل فأقبل هرمز نحوه وكتب ملكهم كسرى الذى ملكوه عليهم الى المثنى كتابا انى قد بعثت اليكم جندا من وحش أهل فارس انما هم رعاء الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم الا بهم فكتب اليه المثنى انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عند الله فضيحة وعند الناس الملوك وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما أضررتم بهم فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنى وهرمز ببابل فاقتتلوا قتالا شديدا وكان معهم فيل يفرق الناس فانتدب له المثنى ومعه ناس فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يقتلونهم ومات ملكهم كسرى شهرزان لما انهزم هرمز واختلف الفرس وبقي مادون دجلة بيد المثنى ثم اجتمعت الفرس وملكوا دخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر فخلعوها وملكوا سابور ابن شهرزان وقام بتدبير أمره الفراخزاد بن لينذوان فقتل وثارت بينهم فتنة وحصروا الملك سابور ثم قتلوه وملكوا ازرميدا اخت بنت كسرى وتشاغلوا بتلك الفتنة وابطأ على المثنى خبر أبي بكر رضى الله عنه فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وهو صحابى من نسل سدوس بن شيبان والخصاصية جدته نسب اليها وهى من الازد وأبوه يزيد بن سعيد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد الازد وكان اسمه زجا فسماه النبي صلى الله عليه وسلم بشيرا وكان سير المثنى الى أبي بكر رضى الله عنهما ليخبره خبر المشركين ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فانهم أنشط الى القتال من غيرهم فقدم المدينة وأبو بكر رضى الله عنه مريض قد أشفى فأخبره الخبر فاستدعى عمر وقال انى لارجو ان أموت يومى هذا فاذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله واذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم ومات أبو بكر رضى الله عنه ليلا فدفنه عمر رضى الله عنه وندب الناس مع المثنى وكان الانتداب الى فارس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها اليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وقهرهم الامم فكان عمر رضى الله عنه يبايع الناس ثلاثة أيام وفي الرابع ندب الناس الى العراق فكان أول منتدبه أبو عبيد بن مسعود الثقفى وهو صحابى أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو والد المختار وانتدب أيضا سعد بن عبيد الانصارى

وسليط بن قيس الانصارى وكانا ممن شهد بدرا وتتابع الناس وتكلم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا ان شاء الله مابعدها فاجتمع الناس فقيل لعمر أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار قال لا والله لأافعل وانما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم الى العدو فاذا فعل فعالهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خفافا وثقالا ويسبقون الى الرفع أولى بالرياسة فهم والله لاأؤمر عليهم الا أولهم انتدابا ثم دعا أبا عبيد وسعدا وسليطا وقال لهما لو سبقتما لوليتكما ولادركتما بها مالكما من السابقة فأمر أبا عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا يمنعنى ان أؤمر سليطا الا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضياع الاعراب فانه لايصلحها الا الرجل المكيث وواصاه بجندل فكان بعث أبي عبيد أول جيش سيره عمر رضى الله عنه ثم بعده سير يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يجتمع بجزيرة العرب دينان واعتذر عمر في عزله المثنى عن الامارة بقوله انى لم أعزله وخالد بن الوليد عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت ان يوكلوا اليهما فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة

﴿ ذكر خبر النمارق ﴾

فسار أبو عبيد الثقفى وسعد بن عبيد وسليط بن قيس الانصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم الى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار من حسن اسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس تشاغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاد عشر سنين ثم يكون الملك في آل كسرى ان وجدوا من غلمانهم والا ففى نسائهم فدعت بوران مرازبة فارس وأمرتهم ان يسمعوا لرستم ويطيعوا وتوجته فدانت له فارس قبل قدوم أبى عبيد ثم قدم المثنى الى الحيرة في عشر وقدم بعده أبو عبيد بشهر فكتب رستم الى الدهاقين ان يؤثروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلا يؤثر باهله ووعدهم يوما وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعجل نخرج من الحيرة ونزل خفان ونزل جيش الفرس النمارق فسار اليه أبو عبيد واقتتلوا بالنمارق قتالا شديدا فهزم الله أهل فارس واسر رئيس جيشهم واسمه جابان ولحق المنهزمون كسكر وبها نرسى ابن خالة الملك فسار اليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزم الفرس وهرب نرسى وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا

الغنائم ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعث الجالينوس بجيش فنزل بباقشياثا فسار اليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابي عبيد انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحذر لسانك ولا تفشين سرك فان صاحب السر مايضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه واذا ضيعه كان بمضيعة فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظا على ماأوصاه به عمر رضي الله عنه

ذكر وقعة قس الناطف ويقال لها الجسر واستشهاد أبي عبيد رضي الله عنه

ولما رجع الجالينوس الى رستم منهزما ومن معه من جنده قال رستم أى العجم أشد على العرب قالوا بهمن جاذويه المعروف بذى الحاجب فوجهه ومعه فيله ورد الجالينوس معه وقال لبهمن ان انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه فأقبل بهمن جاذويه فنزل بقس الناطف وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأة ابي عبيد في منامها ان رجلا نزل من السماء باناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد فقال هذه الشهادة ان شاء الله تعالى وعهد الى الناس فقال ان قتلت فعلى الناس فلان فان قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الاناء وكلهم من قومه ثقيف ثم قال فان قتل فلان فعلى الناس المثنى بن حارثة ثم عبر على الجسر بجيوشه الى قس الناطف فالتقى مع بهمن وجيوشه واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الامر بالمسلمين فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا اليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لاتحمل على جماعة الا دفعتهم فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة وقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الابيض فقطع بطانه ووقع الذى عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلا الا حطوا رحله وقتلوا أصحابه وأهوى الفيل لابي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذى أمر به بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيل الامير الذى بعد أبي عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة فهرب عنه الناس فلما رأى عبد الله بن مرشد الثقفى مالقى أبو عبيد وما يصنع الناس بادرهم الى الجسر فقطعه وقال أيها الناس موتوا على مامات عليه أمراؤكم أو تظفروا وحاز المشركين المسلمين الى الجسر فتواثب بعضهم الى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن

صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال انا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم وقاتل عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفى قتالا شديداوقاتل أبو زبيد الطائى قتالا شديدا حمية للعرب وكان نصرانيا قدم الحيرة لبعض أمر ونادى المثنى من عبر نجا وأمر بعقد الجسر فعبر الناس وكان آخر من قتل سليط بن قيس وعبر المثنى فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة وبقى المثنى في قلة وكان قد جرح وانبت فيه حلق من درعه وكان جملة من مات من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وقتل من الفرس ستة آلاف وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذى بينهم وبينه وأنهم صاروا فريقين الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان فرجع بهمن الى المداين

ذكر وقعة البويب

لما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقعة أبى عبيد بالجسر ندب الناس الى المثنى وكان ممن ندب بجيلة وأمرهم الى جرير بن عبد الله البجلى فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه الى العراق فأبوا الا الشام فعزم عليهم عمر التوجه الى العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم الى المثنى وكتب الى أهل الردة فلم يأته أحد الا بعثه الى المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا اليه في جمع عظيم وجاءه انس بن هلال النمرى في جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر رستم والفيرزان فجمعوا جموعهم من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب وكان على جيش الفرس مهران الهمدانى فأرسل الى المثنى يقول اما ان تعبر الينا واما أن نعبر اليك فقال المثنى اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات وعبى المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالافطار ليقووا على عدوهم فأفطروا واقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل فقال المثنى لاصحابه ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ودنوا من المسلمين وطاف المثنى في صفوفه يحرضهم وقال انى مكبر ثلاثا فتهيؤا ثم احملوا في الرابعة فلما كبر أول تكبيرة اعجلتهم فارس وخالطوهم فلما طال القتال واشتد قال المثنى لانس بن هلال النمرى انك امرؤ عربى وان لم تكن على ديننا فاذا حملت على مهران فاحمل معى فأجابه فحمل المثنى على مهران فازاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون ان يفزعوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون وأفنى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد أزال القلب وثب مجنبتا المسلمين على مجنبتى المشركين وجعلوا يردون الاعاجم على ادبارهم حتى هزموا الفرس

وسبقهم المثنى الى الجسر وأخذ طريق الاعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثا بقيت عظام القتلى دهرا طويلا وكانوا يحرزون القتلى مائة ألف وسمى ذلك اليوم الاعشار احصى مائة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس وتبعهم المسلمون الى الليل ومن الغد الى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة واعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضى الله عنه

ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد

سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وقضاعة وربيعة يخفرونهم فركب المثنى واغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخضرا ثم رجع الى الانبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا اليه وأتوه بالاغلاق والزاد وأخذ منهم الادلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التى اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم في اسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ماشاء ثم رجع الى الانبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الاطراف وبعث خيلا على احياء تغلب بصفين فأغاروا عليهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الاموال وأغاروا على قوم من تغلب والنمر بشاطئ دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فأصابوا ماشاؤا من النعم

ذكر الخبر الذى هيج أمر القادسية وتملك يزدجرد

لما رأى أهل فارس مايفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس واطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما ان نقركما على هذا الرأى وان تعرضاها للهلكة مابعد بغداد وساباط وتكريت الا المداين والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما ثم نهلك وقد اشتفينا منكما ولم يبق من ولد كسرى من الذكور الاغلام عمره احد وعشرون سنة يدعى يزدجر فملكوه واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته فجندوا جنودا كثيرة فبلغ ذلك المثنى والمسلمين فكتبوا الى عمر بن الخطاب ثم بلغهم ان أهل السواد كفروا وصار من له عهد كمن لا عهد له فلما وصل الكتاب الى عمر رضى الله عنه قال والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رأسا ولاذا رأى وشرف وبسطة ولا خطيبا ولا شاعرا الا ورماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم وكتب عمر الى المثنى ومن معه يأمره بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التى تلى العجم وان لايدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدا من أهل النجدات ولافارسا الا احضروه اماطوعا أوكرها ففعلوا ذلك وكان ذلك في ذى القعدة

سنة ثلاث عشرة وارسل عمر في الحجة عند مخرجه الى الحج الى عماله على العرب أن لايدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى الا وجهوه اليه فاما من كان على النصف مابين المدينة والعراق فجاء اليه بالمدينة لما عاد من الحج واما من كان أقرب الى العراق فانضم الى المثنى بن حارثة وجاءت امداد العرب الى عمر ولما اجتمع الناس استخلف على المدينة عليا رضى الله عنه وخرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضرار فعسكر به في ابتداء سنة أربع عشرة ولايدرى الناس ماذا يريد ايسير ام يقيم فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير الى العراق فقال العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وقال اغدوا واستعدوا فانى سائر الا أن يجيء رأى هو أمثل من هذا ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وارسل يطلب حضور على رضى الله عنه من المدينة فحضر فاجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان والزبير وطلحة وعبدالرحمن ابن عوف ثم استشارهم فاتفقوا على ان يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرميه بالجنود فان كان الذى يشتهى فهو الفتح والا أعاد رجلا وبعث آخر ففى ذلك غبن العدو فجمع عمر بقية الناس وقال لهم انى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم وقد رأيت انى أقيم وأبعث رجلا فأشيروا علي برجل وكان سعد بن أبي وقاص بعثه لصدقات هوازن وكتب اليه بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح فجاءه كتابه وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول سعد في كتابه قد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذو نجدة ورأى وصاحب حيطة يحفظ حريم قومه اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فلما وصل كتابه لعمر قالوا له قد وجدته ياأمير المؤمنين قال من هو قالوا سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص فانتهى الى قولهم فأرسل اليه وطلبه وأقره على حرب العراق وأوصاه بوصايا كثيرة وسرحه فيمن اجتمع اليه من نفر المسلمين وهم أربعة آلاف ثم أمده بألفين من أهل اليمن وألفين من أهل نجد وكان المثنى في ثمانية آلاف وكان سعد بن أبي وقاص من بنى زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم فهو سعد بن مالك ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فيلتقى نسبه مع آمنة في عبد مناف بن زهرة ومع النبي صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة وكان سعد رضى الله عنه من السابقين في الاسلام ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن

الشجعان المشهورين وهو أول من أراق دما في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله وشاهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى يوم أحد بلاء عظيما وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وشهدله بالجنة ودعا له ان الله يجيب دعوته فكان مجاب الدعوة ومناقبه كثيرة رضى الله عنه وبه فتح الله العراق ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى المستحقين للخلافة ومما أوصاه به عمر رضى الله عنه لما جعله أميرا على جيوش العراق أنه قال لايغرنك من الله ان قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لايمحو بالسيء السيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الاطاعته فالناس في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويذكرون ماعندهم بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ووصاه بالصبر وسار سعد والمثنى قبله وصار ينتظر قدومه فمات المثنى قبل قدوم سعدمن جراحات كانت به انتقضت عليه ولما وصل سعد رتب الجيوش ولم يزل عمر رضى الله عنه يمده بالرجال حتى استكمل عنده ستة وثلاثون ألفا وأوصى المثنى قبل موته أخاه المعنى بن حارثة ان يبلغ سعد اذا قدم ان يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى قعر دارهم فان يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم وان كانت الاخرى رجعوا الى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم واجرأ على أرضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم فلما بلغ سعدا ذلك ترحم على المثنى ومن معه وكان مع سعد تسعة وتسعون من أهل بدر وثلثمائة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان الى مافوق ذلك وثلاثمائة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأى المثنى روى الطبرانى ان عمر رضى الله عنه كتب الى سعد بن أبى وقاص قد وجهت اليك أو أمددتك بألفى رجل عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا توهما وانما قال ولا توهما لما يعلم فيهما من شدة الاقدام بالعسكر وعدم التأنى وكان كل منهما يعد بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما وسيأتى ذكر شيء مما كان منهما مما يدل على ذلك وكان ملك العرب عامل كسرى بالحيرة قبيصة بن اياس الطائى فلما سمع بمجيء سعد سأل عنه وعنده عبد الله ابن سنان الاسدى فأخبره أن سعدا رجل من قريش فقال قبيصة والله لاحاد به القتال فان قريشا عبيد من غلب والله لايخرجون من بلادهم الا بخفين فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ولحق بسعد فاسلم وسار سعد بالجيوش حتى نزل

القادسية وهى قريب من موضع الكوفة وكتب عمر بن الخطاب لسعد رضى الله عنهما انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموهم فمتى لاعب أحد منكم أحدا من العجم بامان أو باشارة أو بلسان كان عندهم أمانا فاجروا لهم ذلك مجرى الامان والوفاء فان الخطا بالوفا بقية وان الخطا بالغدر هلكة فيها وهنكم وقوة عدوكم وكان سعد قد جعل على مقدمة جيشه زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية التميمى وهو صحابى وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فلما نزل زهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة فلما جاوزوا السليحين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوهم واذا أخت ازاد مرد بن ازاد به مرزبان الحيرة تزف الى صاحب الصنين وهو من أشراف العجم فحمل بكير بن عبدالله الليثى أمير السرية على شير زاد بن ازاد به فدق صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الاثقال وآنية ازاد به في ثلاثين أمراء من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم مالايدرى قيمته فاستاق ذلك ورجع به وأتى به سعدا فقسم ذلك على المسلمين ومكث سعد بالقادسية شهرا لم يأته أحد من الفرس وخيله تغير بالاطراف وتأتى بغنائم كثيرة حتى أخصب المسلمون ووصف بعض من كان مع سعد قوم سعد الذين كانوا معه فى الجيش للحجاج بن يوسف بقوله مارأينا قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد بغضا لها وكانوا ابرارا أتقياء ليس فيهم جبان ولا غدار فاستغاث أهل السواد الى يزدجرد وأعلموه ان العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شئ وقد أخربوا مابينهم وبين الفرات ونهبوا الدواب والاطعمة وان أبطأ الغياث أعطيناهم بأيدينا وكتب له بذلك الذى لهم الضياع وهيجوه على ارسال الجنود فارسل يزدجرد الى رستم وقال له انى أريد ان أوجهك في هذا الوجه فانت رجل فارس اليوم وقد ترى ماحل بالفرس مما لم يأتهم مثله فاظهر له الاجابة ثم قال له دعنى فان العرب لاتزال تهاب العجم مالم تضر يهم بى ولعل الدولة ان تثبت بى اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأى في الحرب أنفع من بعض الظفر والاناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال قد اضطر في تضييع الرأى الى اعظام نفسى وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به فانشدك الله في نفسك وملكك ودعنى اقم بعسكرى واسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك والا بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بدا صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فانى لاأزال مرجوا في أهل فارس مالم أهزم فابى الا ان يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفا وخرج هو في ستين ألفا

وفي ساقته عشرون ألفا وجاءت الأخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر لايكربنك مايأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه الى الله فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم فارسل سعد نفرا ممن هم كذلك وأمرهم أن يأتوا يزدجرد فخرجوا من العسكر وتركوا رستم واستأذنوا على يزدجرد فاذن لهم فدخلوا وقد أحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبايديهم السياط واحضر الترجمان وقال سلهم ماجاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا من أجل انا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة الاوقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر ان نبتدئ الى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطامع فازداد فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا ان نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم فتكلم يزدجرد وقال انى لاأعلم أمة في الارض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم ولا تطمعوا ان تقدموا لفارس فان كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا وان كان الجهد فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فقام المغيرة بن زرارة الاسدى وقال أيها الملك ان هؤلاء رؤس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الاشراف وانما يكرم الاشراف ويعظم حقهم الاشراف وليس كل ماأرسلوا به قالوه ولا كل ماتكلمت به أجابوك عنه فجاوبنى لاكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك فأماماذكرت من سوء الحال فهى على ماوصفت واشد ثم ذكر من سوء عيش العرب وارسال الله النبى صلى الله عليه وسلم اليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية ثم قال له اختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال لولا ان الرسل لاتقتل لقتلتكم لاشئ لكم عندى ثم

استدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ثم قال لرسل سعد ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور فقام عاصم بن عمرو الكنانى الليثى ليأخذ التراب وقال أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج الى راحلته فاخذ التراب وركبها وقال لسعد لما جاءه أبشر لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم واشتد ذلك على جلساء الملك وقال الملك لرستم ما كنت أرى ان في العرب مثل هؤلاء ماأنتم باحسن جوابا منهم ولقد صدقنى القوم لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن عليه على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه فقال رستم أيها الملك انه أعقلهم وتطير الى ذلك وأبصرها دون أصحابه وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث في أثر الوفد وقال لثقته ان أدركهم الرسول تلافينا أرضنا وان أعجزوه سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم فقال ذهب القوم بارضكم من غير مثال وكان منجما كاهنا وأغار سواد بن مالك التميمى بعد مسير الوفد الى يزدجرد على النجاف والفراض فاستاق ثلاثمائة دابة من بين بغل وحمار وثور وأوقروها سمكا وصبح العسكر فقسمه سعد بين الناس ويسمون ذلك اليوم يوم الحيتان وبعث سعد سرية أخرى فأصابوا ابلا لبنى تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها فنحر سعد الابل وقسمها في الناس فأخصبوا وغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشى كثيرة وعاد وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وقال رستم للملك يشجعه بذلك ان فتح الله علينا توجهنا الى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أهلهم وبلادهم الى ان يقبلوا المال ولما فصل رستم عن ساباط كتب الى أخيه البنذوان أما بعد فرموا حصونكم واعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم وقدكان من رأيى مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسا فان السمكة قد كدرت الماء وان النعام حسنت والزهرة قد حسنت واعتدل الميزان وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم الا سيظهرون علينا ويستولون على مايلينا وان أشد مارأيت ان الملك قال لتسيرن أو لأسيرن بنفسى ولقى جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمين فشكا اليه وقال له الا ترى ماأرى فقال له رستم أما أنا فاقاد بخشاس وزمام ولا أجد بدا من الانقياد ثم سار فنزل بكونى فأتى برجل من العرب فقال ماجاء بكم وماذا تطلبون فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم ان أبيتم أن تسلموا قال رستم فان قتلتم قبل ذلك قال من قتل منا دخل الجنة

ومن بقي منا أنجزه الله ماوعده فنحن على يقين فقال رستم قد وضعنا اذن في أيديكم فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تجاول الانس وانما تجاول القدر فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهلها الى رستم فقال يامعشر فارس والله لقدصدق العربى والله ماأسلمنا الا أعمالنا والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حزب أحسن سيرة منكم ان الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان فاذا تغيرتم فلا أرى الا مغيرا مابكم وما أناباآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم وأتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهددهم وهم بهم فقال له ابن بقيلة لاتجمع علينا ان تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا ولما نزل رستم بالنجف رأى في منامه كأن ملكا نزل من السماء ومعه النبي صلى الله عليه وسلم وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم الى عمر فأصبح رستم حزينا وأرسل سعد السرايا و رستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسليحين فطافت في السواد فبعث سوادا وحميضة في مائة فأغاروا على النهرين وبلغ رستم الخبر فأرسل اليهم رستم خيلا وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابر الاسدى في آثارهم فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم وأرسل سعد عمرو ابن معدى كرب وطليحة الاسدى طليعة فساروا في عشرة فلم يسيروا الا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤها فرجع عمرو ومن معه وأبى طليحة الا التقدم فقالوا له أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن فارجع معنا فأبى فرجعوا الى سعد فأخبروه بقرب القوم ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسم فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه ثم فعل بآخر كذلك ثم خرج يعدو به فرسه ونذر به الناس فركبوا في طلبه فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه وهما أبناء عمه فازداد فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسره ولحق الناس فرأوا فارسى الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره فاحجموا عنه ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسى وأخبره الخبر فسأل الترجمان الفارسى عن ذلك فطلب الامان فأمنه سعد فقال أخبركم عن صاحبكم هذا قبل ان أخبركم عمن قبلى باشرت

الحروب منذ أنا غلام الى الآن وسمعت بالابطال ولم أسمع بمثل هذا ان رجلا قطع فرسخين الى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض ان يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت فلما أدركناه قتل الاول وهو يعد بألف فارس ثم الثاني وهو نظيره ثم أدركته أنا وخلفت من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت ثم أخبره عن الفرس وأسلم ولزم طليحة وكان من أهل البلاء بالقادسية وسماه سعد مسلما ثم سار رستم وقدم الجالينوس وبهمن ذو الحاجب فنزل الجالينوس بحيال زهرة بن الحوية ونزل ذو الحاجب بطرناباذ ونزل رستم بالجزاره ثم سار رستم فنزل بالقادسية وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم لاجل ان يطاول المسلمين رجاء ان يضجروا بمكانهم فينصرفوا وكان قصده ان يطاولهم أكثر من ذلك لولا ان الملك يستعجله وينهضه وكان عمر قد كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضا فاستعد للمطاولة ولم يتضرر بها وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الابيض وكانت الفيلة تألفه فجعل في القلب ثمانية عشر فيلا وفي المجنبتين خمسة عشر فيلا فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ووقف على القنطرة وأرسل الى زهرة فوافقه فاداره على ان يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة ليس أمرنا أمر أولئك انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمتنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فاجبناه فقال الله لرسوله انى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد الا ذل ولا يعتصم به أحد الا عز فقال له رستم ماهو قال أما عموده الذى لا يصلح الا به فشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قال وأى شئ أيضاً قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء أخوة لاب وأم قال ما أحسن هذا ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون قال أى والله قال صدقتني اما ان أهل فارس منذ ولى ازدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا

يضرنا من عصى الله فينا فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفوا فارسل الى سعد ان ابعث الينا رجلا نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم فقال له ربعى بن عامر متى نأتهم جميعا يروا انا قد احتلفنا بهم فلا تزدهم على رجل فأرسله وحده فسار اليهم فحبسوه على القنطرة واعلم رستم بمجيئه فاظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب وأقبل ربعى على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب وقد فلما انتهى الى البسط قيل له انزل فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقهما وادخل الحبل فيهما فلم ينهوه واروه التهاون وعليه درع وأخذ عباة بعيره فتدرعها وشدها على وسطه فقالوا ضع سلاحك فقال لم آتكم لأضع سلاحى بأمركم أنتم دعوتمونى فاخبروا رستم فقال ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه فلم يدع لهم نمرقا ولا بساطا الا أفسده وهتكه برمحه فلما دنى من رستم جلس على الارض وركز رمحه على البسط فقيل له ماحملك على هذا قال انا لا نستحب القعود على زينتكم فقال له ترجمان رستم ماجاء بكم قال الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه من قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قاتلناه حتى نفضى الى الجنة أو الظفر فقال رستم قد سمعنا قولكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه قال نعم وان مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا نمكن الاعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل اما الاسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك وان احتجت الينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع الا أن تبدأ بنا أنا كفيل بذلك عن أصحابى قال أسيدهم انت قال لا لكن المسلمون كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم كلاما قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكلب أما ترى الى ثيابه فقال ويحكم لا تنظروا الى ثيابه ولكن انظروا الى الرأى والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم فلما كان من الغد أرسل رستم الى سعد ابعث الينا ذلك الرجل فبعث اليهم حذيفة بن محصن فاقبل في نحو من ذلك الزى ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكبا قال له انزل قال لأفعل فقال له ماجاء بك ولم يجيء الاول قال له ان أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتى فقال ماجاء بكم فأجابه مثل الاول فقال رستم المواعدة الى يوم ماقال

نعم ثلاثا من أمس فرده وأقبل على أصحابه وقال ويحكم اما ترون ماأرى جاءنا الاول بالامس فغلبنا على أرضنا وحقر مانعظم وأقام فرسه على زبرجنا وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يمن الطاير يقوم على أرضنا دوننا فلما كان الغد أرسل الى سعد ابعث الينا رجلا فبعث المغيرة بن شعبة فأقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لايوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها فاقبل المغيرة حتى جلس موضع رستم على سريره فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه فقال قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى فكان أحسن من الذى صنعتم ان تخبرونى ان بعضكم أرباب بعض فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه المقول فقالت السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الامة ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الاعداء اشرافا في الامم فليس لاحد مثل عزنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا الا اليوم واليومين والشهر للذنوب فاذا انتقم الله منا ورضى علينا يرد لنا الكرة على عدونا ولم يكن في الامم أمة أصغر عندنا أمرا منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لانرا كم شيأ وكنتم تقصدوننا اذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشئ من التمر والشعير ثم نردكم وقد علمت انه لم يحملكم على ماصنعتم الا الجهد في بلادكم فأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل واحد منكم بوقرتمر وتنصرفون عنا فانى لست أشتهى ان اقتلكم فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه قال ان الله خالق كل شئ ورازقه فمن صنع شيأ فانما هو يصنعه وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ولم يزل أهل الشدايد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدايد حتى تنزل بهم ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر الى تغير الحال ولو كنا فيما ابتلينا به أهلا لكان عظيم ماابتلينا به مستجلبا من الله رحمة ورأفة علينا ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا ثم ذكر مثل ماتقدم من ذكر الاسلام والجزية والقتال وقال له وان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لاصبر لنا عنه

فقال رستم اذن تموتون دونها فقال المغيرة يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار
ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم فاستشاط رستم غضبان ثم حلف ان لا يرتفع الصبح غدا
حتى تقتلكم أجمعين وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم هؤلاء
والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم ان
لايختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شئ فلجوا
وتجلدوا فارسل رستم رسوله خلف المغيرة وقال له اذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه تفقأ
غدا فاعلمه الرسول بذلك فقال المغيرة بشرتني بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم
أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الاخرى ذهبت فرجع الى رستم فاخبره فقال اطيعوني
ياأهل فارس انى لأرى فيكم نهمة لاتستطيعون ردها ثم أرسل اليه سعد بقية ذوى الرأى
فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم ان أميرنا يدعوك الى ماهو خير لنا ولك والعافية ان تقبل
مادعاك اليه ونرجع الى أرضنا وترجع الى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم
كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك
على يديك وليس بينك وبين ان تغبط بهذا الامر الا ان تدخل فيه وتطرد به الشيطان
عنك فقال لهم ان الامثال أوضح من كثير من الكلام انكم كنتم أهل جهد وقشف
لاتنتصفون ولا تمتنعون فلم نسيء جواركم وكنا نميركم ونحسن اليكم فلما طعمتم طعامنا
وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ثم أتيتمونا وانما مثلكم ومثلنا كمثل رجل
كان له كرم فرأى فيه ثعلبا فقال وما ثعلب فانطلق الثعلب فدعا الثعالب الى ذلك الكرم
فلما اجتمعوا اليه سد صاحب الكرم النقب الذى كن يدخلن منه فقتلهن فقد علمت ان
الذى حملكم على هذا الحرص والجهاد فارجعوا ونحن نميركم لانى لا اشتهى ان أقتلكم
ومثلكم أيضاً كالذباب يرى العسل فيقول من يوصلني اليه وله درهمان فاذا دخل غرق
ونشب فيقول من يخرجني وله أربعة دراهم وقال أيضاً ان رجلا وضع سلة وجعل طعاما
فيها فأتى الجرذان فخرقوا السلة فدخلوا فيها فأراد سدها فقالوا له لاتفعل اذن تخرقه ولكن
انقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فاذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كل ماخرج
منها وقد سددت عليهم ان يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحد الا قتل فما دعاكم الى
ماصنعتم ولا أرى عددا ولا عدة قال فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم ومامن الله به عليهم
من ارسال رسوله واختلافهم أولا ثم اجتماعهم على الاسلام وما أمرهم به من الجهاد وقالوا
وأماماضربت لنا من الامثال فليس كذلك ولكن انما مثلكم كمثل رجل غرس أرضا

واختار لها أشجارا وأجرى اليها الانهار وزينها بالقصور وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها فخلا الفلاحون في القصور على مالا يحب فاطال امهالهم فلم يستحيوا فدعا اليها غيرهم وأخرجهم منها فان ذهبوا عنها تخطفهم الناس وان أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبدا والله لولم يكن مانقول حقا ولم يكن الا لدينا لما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم ولقارعناكم عليه فقال رستم أتعبرون الينا أم نعبر اليكم فقالوا اعبروا الينا ورجعوا من عنده عشيا وأرسل سعد الى الناس ان يقفوا مواقفهم وأرسل اليهم شأنكم والعبور فارادوا القنطرة فقال لا ولا كرامة أما شئ غلبناكم عليه فلا نرده عليكم فباتوا يسكرون ﴿أى يسدون﴾ العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوه طريقا واستتم بعد ماارتفع النهار ورأى رستم من الليل كأن ملكا نزل من السماء فاخذ قسى أصحابه فختم عليها ثم صعد بها الى السماء فاستيقظ مهموما واستدعى خاصيته فقصها عليهم وقال ان الله ليعظنا لو اتعظنا ولما ركب رستم ليغير كان عليه درعان ومغفر وأخذ سلاحه ووثب فاذا هو على فرسه ولم يضع رجله في الركاب وقال غدا ندقهم دقا فقال له رجل ان شاء الله فقال وان لم يشأ ثم قال انما صفا للثعلب حين مات الاسد يعنى كسرى وأنى اخشى ان تكون هذه سنة القرود وانما قال هذه الاشياء توهينا للمسلمين عند الفرس والا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين وقد أظهر ذلك الى من يثق به

﴿ ذكر يوم ارماث ﴾

لما عبر الفرس العتيق ﴿ اسم للماء مطلقا ويسمى به نهر هناك ﴾ وجلس رستم على سريره وضرب عليه طياره وعبا في القلب ثمانية عشر فيلا عليها صناديق ورجال وفي المجنبتين ثمانية أو سبعة أفيال وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته وكان الملك يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالا على كل دعوة ﴿ أى وظيفة ﴾ رجلا أولهم على باب ايوانه وآخرهم مع رستم فكل مافعل رستم شيأ قال الذى معه للذى يليه كان كذا وكذا ثم يقول الثانى ذلك للذى يليه وهكذا الى ان ينتهى الى يزدجرد في أسرع وقت وأخذ المسلمون مصافهم وكان أميرهم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أصابه دماميل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس انما هو مكب على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه ولو تعداه الصف فواق ناقة لاخذ برمته وما نقص ذلك من شجاعة سعد رضى الله عنه وعابه بعض من كان يبغضه فقال

تقاتل حتى أنزل الله نصره　　وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة　　ونسوة سعد ليس فيهن ايم

فبلغت أبياته سعدا وكان مجاب الدعوة فقال اللهم ان كان هذا كاذبا وقال الذى قاله رياء وسمعة فاقطع عنى لسانه فبينما هو واقف في الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصابه فكان سببا لاعتقال لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى ونزل سعد الى الناس فاعتذر اليهم وأراهم مابه من القروح في فخذيه واليتيه فعذره الناس وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفرا ممن شغب عليه فحبسهم في القصر منهم أبو محجن الثقفي رقيدهم وقيل بل كان حبس أبي محجن بسبب شرب الخمر واعلم الناس انه قد استخلف خالد بن عرفطة فسمعوا واطاعوا وخطب الناس يومئذ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ماوعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس وكذلك فعل أمير كل قوم وأرسل سعد نفرا من ذوى الرأى والنجدة منهم المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الاسدى وغالب وعمرو بن معدى كرب وامثالهم ومن الشعراء الشماخ والحطيئة واوس ابن مغراة وعبيدة بن الطيب وغيرهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق وقد تقدم ان جيش رستم كان مائة وعشرين ألفا وجيش المسلمين كان بضعة وثلاثين ألفا وكان مع الفرس ثلاثون ألف مسلسل وأمر سعد الناس بقراءةسورة الجهاد وهى الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فأنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم فاذا كبرت الثالثة فكبروا وينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لاحول ولاقوة الابالله فلما كبر سعد الثانية برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج اليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب وبرز غالب بن عبد الله الاسدى وأنشد أبياتا فخرج اليه هرمز وكان من ملوك الباب وكان متوجا فأسره غالب فجاء به سعدا ورجع وبرز عاصم بن عمرو التميمى وطارد فارسا فانهزم فتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأسر عاصم رجلا على بغل وعاد به واذا هو خباز الملك ومعه من طعام الملك وخبيصه فأتى به سعد فنفله أهل موقفه وخرج فارس فطلب البراز فبرز اليه عمرو بن معدى كرب فأخذه وجلد به الارض فذبحه

وأخذ سواريه ومنطقته وحملت الفيلة على المسلمين ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها وارسل سعد الى بنى أسد ان دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك في كتائبهما فباشروا الفيلة وخرج الى طليحة فيل عظيم منهم فقتله طليحة وقام الاشعث بن قيس في كندة فقال معشر كندة لله در بنى أسد أى فر يفرون وأى هز يهزون عن مواقفهم اعنى كل قوم ما يليهم وانتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما احسنتم اسوة قومكم من العرب فنهد ونهدوا معه فازالوا الذين بازائهم فلما رأى الفرس مايلقى الناس والفيلة من اسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذوالحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد وحملت الفيلة على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فأرسل سعدالى عاصم بن عمرو التميمى فقال يامعسر بنى تميم اما عندكم لهذه الفيلة من حيلة قالوا بلى والله ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال يامعسر الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين مايربط به القتب) وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد واقبل أصحاب عاصم على الفيلة فاخذوا باذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فما بقى لهم فيل الا عوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارسا عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع هؤلاء وهؤلاء وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردأ للناس وكان عاصم حامية للناس وهذا اليوم الاول وهو يوم ارماث

ذكر يوم اغواث

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك على شرف وهو واد بين العذيب وعين الشمس فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصى الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية فلما قدم كتاب عمر على أبى عبيدة بن الجراح بارسال أهل العراق سيرهم والامير عليهم هاشم ابن عتبة بن أبى وقاص وكان من الشجعان المشهورين وكان له صحبة أسلم عام الفتح رضى الله عنه وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمى وله صحبة روى عنه انه قال شهدت وفاة

رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم اغواث وقد عهد الى أصحابه ان يتقطعوا اعشارا وهم ألف كل مابلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة تقدم أصحابه في عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه ﴿ أى القعقاع ﴾ يقول أبو بكر رضى الله عنه لايهزم جيش فيهم مثل هذا نخرج اليه ذوالحاجب فعرفه القعقاع فنادى يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد الى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالامس مصيبة وفرحوا بقتل ذى الحاجب وانكسرت الاعاجم بذلك وطلب القعقاع البراز نخرج اليه الفيرزان والبندوان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بنى تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البندوان ونادى القعقاع يامعشر المسلمين باشروهم بالسيوف فانما يحصد الناس بها فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم مايعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل لان توابيتها كانت قد تكسرت بالامس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد وكان القعقاع كلما طلعت قطعة من أصحابه كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على ابل قد ألبسوها وهى مجللة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع ان يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم اغواث كما فعلت فارس يوم ارماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين فلما رأى الناس ذلك سروا بهم فلقى الفرس من الابل أعظم مالقى المسلمون من الفيلة وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه وخرج رجل من فارس يبارز فبرز اليه الاعرف بن الاعلم العقيلى فقتله ثم برز اليه آخر فقتله وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا بسلاحه فغبر في وجوههم التراب حتى رجع الى أصحابه وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجهر الهمدانى وبارز الاعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان الى نصف النهار فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل فكانت ليلة ارماث تدعى الهدأة وليلة اغواث تدعى السواد ولم يزل المسلمون يرون يوم اغواث الظفر وقتلوا عامة اعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم فلولا ان خيلهم عادت أخذ رستم أخذا وبات الناس على مابات عليه القوم ليلة أرماث وقد ذكرنا ان أبا محجن الثقفى كان قد حبس بالقصر وقيد فلما كان يوم اغواث قال لسلمى زوج سعد

ابن أبي وقاص هل لك ان تخلين عني وتعير بني البلقا وهي فرس سعد فلله عليّ ان سلمني الله ان أرجع اليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت فلم يزل بها حتى رضيت ان تطلقه فاطلقته وأعطته البلقا فرس سعد فركبها وخرج للقتال ولم يعلم به أحد فلما كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنة الفرس فكان يقصف الناس قصفا منكرا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفون من هو فقال بعضهم هو من بعض أصحاب هاشم أو هاشم بنفسه وكان سعد يقول لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقا وقال بعض الناس هذا الخضر وقال بعضهم لولا ان الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا انه ملك فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد فقالت له سلمى في أي شيء حبسك سعد فقال والله ماحبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت

اذا مت فادفني الى أصل كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني ... أخاف اذا مامت ان لا أذوقها

فلذلك حبسني فلما أصبحت سلمي أتت سعدا فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبي محجن فاطلقه فقال اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله فقال لاجرم لا أجيب لساني الى قبيح أبدا وكان عدد قتلى المسلمين وجرحاهم يوم أغواث الفين من جريح وميت ومن المشركين عشرة آلاف فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم الى المقابر والجرحى الى النساء وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد وأما قتلى المشركين فبين الصفين وكان ذلك مما يقوى المسلمين وبات القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابه الى المكان الذى فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان جاء هاشم فذاك والا جددتم للناس رجاء وجدا لا يشعر به أحد وأصبح الناس على مواقفهم فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فعبى أصحابه وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيت الفيلة حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها ان تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالامس لأن الفيل اذا كان وحده كان أوحش واذا أطافوا به كان أونس فلما انتشب القتال كبر المسلمون وتقدموا وكثر الطعن والضرب وأقبل هاشم والحرب قائم فعبى أصحابه سبعين سبعين وحمل حتى خالط القلب واشتد القتال وحمل عمرو بن معدى كرب وضرب في الفرس حتى ستره الغبار

وحمل أصحابه فافرج المشركون عنه بعد ماصرعوه وان سيفه لفي يده يصادمهم وقد طعن فرسه فاخذ برجل فرس أعجمي فلم يطلق الجرى فنزل عنه صاحبه وفر الى أصحابه وركبه عمرو وبرز فارس فبرز اليه رجل من المسلمين يقال له بشر بن علقمة وكان قصيرا فترجل الفارس اليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته فلما سل سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثنى عشر ألفا فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل الى القعقاع وعاصم بن عمرو اكفياني الابيض وكانت كلها آلفة له وكان بازائهما وقال لحمال والزبيل اكفياني الاجرب وكان بازائهما فاخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل وفعل حمال والزبيل بمثل فعلهما فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عين الفيل الابيض فنفض رأسه فطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والزبيل الاسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى وضربه الزبيل فابان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنف الزبيل وجبينه بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحا وبقي الفيل جريحا متحيرا بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه واذا أتى صف المشركين نخسوه وولى الفيل وكان يدعى الأجرب وقد عور حمال عينه فالقى نفسه في العتيق فاتبعته الفيلة فخرقت صف الاعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا فاشتد القتال وصبر الفريقان وجاء الليل وكانت تسمى تلك الليلة ليلة الهرير لتركهم الكلام وانما كانوا يهرون هريرا وأرسل سعد طليحة الاسدى وعمرو بن معدى كرب ليلة الهرير الى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها حرسا خشية ان يأتى القوم منها فلما أتياها قال طليحة لو خضنا وأتينا الاعاجم من خلفهم قال عمرو بل نعبر أسفل فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الاعاجم فلم يدركوه وأما عمرو فانه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج جماعة من فرسان المسلمين وطاردوا جماعة من الفرس فاذاهم لايشدون ولا يريدون غير الزحف فقدم المسلمون صفوفهم وزاحفوهم بغير اذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع فقال سعد اللهم اغفرها له وانصره قد أذنت له ان لم يستأذنى ثم لحقهم أسد فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت النخع فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت بجيلة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت كندة فقال

اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم زحف الرؤساء ورحا الحرب تدور على القعقاع وكان سعد قال لهم اذا كبرت ثلاثا فاحملوا فكبر في أثناء تلك الحملة تكبيرتين فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالا بعد ماصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون * جمع قين وهو الحداد ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على انهم الاعلون وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها فسار القعقاع في الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة فاحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله منكم ولا هؤلاء يعني الفرس اجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بازائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حتى انتهيا وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق وهي دبور ومال الغبار عليهم وانتهى القعقاع ومن معه الى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة الى بغال قد قدمت عليه بمال فهي واقفة فاستظل في ظل بغل وحمله وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به فأزال عن ظهره فقارا فرآه هلال فضربه ضربة فنفحت مسكا ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين أرجل البغال ثم صعد السرير وقال قتلت رستم ورب الكعبة الي الي فاطافوا به وكبروا فنفله سعد سلبه ولم يظفر بقلنسوته ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف وقيل ان هلالا لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى قتلت رستم فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم (بالدال) ونادى الفرس الى العبور وكانت الهزيمة عليهم وأما المقترنون فانهم جشعوا فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفا وأخذ ضرار بن الخطاب العلم الاكبر الذي كان للفرس فعوض منه ثلاثون ألفا وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف وقتل من الفرس في المعركة عشرة آلاف سوى

من قتلوا في الايام قبله وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف وجمعت الاسلاب والاموال فجمع شئ لم يجمع قبله ولا بعده مثله وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع المنهزمين حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وقتلوا مابين الخرارة الى الساحين الى النجف وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الاسرى فرؤى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسيرا من الفرس واستكثر سعد سلب الجالينوس فكتب فيه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمر الى سعد تعمد الى مثل زهرة بن الحوية وقد صلى بمثل ماصلى به تفسد قلبه وقد بقي عليك من حربك مابقي أمض له بسلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة فلما أتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير الى الفارس فيأتيه فيقتله وربما أخذ سلاحه فقتله به وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه ولحق سلمان بن ربيعة الباهلى وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة من الفرس قد نصبوا راية وقالوا لانبرح حتى نموت فقتلهم سلمان ومن معه وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة من الفرس استحيوا من الفرار فقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان ثم تراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتشاح المسلمون في الاذان حتى كادوا يقتتلون واقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة خمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلا وأما أهل الايام قبلها فانهم فرض لهم على ثلاثة آلاف فضلوا على أهل القادسية فقيل لسعد لو ألحقت بهم أهل القادسية فقال لم أكن لالحق بهم من لم يدركهم وقيل له لو فضلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه قال كيف أفضل عليهم وهم شجن العدو وهل فعل المهاجرون بالانصار هذا وكانت العرب تتوقع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب الى عدن ابين وفيما بين الابلة وايلة يرون ان ثبات ملكهم وزواله بها وكانت في كل بلدة مصيخة اليها تنظر مايكون من أمرها فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فاتت بها أناسا من الانس فسبقت أخبار الانس وكتب سعد الى عمر بالفتح وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزارى وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح الى انتصاف النهار عن أهل القادسية ثم يرجع الى أهله

ومنزله قال فلما لقي البشير سأله من أين فاخبره قال ياعبد الله حدثني قال هزم الله المشركين وعمر يخب معه يسأله والآخر يخبره وهو يسير على ناقته لايعرفه حتى دخل المدينة واذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين قال البشير هلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين فقال عمر لابأس عليك ياأخي وأقام المسلمون بالقادسية في انتظار قدوم البشير وأمر عمر الناس ان يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع اليهم أهل الشام ممن شهد اليرموك ودمشق ممدين لهم والصحيح ان وقعة القادسية كانت سنة أربع عشرة كما تقدم وقيل كانت سنة خمس عشرة وقيل ست عشرة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الوقايع بعد فتح القادسية الى ان فتحت مداين كسرى ﴾

لمـا فرغ سعد رضى الله عنه من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المداين وان يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفا وان يشركهم في كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين في عيالهم ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين برس لقوا جندا من الفرس فقاتلهم المسلمون فهزم الله الفرس وقتل المسلمون كثيرا منهم وانحاز المنهزمون الى بابل وكان بهـا كثير من جندهم وعليهم الفيرزان فقصدهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا كثيرا منهم وهزموا الباقين فانطلقوا على وجوههم فسار الهرمزان نحو الاهواز فأخذ مافيها من الأموال لكسرى وسار الى نهاوند فأخذ مافيها من الاموال كلها وكان بها كنوز لكسرى وسار النخيرخان ومهران الرازى الى المداين وقطعا الجسر فاقام سعد ببابل وأرسل زهرة بن الحوية الى نهرشير قبالة المدينة العتيقة من المداين الغربية فتلقاه دهقان ساباط للصلح فارسله الى سعد فصالحه على تأدية الجزية فوصل سعد والمسلمون الى نهرشير ليحاصروا المداين فرأوا الايوان من بعد فقال ضرار بن الخطاب الله أكبر ابيض كسرى هذا ماوعد الله ورسوله وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة محاصرين لهـا وكان نزولهم عليها في ذى الحجة فحاصروها شهرين ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ودنوا اليهم بالدبابات وأرسل سعد الخيول فاغارت على من ليس له عهد فاصابوا مائة ألف فلاح فأرسل سـعد الى عمر بالخبر فكتب له عمر ان من جاءكم من الفـلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو في أمان ومن هرب فادركتموه فشأنكم به فخلى سعد عنهم وأرسل الى الدهاقين ودعاهم الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا فلم يبق في غربي دجلة الى أرض العرب سوادى الا آمن واغتبط

بملك الاسلام واشتد الحصار بأهل المداين الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم فبيناهم يحاصرونهم اذ أشرف عليهم رسول الملك فقال الملك يقول لكم هل لكم الى المصالحة على ان لنا مايلينا من دجلة الى جبلنا ولكم مايليكم من دجلة الى جبلكم وما شبعتم لااشبع الله بطونكم فقال له أبو مقرن الاسود مقالة أنطقه الله بها ولا يدرى ما قال هم لاهو ولا من كان معه فرجع الرجل فقطعوا دجلة الى المداين الشرقية التى فيها الايوان فقال لأبى مقرن من كان معه ماقلت له فقال والذى بعث محمدا بالحق ماأدرى وأنا أرجوان أكون نطقت بالذى هو خير وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم فنادى سعد في الناس فنهدوا اليهم فما ظهر على المدينة أحد ولاخرج رجل الا رجل ينادى يطلب الامان فامنوه فقال لهم مابقى بالمدينة من يمنعكم فدخلوا فما وجدوا فيها شيأ ولا أحدا الا اسارى وذلك الرجل فسألوه لاى شئ هربوا فقال بعث الملك اليكم يعرض عليكم الصلح فاجبتموه انه لايكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل افريدون بأترج كوثى فقال الملك ياويلتنا ان الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا فساروا الى المدينة القصوى فدخل المسلمون المدينة الغربية وأنزلهم سعد المنازل

﴿ ذكر فتح المداين التى فيها ايوان كسرى ﴾

لما دخل المسلمون المداين الغربية كان البحر بينهم و بين المداين الشرقية التى فيها الايوان وليس للمسلمين سفن يعبرون فيها ورأى سعد رؤيا ان خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان عدوكم قد اعتصم بهذا البحر فلا تخلصون اليهم معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شئ تخافون ان تؤتوا منه قد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم وقد رأيت من الرأى ان تجاهدوا العدو قبل ان تحصدكم الدنيا الا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فندب الناس الى العبور وقال من يبدأ ويحمى لنا الفراض (وهى فريضة النهر ومن البحر محيط السفن) حتى تتلاحق به الناس لكى لايمنعوهم من العبور فانتدب له عاصم بن عمرو وذوو البأس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فتقدمهم عاصم في ستين فارسا وجعلهم على خيل ذكور واناث ليكون أسلس لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الاعاجم وماصنعوا اخرجوا للخيل التى تقدمت مثلها فاقتحموا عليها دجلة فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم الرماح الرماح اشرعوا وتوخوا العيون فالتقوا فاطعنوا وتوخى المسلمون

عيونهم فولوا ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ومن نجا منهم صار أعور من الطعن وتلاقوا السفائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها اذن للناس فى الاقتحام وقال قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة الا بالله العلي العظيم وتلاحق الناس في دجلة وأنهم يتحدثون كما يتحدثون في البر وطبقوا دجلة حتى مايرى من الشاطئ شئ وكان الذى يساير سعدا سلمان الفارسي رضي الله عنهما فعامت بهم خيولهم وسعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ان لم يكن في الجيش بغى أوذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان الاسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر اما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيأ الا ان مالك بن عامر العنبرى سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال الذى يسايره معيرا له أصابه القدر فطاح فقال والله أني لعلى حالة ما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكر فلما عبروا ألقته الريح الى الشاطئ فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلا من بارق يدعى عرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر وكاد يغرق فثنى القعقاع عنان فرسه اليه فأخذه بيده فأخرجه سالما وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض اعرافها فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان وكان يزدجرد قد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف مهران والنخيرخان وكان على بيت المال بالنهروان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والالطاف مالا يدرى قيمته وخلفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والاطعمة وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره الى القادسية النصف وبقى النصف ولما دخلوا المداين نزل سعد القصر الابيض وجاء جماعة من الفرس وعقدوا ذمة على تأدية الجزية وبعث سعد جماعة الى الأطراف من كل جهة يغيرون ويؤمنون من أراد الامان واتخذ سعد ايوان كسرى مصلى ولم يغير مافيها ولما دخل سعد الايوان قرأ كم تركوا من جنات وعيون الى قوله قوما آخرين وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ولم يكن بالمدائن. اعجب من عبور الماء وكان يدعى يوم الجراثيم لايعيا احد الا اشمخرت له جرثومة من الارض يستريح عليها لما يبلغ الماء حزام فرسه

ذكر ماجمع من غنايم أهل المداين وقسمتها

اجتمع عند سعد بعد دخوله المداين من الغنايم والاموال مالا يحصى ورأوا بالمداين قبابا مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاما فاذا فيه آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافورا كثيرا فحسبوه ملحا فعجنوا به فوجدوه مرا وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر المروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وكبوا عليه فقال بعض المسلمين ان لهذا البغل لشأنا فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه واذا هو يحمل عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلج بغلين معهما فارسان فقتلهما وأخذ البغلين فاذا عليهما سفطان فيهما تاج كسرى مرصعا وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وادرك القعقاع فارسيا فقتله وأخذ منه عيبتين في احداهما خمسة أسياف وفي الاخرى ستة أسياف وأدراع منها درع كسرى ومغافره ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع النعمان ودرع داهر ملك الهند استلبها الفرس ايام غزاهم خاقان وهرقل وداهر وأيام هرب النعمان من كسرى وكذا الاسياف فاحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين الاسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها الا سيف كسرى والنعمان بعث بهما الى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه الى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حمارين فقتل احدهما وهرب الآخر وأخذ الحمارين فاذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولبانه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى يضعهما على أسطوانة التاج واقبل رجل بحق الى صاحب الاقباض فقال هو والذى معه مارأينا مثل هذا مايعدله ماعندنا ولا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيأ فقال والله لولا الله ماأتيتكم به فقالوا من أنت فقال والله لاأخبركم فتحمدونى ولكن أحمد الله وارضى بثوابه فأتبعوه رجلاً فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر لقد تتبعت منهم هناة ماأحسبها من هؤلاء وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما والله الذى لااله الا هو مااطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وهم

طليحة وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح وقال عمر رضى الله عنه لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده ان قوما ادوا هذا لذو وأمانة فقال على رضى الله عنه انك عففت فعفت الرعية فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفئ بين الناس بعد ماخمسه وكانوا ستين ألفا فاصاب الفارس اثنا عشر ألفا وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل ونفل من الاخماس في أهل البلاء وقسم المنازل بين الناس واحضر العيالات فأنزلهم الدور فاقاموا بالمداين حتى فرغوا من جلولا وحلوان وتكريت والموصل ثم تحولوا الى الكوفة وارسل سعد من الخمس كل شئ أراد ان يعجب منه العرب وما كان يعجبهم ان يقع وكان من جملة ماغنموه بساط كسرى ويقال له القطيف وهو من اعجب ما كان لملك الفرس وهو بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الاكاسرة تعده للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجوهر واشباه ذلك وأراد سعد اخراج خمس القطيف فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به الى عمر يضعه حيث يشاء فانا لانراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعا فقالوا نعم فبعث به الى عمر فلما قدم خمس الغنائم على عمر رضى الله عنه قسمه في مواضعه ثم قال أشيروا على في هذا القطيف فمن بين مشير بابقائه ذخيرة للملة وآخر مفوض اليه فأشار على رضى الله عنه بقسمته بين المسلمين وقال ان تبقه على هذا اليوم لم تعدم في غدمن يستحق به ماليس له فقال صدقتني اذ نصحتني فقطعه بينهم فاصاب عليا قطعة منه قال ابن الاثير فباعها بعشرين ألفا وفي السيرة الحلبية بعشرين ألف دينار وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك الكنانى حين أراد التعرض للنبي صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر الى المدينة كيف بك اذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه فلما أتى بذلك كله لعمر بن الخطاب مع جملة ماأتى به من خمس الغنائم دعا سراقة بن مالك وألبسه اياهما وكان سراقة رجلا ازب أى كثيرشعر الساعدين فقال عمر ارفع يديك وقل الله اكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسهما سراقة رجلا اعرابيا من مدلج ورفع عمر صوته ثم اركب سراقة وطيف به في المدينة اظهارا لمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه ولم يأخذ عمر رضى الله عنه شيأ من تلك الغنائم التى قسمها بين الناس وكان يقرأ

قوله تعالى زين للناس حب الشهوات الآية ويقول اللهم انه لاطاقة لنا ان نحب الا مازينته فوفقني ان انفقه في حقه وكان رضى الله عنه يبكي ويقول ان الله زوى الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لي فأخاف ان أكون مستدرجا وروى البخارى في صحيحه في كتاب الرقاق ان عمر رضى الله عنه قال اللهم انا لانستطيع الا ان نفرح بما زينته لنا اللهم انى أسألك ان انفقه في حقه ورواه الدارقطني بابسط من هذا فقال ان عمر ابن الخطاب أتى بمال من الشرق يقال له نفل كسرى فامربه فصب وغطى ثم دعا الناس فاجتمعوا ثم أمربه فكشف عنه فاذا هو حلى وجواهر ومتاع فبكى عمر رضى الله عنه وحمد الله عز وجل فقالوا له مايبكيك ياأمير المؤمنين هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها فقال مافتح الله من هذا على قوم الا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم قال زيد بن أسلم فبقى من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع فقال عبد الله بن أرقم لعمر رضى الله عنه حتى متى تحبسه لاتقسمه فقال اذا رأيتنى فارغا فآذنى به فلما رآه فارغا بسط شيأ في حش نخله ثم جاء به في مكتل فصب فكأنه استكثره ثم قال اللهم أنت قلت زين للناس حب الشهوات فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال لانستطيع الا ان نحب مازينت لنا فقنى شره وارزقنى ان انفقه في حقه فما قام حتى مابقى منه شئ

﴿ ذكر وقعة جلولا وفتح حلوان في سنة ست عشرة أيضاً ﴾

لما انتهى الفرس الى جلولا بعد الهرب من المداين احتفروا خندقا واجتمعوا على مهران الرازى وتقدم يزدجرد الى حلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد الاطرقهم فبلغ ذلك سعدا فارسل الى عمر فكتب اليه عمر ان سرح هاشم بن عتبة الى جلولا واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وان هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل وليكن الجند اثنى عشر ألفا فيهم وجوه المهاجرين والانصار وأعلام العرب ففعل ذلك سعد وسار هاشم من المداين فمر ببابل فصالحه دهقانها على ان يفرش له جريب الارض دراهم ففعل وصالحه ثم مضى حتى قدم جلولا فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لايخرجون الا اذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوما كل ذلك ينصر المسلمون عليهم وجعلت الامداد ترد من يزدجرد الى مهران وامد سعد المسلمين وخرجت الفرس وقد احتفلوا فاقتتلوا فارسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق فجعلوا فيه طرقا مما يليهم ليصعد منه خيلهم فافسدوا حصنهم وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا اليهم وقاتلوهم قتالا شديدا لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير الا انه كان أعجل

وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذى زحف فيه الى باب خندقهم فاخذ به وأمر مناديا فنادى يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فاقبلوا اليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله وانما أمر بذلك ليقوى المسلمين فحملوا ولا يشكون بأن هاشما في الخندق فاذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذبه فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم الا القليل وقتل يومئذ منهم مائة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولا بما جللها من قتلاهم فهى جلولا الوقيعة فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الرى وقدم القعقاع حلوان فنزلها فى جند ولما سار يزدجرد من حلوان استخلف عليها خسر سنوم وكان الزينبي دهقان حلوان فلما قرب القعقاع من حلوان خرج عليه خسرسنوم والزينبي بمن معهما فقتل الزينبي وهرب خسرسنوم واستولى المسلمون على حلوان وبقى القعقاع بها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا وكتبوا الى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان واستأذنوه في اتباعهم فأبى وقال لوددت ان بين السواد وبين الجبل سدا لايخلصون الينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد انى آثرت سلامة المسلمين على الانفال وادرك القعقاع في اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل في الجبل فتحامى وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهن الى هاشم فقسمهن فاتخذن سرارى فولدن وممن ينسب الى ذلك السبى أم الشعبي وقسمت الغنيمة واصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب وقيل ان الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف وبعث سعد الاخماس الى عمر رضى الله عنه بعد ان قسم الاربعة الاخماس على الغانمين فلما قدم الخمس على عمر رضى الله عنه قال والله لايجنه سقف حتى اقسمه فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الارقم يحرسانه في المسجد فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه فلما نظر الى ياقوته وزبرجده وجواهره بكى فقال له عبد الرحمن بن عوف مايبكيك ياأمير المؤمنين فوالله ان هذا لموطن شكر فقال عمر والله ماذلك يبكينى وبالله ماأعطى الله هذا قوما الا تحاسدوا وتباغضوا ولا تحاسدوا الا التى الله بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض وتبعيض المياه وما كان لبيوت النار وسكك البرد وما كان لكسرى ومن جاء معه وماكان لمن قتل وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه ومنع من بيعه لانه لم يقسم واقروها حبيسا يولونها من أجمعوا عليه بالرضا

وكانوا لايجمعون الا على الأمراء فلا يحل بيع شيء من أرض السواد ماين حلوان والقادسية واشترى جرير أرضا على شاطىء الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه

ذكر اتخاذ البصرة والكوفة مصرا من الامصار

اختلف في السنة التى اتخذت البصرة فيها مصرا فقيل سنة ست عشرة بعد فتح جلولا أرسل سعد عتبة بن غزوان رضى الله عنه بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتخذها مصرا وخرج عليه أهل الايلة فقاتلهم عتبة فهزمهم واجتمع أهل دستميسان فقاتلهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيرا وكان من سبي ميسان يسار أبو الحسن البصرى وارطبان جد عبد الله بن عون بن ارطبان وقيل ان اتخاذ عتبة البصرة مصرا كان في سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة واما الكوفة فاتخذها سعد مصرا سنة خمس عشرة دلهم على موضعها ابن بقيلة قال لسعد الا أدلك على أرض الله ارتفعت عن القبة وانحدرت عن الفلاة فدله على موضعها فتحول سعد من المداين اليها وسبب ذلك ان العرب استوخمت المداين وبعث سعد اناسا يستطيبون لهم أرضا ينزلونها فاستطابوا الكوفة وهواها فتحول اليها سعد ومن معه سنة سبع عشرة

ذكر فتح تكريت والموصل في سنة ست عشرة أيضا

كان ذلك بعد فتح جلولا وسبب ذلك ان الانطاق سار من الموصل الى تكريت وخندق عليه ليحمى أرضة ومعه الروم وأياد وتغلب والنمر والشهارجة فبلغ ذلك سعدا فكتب الى عمر فكتب اليه عمر أن سرح اليه عبد الله بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعى بن الافكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة فسار عبد الله الى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يوما فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفا وأرسل عبد الله بن المعتم الى العرب الذين مع الانطاق يدعوهم الى نصرته وكانوا لايخفون عليه شيأ ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم الى السفن فأرسلت تغلب واياد والنمر الى عبد الله بالخبر وسألوه الامان واعلموه انهم معه فارسل اليهم ان كنتم صادقين فأسلموا فأجابوه وأسلموا فأرسل اليهم عبد الله اذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا انا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الابواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ونهد عبد الله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب واياد والنمر وأخذوا الابواب فظن الروم ان المسلمين قد أتوهم من خلفهم ممايلى دجلة فقصدوا الابواب التى عليها المسلمون وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة فلم يفلت من أهل الخندق الا من أسلم من تغلب واياد

والنمر وأرسل عبد الله بن المعتم ربعى بن الافكل الى الحصين نينوى والموصل وقال اسبق الخبر وسرح معه تغلب واياد والنمر فقدمهم ابن الافكل الى الحصين فسبقوا الخبر واظهروا الظفر والغنيمة و بشروهم ووقفوا بالابواب واقبل ابن الافكل فاقتحم عليهم الحصين وكلبوا أبوابهما فنادوا بالاجابة الى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالاخماس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وولى حرب الموصل ربعى بن الافكل والخراج عرفجة بن هرثمة ثم فتحت بقية أعمال الموصل وجميع معاقل الأكراد وصار الجميع للمسلمين

ذكر فتح ماسبذان في سنة ست عشرة أيضاً

لما انقضى فتح جلولا بلغ سعدا ان آذين بن هرمزان قد جمع جمعا وخرج بهم الى السهل فأرسل اليهم ضرار بن الخطاب في جيش فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا فاسرع المسلمون القتال في المشركين وأخذ ضرار آذين أسيرا فضرب رقبته ثم خرج في الطلب حتى انتهى الى السيروان فاخذ ماسبذان عنوة فهرب أهلها في الجبال فدعاهم فاستجابوا اله وأقام بها حتى تحول سعد الى الكوفة فارسل اليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الاسدى فكانت أحد فروج الكوفة

ذكر فتح قرقيسا في سنة ست عشرة أيضاً

لما انقضى أيضاً فتح جلولا أرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند نحو هيت فنازل من بها وقد خندقوا عليهم فلما رأى اعتصامهم بخندقهم ترك الاخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج في نصف الناس فجاء قرقيسا على غرة فاخذها عنوة فاجابوا الى الجزية ثم ان الحارث بن يزيد راسل أهل هيت فاجابوا الى الجزية وكانت ثغور الكوفة أربعة حلوان وعليها القعقاع وما سبذان وعليها ضرار ابن الخطاب وقرقيسا وعليها عمر بن مالك والموصل وعليها عبد الله بن المعتم وكان بها خلفاؤهم اذا غابوا عنها

ذكر غزوة فارس من البحرين في سنة سبع عشرة

لما كان العلاء الحضرمى على البحرين في خلافة أبى بكر ثم في خلافة عمر رضى الله عنهما ندب الناس لغزو فارس في البحر وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر خوف الغرق فخالفه وندب الناس الى قتال فارس فاجابوه ففرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر سوار بن همام وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى وخليد على جميع

الناس وحملهم في البحر الى فارس بغير اذن عمر فعبرت الجنود من البحرين الى فارس فخرجوا الى اصطخر وبازائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فقاتلوهم قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس فقتل سوار والجارود وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ثم أراد المسلمون الرجوع الى البصرة فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا ولما بلغ عمر رضي الله عنه صنيع العلاء أرسل الى عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جند كثيف الى المسلمين بفارس قبل ان يهلكوا وقال فانى ألقى في روعى كذا وكذا نحو الذى كان فارسل عتبة جيشا كثيفا اثنى عشر ألف مقاتل وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم أحد بنى عامر ابن لؤى فسار بالناس على الساحل لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخليد وكان أهل اصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين جمعوا أهل فارس اليهم من كل وجهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس وقد توافت الى المسلمين أمدادهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ماشاؤا وهى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم انكفؤا بما أصابوا فرجعوا الى البصرة سالمين

﴿ ذكر الخبر عن فتح الاهواز ومناذر ونهرتيرى ﴾

في سنة سبع عشرة فتحت الاهواز ومناذر ونهرتيرى وقيل سنة عشرين وكان السبب في هذا الفتح انه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس قصد خورستان فملكها وقاتل بها من أرادهم فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان ودستميسان من مناذر ونهرتيرى فاستمد عتبة بن غزوان سعدا فامده بجيوش والتقوا هم والهرمزان بين نهرتيرى وبين دلب وتوجه بعض جيوشهم لاخذ مناذر ونهرتيرى فبينما الهرمزان يقاتل الذين التى معهم جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهرتيرى فكسر ذلك قلب الهرمزان ومن معه فهزمه الله واياهم وقتل المسلمون منهم ماشاؤا وأصابوا ماشاؤا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دجيل وأخذوا مادونه وعسكروا بحيال سوق الاهواز وعبر الهرمزان جسر سوق الاهواز وأقام وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين فلما رأى الهرمزان مالا طاقة له به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب الى ذلك على الاهواز كلها ماخلا نهرتيرى ومناذر وما غلب المسلمون عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم ثم وقع اختلاف بين المسلمين والهرمزان في حدود الارض فخارهم الهرمزان ومنع ماقبله واستعان بالاكراد فكتب عتبة بذلك الى عمر فكتب اليه عمر يأمره بقصده وأمده بجند فالتقوا مع الهرمزان عند جسر سوق الاهواز مما يلى السوق فانهزم الهرمزان وسار الى رامهرمز

وفتح المسلمون سوق الاهواز واتسعت لهم البلاد الى تستر ثم لم يزل القتال بينهم وبين الهرمزان الى ان طلب الصلح فأجاب عمر الى ذلك وان يكون ماأخذه المسلمون بأيديهم واصطلحوا على ذلك وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعونه اذا قصده الاكراد ويجبي اليهم

﴿ ذكر فتح رامهرمز وتستر واسر الهرمزان ﴾

كان فتح رامهرمز وتستر والسوس في سنة سبع عشرة وكان سبب فتحها ان يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفا على ماخرج من ملكهم فتحركوا وتكاتبوا هم وأهل الاهواز وتعاقدوا على النصرة فكتب الامراء بذلك الى سعد فكتب الى عمر فكتب اليه عمر ان ابعث الى الاهواز جندا كثيفا مع النعمان بن مقرن وعجل ولينزلوا بازاء الهرمزان ويتحققوا أمره وكتب الى أبي موسى الاشعرى وكان على البصرة ان ابعث الى الاهواز جندا كثيفا وأمر عليهم سعد بن عدى أخا سهيل وابعث معه البراء بن مالك ومجزاة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعا أبو سبرة بن أبي رهم فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فسار الى الاهواز وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره بالشدة ورجا أن يقتطفه ومعه أهل فارس فالتقى النعمان والهرمزان باربك فاقتتلوا قتالا شديدا ثم ان الله عز وجل هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتستر وسار النعمان الى رامهرمز ونزلها وصعد الى ايذج فصالحه تيروية على ايذج ورجع الى رامهرمز فاقام بها ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الاهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الاهواز وأتاهم الخبر ان الهرمزان نزل بتستر فساروا نحوه وسار أيضاً النعمان وغيره من الامراء فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والاهواز وعليهم الخنادق وأمد عمر المسلمين أيضاً بأبي موسى وجعله على أهل البصرة وعلى الجميع أبو سبرة فحاصروهم أشهرا وأكثروا فيهم القتل وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفا يكون لهم مرة وعليهم مرة فلما كان في آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون للبراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك رضى الله عنهما يابراء اقسم على ربك ليهزمنهم وكان مجاب الدعوة فقال اللهم اهزمهم لنا واستشهدنى فهزموهم حتى ادخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون فبيناهم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل الى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه ورمى في ناحية أبي موسى بسهم ان أمنتمونى دللتكم على مكان تأتون المدينة منه فأمنوه في نشابة فرمى اليهم بأخرى

وقال أنهدوا من قبل مخرج الماء فانكم تقتحمونها فندب الناس اليه فانتدب له عامر بن قيس وبشر كثير ونهدوا لذلك المكان ليلا وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذى يدلهم على المدخل الى المدينة فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا في السرب والناس من خارج فلما دخلوا المدينة كبروا فيها وكبر المسلمون من خارج وفتحت الابواب فاجتلدوا فيها فأناموا كل مقاتل وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل اليهم على حكم عمر فأوثقوه واقتسموا ماأفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وسهم الراجل ألفا وجاء صاحب الرمية والرجل الذى خرج بنفسه فآمنوهما ومن أغلق بابه معهما وقتل من المسلمين بشر كثير وممن قتله الهرمزان بنفسه مجزاة بن ثور والبراء بن مالك وخرج أبو سبرة بنفسه في أثر المنهزمين الى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرن وأبو موسى وكتبوا الى عمر فكتب الى أبى موسى يرده الى البصرة فانصرف اليها من السوس وسار زر بن عبد الله الفقيمى الى جند يسابور فنزل اليها وأرسل أبو سبرة وفدا الى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب وتاجه وكان مكللا بالياقوت وألبسوه حليته ليراه عمر والمسلمون فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل جلس في المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه في المسجد متوسدا برنسه وكان قد لبسه للوفد فلما قاموا عنه توسده ونام فجلسوا دونه وهو نائم والدرة في يده فقال الهرمزان أين عمر قالوا هوذا فقال أين حرسته وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب قال فينبغى ان يكون نبيا قالوا بل يعمل بعمل الانبياء فاستيقظ عمر بجلبة الناس فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان قالوا نعم فقال الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وغير اشباهه فامر بنزع ماعليه فنزعوه وألبسوه ثوبا صفيقا فقال له عمر ياهرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر انا واياكم في الجاهلية كان الله قدخلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا ثم قال له ماحجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف ان تقتلنى قبل ان أخبرك قال لاتخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لومت عطشا لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به في اناء يرضاه فقال انى أخاف ان أقتل وأنا أشرب فقال عمر لابأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش فقال لاحاجة لى في الماء انما أردت ان استأمن به فقال له عمر انى قاتلك فقال قد أمنتنى فقال كذبت قال أنس صدق ياأمير

المؤمنين قد أمنته قال عمر يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزاة بن ثور والبراء بن مالك والله لتأتين بمخرج أو لاعاقبنك قال انك يا أمير المؤمنين قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه وقال لعمر من حوله مثل ماقال أنس فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع الا ان تسلم فأسلم ففرض له فيمن فرض لهم الفين وانزله المدينة وكان المترجم بينهما المغيرة ابن شعبة لانه كان يفقه بالفارسية الى ان جاء المترجم

ذكر فتح السوس

لما نزل أبو سبرة على السوس كان بها شهريار أخو الهرمزان فأحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرات وحاصروهم ثم اقتحموا الباب ودخلوا عليهم فالقى المشركون بايديهم ونادوا الصالح الصالح فأجابهم الى ذلك المسلمون بعد مادخلوها عنوة واقتسموا ماأصابوا وقيل في فتح السوس ان يزدجرد سار بعد وقعة جلولا فنزل اصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجهه الى السوس والهرمزان الى تستر ونزل سياه بين رامهرمز وتستر ودعا من معه من عظماء الفرس وقال لهم قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ويشدون خيولهم في شجرها وقد غلبوا على مارأيتم فانظروا لانفسكم فقالوا رأينا رأيك قال أرى ان تدخلوا في دينهم ووجهوا شيرويه في عشرة من الاساورة الى أبي موسى فشرط عليهم ان يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب وان قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم وينزلوا حيث شاؤا ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على ان يسلموا فاعطاهم عمر ماسألوا فاسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تستر ومضى سياه الى حصن قد حاصره المسلمون في زى العجم فالقى نفسه الى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم فرآه أهل الحصن صريعاً فظنوه رجلا منهم ففتحوا له باب الحصن ليدخلوه اليهم فوثب وقاتلهم حتى خلوا عن الحصن وهربوا فملكه

ذكر مصالحة جند يسابور

ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجند يسابور وزر بن عبد الله محاصرهم فاقاموا عليها يقاتلونهم فرمى الى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفجأ المسلمين الا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا اسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا رميتم لنا بالامان فقبلناه وأقررنا الجزية فقال المسلمون مافعلنا وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك فاذا هو عبد يدعى مكنثفا كان أصله منها فعل هذا فقالوا هو عبد فقال أهلها لا نعرف العبد من الحر وقد قبلنا

بالجزية وما بدلنا فان شئتم فاغدروا فكتبوا الى عمر فاجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم

﴿ ذكر مسير المسلمين الى كرمان وغيرها ﴾

قيل في سنة سبع عشرة اذن عمر للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس وانتهى في ذلك الى رأى الاحنف بن قيس حيث قال له ياأمير المؤمنين نهيتنا عن الانسياح في البلاد وان فارس لايزالون يقاتلوننا مادام ملكهم فيهم فلا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وأذن في الانسياح فامر أبا موسى ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى فدفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ولواء اردشير وسابور الى مشاجع بن مسعود السامى ولواء اصطخر الى عثمان بن أبى العاص الثقفى ولواء فساودار بجرد الى سارية بن زنيم الكنانى ولواء كرمان الى سهيل بن عدى ولواء سجستان الى عاصم بن عمرو ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبى فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم في ذلك الوقت وأمدهم بنفر من أهل الكوفة وسيأتى الكلام على تفصيل ذلك

﴿ ذكر وقعة نهاوند ﴾

قيل انها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة احدى وعشرين وكان الذى هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الاهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا الى نهاوند ولما وصل أوائلهم بلغ سعدا الخبر فكتب الى عمر وثار بسعد قوم سعوا به وتعصبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس وكان جماعة خالفوا سعدا وصاروا يشكون منه فمن تحرك في أمره الجراح بن سنان الاسدى في نفر فقال لهم عمر والله مايمنعنى ما نزل بكم من النظر فيما لديكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس وكان محمد بن مسلمة صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه فما سأل عنه جماعة الا اثنوا عليه خيرا سوى من مالأ الجراح الاسدى فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأ ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بنى عبس فسألهم فقال اسامة بن قتادة اللهم انه لايقسم بالسوية ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السرية فقال سعد اللهم ان كان قالها رياء وكذبا وسمعة فاعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن فعمى واجتمع عنده عشر بنات وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها فاذا عثر عليها قال دعوة سعد الرجل المبارك ثم دعا سعد على أولئك النفر فقال

اللهم ان كانوا خرجوا اشرا وبطرا ورياء فاجهد بلادهم فجهدوا وقطع الجراح بن سنان بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضى الله عنهما ليغتاله بساباط وشدخ قبيصة بالحجارة وقتل أربد بالو حيء ونعال السيوف وكان سعد رضى الله عنه مجاب الدعوة لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بذلك وكان من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للاسلام ومن اخوال النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول رجل رمى بسهم في سبيل الله وأول رجل أهرق دما من المشركين في سبيل الله وجمع له النبي صلى الله عليه وسلم أبويه فقال فداك أبي وأمي ثم ان محمد بن مسلمة رجع الى المدينة بسعد وبالقوم الذين شكوا منه فقدموا على عمر فاخبروه الخبر فقال كيف تصلي ياسعد قال أطيل الاولين واخفف الأخيرتين فقال هكذا الظن بك ياأبا اسحق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا فاراد عمر رضى الله عنه الاحتياط وقطع النزاع لئلا يطول الشر ويتسع الامر فقال من خليفتك ياسعد على الكوفة فقال عبد الله بن عبد الله بن عتبان فاقره وأمر سعدا بالبقاء معه في المدينة ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وقال ان تولوا سعدا فاهل هو والا فليستعن به الوالى فانى لم أعزله عن ضعف ولا خيانة هكذا كان سبب نهاوند فابتداء البعث كان في زمن سعد وأما الوقعة فهي في زمان عبد الله بن عبد الله بن عتبان فنفرت الاعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفا ومائة ألف مقاتل وكان سعد كتب الى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له ان أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح وان يبدؤهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم هذا يوم له مابعده وقد هممت ان أسير فيمن قبل لى ومن قدرت عليه فأنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ثم استنفرهم وأكون لهم ردأ حتى يفتح الله عليهم أو يقضى ماأحب فان فتح الله عليهم صببتهم في بلدانهم فقال طلحة بن عبيد الله ياأمير المؤمنين قدأحكمتك الامور وعجمتك البلابل واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك ورأيك لاينبو في يديك ولا يكل عليه اليك هذا الامر فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا ننقد فانك ولى هذا الامر وقد بلوت وجربت واحتربت فلم ينكشف شئ من عواقب قضاء الله لك الاعن خيارهم ثم جلس فعاد عمر فقام عثمان فقال أرى ياأمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم والى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل الحرمين الى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المسركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت قل عندك ماقد تكاثر من

عدد القوم وكنت أعز غزاء وأكثر ياأمير المؤمنين انك لاتستبقى بعد نفسك من العرب باقية ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز ان هذا يوم له مابعده من الايام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه وجاس فعاد عمر فقام على بن أبى طالب فقال أمابعد ياأمير المؤمنين فانك ان أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الى ذراريهم وانك ان أشخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيال أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق فرقة في حرمهم وذراريهم وفرقة في أهل عهدهم حتى لاينتقضوا ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مددا لهم ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك وأماماذكرت من مسير القوم فان الله هو أكره لمسيرهم منك وهو اقدر على تغيير مايكره واما عددهم فانا لم نكن نقاتل فيمامضى بالكثرة ولكن بالنصر فقال عمر هذا هو الرأى كنت أحب ان أتابع عليه فاشيروا على برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقيا فقالوا أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك فقال والله لأولين رجلا يكون أول الاسنة اذا لقيها غدا فقيل من هو فقال النعمان بن مقرن المزنى فقالوا هو لها وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جند سابور والسوس فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى ماه لتجتمع الجيوش عليه فاذا اجتمعوا اليه سار بهم الى الفيرزان ومن معه وكتب عمر الى عبدالله بن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان ويجتمعوا عليه بماه فندب الناس فكان أسرعهم الى ذلك الرواد ليبلوا في الدين وليدركوا حظا فخرج الناس وعليهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن أخو النعمان بن مقرن حتى قدموا على النعمان وكتب عمر الى الجند الذين كانوا بالاهواز ليشغلوا فارسا عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزر فأقاموا بتخوم اصبهان وفارس وقطعوا امداد فارس عن أهل نهاوند واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمر وجرير بن عبد الله البجلى والمغيرة بن شعبة وغيرهم فارسل النعمان طليحة بن خويلد الاسدى وعمرو بن معدى كرب وعمرو بن ثنى وهو ابن أبى سلمى ليأتوه بخبر القوم فخرجوا وساروا يوما الى الليل فرجع اليه عمرو بن ثنى فقالوا مارجعك فقال لم أكن في أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضا عالمها ومضى طليحة وعمرو بن معدى كرب فلما كان آخر الليل رجع عمرو فقالوا مارجعك قال سرنا يوما وليلة ولم نر شيأ فرجعت ومضى طليحة حتى انتهى

الى نهاوند وبين موضع المسلمين الذين هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخا فقال الناس ارتد طليحة الثانية فعلم كلام القوم ورجع فلما رأوه كبروا فقال ماشأنكم فاعلموه بالذى خافوا عليه فقال والله لو لم يكن دين الا العربى ما كنت لاحرز العجم الطماطم هذه العرب العادية فاعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شئ يكرهه ولا أحد فرحل النعمان وعبى أصحابه وهم ثلاثون ألفا فجعل على مقدمته أخاه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع بن مسعود وقد توافت اليه امداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا الى أسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذى جعل مكان ذى الحاجب وقد توافي اليهم الامداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشراف الكوفة فضربوا فساطيطهم ونشب القتال بعد حط الأثقال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال وانهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة وحاصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ماشاء الله والفرس بالخيار لايخرجون الااذا أرادوا الخروج فخاف المسلمون ان يطول أمرهم حتى اذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع اجتمع أهل الرأى من المسلمين وقالوا نراهم علينا بالخيار وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروى في الذى رووا فيه فاخبروه فبعث الى من بقى من أهل النجدات والرأى فاحضرهم فتكلم النعمان فقال قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وانهم لا يخرجون الينا الا اذا شاؤا ولا يقدر المسلمون على اخراجهم وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق فما الرأى الذى به نستخرجهم الى المناجزة وترك التطويل فتكلم عمرو بن غنم وكان أكبر الناس وكانوا يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك منهم فردوا عليه رأيه وتكلم عمرو بن معدى كرب فقال ناهدهم وكابدهم ولا تخفهم فردوا جميعا عليه رأيه وقالوا انما يناطح بنا الجدران وهى أعوان علينا وقال طليحة أرى ان تبعث خيلا لينشبوا القتال فاذا اختلطوا بهم رجعوا الينا استطرادا فانا لم نستطرد لهم في طول ماقاتلناهم فاذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ماأحب فامر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فاخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد وقد تواثقوا ان لايفروا وقد قرن بعضهم بعضا كل سبعة في قران والقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها

الاعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا هي هي فلم يبق أحد الا من يقوم على الابواب وركبوهم ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية في يوم جمعة صدر النهار وقد عهد النعمان الى الناس عهده وأمرهم ان يلزموا الارض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا الناس وقالوا للنعمان ألا ترى مانحن فيه فما تنتظر بهم ائذن للناس في قتالهم فقال رويدا رويدا وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال فلما كان قريبا من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لهم انى مكبر ثلاثا فاذا كبرت الثالثة فانى حامل فاحملوا وان قتلت فالأمر بيد حذيفة بن اليمان فان قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ثم قال اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك وقيل بل قال اللهم انى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الاسلام واقبضنى شهيدا فبكى الناس ورجع الى موقفه وكبر ثلاثا والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القبا والقلنسوة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها وما كان يسمع الا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبرا عظيما وانهزم الاعاجم وقتل منهم مابين الزوال والاعتام ماطبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيدا رمى بسهم في خاصرته فقتله وزلق به فرسه فصرع فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة فاخذها وتقدم موضع النعمان وترك نعيما مكانه وقال لهم المغيرة اكتموا مصاب أميركم حتى تنظروا مايصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس فاقتتلوا فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا وتبعهم المسلمون وعمى الله على المشركين قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذى كانوا دونه فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعضهم في قياد واحد فيقتلون جميعا وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم في اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل في المعركة وقيل قتل في اللهب ثمانون ألفا سوى من قتل في الطلب ولم يفلت الا الشريد ونجا الفيرزان من الصرعى فهرب نحو همذان فتابعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فادركه بثنية همذان وهي اذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا فحبسه الدواب على أجله

فلما لم يجد طريقا نزل عن دابته وصعد الجبل فتبعه القعقاع راجلا فادركه فقتل المسلمون الفيرزان على الثنية وقالوا ان لله جنودا من عسل واستاقوا العسل وما معه من الاحمال وسميت الثنية ثنية العسل ودخل المشركون همذان والمسلمون في آثارهم فنزلوا عليها وأخذوا ماحولها فلما رأى ذلك خشرشنوم استأمنهم ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن فقال لهم أخوه معقل هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتووا على مافيها من الامتعة والاموال والاسلاب والاثاث وأتاهم الهربذ صاحب بيت النار على أمان فقال لحذيفة أتؤمنني ومن شئت على ان اخرج لك ذخيرة لكسرى تركت عندي لنوائب الزمان قال نعم فاحضر جوهرا نفيسا في سفطين فارسلهما حذيفة مع الاخماس الى عمر وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الاقرع الثقفي وكان كاتبا حاسبا أرسله عمر اليهم وقال ان فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم وخذ الخمس واتني به وان هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الارض خير من ظهرها قال السائب فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسي السفطين اللذين كانا عنده فاذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت فلما فرغت من القسمة احتملتهما معي وقدمت على عمر وكان عمر رضي الله عنه قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الاخبار فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع الى المدينة ليلا فمر به راكب فسأله من أين أقبل فقال من نهاوند وأخبره بالفتح وقتل النعمان فلما أصبح الرجل تحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة فبلغ الخبر عمر فسأله فاخبره فقال ذاك بريد الجن ثم قدم البريد بعد ذلك فاخبره بما يسره ولم يخبره بقتل النعمان قال السائب فخرج عمر من الغد يتوقع الاخبار قال فأتيت فقال ماوراءك فقلت خيرا ياأمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن فقال عمر انا لله وانا اليه راجعون ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده فلما رأيت ذلك وما لقي قلت ياأمير المؤمنين ماأصيب بعده رجل يعرف وجهه فقال أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر ثم أخبرته بالسفطين فقال أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحق بجندك قال ففعلت وخرجت سريعا الى الكوفة وبات عمر فلما أصبح بعث في أثري رسولا فما أدركني حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عرقوب بعيري فقال الحق بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك الا الآن قال فركبت معه فقدمت على

عمر فلما رآنى قال الى ومالى وللسائب قلت ولماذا قال ويحك والله ماهو الا ان نمت الليلة التى خرجت فيهافباتت الملائكة تسحبنى الى السفطين يشتعلان نارايقولون لنكوينك بهما فاقول انى سأقسمهما بين المسلمين فخذهما عنى فبعهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم قال فخرجت بهما فوضعتهمافي مسجد الكوفة فابتاعهما منى عمرو بن حريث المخزومي بألفى ألف درهم ثم خرج بهما الى أرض الاعاجم فباعهما باربعة آلاف ألف فمازال أكثر أهل الكوفة مالا وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لانه لم يكن بعده للفرس اجتماع وملك المسلمون بلادهم ولم يزل يزدجرد أمره في انتكاس ونقصان وكلما أخذت منه مدينة انتقل الى أخرى الى ان قتل في خلافة عثمان رضى الله عنه سنة احدى وثلاثين وسيأتى تفصيل ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر فتح الدينور والصيمرة وغيرهما ﴾

لما انصرف أبو موسى من نهاوند وكان قد جاء مددا على بعث أهل البصرة فمر بالدينور فأقام عليها خمسة أيام وصالحه أهلهاعلى الجزية ومضى فصالحه أهل شيروان على مثل صلحهم وبعث السائب بن الاقرع الثقفى الى الصيمرة مدينة مهرجا نقذف ففتحها صلحا

﴿ ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما ﴾

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحاصرهم نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو فلما رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم وقبل منهم الجزية على ان يضمن منهم همذان ودستبى وان لايؤتى المسلمون منهم فاجابوه الى ذلك وأمنوه ومن معه من الفرس وأقبل كل من كان هرب منهم وبلغ الخبر الماهين بفتح همذان وملكها فاقتدوا بخسرشنوم وكاتبوا حذيفة فأجابهم الى ماطلبوا وأجمعوا على القبول

﴿ ذكر فتح اصبهان ﴾

بعث عمر رضى الله عنه اليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان وكان شجاعا من أشراف الصحابة ومن وجوه الانصار وأمده بأبى موسى وكان على جند اصبهان الاسبيدان وعلى مقدمته شهريار بن جاذويه شيخ كبير فى جمع عظيم فاقتتلوا برستاق اصبهان قتالا شديدا ودعا الشيخ الى البراز فبرز له عبدالله بن ورقاء الرياحى فقتله وانهزم أهل اصبهان وسمى ذلك الرستاق رستاق الشيخ الى هذا اليوم وصالحهم الاسيدان على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان ثم سار عبدالله الى مدينة جي وهى مدينة أصبهان والملك باصبهان ألفاذوسفان فنزل بالناس على جي وحاصرها وقاتلها ثم صالحه الفاذوسفان على

اصبهان وعلى ان من أقام الجزية أقام على ماله وان يجرى من أخذت أرضه عنوة مجرى ذمتهم ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه فخرج الناس من حي ودخلوا في الذمة الا ثلاثين رجلا من أهل اصبهان فالحقوا بكرمان ثم قدم كتاب عمر الى عبد الله يأمره بالمسير الى سهيل ابن عدى ليكون معه على قتال من بكرمان فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الاقرع ولحق بسهيل ونازلوا كرمان حتى فتحوها وسيأتى ذكر ذلك في فتوحات سنة ثلاث وعشرين

﴿ ذكر فتح زويلة ﴾

في سنة احدى وعشرين بعث عمرو بن العاص من مصر عقبة بن نافع الفهرى بجيش فافتتح زويلة صلحا وما بين برقة وزويلة فصار سلما للمسلمين

﴿ ذكر فتح همذان ثانيا ﴾

قد تقدم مسير نعيم بن مقرن الى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو فلما رجعا عنها كفر أهلها فرجع اليهم نعيم بن مقرن في سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم ثم سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية وقيل ان ذلك كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر رضى الله عنه لستة أشهر وان نعيما خرج اليهم في جيش كثيف وقاتلهم قتالا شديدا وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون وقيل ان المغيرة بن شعبة حين كان عاملا على الكوفة أرسل جرير بن عبد الله البجلى الى همذان فقاتله أهلها وأصيبت عين جرير بسهم فقال احتسبها عند الله الذى زين بها وجهى وسلبنيها في سبيله ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسرا وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه وكان جرير على مقدمته وقيل فتحها قرظة بن كعب الانصارى

﴿ ذكر فتح قزوين وزنجان ﴾

لما سير المغيرة جريرا الى همذان ففتحها سير البراء بن عازب في جيش الى قزوين فسار البراء حتى أتى أبهر وهو حصن فقاتلوه ثم طلبوا الامان فأمنهم وصالحهم ثم غزا قزوين فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا الى الديلم يطلبون النصرة فوعدوهم ووصل المسلمون اليهم فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يدا فلما رأى ذلك أهل قزوين طلبوا الصلح على صلح أبهر ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا اليه الاتاوة وغزا جيلان والطيلسان وفتح زنجان عنوة ولما ولى الوليد بن عقبة الكوفة غزا أيضاً الديلم وجيلان وموقان والبير والطيلسان ثم انصرف

﴿ ذكر فتح الرى ﴾

في سنة اثنتين وعشرين غزا نعيم بن مقرن الرى وخرج من الرى الزينبى أبو الفرخان فالتقى

نعيما طالبا الصلح ومسالما له ومخالفا لملك الرى وهو سياوخش بن مهران بن بهرام فاستمد ملك الرى أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فامدوه خوفا من المسلمين فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الرى الى جنب مدينتها فاقتتلوا به وكان الزينبي قال لنعيم ان القوم كثير وأنت في قلة فابعث معى خيلا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت فانهم اذا خرجنا عليهم لم يشتدوا لك فبعث معه نعيم خيلا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم وبيتهم نعيم بياتا فشغلهم عن مدينتهم فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا فقتلوا مقتلة عظيمة وافاء الله على المسلمين بالرى نحوا مما في المدائن وصالحه الزينبي على الرى ومرزبة غلبهم نعيم وراسله المصمغان في الصلح على شئ يفتدى به منه على دنباوند فاجابه الى ذلك وقيل ان فتح الرى كان سنة احدى وعشرين

﴿ ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان ﴾

لما أرسل نعيم الى عمر بالبشارة واخماس الرى كتب اليه عمر يأمره بارسال أخيه سويد ابن مقرن ومعه هند بن عمر والجملى وغيره الى قومس فسار سويد نحو قومس فلم يقم له أحد فأخذها سلما وعسكر بها وكاتبه الذين لجؤا الى طبرستان منهم وأهل المفاوز فاجابهم الى الصلح والجزية ثم سار الى جرجان فعسكر بها فكاتبوه وصالحوه على الجزية وقيل ان ذلك كان سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضى الله عنه

﴿ ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة ﴾

في سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر الى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها شهرا فلم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها فخرج رجل من المسلمين من بنى مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلكوا غربى المدينة فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر ولم يكن السور متصلا بالبحر والبلد فدخلوا المدينة من ذلك الجانب وكبروا فلما سمع الروم التكبير في البلد ظنوا ان المسلمين دخلوها فلم يكن لهم ملجأ الا سفنهم و نظر عمرو ومن معه فرأى السيوف فى المدينة وسمعوا الصياح فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد فلم يفلت من الروم الا القليل بما خف معهم في مراكبهم وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس فلما امتنع عليه فتح طرابلس أمنوا واطمأنوا فلما فتحت طرابلس سير عمرو جندا الى سبرة فصبحوها وقد فتح أهلها الباب واخرجوا مواشيهم لتسرح لانهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس فوقع المسلمون

عليهم ودخلوا الحصن مكابرة وغنموا مافيه وعادوا الى عمرو ثم عاد عمرو الى برقة وقد اجتمع بها قوم من البربر فصالحوه على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية وشرطوا ان يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم

﴿ ذكر فتح اذربيجان ﴾

لما افتتح نعيم الرى بعث سماك بن خرشة الانصارى وليس بأبى دجانة ممدا لبكير بن عبدالله بأذربيجان وكان بكير قد سار اليها بأمر عمر رضى الله عنه فامر عمر نعيما ان يمد بكيرا بسماك بن خرشة وكان بكير حين بعث اليها سار حتى اذا طلع بجبال جرميدان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاد فاقتتلوا فانهزم الفرس وأخذ بكير اسفنديار أسيرا فقال له اسفنديار الصلح أحب اليك أم الحرب فقال بل الصلح فقال امسكنى عندك فان أهل اذربيجان ان لم أصالح عليهم أو أجئ اليهم لم يقوموا لك وجلوا الى الجبال التى حولها ومن كان على التحصن تحصن فأمسكه عنده وصارت البلاد اليه الا ما كان من حصن وقدم عليه سماك بن خرشة ممدا واسفنديار في أمان وقد افتتح مايليه وافتتح عتبة بن فرقد مايليه وكتب بكير الى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له ان يتقدم نحو الباب وان يستخلف على ماافتتحه فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فاقر عتبة سماك بن خرشة على عمل بكير الذى كان افتتحه وجمع عمر اذربيجان كلها لعتبة بن فرقد وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام فلما بلغ خبره اسفنديار وهو في الاسر عند بكير قال الآن تم الصلح وطفئت الحرب فصالحه وأجاب الى ذلك أهل اذربيجان كلهم وعادت اذربيجان سلما وكتب بذلك بكير وعتبة الى عمر وبعثا بما خمسا

﴿ ذكر فتح الباب ﴾

الباب مدينة عظيمة بناها كسرى ففى هذه السنة اعنى سنة اثنتين وعشرين أمر عمر رضى الله عنه سراقة بن عمرو وكان يدعى ذا النور بالمسير الى الباب وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى وكان له صحبة وكان أيضا يدعى ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفارى وعلى الاخرى بكير بن عبدالله الليثى • كان بكير سبقه الى الباب وجعل على المقاسم سلمان ابن ربيعة الباهلى فسار سراقة فلما خرج من اذربيجان قدم بكير الى الباب وكان الملك بها يومئذ شهريار وهو من ولد شهريار الذى أفسد بنى اسرائيل واغزى الشام بهم فلما أطل عبد الرحمن بن ربيعة على الباب كاتبه شهريار واستأمنه على ان يأتيه ففعل فأتاه فقال انى بازاء عدو كلب وامم مختلفة ليست لهم احساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل ان يعينهم على ذى

الحسب ولست من القتح ولا الارمن في شئ وانكم قد غلبتم على بلادى وامتى فانا منكم ويدى مع ايديكم وجزيتي اليكم والنصرلكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم فسيره عبد الرحمن الى سراقة فلقيه بمثل ذلك فاجابه بقبول ذلك منه ثم قال له سراقة لابد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو فأجابه الى ذلك وكتب سراقة في ذلك الى عمر فأجازه عمر واستحسنه

ذكر فتح موقان

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بكير بن عبدالله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن اسيد وسلمان ابن ربيعة الى أهل تلك الجبال المحيطة بارمينية فوجه بكيرا الى موقان وحبيب الى تفليس وحذيفة الى جبال اللان وسلمان الى الوجه الآخر وكتب سراقة الى عمر بفتح الباب وبارسال هؤلاء النفر الى الجهات المذكورة فأتى عمر أمر لم يظن ان يستتم له بغير مؤنة لانه فرج عظيم وجند عظيم فلما استوثقوا واستحلوا الاسلام مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ولم يفتح أحد من أولئك القواد الا بكير فانه فض أهل موقان ثم تراجعوا على الجزية عن كل حالم دينار ولما بلغ عمر موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك

ذكر غزوة الترك

لما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك وكانوا في بلنجر بأقصى ولاية الباب وهم أمم كثيرة فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب فقال له شهريار ماتريد ان تصنع قال أريد غزو الترك في بلنجر قال انا لنرضى منهم ان يدعونا من دون الباب قال عبد الرحمن لكنا لانرضى حتى نغزوهم في ديارهم وبالله ان معنا أقواما لو يأذن لهم أميرنا في الامعان لبلغت بهم الروم قال وماهم قال أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا في هذا الامر بنية ولا يزال هذا الامر لهم دائما ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر فقالوا ما اجترأ علينا الا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت فهربوا منه وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر وعادوا ولم يقتل منهم أحد ثم غزاهم أيام عثمان بن عفان غزوات فظفر كما كان يظفر حتى تبدل أهل الكوفة وظهر فيهم الاختلال فغزا عبدالرحمن ابن ربيعة بعد ذلك الترك فتذامرت عليه واجتمعوا في الغياض فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم

ونادى مناد من الجو صبرا عبد الرحمن وموعدكم الجنة فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة فقاتل بها ونادى مناد من الجو صبرا آل سلمان فقال سلمان أو ترى جزعا وخرج سلمان بالناس ومعه أبو هريرة الدوسى على جيلان فقطعوها الى جرجان ولم يمنعهم ذلك من انجاء جسد عبد الرحمن فهم يستسقون به الى الآن

﴿ ذكر فتح خراسان ﴾

كان فتح خراسان في سنة ثلاث وعشرين على الصحيح وسبب ذلك ان يزدجرد سار الى الرى بعد هزيمة أهل جلولا وانتهى اليها وعليها ابان جاذويه فوثب على يزدجرد فاخذه فقال يزدجرد ياابان تغدرني قال لا ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فاحببت ان اكتتب ماكان لى من شئ وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب صكا كا بكل ماأعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم الى يزدجرد فسار يزدجرد من الرى الى اصبهان ثم منها الى كرمان والنار التى يعبدونها معهم ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتا واطمأن وأمن من ان يؤتى وان له من بقى من الاعاجم وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس فنكثوا وأثار أهل الجبال والفيرزان فنكثوا فاذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس وكتب للاحنف ابن قيس بالمسير الى خراسان وكان قبل ذلك قد عقد له لواء عليها مع الالوية التى عقدها فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدى ثم سار نحو مرو الشاهجان فارسل الى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير والى سرخس الحارث بن حسان فلما دنا الاحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد الى مرو الروذ حتى نزلها ونزل الاحنف مرو الشاهجان وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ الى خاقان والى ملك الصغد والى ملك الصين يستمدهم وخرج الاحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلى بعد مالحقت به أمداد الكوفة وسار نحو مرو الروذ فلما سمع يزدجرد سار عنها الى بلخ ونزل الاحنف مرو الروذ وقدم أهل الكوفة الى يزدجرد واتبعهم الاحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الاحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم فبلخ من فتوحهم وتتابع أهل خراسان فمنهم من هرب ومنهم من شد على الصلح فيما بين نيسابور الى طخارستان وعمد الاحنف الى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعى بن عامر وكتب الاحنف الى عمر بالفتح فقال عمر وددت ان بيننا وبينها بحرا من نار فقال على ولم ياأمير المؤمنين

قال لان أهلها ينتقضون منها ثلاث مرات فيحتاجون في الثالثة فكان ذلك باهلها أحب الى من ان يكون بالمسلمين وكتب عمر الى الاحنف ان يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه ولما عبر يزدجرد النهر مهزوما أنجده خاقان من الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان الى خراسان فنزل بلخ ورجع أهل الكوفة الى الاحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً وكان الاحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر اليه خرج ليلا يستمع هل يسمع برأى ينتفع به فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول لصاحبه لو أسندنا الامير الى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتون من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت ان ينصرنا الله عليهم فرجع فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم الى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل يتنحون عنهم فخرج الاحنف ليلة طليعة لاصحابه حتى اذا كان قريبا من عسكر خاقان وقف فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف قريبا من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه الاحنف فقتله وأخذ طوق التركى ووقف فخرج آخر من الترك ففعل مثل فعل صاحبه فحمل عليه الاحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ثم خرج الثالث من الترك ففعل مثل فعل الرجلين فحمل عليه الاحنف فقتله ثم انصرف الاحنف الى عسكره وكانت عادة الترك أنهم لايخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ثم يخرجون بعد خروج الثالث فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتولين فقام خاقان وتطير فقال قد طال مقامنا وأصيب فرساننا مالنا في قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحدا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك الى بلخ وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف الى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج يزدجرد خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد ان يلحق بخاقان قال له أهل فارس أى شئ تريد ان تصنع فقال أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين قالوا ان هذا رأى سوء ارجع بنا الى هؤلاء القوم فنصالحهم فانهم أوفياؤهم أهل دين وان عدوا يلينا في بلادنا أحب الينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ماوفاؤهم فأبى عليهم فقالوا دع خزائننا نردها الى بلادنا ومن يلينا لاتخرجها من

بلادنا فابى فاعتزلوه وقاتلوه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ الى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيما بها زمن عمر كله الى ان كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه وسيرد ذكر ذلك في موضعه ثم أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الاحنف فصالحوه ودفعوا اليه تلك الخزائن والاموال وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الاكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية وسار الاحنف الى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كورها الاربع ثم رجع الى مرو الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجرد الى عمر ولما عبر خاقان ويزدجرد النهر لقوا رسول يزدجرد الذى أرسله الى ملك الصين فاخبرهما أن ملك الصين قال له صف لى هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فانى أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم الا بخير فيهم وشر فيكم فقلت سلنى عما أحببت فقال أيوفون بالعهد قلت نعم قال وما يقولون لكم قبل القتال قلت يدعوننا الى واحدة من ثلاث اما دينهم فان أجبنا أجرونا مجراهم أو الجزية والمنعة أو المنابذة قال فكيف طاعتهم أمراءهم قلت أطوع قوم وأرشدهم قال فما يحلون وما يحرمون فأخبرته قال هل يحلون ماحرم عليهم أو يحرمون ماحلل لهم قلت لاقال ان هؤلاء القوم لايزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال اخبرنى عن لباسهم فاخبرته وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها له قال نعمت الحصون ووصفت له الابل وبركها وقيامها بحملها فقال هذه صفة دواب طوال الاعناق وكتب معه الى يزدجرد أنه لم يمنعنى ان ابعث اليك بجند أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بمايحق على ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لى رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سربهم أزالونى ماداموا على وصفهم فسالمهم وارض منهم بالمسالمة ولا تهيجهم مالم يهيجوك فاقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان ولما وصل خبر الفتح الى عمر بن الخطاب جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله تعالى في خطبته على انجاز وعده ثم قال ألا وان ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم ألا وان الله أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم فانى لاأخاف على هذه الامة ان تؤتى الا من قبلكم

﴿ ذكر فتح شهرزور والصامغان ﴾

استعمل عمر رضى الله عنه عزرة بن قيس على حلوان فحاول عزرة فتح شهرزور فلم يقدر عليها فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت وصالح أهل الصامغان وداراباذ على الجزية والخراج وقتل خلقا كثيرا من الاكراد وكتب الى عمر ان فتوحى قد بلغ اذربيجان فولاه اياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة الى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد

﴿ ذكر غزو معاوية بلاد الروم ﴾

في هذه السنة اعنى سنة اثنتين وعشرين غزا معاوية بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف من المسلمين فأثخن فيهم وغنم ورجع سالما

﴿ ذكر الخبر عن فتح توج ﴾

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا الى فارس أمراء عليها وكان فيهم سارية بن زنيم الكنانى فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجه كل أمير الى الجهة التى أمر عليها وبلغ ذلك أهل فارس فتفرقوا الى بلدانهم كما افترق المسلمون فكانت تلك هزيمتهم وتشتتت أمورهم فقصد مجاشع بن مسعود السلمى سابور واردشير فالتقى هو والفرس بتوج فاقتتلوا ماشاء الله ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤا كل قتلة وغنموا ما في عسكرهم وحصروا توج فافتتحوها وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما فيها وكان ذلك افتتاح سنة ثلاث وعشرين وهذه توج الاخيرة والاولى هى التى استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمى أيام طاوس ثم دعوا الى الجزية فرجعوا وأقروا بها وأرسل مجاشع بن مسعود السلمى بالبشارة والاخماس الى عمر رضى الله عنه

﴿ ذكر فتح اصطخر وجور وغيرهما ﴾

في سنة ثلاث وعشرين قصد عثمان بن أبي العاص الثقفى اصطخر وكان عمر رضى الله عنه عقد له لواء اصطخر لما عقد الالوية لمن أذن لهم في الانسياح الى بلاد فارس فالتقى عثمان هو وأهل اصطخر بجور فاقتتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثم اصطخر وقتلوا ما شاء الله ثم فر منهم من فر فدعاهم عثمان الى الجزية والذمة فاجابه الهربذ اليها فتراجعوا وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها الى عمر وقسم الباقى في الناس وفتح عثمان كيزرون والنوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وارجان وفتح شينيز على الجزية والخراج وقصد عثمان أيضا جنابا ففتحها ولقيه جمع

الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها ثم ان شهرك خلع الطاعة في آخر خلافة عمر وأول
خلافة عثمان فوجه اليه عثمان بن أبي العاص ابنه وأتته الامداد من البصرة وأميرهم عبيد
الله بن معمر وشبل بن معبد فالتقوا بارض فارس فقال شهرك لابنه وهما في المعركة
و بينهما وبين قرية شهرك ثلاثة فراسخ وتسمى القرية أيضاً شهرك يابني أين يكون غداؤنا
ههنا أم بشهرك قال له ياأبت ان تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بشهرك ولا يكون الا
في المنزل وما أراهم يتركوننا فما فرغا من كلامهما حتى شب المسلمون الحرب فاقتتلوا
قتالا شديدا وقتل شهرك وابنه وخلق كثير والذى قتل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو
عثمان وقيل قتله سوار بن همام العبدى حمل عليه فطعنه فقتله وحمل ابن شهرك على سوار
فقتله وحوصر الفرس بمدينة سابور فصالح عليها ملكها ازرنبان وكان في جيوش المسلمين
أبو صفرة والد المهلب قيل ان عبد الله بن معمر أمير الامداد التى جاءت لهذا الجيش من
البصرة بلغه ان ازرنبان يريد الغدربه فقال له أحب ان تتخذ لاصحابي طعاما وتذبح لهم بقرة
وتجعل عظامها في الجفنة التى تليني فاني أحب ان أتمشش العظام ففعل وجعل يأخذ العظم
الذى لايكسر الا بالفؤس فيكسره بيده ويأخذ مخه وكان من أشد الناس فقام ازرنبان وقبل
قدمه وقال هذا مقام العائذ بك وأعطاه عهدا

﴿ ذكر فتح فساودار ابجرد ﴾

قد تقدم ان عمر رضى الله عنه لما عقد ألوية لمن أذن لهم في الانسياح في بلاد فارس عقد
لواء لسارية بن زنيم الكنانى على فساودارابجرد في سنة ثلاث وعشرين فسار حتى انتهى
اليهم فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ثم انهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت اليهم أكرادفارس
فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير وأتاهم الفرس من كل جانب فرأى عمر فيما يرى
النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار فنادى من الغد الصلاة جامعة حتى اذا
كان في الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج اليهم وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء ان
أقاموا فيها أحيط بهم وان استندوا الى جبل خلفهم لم يؤتوا الا من وجه واحد فقام عمر
على المنبر فقال يأيها الناس انى رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما وصاح عمر وهويخطب
ياسارية بن زنيم الجبل ياسارية الجبل ثم أقبل على الناس فقال ان لله جنودا ولعل بعضها
ان تبلغهم فسمع سارية ومن معه الصوت فالجؤا الى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله تعالى
كذا في الكامل لابن الاثير وهذه القصة رواها كثير من أئمة الحديث بأسانيد صحيحة
منهم البيهقى وأبو نعيم وابن مردوبه واللالكاى وابن الاعرابى والخطيب بألفاظ متعددة

والمعانى متقاربة فنها رواية لابن عمر قال وجه عمر جيشا ورأس عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر يخطب جعل ينادى ياسارية الجبل ثلاثا ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال ياأمير المؤمنين هزمنا فبينا نحن كذلك اذ سمعنا صوتا ينادى ياسارية الجبل ثلاثا فاسندنا ظهورنا الى الجبل فهزمهم الله تعالى فان قيل لعمر انك تصيح بذلك وذلك الجبل الذى كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم وفي رواية لابن عمر أيضاً كان عمر يخطب يوم الجمعة فعرضه في خطبته ان قال ياسارية الجبل من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال لهم على رضى الله عنه ليخرجن مما قال فلما فرغ سألوه فقال وقع في خلدى ان المشركين هزموا اخواننا وانهم يمرون بجبل فان عدلوا اليه قاتلوا من وجه واحد وان جازوا هلكوا فخرج منى ما تزعمون انكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر فذكر انهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم قال فعدلنا الى الجبل ففتح الله علينا وفي رواية عن عمرو بن الحارث قال بينا عمر يخطب يوم الجمعة اذ ترك الخطبة فقال ياسارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن انه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن اليه فقال انك لتجعل لهم على نفسك مقالا بينا أنت تخطب اذ أنت تصيح ياسارية الجبل أى شئ هذا قال انى والله ماملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم املك ان قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا الى ان جاء رسول سارية بكتابه وفيه ان القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى اذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادى ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم فقال أولئك الذين طعنوا عليه دعوا هذا الرجل فانه مصنوع له انتهى وأصاب المسلمون في مغانمهم مع سارية سفطا فيه جوهر فاستوهبه منهم سارية وبعث به الى عمر فقدم الرسول على عمر وهو يطعم الطعام فامره فجلس واكل فلما انصرف عمر تبعه الرسول فظنه عمر انه لم يشبع فامره فدخل بيته فلما جلس أتى عمر بغدائه خبز وزيت وملح جريش فأكلا فلما فرغا قال الرجل أنا رسول سارية ياأمير المؤمنين قال مرحباً وأهلاً ثم أدناه حتى مس ركبته وسأله عن المسلمين فأخبره بقصة السفط فنظر اليه وصاح به لا ولا كرامة حتى يقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم فطرده فقال ياأمير المؤمنين انى قد انضيت جملى واستقرضت في جائزتى فأعطنى ماأتبلغ به فما زال به حتى أبدله بعيرا من ابل الصدقة وجعل بعيره في ابل الصدقة ورجع الرسول مغضوبا عليه محروما وسأل أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيأ يوم الوقعة قال نعم سمعنا ياسارية الجبل

الجبل وقد كدنا نهلك فلجأنا اليه ففتح الله علينا

ذكر فتح كرمان

كان سهيل بن عدى قد عقد له عمر لواء على كرمان مع الالوية التي عقدها فأمره في هذه السنة أعني سنة ثلاث وعشرين بالمسير الى كرمان فسار ولحقه عبدالله بن عبدالله بن عتبان وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص فاقتتلوا في أداني أرضهم ففض الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق وقتل النسير بن عمرو العجلي مرزبانها فدخل النسير من قبل طريق القرى اليوم الى جيرفت وعبد الله بن عبدالله من مفازة سير فأصابوا ماأرادوا من بعير أو شاة فقوموا الابل والغنم فتحاصوها بالأثمان لعظم البخت على العرب وكرهوا ان يزيدوا وكتبوا الى عمر بذلك فاجابهم اذا رأيتم ان في البخت فضلا فزيدوا

ذكر فتح سجستان

كان عاصم بن عمرو قد عقد له عمر لواء على سجستان مع الالوية التي عقدها فامره في هذه السنة بالمسير اليها فسار ولحقه عبد الله بن عمير فاستقبلهم أهلها فالتقوا هم وأهل سجستان في أداني أرضهم انهزمهم المسلمون ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان ثم انهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الارضين فاعطوا وكانوا قد اشترطوا في صلحهم ان فدافدها حمى فكان المسلمون يتجنبونها خشية ان يصيبوا منها شيأ فيخفروا ثم أهل سجستان على الخراج وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجا يقاتلون لقندهار والترك وأمما كثيرة

(ذكر فتح مكران بضم الميم وسكون الكاف)

كان الحكم بن عمرو التغلبي قد عقد له عمر لواء على مكران مع الالوية التي عقدها فامره في هذه السنة بالمسير اليها فسار حتى انتهى اليها ولحقه شهاب بن المخارق وسهيل بن عدى وعبدالله بن عبد الله بن عتبان فانتهوا الى دوين النهر وأهل مكران على شاطئه فاستمد ملكهم ملك السند فامده بجيش كثيف فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقتل منهم في المعركة مقتلة عظيمة واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياما حتى انتهوا الى النهر ورجع المسلمون الى مكران فاقاموا بها وكتب الحكم الى عمر بالفتح وبعث اليه بالاخماس مع صحار العبدى فلما قدم المدينة سأله عمر عن مكران فقال ياأمير المؤمنين هى أرض سهلها جبل وماؤها وشل وتمرها دقل وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وماوراءها شر منها فقال أسجاع أنت أم مخبر لاوالله لايغزوها جيش لى أبدا وكتب الى سهيل والحكم

ابن عمرو ان لايجوزن مكران أحد من جنودهما وأمرهما ببيع الفيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الاسلام وقسم أثمانها على الغانمين

﴿ ذكر فتح بيروذ والاهواز ﴾

لما فصلت الخيول الى الكور اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الاكراد وغيرهم وكان عمر قد عهد الى أبي موسى ان يسير الى أقصى ذمة البصرة حتى لايؤتى المسلمون من خلفهم وخشى ان يهلك بعض جنوده أو يخلفوا في أعقابهم فاجتمع الاكراد ببيروذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ثم سار فنزل بهم ببيروذ فالتقوا في رمضان بين نهرتيرى ومناذر فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقبل القوم وعزم أبو موسى على الناس فافطروا وتقدم المهاجر وقاتل تتالا شديدا حتى قتل ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده فرق له ابو موسى فاستخلفه عليهم في جند وخرج أبو موسى حتى بلغ اصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيا فلما فتحت رجع أبو موسى الى البصرة وفتح الربيع بن زياد الحارثي بيروذ من نهرتيرى وغنم ما معهم

﴿ ذكر خبر سلمة بن قيس الاشجعي والاكراد ﴾

كان عمر رضي الله عنه اذا اجتمع اليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميرا من أهل العلم والفقه فاجتمع اليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الاشجعي فقال سر باسم الله قاتل في سبيل الله من كفر بالله فاذا لقيتم عدوكم فادعوهم الى الاسلام فان أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفئ نصيب وان ساروا معكم فلهم مثل الذى لكم وعليهم مثل الذى عليكم وان أبوا فادعوهم الى الجزية فان أجابوا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم وان تحصنوا منكم وسألوكم ان ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم فانكم لاتدرون أتصيبون حكم الله ورسوله وذمتهما أم لا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ولا تمثلوا فساروا حتى لقوا عددا من الاكراد المشركين فدعوهم الى الاسلام والجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فقسمه بينهم ورأى سلمة جوهرا في سفط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به الى عمر فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره حتى أخبره بالسفط فغضب غضبا شديدا وأمر به فوجئ به في عنقه ثم قال ان تفرق الناس قبل ان تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لاسوءنك فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته

عشرون ألفا وفي هذه السنة غزا معاوية الروم وفتح عسقلان صلحا الى هنا انتهت الفتوحات التي كانت في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستشهد عمر رضى الله عنه لاربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وقصة استشهاده مشهورة لاحاجة الى الاطالة بذكرها* أخرج أبو يعلى عن عمار ابن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل آنفا فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه مانفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وربما ان العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضى الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل في نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الاسلام في ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التى فتحها الله على يديه حتى كثر العلم واتسع الاسلام وكثر المسلمون يتضح له ان كل خير وقع لاهل الاسلام منذ خلافة عمر رضى الله عنه الى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضى الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك شئ كثير لايمكن ضبطه ولا احصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح في قومه*وأخرج عبد الله بن الامام أحمد في زوائد المسند عن أنس بن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انى لارجو لامتى في حبهم لابى بكر وعمر ما ارجو لهم في قول لااله الا الله*وأخرج أبوذر الهروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان وهذا مثل ما قال صلى الله عليه وسلم في حق على رضى الله عنه وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان على رضى الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله في زمن خلافتهم ولم ينازع أحدا منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع في ذلك قاتل من نازعه فلا يصح ان ينسب اليه ان سكونه في زمن الخلفاء الثلاثة كان تقيه حماه الله من المحاباه في دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر الفتوحات فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ﴾

كانت البيعة لعثمان رضى الله عنه في أوائل المحرم سنة أربع وعشرين فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عملا بقول عمر رضى الله عنه أوصى الخليفة بعدى ان يستعمل سعدا فانى لم أعزله عن سوء ولا خيانة فكان أول عامل

بعثه عثمان رضى الله عنه

(ذكر خلاف أهل الاسكندرية)

في سنة خمس وعشرين خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك ان الروم عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لايمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم الى ذلك فسار اليه من القسطنطينية جيش كثير وعليهم منويل الخصى فأرسوا بهـا واتفق معهم من بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحه فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص سار اليهم وسار الروم اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون الى ان دخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصى وكان الروم لما خرجوا من الاسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو ابن العاص ان الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة فرد عليهم ماعرفوا من أموالهم بعد اقامة البينة وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور وفي هذه السنة بلغ سعد بن أبي وقاص عن أهل الرى عزم على نقض العهد فارسل اليهم واصلحهم وغزا الديلم ثم انصرف

(ذكر صلح أهل ارمينية واذربيجان)

في هذه السنة نقضت أهل اذربيجان فامر عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ان يغزوهم وكان على الكوفة لان سعد بن أبي وقاص اختصم مع عبد الله بن مسعود فاستحسن عثمان رضى الله عنه ان يعزل سعدا قطعا للنزاع فعزله وولاها الوليد فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الأحمسى فاغار على أهل موقان والبير والطيلسان ففتح وغنم وسبى فطلب أهل كور اذر بيجان الصلح فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم وقبض المال وبث السرايا وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي الى أهل ارمينية في اثنى عشر ألفا فسار في ارمينية يقتل ويسبى ويغنم ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل ثم أتى الحديثة فنزلها فاتاه بها كتاب عثمان فيه ان معاوية بن أبي سفيان كتب الى يخبرني ان الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة وقد رأيت ان يمدهم اخوانهم من أهل الكوفة فابعث اليهم رجلا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذى يأتيك كتابي فيه والسلام فقام الوليد

في الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب معه ثمانية آلاف فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم فشنوا الغارات على أرض الروم فأصاب الناس ماشاؤا من الغنائم وافتتحوا حصونا كثيرة وقيل ان الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص وكان على الكوفة بعد عزل الوليد وكان سبب ذلك ان عثمان كتب الى معاوية ان يغزى حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية وهى غير التى باذربيجان بالعراق فوجهه اليها فأتى قالى قلا فحصرها وضيق على من بها فطلبوا الامان على الجلاء أو الجزية فجلا كثير منهم فالحقوا ببلاد الروم وأقام حبيب بها فيمن معه شهرا ثم بلغه ان بطريق ارمنياقس وهى البلاد التى صارت بعد بيد أولاد السلطان قلج ارسلان السلجوقي وهى ملاطية وسيواس واقسراى وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية قد توجه نحوه في ثمانين ألفا من الروم واسم القس المذكور الموريان فكتب حبيب الى معاوية يخبره فكتب معاوية الى عثمان فارسل عثمان الى سعيد بن العاص يأمره بامداد حبيب فامده بسلمان في ستة آلاف واجمع حبيب على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك فقال سرادق الموريان ثم بيتهم فقتل من وقف له ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته اليه فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق ولما انهزمت الروم عاد حبيب الى قالى قلا ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم بأمان البطريق المذكور فأجراه عليه وحمل اليه البطريق ما عليه من المال ونزل حبيب خلاط ثم سار منها فلقيه صاحب مكس وهى من البسفرجان فقاطعه على بلاده ثم سار منها الى ازدشاط وهى القرية التى يكون منها القرمز الذى يصبغ به فنزل على نهر دبيل وسرح الخيول اليها فحصرها فتحصن أهلها فنصب عليهم منجنيقا فطلبوا الامان فأجابهم اليه وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللجم وانما سميت ذات اللجم لأن المسلمين أخذوا لجم خيولهم فكبسهم الروم قبل ان يلجموها ثم ألجموها فقاتلوهم فظفروا بهم ووجه سرية الى سراج طير وبغروند فصالحه بطريقهما على اتاوة فقدم عليه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وأتى السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح فصالحه وسار الى تفليس فصالحه أهلها وهى من جرزان وفتح عدة حصون تجاورها صلحا وسار سلمان بن ربيعة الباهلى الى اران ففتح البيلقان صلحا على ان أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية والخراج ثم أتى سلمان مدينة بردعة فعسكر على

الشمكور أنهر بينه وبينهـا نحو فرسخ فقاتله أهلها أياما وشن الغارات في قراها فصالحوه على مثل صلح البيلقان ودخلها ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية ودعا أكراد البلاشجان الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فاقر بعضهم على الجزية وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل ووجه سرية الى شمكور ففتحوها وسار سلمان الى مجمع ارس والكر ففتحه وصالحه صاحب سكر وغيرها على الاتاوة وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب وهي غير التى في العراق وهذه بقرب حلب

﴿ ذكر غزوة معاوية الروم ﴾

في هذه السنة سنة ٢٥ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية وهي المسماة بروسا فوجد الحصون التي بين انطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهـل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ولمـا خرج هدم الحصون الى انطاكية

﴿ ذكر غزوة افريقية ﴾

في هذه السنة سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى أطراف افريقية غازيا بامر عثمان وكان عبـد الله من جند مصر فلما سار اليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب الى عثمان يستأذنه في غزو افريقية فاذن له في ذلك

﴿ ذكر غزوة كابل ﴾

في هذه السنة أرسل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن عامر الى كابل وهي عمالة سجستان فبلغها في قول فكانت أعظم من خراسان حتى مات معاوية فامتنع أهلها

﴿ ذكر فتح افريقية ﴾

كان ذلك في سنة ست وعسرين قد تقدم ان عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان رضى الله عنه في غزو افريقية فاذن له وقال له ان فتح الله عليـك فلك من الفيء خمس الخمس نفلا وأمر عثمان عبد الله بن نافع بن عبدالقيس وعبد الله بن نافع بن الحارس على جند وسرحهما وأمرهما بالاجتماع مع عبـد الله بن أبي سرح على صاحب افريقيه فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطؤا أرض افريقية وكانوا فى جيش كثير عدتهم عسرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدموا على دخول افريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان عثمان ولى عبدالله بن أبي سرح مصر فارسل الى عثمان يستأذنه في غزو افريقية والاستكثار من الجموع فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فاشار أكثرهم بذلك فجهز

اليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره فسار بهم عبد الله بن أبي سرح الى افريقية فلما وصلوا الى برقة لقيهم عبد الله بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا الى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم وساروا نحو افريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس الى طنجة وكان هرقل ملك الروم قد ولاه افريقية فهو يحمل الخراج اليه كل سنة فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فاقاموا هناك يقتتلون كل يوم وراسله عبد الله بن أبي سرح يدعوه الى الاسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير في جماعة اليهم ليأتيه باخبارهم فسار مجدا ووصل اليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك في عضده ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة الى الظهر فاذا أذن الظهر عاد كل فريق الى خيامه وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل انه سمع منادي جرجير يقول من قتل عبد الله بن أبي سرح فله مائة ألف دينار وازوجه ابنتي وهو يخاف على جيش المسلمين ان قتل فحضر عنده عبد الله بن الزبير وقال له تأمر مناديا ينادي من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله ثم ان عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن أبي سرح ان أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في امداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت ان نترك غدا جماعة صالحة من ابطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر الى ان يضجروا ويملوا فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فاحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون نقاتلوا الروم الى الظهر قتالا شديدا فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا فعند ذلك أخذ عبدالله بن الزبير من كان مستريحا

على المسلمين وقصدالروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله عبدالله ابن الزبير وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية وأعطيت لعبد الله بن الزبير مع مائة الف دينار ونازل عبدالله بن أبي سرح المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الاموال مالم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرا الى حصن الاجم وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالامان فصالحه أهل افريقية على الفي الف وخمسمائة ألف دينار وأرسل الى عثمان بالبشارة بفتح افريقية ثم عاد عبدالله بن أبي سرح الى مصر وكان مقامه بافريقية سنة وثلاثة أشهر ولم يفقد من المسلمين سوى ثلاثة منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فدفن هناك

﴿ ذكر انتقاض افريقية وفتحها ثانية ﴾

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدى اليه كل ملك من ملوك النصارى الخراج من مصر وافريقية واندلس وغير ذلك فلما صار ملك افريقية للمسلمين أرسل هرقل بعد مدة الى أهلها بطريقا وأمر أن يأخذ منهم مثل ماأخذ المسلمون فنزل البطريق في قرطاجنة وجمع النصارى الذين في افريقية وأخبرهم بما أمره الملك فأبوا عليه وقالوا نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغي له ان يسامحنا لما ناله المسلمون منا وكان قدقام بامر افريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة وتغلب الروم على افريقية فسار ذلك الرجل الى الشام و به معاوية وقد استقر له الامر بعد قتل على رضى الله عنه فوصف له افريقية وطلب ان يرسل معه جيشا فسير معه معاوية بن خديج السكونى فوصل الى افريقية وهى نار تضطرم ومعه عسكر عظيم فنزل عند قونية وأرسل البطريق اليه ثلاثين الف مقاتل فلما سمع بهم معاوية بن خديج سير اليهم جيشا من المسلمين فقاتلوهم فانهزم الروم وحصر حصن جلولا فلم يقدر عليه فانهدم الحصن فملكه المسلمون وغنموا مافيه وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد الى مصر

﴿ ذكر غزوة الاندلس ﴾

لما افتتحت افريقية في خلافة عثمان رضى الله عنه أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس ان يسيرا الى الاندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان الى من انتدب معهما أما بعد فان القسطنطينية انما تفتح من قبل

الاندلس فخرجوا ومعهم البربر ففتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة من أراضي افريقية وزاد في سلطان المسلمين مثل افريقية وأما الاندلس فلم تفتح الا في خلافة الوليد بن عبد الملك كما سيأتي ان شاء الله

﴿ ذكر غزوة قنسرين ﴾

وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قنسرين فقتل وسبي وغنم ورجع وفي سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية

﴿ ذكر فتح قبرس في خلافة عثمان رضي الله عنه غزاها معاوية سنة ٢٨ ﴾

وكان معه جماعة من الصحابة منهم أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام وكان معاوية قد استأذن عمر رضي الله عنه ان يغزو في البحر فلم يأذن له خوفا على المسلمين من ركوب البحر فلما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه استأذن وألح عليه فاذن له وقال لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل وسار المسلمون من الشام الى قبرس وسار عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة بعد قتل وسبي كثير في قبرس ويؤدون مثلها لملك الروم وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الانصارية ألقتها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت تصديقا للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبرها أنها في أول من يغزو في البحر كما في صحيح البخارى

﴿ ذكر انتقاض أهل فارس ﴾

في سنة تسع وعشرين انتقض أهل فارس فسار اليهم عبيد الله بن معمر فالتقوا على باب اصطخر فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون وبلغ الخبر عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة ابن حبيب بن عبد شمس وكان على البصرة بعد عزل أبي موسى وكان لعبد الله بن عامر صحبة فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس فالتقوا باصطخر واشتد القتال فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة وفتحت اصطخر عنوة وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها وسار الى مدينة جور فانتقضت اصطخر فلم يرجع وتمم السير الى جور وحاصرها الى ان فتحها وكان سبب فتحها ان بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة والى جانبه جراب له فيه خبز ولحم فجاء كلب فجره وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفي فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة فلما فرغ منها ابن عامر عاد الى اصطخر وفتحها عنوة بعد ان حاصرها واشتد القتال عليها ورميت بالمجانيق وقتل بها خلقا كثيرا من

الاعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة وكانوا قد لجؤا اليها

﴿ ذكر غزوة سعيد بن العاص طبرستان ﴾

في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص طبرستان وكان على الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة وكان أهل طبرستان في خلافة عمر صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيدا ونزل نيسابور ونزل سعيد قومس وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف ثم أتى طميسة فقاتله أهلها وضرب سعيد يوما رجلا بالسيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه فسألوه الامان فاعطاهم وفتح أيضاً نامية وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مددا لعبد الرحمن بن ربيعة وفي هذه الغزوة رأى حذيفة اختلافا كثيرا بين الناس في القرآن فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن في المصاحف ففعل وقصة ذلك مشهورة لاحاجة لذكرها

﴿ ذكر غزوة الصوارى ﴾

في سنة احدى وثلاثين غزا معاوية الصوارى وسببها ان المسلمين لما أصابوا من أهل افريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الاسلام فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى أهل مصر عبدالله بن أبي سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فارسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤن القرآن ويصلون ويدعون والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى وصبر الفريقان صبرا لم يصبروا في موطن قط مثله ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشريد وسار قسطنطين الى صقلية فسأله أهلها عن حاله فاخبرهم فقالوا أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه وأذنوا لهم في المسير الى القسطنطينية

﴿ ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار ملك الفرس ﴾

في سنة احدى وثلاثين كان مقتل يزدجرد واختلف في كيفية قتله اختلافا كثيرا وكان قد

هرب من فارس الى خراسان ولم يزل المسلمون يتبعونه ويقفون أثره من مدينة الى مدينة وهو يهرب ثم بيته جماعة من الترك نقتلوه وقيل نام عند رجل ينقر الأرحاء فقتله وقيل غير ذلك وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين في دعة وست عشرة في تعب من محاربة العرب اياه وغلظتهم عليه وكان آخر من ملك من آل أزدشير بن بابك وصفا الملك بعد للعرب

﴿ ذكر مسير عبد الله بن عامر الى خراسان وفتحها ﴾

لما قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نقض أهل خراسان وغدروا فلما افتتح ابن عامر فارس قام اليه حبيب بن أوس التميمى فقال له أيها الامير ان الارض بين يديك ولم يفتح منها الا القليل فسر فان الله ناصرك قال أولم نؤمر بالمسير وقيل ان الاحنف بن قيس قال له ان عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فان الله ناصرك ومعز دينه فسار الى كرمان واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمى وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها وكانوا قد نكثوا أيضاً واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثى وكانوا أيضاً قد نقضوا الصلح وغدروا ثم سار ابن عامر الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما على ستمائة الف درهم وبعث سرية الى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضاً وفتح جوين من أعمال نيسابور أيضاً ووجه الاسود بن كلثوم العدوى الى بيهق من أعمالها أيضاً فقصد قصبته ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين فاخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الاسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر الناس بعده أخوه ادهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق وكان الاسود يدعو الله ان يحشره في بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من أصحابه وافتتح ابن عامر في هذه الغزوة بشت من نيسابور وهذه بشت بالشين المعجمة وليست ببست التى بالسين المهملة فان تلك من بلاد الداون وهذه من خراسان من نيسابور وافتتح أيضاً خواف واسفراين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد ما استولى على اعمالها وافتتحها فحصر أهلها اشهرا وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامارة على ان يدخل المسلمين المدينة فاجيب الى ذلك فادخلهم ليلا ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الاكبر في حصنها ومعه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور فصالحه على الف الف درهم وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمى وسير جيشا الى نسا وابيورد فافتتحوها صلحا وسير سرية أخرى الى سرخس مع عبد الله بن خازم السلمى فقاتلوا أهلها ثم طلبوا الامان

والصلح على أمان مائة رجل فاجيبوا الى ذلك فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه فقتله عبدالله ودخل سرخس عنوة وأتى مرزبان طوس الى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم وسير جيشا الى هراة عليهم عبد الله بن خازم فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار الى ابن عامر فصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج وقيل بل سار ابن عامر فى الجيش الى هراة فقاتله أهلها ثم صالحه مرزبانها على الف الف درهم ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل اليه مرزبان مرو فصالحه على الفى ألف ومائتى الف درهم وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلى الى مرزبانها وكانت مرو كلها صلحا الا قرية منها يقال لها شنج فانها أخذت عنوة ووجه ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فمر برستاق يعرف بعد ذلك برستاق الاحنف ويدعى سوانجرد فحصر أهلها فصالحوه على ثلثمائة الف درهم فقال الاحنف أصالحكم على ان يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك ومضى الاحنف الى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب الى الاحنف أنه دعانى الى الصلح اسلام باذان فصالحه على ستمائة الف وسير الاحنف سرية فاستولت على رستاق بغ واستاقت منه مواشى ثم صالحه أهلها وجمع له أهل طخارستان فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم فى خلق كثير فالتقوا واقتتلوا وحمل ملك الصغانيان على الاحنف فانتزع الاحنف الرمح من يده وقاتل قتالا شديدا فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا كيف شاؤا وعاد الى مرو الروذ ولحق بعض العدو بالجوزجان فوجه اليهم الاحنف الاقرع بن حابس التميمى فى خيل وقال يابنى تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم وابدؤا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم فسار الاقرع فلقى العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة وفتح الاحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب ثم سار الاحنف الى بلخ وهى مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة ألف واستعمل على بلخ أسيد بفتح الهمزة بن المتشمس ثم سار الى خوارزم وهى على نهر جيحون فلم يقدر عليها فاستشار أصحابه فقال له حضين بالضاد المعجمة بن المنذر قال عمرو بن معدى كرب

اذا لم تستطع شيأ فدعه وجاوزه الى ماتستطيع

فعاد الى بلخ وقد قبض أسيد صلحها ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس مافتح لاحد مافتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لاجرم لاجعلن شكرى

لله تعالى على ذلك ان أخرج محرما من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلدا منها الا صالحه أهلها وأذعنوا له حتى أتى سمجان فامتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة

﴿ ذكر فتح كرمان ﴾

لما سار ابن عامر عن كرمان الى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمى على كرمان أمره ان يفتحها وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح هميد عنوة واستبقى أهله وأعطاهم أمانا وبنى بها قصرا يعرف بقصر مجاشع وأتى السيرجان وهى مدينة كرمان فاقام عليها أياما يسيرة وأهلها متحصنون وفتحها عنوة فجلا كثير من أهلها عنها وفتح جيرفت عنوة وسار في كرمان فدوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمع له خلق كثير من الاعاجم الذين جلوا فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان فاقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر

﴿ ذكر فتح سجستان وكابل وغيرهما ﴾

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب ثم ان أهلها نقضوا بعده فلما توجه ابن عامر الى خراسان سير اليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثى فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم أتى بلدة يقال لها كركويه فصالحه أهلها وسار الى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة وأتى الربيع ناشروذ ففتحها ثم أتى شروان فغلب عليها وسار منها الى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم فارسل اليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمنه وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على الف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها وأتى القرية التى بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم ثم عاد الى زرنج وأقام بها نحو سنة وعاد الى ابن عامر واستخلف عليها عاملا فاخرج أهلها العامل وامتنعوا فكانت ولاية الربيع سنة ونصفا وسبى فيها أربعين الف رأس وكان كاتبه الحسن البصرى فاستعمل

ابن عامر عبد ارحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على الفى الف درهم والفى وصيف وغلب عبد الرحمن مابين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على مابينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم في جبـل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما أردت ان أعلمك أنه لايضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ثم عاد الى زرنج فاقام بهـا ثم استخلف عليهـا أمير بن احمر اليشكرى وانصرف فاخرج أهلها أمير بن احمر وامتنعوا

غزوة مضيق القسطنطينية

في سنة اثنتين وثلاثين غزا معاوية بن أبى سفيان مضيق القسطنطينية فقتل وسبى وغنم ورجع

﴿ ذكر غزوة بلنجر ﴾

لمـا تتابعت الغزوات على الخزر والترك تدامروا وقالوا كنا لايقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الامة القليلة فصرنا لانقوم لهـا فقال بعضهم ان هؤلاء لايموتون وما أصيب منهم أحد في غزوهم وكان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحـد فلهذا ظنوا انهم لايموتون فقال بعضـهم افلا تجربون فكمنوا لهم في الغياض فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤسهم على حربهم ثم اتعدوا يوما وكان عثمان قد كتب الى عبد الرحمن ابن ربيعة وهو على الباب ان الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فانى اخشى ان يقتلوا فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده فغزا نحو لنجر وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالا شديدا وقتل عبد الرحمن وكان يقال له ذو النون وهو اسم سيفه فأخذ أهل بلنجر جسده فجعلوه في تابوت فهم يستسقون به فلما قتل وقتل كثير ممن معه انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن كان قدسيره سعيد بن العاص مددا للمسلمين بأمر عثمان فلما لقوه نجوا معه وفرقة نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسى وأبو هريرة

﴿ ذكر خروج الترك مع ملكهم قارن ﴾

في سـنة ثنتين وثلاثين خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان في أربعين الفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهى الى الطبسين واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمى استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه الى مكة محرما

فدوخ جهتها وكان معه ابن عمه عبدالله بن خازم فقال لابن عامر أكتب لى على خراسان عهداً اذا خرج منها قيس ففعل فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم ماترى قال أرى ان تخرج من البلاد فان عهد ابن عامر عندى بولايتها فترك منازعته وذهب الى ابن عامر وقيل أشار عليه ان يخرج الى ابن عامر يستمده فلما خرج اشهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس وسار ابن خازم لقاء الترك في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك فلما قرب من قارن أمر الناس ان يدرج كل رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطنا ثم يكثروا دهنه ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النار في أطراف الرماح فانتهت مقدمته الى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتخفض وترفع فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل في المشركين وقتل ملكهم قارن فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤا وأصابوا سبيا كثيرا وكتب ابن خازم بالفتح الى ابن عامر فرضي وأقره على خراسان

﴿ غزوة حصن المرأة ﴾

في سنة ثلاث وثلاثين غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملاطية فقتل وسبى وغنم ورجع وفي هذه السنة كانت غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح افريقية الثانية حين نقض أهلها العهد

﴿ ذكر انتقاض أهل قبرس وغزوهم في سنة ٣٣ ﴾

وفي هذه السنة نقض أهل قبرس وأعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب اعطوهم اياها فغزا معاوية أهل قبرس وفتحها عنوة وقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم وبعث اليهم اثنى عشر الفا فبنوا المساجد وبنى مدينة وفي تاريخ جنابى أن في سنة خمس وثلاثين ركب البحر أمير مصر عبدالله بن أبى سرح من الاسكندرية بقصد غزو القسطنطينية فاستقبلهم ملك الروم في ألف مركب وكان المسلمون في مائة مركب فالتقوا باسكلة فنكه مغرب انطاكية فرأى ملك الروم رؤيا عبرت له بتعبير مستخرج من الالفاظ التى رآها فجمعت وخرج منها حروف ترجمتها لاتطلب الغلبة فلم يعمل بمقتضى ذلك بل استهان بالمسلمين وقاتلهم ففتح الله النصر للمسلمين وولى الكفار هاربين فمنهم من غرق في البحر ومنهم من أخذه السيف ومنهم من أسر وغنم المسلمون كثيرا من مراكبهم ورجعوا الى جزيرة رودس وشنوا عليها الغارة وفتحوها في أسرع زمان وضربوا على من فيها الجزية

وأعطوهم الامان

﴿ ذكر فتح رودس في سنة ٣٥ ﴾

وفي تاريخ ابن الاثير ان فتح رودس كان في سنة ثلاث وخمسين في خلافة معاوية فتحها جنادة بن أبي أمية الازدى وسيأتى ذكر ذلك ولعله فتح ثان بعد هذا الفتح انتهت الفتوحات التى كانت في خلافة عثمان رضى الله عنه ثم وقع الاختلاف بين المسلمين في شأن الامراء الى ان قتل عثمان رضى الله عنه شهيدا وقصته مشهورة لاحاجة لنا الى ذكرها وكان استشهاده لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وكانت خلافته أثنتى عشرة سنة الا اثنى عشر يوما وقيل الا ثمانية أيام وقيل بل قتل أيام التشريق وكان عمره أثنتين وثمانين سنة وقيل ثمانيا وثمانين وقيل تسعين ثم بويع على رضى الله عنه ووقع الاختلاف بين الصحابة رضى الله عنهم في قتلة عثمان وكانوا مجتهدين في طلب الحق فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد فيجب الامساك عما جرى بينهم وتأويله باحسن التأويل وحمله على أحسن المحامل واستمر الحال الى ان استشهد على رضى الله عنه سبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة أشهر ثم بويع ابنه الحسن رضى الله عنه واستمر ستة أشهر ثم نزل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنه حقنا لدماء المسلمين وتحقيقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فكان اجماع الصحابة على خلافة معاوية رضى الله عنه سنة احدى وأربعين في ربيع الاول وقيل الآخر وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص وكان على مصر عقبة بن نافع بن عبد قيس على افريقية فانتهى الى لواتة ومزاتة فاطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى ثم افتتح في سنة أثنتين واربعين غدامس فقتل وسبى وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان وافتتح ودان وهى من برقة وافتتح عامة بلاد البربر وهو الذى اختط القيروان سنة خمسين وفي سنة أثنتين وأربعين أيضاً غزا المسلمون اللان وغزوا الروم أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم وفي سنة ثلاث وأربعين غزا بسر ابن أبي ارطاة الروم وشتى بارضهم حتى بلغ القسطنطينية وفيها أعاد معاوية عبد الله بن عامر على ولاية البصرة وجعل اليه ولاية خراسان وسجستان فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطى فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتى بلغ كابل فحصرها أشهرا ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة

عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ثم سار الى بست ففتحها عنوة وسار الى زران فهرب أهلها وغلب عليها ثم سار الى خشك فصالحه أهلها ثم أتى الرخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها ثم سار الى زابلستان وهي غزنة وأعمالها فقاتله أهلها وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها واستعمل ابن عامر على ثغر السند عبدالله بن سوار العبدى فغزا القيقان فاصاب مغنما ثم غزاهم مرة أخرى فاستنجدوا بالترك فقتلوه وكان كريما لم يوقد أحد في عسكره نارا فرأى ذات ليلة نارا فقال ماهذه قالوا امرأة نفساء يعمل لها الخبيص فامر ان يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام

ذكر غزوة السند

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها وغزا بسر بن أبي ارطاة في البحر وغزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنة والاهواز بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسا من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا وفي سنة ست وأربعين غزا الروم مالك بن عبد الله وشتى في أرض الروم وقيل بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكونى وفي سنة سبع وأربعين كان مشتى مالك بن هبيرة بارض الروم غازيا ومشتى عبد الرحمن القينى بانطاكية وفيها سار الحكم بن عمرو الغفارى وكان على خراسان الى جبال الغور فغزا من بها وكانوا قد ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق فعيي الحكم بالامر فولى المهلب الحرب فلم يزل يحتال حتى أسر عظيما من عظماء الترك فقال له اما ان تخرجنا من هذا المضيق أولاقتلنك فقال له أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فانهم يستجمعون فيه ويخلون ماسواه من الطرق فبادرهم الى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه ففعل ذلك فسلم الناس بما معهم من الغنائم وفي سنة ثمان وأربعين كان على غزو المسلمين الروم في الشتاء عبد الرحمن القينى وفي الصيف عبد الله بن قيس الفزارى وغزا مالك بن هبيرة السكونى البحر وغزا عقبة بن عامر الجهنى باهل مصر البحرين وغزا يزيد بن شجرة الرهاوى باهل الشام في البحر

ذكر غزوة القسطنطينية

في سنة تسع وأربعين وقيل ثمــان وأربعين سير معاوية جيشا كثيفا الى بلاد الروم للغزو وجعل عليهم سفيان بن عوف الازدى وكان في الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الانصارى ويزيد بن معاوية فاوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية واقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا واستشهد أبو أيوب رضى الله عنه ودفن بالقرب من سورها وفي سنة خمســين أغزا معاوية بسر بن أرطاة وسفيان بن عوف الازدى أرض الروم وأغزا فضالة بن عبيد الله الانصارى في البحر وفي هذه السنة استعمل معاوية عقبة ابن نافع القهرى على افريقية وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف فارس فدخل افريقيه وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل اليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى ان يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت اجمة مشتبكة بها شئ كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله تعالى وكان مستجاب الدعوة ومن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها وتنتقل ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا وقطع الاشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم حتى كان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكان في أثناء عمارة المدينة المذكورة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها وفي سنة احدى وخمسين كان على غزو المسلمين فضالة بن عبيدة فشتى بالروم وفي الصيف بسر بن أبى أرطاة وفي السنة المذكورة غزا بلخ الربيع بن زياد والحارث وكان على خراسان ففتحها صلحا وكانت قد نقضت بعد ماصالحهم الاحنف بن قيس وفتح الربيع أيضاً قهستان عنوة وقتل من بناحيتها من الاتراك وبقى منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته وفي سنة ثنتين وخمسين كان على غزو المسلمين الروم سفيان بن عوف و يسر بن أبى ارطاة في الشتاء وفي الصيف محمد بن عبد الله الثقفى وفي سنة ثلاث وخمسين كان على الجيش في الشتاء عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى بالروم وفي هذه السنة فتحت رودس جزيرة في البحر فتحها

جنادة بن أبي أمية الازدى ونزلهـا المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شئ على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم فلما توفي معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلهاوفي سنة أربع وخمسين كان على جيش المسلمين في غزوهم الروم محمد بن مالك شتاء ومعن بن يزيد السلمى صيفا وفي هذه السنة فتح المسلمون جزيرة ارواد قريب القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبي أمية وفي هذه السنة أيضاً استعمل معاوية على خراسان عبيـدالله بن زياد فسار الى خراسان فقطع النهر الى جبال بخارى على الابل في جيش وفتح رامنى ونسف وبيكند وهي من بخارى وغنم غنائم كثيرة ولمـالقي الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فعجلوها عن لبس خفيها فلبست أحدهما وبقي الآخر فأخذه المسلمون فقوم بمائتي ألف درهم وفي سنة خمس وخمسين كان على جيش المسلمين في الغزو شتاء عمرو بن محرز وقيل عبد الله بن قيس الفزارى وفي سنة ست وخمسين كان على جيش المسلمين في غزوالروم جنادة ابن أبي أمية وغزا في البحر يزيد بن شجرة وفي البر عياض بن الحارث وفي هذه السـنة استعمل معاوية على خراج خراسان وحربها سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه فلما قدم خراسان قطع جيحون الى سمرقند والصغد وهزم الكفار وفتح ترمذ صلحا وفي سنة سبع وخمسين كان على جيش المسلمين بارض الروم عبد الله بن قيس شتاء وفي سنة ثمـان وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم مالك بن عبدالله الخثعمى وفي البحر عمرو بن يزيد الجهنى وقيل جنادة بن ابى أمية وفي سنة تسع وخمسين كان على جيش المسلمين عمرو ابن مرة الجهنى بارض الروم في البر وفي البحر جنادة بن أبي أمية وقيل لم يكن في البحر غزوة هذه السنة وفي هذه السنة غزا المسلمون حصن كمخ من بلاد الروم ومعهم عمير بن الحباب السلمى فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون فكان الفتح بعمير وبذلك كان يفتخر وفي سنة ستين كانت غزوة لمـالك بن عبيد الله في سورية وفي السنة المذكورة توفي معاوية رضى الله عنه وفي سـنة احدى وستين استعمل يزيد على خراسان سلم بن زياد فقدم خراسان وعبر نهر جيحون وكان معه المهلب بن أبي صفرة وكان ممايلي خوارزم مدينة يجتمع فيها كثير من ملوكهم وكان المسلمون يطالبون أمراءهم غزو تلك المدينة فيأبون عليهم فألح المهلب على سلم وسأله التوجه الى تلك المدينة فوجهه في ستة آلاف فحاصرهم فطلبوا ان يصالحهم على ان يفدوا أنفسهم فاجابهم الى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين الف الف وكان في صلحهم يأخذ منهم عروضا فكان يأخذ

الرأس والدابة والمتاع بنصف ثمنه فبلغت قيمة ماأخذ منهم خمسين ألف ألف وغزا سلم سمرقند ووجه جيشا الى خجندة فهزموا واستعمل سلم أخاه يزيدعلى سجستان فغدرأهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار اليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبد الله الخزاعى وهو طلحة الطلحات ففدى أباعبيدة بن زياد بخمسمائة ألف درهم وسار طلحة من كابل الى سجستان واليا عليها فجبي المال واعطى زواره ومات بسجستان وفيه يقول القائل رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

﴿ ذكر غزو عقبة بن نافع بلاد السوس وكثير من وقائع افريقية ﴾

في سنة ثنتين وستين ترك بالقيروان عقبة بن نافع جندا مع الذرارى والاموال واستخلف بها زهيرابن قيس البلوى وأحضر أولاده فقال انى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديدا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار الى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها اربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم الى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل الى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فاجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واقتتلوا قتالا شديدا واشتد الامر على المسلمين لكثرة العدو ثم ان الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجه فلقيه بطريق من الروم اسمه بليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سأله عن الاندلس فعظم الامر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لايعلم عددهم الا الله تعالى وهم بالسوس الادنى وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد فسار عقبة اليهم نحو السوس الاقصى وهو مغرب طنجة فانتهى الى أوائل البربر فلقوه في جمع كثير فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه وسار هو حتى وصل الى السوس الاقصى وقد اجتمع له البربر في عالم لايحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبيا كثيرا وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك

ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير وأشرفوا على الهلاك فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الارض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة في الناس فحفروا احسا كثيرة وشربوا فسمي ماء الفرس فلما وصل الى مدينة طبنة و بينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه ان يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من الله وانه لم يبق أحد يخشاه وسار الى تهوذا لينظر اليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه وأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام فلم يقبلوا منه ثم أرسل الروم الى كسيلة بن كمرم البربرى ليسرع لقتال عقبة فبادر الى ذلك وكان كسيلة المذكور قد أسلم في مدة امارة أبي المهاجر افريقية قبل عقبة وحسن اسلامه وهو من اكابر البربر وصحب أبا المهاجر فلما ولى عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة وأمره باكرامه فلم يقبل عقبة واستخف بكسيلة وأتى عقبة مرة بغنم فامر كسيلة يذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة هؤلاء فتياني وغلماني يكفوننى المؤنة فشتمه وأمره بسلخها فقبح أبو المهاجر ذلك عند عقبة فلم يرجع فقال له اوثق الرجل فانى أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فاضمر كسيلة الغدر فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا الى كسيلة وأعلموه حاله وكان في عسكر عقبة وقد أضمر الغدر واعلم الروم بذلك وأطمعهم فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة الى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه فلما كثر جمعه قاتل عقبة فهزمه فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الانصارى في نفر يسير فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان فعزم زهير بن قيس البلوى على القتال وكان خليفة عقبة بالقيروان فخالفه حيش الصنعانى وعاد الى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير الى العود معهم فسار الى برقة وأقام بها وأما كسيلة فاجتمع اليه جمع من أهل افريقية وقصد افريقية وبها أصحاب الانفال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ودخل القيروان واستولى على افريقية وأقام بها وحصلت الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فلما قوى أمر عبد الملك انفذ الجيوش الى افريقية وكتب الى زهير بن قيس البلوى بولاية افريقية فسار سنة تسع وستين الى افريقية بالجيوش فبلغ خبره الى كسيلة فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال قد رأيت ان أرحل الى ممش فانزلها

فان بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قاتلنا زهيرا
ان يثبت هؤلاء من ورائنا فاذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيرا فان ظفرنا بهم تبعناهم الى
طرابلس وقطعنا أثرهم من افريقية وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه الى ذلك
ورحل الى ممش و بلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح
واستراح ثم رحل في طلب كسيلة فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب اليه فالتقى العسكران
واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك أكثر
النهار ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش
وتبع المسلمون الروم والبربر فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا وفي هذه الواقعة ذهب رجال
البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير الى القيروان ثم ان زهيرا رأى بافريقية ملكا
عظيما فأبى ان يقيم وقال انما قدمت للجهاد فاخاف ان أميل الى الدنيا فاهلك وكان عابدا
زاهدا فترك بالقيروان عسكرا وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذى شوكة ورحل في
جمع كثير يريد مصر وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة الى افريقية
لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية
وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبيا كثيرا وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من
افريقية الى برقة فاخبر الخبر فامر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه
وكان الروم خلقاً كثيرا فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع فباشر القتال واشتد
الامر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرا وأصحابه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم
بما غنموا الى القسطنطينية ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد
وكان مشغولا بما كان بينه وبين ابن الزبير فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه
جهز جيشا كثيرا ثم سيرهم الى افريقية واستعمل عليهم وعلى افريقية حسان بن النعمان
الغساني ولم يدخل افريقية قط جيش مثله فلما ورد القيروان تجهز منها وسار الى قرطاجنة
وكان صاحبها أعظم ملوك افريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها فلما وصل اليها رأى بها
من الروم والبربر مالا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك
اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الاندلس
فدخل حسان قرطاجنة بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها
فأسرعوا اليه خوفا فامرهم فهدموا من قرطاجنة ماقدروا عليه ثم بلغه ان الروم والبربر
قد اجتمعوا له في صطفورة وبنزرت وهما مدينتان فسار اليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة وقوة

فصبر لهم المسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ولم يترك حسان موضعا من بلادهم الا وطئه وخافه أهل افريقية خوفا شديدا ولجأ المنهزمون من الروم الى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونة فعاد حسان الى القيروان لان الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا فلما صلح الناس قال حسان دلونى على أعظم من بقى من ملوك افريقية فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة وكانت بربرية وهى بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة فسأل أهل افريقية عنها فعظموا محلها وقالوا له ان قتلتها لم تختلف البربر بعد عليك فسار اليها فلما قاربها هدمت حصن باغاية ظنا منها انه يريد الحصون فلم يعرج حسان على ذلك وسار اليها فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر منهم كثير وانهزم حسان ثم انها اطلقت الاسرى سوى خالد بن يزيد القيسى وكان شريفا شجاعا فاتخذته ولدا فسار حسان حتى فارق افريقية وأقام وكتب الى عبد الملك بالمقام الى ان يأتيه أمره فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمى ذلك المكان قصور حسان الى الآن وملكت الكاهنة افريقية كلها وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم ثم سير اليه عبد الملك الجنود والاموال وأمره بالمسير الى افريقية وقتال الكاهنة فارسل حسان رسوله سرا الى خالد بن يزيد وهو عند الكاهنة بكتاب ليتعلم منه الامور فكتب اليه خالد جوابه في رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة وجعل الرقعة في خبزة وعاد الرسول فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول ذهب ملكهم فيما يأكل الناس فطلب الرسول فلم يوجد فوصل الى حسان وقد احترق الكتاب بالنار فعاد الى خالد وكتب اليه بما كتب أولا وأودعه قربوس السرج فوصل الى حسان فسار فلما علمت الكاهنة بمسيره اليها قالت العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن انما نريد المزارع والمراعى ولا أرى الا ان اخرب أفريقية حتى ييأسوا منها وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الاموال وهذا هو الخراب الاول لافريقية فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها فسره ذلك فسار الى قابس فلقيه أهلها بالاموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الامراء وجعل فيها عاملا وسار الى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوه وبلغ الكاهنة قدومه فاحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم انى مقتولة فامضوا الى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا فساروا اليه وبقوا معه وسار

حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس انه الفناء ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قتالا ذريعا وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت ثم ان البربر استأمنوا الى حسان فامنهم وشرط عليهم ان يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفا يجاهدون العدو فأجابوه الى ذلك فجعل على هذا العسكر ابنى الكاهنة ثم فشى الاسلام في البربر وعاد حسان الى القيروان وأقام لاينازعه أحد الى ان توفي عبدالملك سنة ست وثمانين فلما ولى ابنه الوليد ولى افريقية عمه عبدالله بن مروان وعزل حسان ثم استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير سنة تسع وثمانين وسيأتى الكلام على غزواته

ذكر صلح عبد الملك بن مروان لملك الروم

كانت الصوائف تعطلت من الشأم منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين والصوائف الجيوش التى كانت تجهز في أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار واستمر ذلك من صدر الاسلام الى أواخر الدولة العباسية ولما اشتدت الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم سنة سبعين واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبدالملك ملكهم على ان يؤدى اليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين وفي سنة ثلاث وسبعين خرج الروم من ناحية ارمينية في ستين ألفا وكان على ارمينية محمد بن مروان من قبل أخيه عبد الملك فقاتلهم وهزمهم وأكثر القتل فيهم وفي سنة أربع وسبعين استعمل عبد الملك على خراسان أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد فلما وصل أمية الى كرمان استعمل ابنه عبدالله على سجستان فلما قدمها غزا ملك الترك رتبيل وكان رتبيل هائبا للمسلمين فلما وصل عبدالله الى بست ارسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف وبعث اليه بهدايا و رقيق فأبى عبدالله قبول ذلك وقال ان ملأ لى هذا الرواق ذهبا والا فلا صلح وكان غزا فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها وأخذ عليه الشعاب والمضايق فطلب ان يخلى عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيأ فابى رتبيل وقال بل يأخذ ثلاثمائة ألف درهم صلحا ويكتب لنا كتابا ولا يغزو بلادنا ما كنت أميرا ولا يحرق ولا يخرب ففعل ذلك وبلغ ذلك عبد الملك فعزله وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان صائفة وكانت الروم خرجت من قبل مرعش وكذا في السنة التى بعدها وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن سعد التميمى من قبل الحجاج فغزا وفتح أماكن من قندابيل وفي سنة ست وسبعين غزا محمد بن مروان الروم من ناحية ملاطية وفي سنة سبع وسبعين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك وفي سنة ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان وكان رتبيل ملك الترك مصالحا

وكان يؤدى الخراج وربمـا امتنع فبعث الحجاج الى عبيدالله بن أبى بكرة يأمره بمناجزته وان لايرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله فسار عبيدالله في أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهـل الكوفة شريح بن هانئ كان من أصحاب على رضى الله عنه ومضى عبيدالله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ماشاء وهدم حصونا وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضا بعد أرض حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منهـا على ثمـانية عشر فرسخا فاخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط في أيدى المسلمين فظنوا ان قد هلكوا فصالحهم عبيد الله على سبعمائة الف درهم يوصلها الى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضـه فلقيه شريح فقال له انكم لاتصالحون على شئ الا حسبه السلطان من أعطياتكم وقدبلغت من العمر طويلا وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وان فاتتنى اليوم الشهادة ماأدركها حتى أموت ثم قال شريح ياأهل الاسلام تعاونوا على عدوكم فقال له عبيد الله بن أبى بكرة انك شيخ قد خرفت فقال له شريح انما حسبك ان يقال بستان عبيد الله وحمام عبيدالله ياأهل الاسلام من أراد منكم الشهادة فالىّ فاتبعه ناس من المتطوعة وفرسان الناس وأهل الحفاظ فقاتلوا حتى أصيبوا الا قليلا وقاتل شريح حتى قتل في أناس من أصحابه ونجا من نجا فخرجوا من بلاد رتبيل وفي هذه السنة أصاب أهل الروم أهل انطاكية وظفروا بهم وفي سنة ثمـان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وضمها لأعمال الحجاج فولى على خراسان المهلب بن أبى صفرة

﴿ ذكر غزوة المهلب ماوراء النهرحين كان واليا على خراسان ﴾

في سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فأتاه ابن عم ملك الختل ودعاه الى غزو الختل وكان اسم ملكهم الشبل فوجه المهلب مع ابن عم الملك ابنه يزيد بن المهلب فنزل يزيد ناحية ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله فحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت اليـه ورجع يزيد عنهم و وجه المهلب ابنه حبيبا فوافي صاحب بخارا في أربعين الفا فنزل جماعة من العدو قرية فسار اليهم حبيب في أربعـة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ورجع حبيب الى أبيه وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت الى ماوراء ذلك فقال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند وصالح المهلب أهل كش على فدية يأخذها منهم وأتاه كتاب ابن الاشعث بخلع الحجاج ويدعوه الى مساعدته فبعث بكتابه الى الحجاج وأقام بكش

﴿ذكر تسيير الجنود الى رتبيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث﴾

قد تقدم ذكر حال المسلمين حين دخل بهم ابن أبي بكرة بلادرتبيل ثم استأذن الحجاج عبد الملك في تسيير الجنود نحو رتبيل فاذن له عبد الملك فاخذ الحجاج في تجهيز الجيش فجعل على أهل الكوفة عشرين الفا وعلى أهل البصرة عشرين الفا وجد في ذلك وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأنفق فيهم الفي الف سوى اعطياتهم وأجدهم بالخيل الرائقةوالسلاح الكامل وأعطي كل رجل يوصف بشجاعة وغناء وكان يسمى جيش الطواويس لحسنه فلما فرغ من أمر الجند بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بأمر من عبد الملك وكان الحجاج يبغض عبد الرحمن المذكور فسيره على ذلك الجيش طاعة لامر عبد الملك فسار بهم حتى قدم سجستان وبلغ الخبر رتبيل فارسل يعتذر ويبذل الخراج فلم يقبل منه فسار اليه ودخل بلاده وترك له رتبيل ارضا أرضا ورستاقا رستاقا وحصنا حصنا وعبد الرحمن يحوي ذلك وكلما حوى بلدا بعث اليه عاملا وجعل معه أعوانا وجعل الارصادعلى العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى اذا حاز من أرض عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوغول في أرض رتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها وفي العام المقبل نأخذ ماوراءها ان شاء الله تعالى ثم كتب الى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد ان يعمل فلما أتى كتابه الى الحجاج كتب جوابه ان كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم عظيما وأحببت ان تكف عن ذلك العدو وتسخى النفس بمن أصيب من المسلمين فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ثم أردفه كتابا آخر بنحو ذلك وفيه امابعد فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا بها فانها دارهم حتى يفتحها الله عليهم ثم كتب كتابا ثالثاً بذلك ويقول له ان مضيت لما أمرتك به والا فاخوك اسحق بن محمد أمير الناس فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم أيها الناس اني لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم في كل مايحيط به نفعكم ناظر وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضيه ذوو احلامكم وأولو التجربة منكم وكتبت بذلك الى أميركم الحجاج فاتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالامس وانما أنا رجل منكم أمضي اذا مضيتم وآبى اذا أبيتم فثار اليه الناس وقالوا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع فكان

أول من تكلم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى وله صحبة رضى الله عنه فقال بعد حمد الله أما بعد فان الحجاج يرى بكم مارأى القائل الاول احمل عبدك على الفرس فان هلك فلك وان نجا فلك وانّ الحجاج مايبالى ان يخاطر بكم فيقحمكم بلايا كثيرة ويغشى اللهوب واللصوب فان ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وان ظفر عدوكم كنتم أنتم الاعداء البغضاء الذين لايبالى عنتهم ولا يبقى عليهم اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الامير عبد الرحمن فانى أشهدكم انى أول خالع فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى فقال عباد الله انكم ان أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم مابقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود (التجمير حبس الجيش في أرض العدو من غير رجوع) فانه بلغنى انه أول من جمر البعوث ولن تعاينوا الاحبة أو يموت أكثركم فيما أرى فبايعوا أميركم وانصرفوا الى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم فوثب الناس الى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق وعلى النصرة لعبد الرحمن ولم يذكروا عبد الملك وجعل عبد الرحمن على بست عياض ابن هميان الشيبانى وعلى زرنج عبدالله بن عامر التميمى وصالح رتبيل على ان ابن الاشعث ان ظهر فلا خراج عليه أبدا مابقى وان هزم فاراد منعه رجع الى العراق وجعل عبد الرحمن على مقدمته عطية بن عمرو العنبرى وجعل على كرمان حريبة بن عمرو التميمى فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم الى بعض وقالوا اذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك فاجتمعوا الى عبد الرحمن فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن ابجر من بنى تيم الله بن ثعلبة قام فقال أيها الناس انى خلعت ابا ذبان (كنية عبد الملك) كخلع قميصى فخلعه الناس الا قليلا منهم وبايعوا عبد الرحمن وكانت بيعته تبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين فلما بلغ الحجاج خلعه كتب الى عبد الملك بخبر عبد الرحمن ويسأله ان يعجل بعثه بجنود اليه ولما بلغ المهلب خبر عبد الرحمن كتب الى الحجاج من خراسان أما بعد فان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل ليس يرده شئ حتى ينتهى الى قراره وان لاهل العراق شدة في أول مخرجهم وصبابة الى أبنائهم ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم و يشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فان الله ناصرك عليهم فلما قرأ كتابه شتمه وسبه وقال مالى نظر وانما نظر الى ابن عمه يعنى عبد الرحمن لان كلا من المهلب وعبد الرحمن من قحطان ثم بعد وقوع بعض الوقائع بين الحجاج وعبد الرحمن نظر في كتاب المهلب فاستصوب ماقاله

وقال لله دره أي صاحب حرب هو ولما وصل كتاب الحجاج لعبد الملك هاله ودعا خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه الكتاب فقال ياأمير المؤمنين ان كان الحدث من سجستان فلا تخفه فان كان من خراسان فانى أتخوفه فجهز عبد الملك الجند الى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين وأقل وأكثر وكتب الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن فنزل الحجاج البصرة ولما اجتمع الجند عنده سار من البصرة ليلقى عبد الرحمن ولم يتركهم حتى يسقطوا الى أهاليهم كما كتب اليه المهلب فنزل تستر وقدم بين يديه مقدمة الى دجيل فلقوا عنده خيلا لعبد الرحمن فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد وكان ذلك يوم الاضحى سنة احدى وثمانين وقتل منهم جمع كثير فلما أتى خبر الهزيمة الى الحجاج رجع الى البصرة وتبعه أصحاب عبد الرحمن فقتلوا منهم وأصابوا بعض أثقالهم وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لاهل العراق فاقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام ثم دخل عبد الرحمن ومن معه الكوفة وبايعه أهلها وصار له جيش يبلغ مائة ألف فيهم كثير من الصحابة وأبنائهم وعلماء التابعين وغيرهم وممن بايع عبد الرحمن وكان في جيشه سعيد بن جبير والشعبي وعبد الرحمن ابن أبي ليلى وهؤلاء من كبار علماء التابعين ومن الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة ووقع بينهم وبين جيوش الحجاج وقائع كثيرة في أكثرها كان النصر لجيوش عبدالرحمن ثم ان عبد الملك وأهل الشام قالوا ان كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فان عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد ابن مروان الى الحجاج في جند كثيف وأمرهما ان يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وان يجريا عليهم اعطياتهم كما يجرى على أهل الشام وان ينزل عبد الرحمن بن الاشعث أي بلد شاء من بلاد العراق فاذا نزله كان واليا عليه مادام حيا وعبد الملك خليفة فان أجاب أهل العراق الى ذلك عزل الحجاج وصار محمد بن مروان أمير العراق وان أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ومحمد بن مروان وعبد الله ابن عبد الملك في طاعته فلم يأت الحجاج أمر قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك فخاف ان يقبل أهل العراق عزله فيعزله عنهم فكتب الى عبد الملك والله لو أعطيت أهل العراق نزعي لم يلبثوا الا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك ولا يزيدهم ذلك الا جراءة عليك وذكر له أشياء مما فعله أهل العراق أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم قال له ان الحديد بالحديد

يلفع فأبى عبد الملك الاعرض عزله على أهل العراق فلما اجتمع عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال ياأهل العراق انا ابن امير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا وخرج محمد بن مروان وقال انا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال فقالوا نرجع العشية فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الاشعث فقال لهم قد أعطيتم امرا انتهازكم اليوم اياه فرصة وانكم اليوم على النصف فان كانوا اعتدوا عليكم بيوم كذا فانتم تعتدون عليهم بيوم كذا فاقبلوا ماعرضوا عليكم وأنتم اعزاء اقوياء لقوم لكم هائبون وانتم لهم منتقضون فوالله لازلتم عليهم جرآء وعندهم اعزاء أبدا مابقيتم ان أنتم قبلتم فوثب الناس من كل جانب فقالوا ان الله قد أهلكهم فاصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة والله لانقبل وأعادوا خلعه ثانية وابلغوا ذلك عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان فقالا للحجاج شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فانا قد أمرنا ان نسمع لك ونطيع فقال قد قلت أنه لايراد بهذا الامر غيركم فكانا يسلمان عليه بالأمرة ويسلم عليهما بالأمرة ثم أعيد القتال واشتد الأمر وتفصيل ذلك يطول وجملة الايام التى اقتتلوا فيها مائة يوم وثلاثة ايام ثم وقعت الهزيمة على اصحاب عبد الرحمن ثم رجع الحجاج الى الكوفة وعاد محمد بن مروان الى الموصل وعبد الله بن عبد الملك الى الشام وأخذ الحجاج يبايع الناس الذين كانوا مع عبد الرحمن وكان لايبايع أحد الا قال له اشهد أنك كفرت فان قال نعم بايعه والا قتله فأتاه رجل من خثعم كان معتزلا للناس جميعا فسأله عن حاله فأخبره باعتزاله فقال له أنت متربص اتشهد أنك كافر قال بئس الرجل انا اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسى بالكفر قال اذن اقتلك قال وان قتلتنى فقتله ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق الا رحمه ثم أتى بعده بآخر فقال له الحجاج أرى رجلا ماأظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال له الرجل اتخادعنى عن نفسى انا اكفر أهل الارض وأكفر من فرعون فضحك منه وخلى سبيله وأتى بمحمد بن سعد بن ابى وقاص فقال له ياظل الشيطان اعظم الناس تيها وكبرا تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وعبد الله بن عمر ثم صرت مؤذنا لابن الاشعث وجعل يضرب رأسه بعود في يده حتى ادماه ثم أمر به فقتل ثم أتى بعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر فقال ياعبد المرأة يقوم بالعامود على رأسك ابن الحائك يعنى ابن الاشعث وتشرب معه في الحمام فقال اصلح الله الامير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا فان عفوت فبحلمك وفضلك وان عاقبت

عاقبت مذنبين فقال الحجاج اما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعو في منها الابرار وأما اعترافك فعسى انه ينفعك فرجا له السلامة ثم أمر به فقتل وأتى الحجاج بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما ان لى عندك يدا قال وما هى قال ذكر عبد الرحمن بن الاشعث يوما أمك بسوء فنهيته قال ومن يعلم ذلك قال هذا الاسير الآخر فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج فلم لم تفعل كما فعل قال وينفعنى الصدق عندك قال نعم قال منعنى البغض لك ولقومك فقال خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه وقتل الحجاج يوم الهزيمة ممن قبض عليهم عشرة آلاف ولما انهزم اصحاب عبد الرحمن بن الاشعث نادى منادى الحجاج من لحق بقتيبة بن مسلم الباهلى فهو آمن وكان قد ولى قتيبة الرى وسار اليه فلحق به ناس كثير وكان منهم الشعبي فذكره الحجاج يوما فسأل عنه فقالوا له انه لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فكتب الحجاج الى قتيبة يأمره بارسال الشعبي فأرسله قال الشعبي فلما قدمت على الحجاج لقيت يزيد بن أبى مسلم وكان صديقالى فاستشرته فقال اعتذر مهمااستطعت وأشار بمثل ذلك اخوانى ونصحائى فلما دخلت على الحجاج فرأيت غير ماذكر والى فسلمت عليه بالامرة وقلت أيها الامير ان الناس قد أمرونى ان اعتذر بغير مايعلم الله انه الحق وأيم الله لاأقول في هذا المقام الا الحق قد والله مردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه ايدينا وان عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا فقال الحجاج أنت والله احب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول مافعلت ولا شهدت وقد امنت ياشعبي كيف وجدت الناس بعدنا فقلت اصلح الله الأمير اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الاخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف ياشعبي فانصرفت وأما سعيد بن جبير فانه اختفى ثم هرب الى خراسان وتنقل الى اماكن كثيرة مختفيا ثم جاور بمكة فلما ولى امارة مكة خالد بن عبد الله القسرى بعد موت عبدالملك ومبايعة ابنه الوليد قيل لسعيد بن جبيران خالدا رجل سوء فلو سرت عن مكة فقال والله لقد فررت حتى استحييت من الله ويستحبنى ما كتب الله لى فلما قدم خالد مكة كتب له الوليد بحمل أهل العراق الى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير وأرسله مع حرسيين فانطلق أحدهما لحاجة وبقى الآخر فقال لسعيد انى ابرأ الى الله من دمك انى رأيت في منامى فقيل لى تبرأ من دم سعيد بن جبير فاذهب حيث شئت فانى لاأطلبك فأبى سعيد فرأى ذلك الحرسى تلك الرؤيا ثلاثا ويأذن لسعيد في الذهاب وهو لايفعل فقدموا به الكوفة فانزل

في داره وأتاه قراء الكوفة فجعل يحدثهم وهو يضحك وبنية له في حجره فلما نظرت الى القيد في رجله بكت ثم أدخلوه على الحجاج فلما أتى به أقبل عليه فقال ياسعيد ألم أشركك في امارتي ألم أفعل بك كذا ألم استعملك قال بلى قال فما أخرجك علي قال انما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شئ فقال انما كانت بيعة في عنقي فغضب الحجاج وانتفخ وقال ياسعيد ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لامير المؤمنين عبد الملك قال بلى قال ثم قدمت الكوفة واليا فجددت البيعة فاخذت بيعتك لامير المؤمنين ثانية قال بلى قال فتنكثت بيعتين وتوفي بواحدة للحائك ابن الحائك والله لاقتلنك قال اني اذن لسعيد كما سمتني أمي فامر به فضربت عنقه فلما سقط رأسه هلل ثلاثا فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول قيودنا قيودنا فظنوا انه يريد القيود فقطعوا رجلي سعيد من انصاف ساقيه وأخذوا القيود وكان الحجاج اذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول ياعدو الله فيم قتلتني فيقول مالي ولسعيد بن جبير مالي واسعيد بن جبير وعاش الحجاج بعده أياما ثم هلك قال الامام الشعراني في الطبقات قتله في شعبان وتوفي الحجاج في رمضان وكان بينهما خمسة عشر يوما وفي تاريخ ابن خلكان ان الحجاج رؤى في النوم بعد موته فقيل له مافعل الله بك قال قتلني بكل قتيل قتلته قتلة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة وكان عمر سعيد بن جبير سبعا وأربعين سنة وقيل سبعا وخمسين قيل ان سعيد بن جبير قال اللهم لاتسلطه على أحد بعدي فلم يقتل أحدا بعده قال الامام أحمد قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض أحد الا وهو مفتقر الى علمه وكان قتله سنة أربع وتسعين وقيل خمس وتسعين فبين قتله وانتهاء فتنة ابن الاشعث احدى عشرة سنة فقد كان ابتداء فتنة ابن الاشعث سنة احدى وثمانين وانتهاؤها سنة ثلاث وثمانين وأما ابن الاشعث فانه لما انهزمت جيوشه سار الى رتبيل ملك الترك فاكرمه وآواه ثم أرسل اليه الحجاج يتوعده ويتهدده فقتله وبعث برأسه الى الحجاج وقيل بل أصابه مرض فمات فقطع رأسه وأرسله للحجاج فبعث به الى عبد الملك فطيف به في الشام ليريه الناس ثم أرسله لاخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فطيف به في مصر وكان ذلك سنة خمس وثمانين

فتح قالي قلا

في سنة احدى وثمانين سير عبد الملك بن مروان ابنه عبيدالله في جيش ففتح قالي قلا وفي هذه السنة هجم جماعة من الديلم على قزوين فتصايح الناس وأغلقوا الابواب وقاتلوهم قتالا

عظيما وظفر المسلمون بهم فلم يفلت منهم أحد وفي هذه السنة كان يزيد بن المهاب في مفازة بست في ستين فارسا فلقيهم خمسمائة من الترك فقاتلوهم قتالا شديدا فقتلوا كثيرا من الترك الى أن انهزموا وفي سنة اثنتين وثمانين توفي المهلب واستخلف على خراسان ابنه يزيد فاقره الحجاج وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس بعد حصار وقتال فملكها وما فيها من الاموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك اذا رآها سجد لها معظما لها وفي هذه السنة غزا عبيدالله بن عبدالملك الروم ففتح المصيصة وبني حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبنى مسجدها وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فهزمهم ثم سألوه الصلح فصالحهم وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وولى أخاه الفضل بن المهلب فغزا باذغيس وأصاب مغنما فقسمه فاصاب كل رجل ثمانون ثم غزا آخرون ﴿ اسم بلد ﴾ وشومان فغنم وقسم ماأصاب ولم يكن للفضل بيت مال كان يعطى الناس كلما جاءه شيء وان غنم شيأ قسمه فيهم وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان ارمينية فصاف بها وشتى وفي سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان وولى ابنه الوليد فابقى الحجاج وولى الحجاج خراسان قتيبة بن مسلم الباهلى وباهلة من قيس عيلان بن مضر وعزل الفضل وافتتح قتيبة خوارزم وسمرقند وبخارا وقد كانوا كفروا بعد فتحها الاول وبلغ مالم يبلغه المهلب ولا غيره فجهز قتيبة عند قدومه الجيوش للغزو فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه الى بلده فمضى معه فسلمها اليه لان ملك أخرون وشومان كان يسيء جواره ثم سار قتيبة الى أخرون وشومان وهما من طخارستان فصالحه ملكها على فدية أداها اليه فقبلها قتيبة ثم انصرف الى مرو ﴿احدى قواعد اقليم خراسان الاربع وهى مرو وهراة وبلخ ونيسابور﴾ واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت وهى من فرغانة وفتح اخشيكت وهى مدينة فرغانة القديمة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم وفى سنة سبع وثمانين كتب قتيبة الى نيزك طرخان صاحب باذغيس ان يطلق من عنده من أسرى المسلمين وكتب اليه يتهدده فخافه نيزك فاطلق الاسرى وبعث بهم اليه وكتب له قتيبة مع سلم الناصح مولى عبيدالله بن أبى بكرة يدعوه الى الصلح والى ان يؤمنه وكتب اليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبنه حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه فقدم سليم بالكتاب فقال له نيزك وكان يستنصحه ياسليم ماأظن عند صاحبك

خيرا كتب الى كتابا لايكتب الى مثلى فقال له سليم انه رجل شديد في سلطانه سهل اذا سوهل صعب اذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه اليك فأحسن حالك عنده فعقد الصلح لاهل باذغيس على أن لايدخلها قتيبة وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عددا كثيرا بسوسنة من ناحية المصيصة وقيل ان الذى غزا في هذه السنة هشام بن عبدالملك ففتح حصن بواق وحصن الاخرم وحصن بولس وققم وقتل من المستعربة نحوا من الف وسبي ذريتهم ونساءهم

(ذكر غزوة قتيبة بيكند)

كانت غزوة بيكند سنة سبع وثمانين وهى أدنى مداين بخارا سار اليهم قتيبة بجيوشه فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل اليه خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فامر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتتلون كل يوم وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر فاعطاه أهل بخارا مالاً ايردعنهم قتيبة فأتاه سرا من الناس وقال له ان الحجاج قد عزل وقد أتى عامل الى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح فامر به فقتل خوفا من ان يظهر الخبر فيهلك الناس ثم أمر أصحابه بالجد في القتال فقاتلهم قتالا شديدا فانهزم الكفار يريدون المدينة وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاؤا وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليهم عاملا وارتحل عنها يريد الرجوع فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور هو الذى استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة افدى نفسى بخمسة آلاف حريرة قيمتها الف الف فاستشار قتيبة الناس فقالوا هذا زيادة في الغنائم وما عسى ان يبلغ كيد هذا قال لا والله لايروع لك مسلم أبدا فامر به فقتل وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة مالا يحصرولا أصابوا بخراسان مثله فقوى المسلمون فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع الى مرو

ذكر فتح طوانة من بلاد الروم

في سنة ثمان وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الروم وكان الوليد قد كتب الى صاحب ارمينية يأمره ان يكتب الى ملك الروم يعرفه ان الخزر وغيرهم من ملوك جبال ارمينية قد اجمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك وقطع الوليد البعث

على أهل الشام الى ارمينية وأكثر وأعظم جهازه وساروا نحو الجزيرة ثم عطفوا منها الى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون فبقى العباس في نفر منهم ابن محيريز الجمحي فقال له العباس أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة فقال ابن محيريز نادهم يأتوا فنادى العباس ياأهل القرآن فاقبلوا جميعا فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم المسلمون وفتحوها قيل وفي هذه السنة أيضاً غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون أحدها حصن قسطنطين وغزالة وحصن الاخرم وقتل من المستعربة نحوا من ألف وأخذ الاموال

ذكر غزو نومشكث ورامثنة

في هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نومشكث واستخلف على مرو أخاه يسار بن مسلم فتلقاه أهلها فصالحهم ثم سار الى رامثنة فصالحه أهلها وانصرف عنهم وزحف اليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة في مائتي ألف وملكهم ابن أخت ملك الصين فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل فلما قربوا منه أرسل الى قتيبة يخبره وأدركه الترك فقاتلوه ورجع قتيبة فانتهى الى عبدالرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا الى الظهر وابلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمذ وأتى مرو وفي سنة تسع وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد الروم فافتتح مسلمة حصن عمورية وفتح العباس اذرولية ولقى من الروم جمعا فهزمهم وقيل ان مسلمة قصد عمورية فلقى بها جمعا من الروم كثيرا فهزمهم وافتتح هرقلة وقونية وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون

ذكر غزو قتيبة بخارا

في هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه فعبر النهر من زم فلقى الصغد وأهل كش ونسف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ومضى الى بخارا فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان فلقوه في جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم وغزا وردان خذاه ملك بخارا فلم يظفر بشئ فرجع الى مرو وكتب الى الحجاج يخبره فكتب اليه الحجاج ان صورها فبعث اليه بصورتها فكتب اليه الحجاج أن تب الى الله جل ثناؤه مما كان منك وائتها من مكان كذا وكذا وكتب اليه ان كس بكش وانسف نسف ورد وردان واياك والتحويط ودعني من ثنيات الطريق فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج

غازيا سنة تسعين فاستجاش وردان خذاه بالصغد والترك ومن حوله فأتوه وقد سبق اليها قتيبة فحصرها فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا الى المسلمين يقاتلونهم فقالت الازد اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتالهم فقال قتيبة تقدموا فتقدموا وقاتلوهم قتالا شديدا ثم ان الازد انهزموا حتى دخلوا العسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكروا راجعين فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم عن هذا الموضع فلم يقدم عليهم أحد من العرب فأتى قتيبة بنى تميم فقال لهم يوما كايامكم فاخذ وكيع ابن حسان بن قيس التميمى اللواء وقال يابنى تميم أتسلموننى اليوم قالوا لا ياأبا مطرف وكان هريم بن أبى طمحة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع ياهريم قدم خيلك ودفع اليه الراية فتقدم هريم وتقدم وكيع في الرجالة فانتهى هريم الى نهر بينهم وبين الترك فوقف فقال وكيع تقدم ياهريم فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال أأقحم الخيل هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها ياأحمق فقال وكيع ياابن اللخناء أترد أمرى فحذفه بعمود كان معه فعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع الى النهر نعمل عليه جسرا من خشب وقال لاصحابه من وطن نفسه على الموت فليعبر والا فليثبت مكانه فما عبر معه الا ثمانمائة رجل فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم أنى مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم في الخيل فطاعنهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أحدروهم من التل ونادى قتيبة ماترون العدو منهزمين فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا وعبر الناس ونادى قتيبة من أتى برأس فله مائة فاتى برؤس كثيرة فجاء يومئذ أحد عشر رجلا من بنى قريع كل رجل برأس فيقال له من أنت فيقول قريعى فجاء رجل من الازد برأس فقيل له من أنت فقال قريعى فعرفه جهم بن زحر فقال كذب والله انه أزدى فقال له قتيبة ما دعاك الى هذا فقال رأيت كل من جاء يقول قريعى فظننت أنه ينبغى لكل من جاء برأس ان يقوله فضحك قتيبة وجرح خاقان وابنه وفتح الله عليهم وكتب بالفتح الى الحجاج

ذكر صلح قتيبة مع الصغد

ولما أوقع قتيبة باهل بخارا هابه الصغد فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان فدنا من عسكر قتيبة وطلب رجلا يكلمه فارسل اليه قتيبة حيان النبطى فطلب الصلح على فدية يؤديها اليهم فأجابه قتيبة الى ماطلب ورجع طرخون الى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان

لمّا رجع قتيبة من بخارا ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لأصحابه أنا مع هذا يعني قتيبة ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأى قالوا افعل فاستأذن قتيبة فأذن له وهو بآمل فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى اتى النوبهار قال لاصحابه لا أشك ان قتيبة قد ندم على اذنه وسيبعث الى المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي وندم قتيبة على اذنه له فارسل الى المغيرة يأمره بحبس نيزك وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع وكتب الى اصبهبد بلخ والى باذان ملك مرو الروذ والى ملك الطالقان والى ملك الفرياب والى ملك الجوزجان يدعوهم الى خلع قتيبة فاجابوه فواعدهم الربيع ان يجتمعوا ويغزوا قتيبة وكتب الى كابل شاه يستظهر به وبعث اليه بثقله وماله وسأله ان يأذن له ان اضطر اليه ان يأتيه فاجابه الى ذلك وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفا فاخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه وكان جبغويه هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثنى عشر ألفا الى البروقان وقال أقم بها ولا تحدث شيأ فاذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان واعلم انى قريب منك فسار فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة الى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود فقدموا قبل أوانهم فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه قتيبة فأوقع باهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في نظام واحد ثم استعمل على الطالقان أخاه عمر بن مسلم ثم سار الى الفارياب فخرج اليه ملكها مذعنا فقبل منه ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها رجلا من أهله وبلغ ملك الجوزجان خبرهم فهرب الى الجبال وسار قتيبة الى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين فقبل منهم ولم يقتل بها أحدا واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ثم أتى بلخ فلقيه أهلها فلم يقم بها الا يوما واحدا وسار يتبع أخاه عبد الرحمن الى شعب خلم ومضى نيزك الى بغلان وخلف مقاتلة على فم الشعب ومضائقه ليمنعوه ووضع مقاتلته في قلعة حصينة من وراء الشعب فأقام قتيبة أياما يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقا [illegible] الى نزك الا [illegible] أو [illegible] لا [illegible] فبقي متحيرا [illegible] ان فاستأمنه على ان يدله على مدخل القلعة التي من وراء الشعب فأمنه قتيبة وبعث معه رجالا فانتهى بهم الى القلعة من وراء شعب خلم فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم وهرب من بقي منهم ومن كان في الشعب فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى الى سمنجان فاقام بها أياما ثم سار

الى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن فارتحل نيزك من منزله فقطع وادي فرغانة ووجه ثقله وأمواله الى كابل شاه ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان فتحصن نيزك في الكرز وليس اليه مسلك الا من وجه واحد وهو صعب لاتطيقه الدواب فحصره قتيبة شهرين حتى قل مافي يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدري وجدر جبغويه وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليما الناصح وكان يصادق نيزك فقال انطلق الى نيزك واحتل لتأتيني به من غير أمان فان احتال وأبى فأمنه واعلم اني ان عاينتك وليس هو معك صلبتك قال فاكتب الى عبد الرحمن لايخالفني فكتب اليه فقدم عليه فقال له ابعث رجالا ليكونوا على فم الشعب فاذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب فبعث عبد الرحمن خيلا فكانت هناك وحمل سليم معه اطعمة وأخبصة أوقارا وأتى نيزك فقال له انك أسأت الى قتيبة وغدرت قال نيزك فما الرأي قال أرى ان تأتيه فانه ليس ببارح وقد عزم على ان يشتو مكانه هلك أو سلم قال نيزك كيف آتيه على غير أمان قال ماأظنه يؤمنك لمافي نفسه عليك لانك قد ملأته غيظا ولكني ارى ان لا يعلم حتى تضع يدك في يده فاني ارجو ان يستحي ويعفو قال اني أرى نفسي تأبى هذا وهو ان رآني قتلني فقال سليم ماأتيتك الا لاشير عليك بهذا ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده فاذا أبيت فاني منصرف وقدم سليم الطعام الذى معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك فقال له سليم اني لك من الناصحين أرى أصحابك قدجهدوا وان طال بهم الحصار لم آمنهم ان يستأمنوا بك فأت قتيبة فقال لاآمنه على نفسي ولا آتيه الا بامان وان ظني ان يقتلني وان أمنني ولكن الامان أعذر الى قال ابن خلدون ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب وهو يمتنع حتى قال وانه قد أمنك وقوله ولم يزل الخ هو مثل من أمثال العرب يضرب في الخداع والمماكرة اه ميداني فقال سليم قد أمنك اوتتهمني قال لا وقال له أصحابه اقبل قول سليم فلا يقول الا حقا فخرج معه ومعه جبغويه وصول طرخان خليفة جبغويه وحبس طرخان صاحب شرطته وشقران ابن أخي نيزك فلما خرجوا من الشعب عطفت الخيل التى خلفها سليم فحالوا بين الاتراك أصحاب نيزك والخروج فقال نيزك هذا اول الغدر قال سليم تخلف هؤلاء عنك خير لك وأقبل سليم ونيزك ومن معه حتى دخلوا على قتيبة فحبسهم وكتب الى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك واستخرج قتيبة ما كان في الكرز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة فانتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوما يأمره بقتل نيزك فدعا قتيبة الناس

واستشارهم في قتله واختلفوا فقال ضرار بن حصين انى سمعتك تقول أعطيت الله عهدا
ان أمكنك منه ان تقتله فان لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبدا فدعا نيزك فضرب عنقه
بيده وأمر بقتل صول وابن أخي نيزك وقتل من أصحابه سبعمائة وقيل اثنى عشر ألفا
وصلب نيزك وابن أخيه وبعث برأسه الى الحجاج وأخذ الزبير مولى عباس الباهلى حقا
لنيزك فيه جوهر فكان أكثر من في بلاده مالا وعقارا من ذلك الجوهر وأطلق قتيبة
جبغويه ومن عليه وبعث به الى الوليد فلم يزل بالشام حتى مات الوليد فلما قتل قتيبة نيزك
رجع الى مرو وأرسل ملك الجوزجان يطلب الامان فأمنه على ان يأتيه فطلب رهنا ويعطى
رهائن فاعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حبيب بن محمد وأعطى ملك الجوزجان رهائن
من أهل بيته وقدم على قتيبة ثم رجع فمات بطالقان فقال أهل الجوزجان انهم سموه فقتلوا
حبيبا وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده وذلك سنة احدى وتسعين

ذكر قتل ذاهر ملك السند وفتح السند

قد تقدم ذكر أول غزو المسلمين السند في سنة ثلاث وأربعين في خلافة عثمان رضى الله
عنه وان عبد الله بن عامر استعمل على ثغر السند عبدالله بن سوار العبدى وفي سنة أربع
وأربعين غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند عاملا للحكم بن عمرو الغفارى حين كان على
خراسان وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن مسعر التميمى من قبل
الحجاج وفي سنة تسع وثمانين تم فتح بقية السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن الحكم
ابن أبي عقيل الثقفى ابن عم الحجاج لان الحجاج هوابن يوسف بن الحكم فيجتمع هو
والحجاج في الحكم بن أبي عقيل ولى الحجاج محمد بن القاسم المذكور واستعمله على ذلك
الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل مايحتاج اليه حتى المسال والأبر والخيوط
فسار محمد الى مكران فاقام بها أياما ثم أتى قنزبور ففتحها ثم سار الى ارمائيل ففتحها ثم
سار الى الديبل فقدمها يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والاداة
فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقا يقال له العروس كان يمد به
خمسمائة رجل وكان بالديبل بد عظيم والبد صنم في بناء عظيم وكان تحت منارة عظيمة
مرتفعة وفي رأس المنارة دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة
وكانت تدور وكل مايعبد فهو عندهم بد فحصر الديبل وطال حصارها فرمى الدقل بحجر
العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم خرجوا اليه فناهضهم القتال فهزمهم حتى ردهم
الى البلد وأمر بالسلاليم فنصبت فصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام

وهرب عامل ذاهر ملك السند عنها وأنزلها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها الى البيرون وكان أهلها بعثوا الى الحجاج فصالحوه فلقوا محمدا بالميرة وأدخلوه مدينتهم ثم سار عنها فجعل لايمر بمدينة الا فتحها حتى عبر نهرا دون مهران فأتاه أهل سربيلس فصالحوه ووظف عليهم الخراج ثم عبر نهر مهران واستعد ملك السند لمحاربته واسمه ذاهر بن صصصة ثم عقد الجسر على النهر فقاتله ذاهر وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة وهم قواد السند فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله وترجل ذاهر فقاتل حتى قتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤا فلما قتل ذاهر لحقت امرأة ذاهر بمدينة راور فساروا اليها وخافته فاحرقت نفسها وجواريها وملك المدينة ولحق المنهزمون بمدينة برهمنا باذ العتيقة ففتحها عنوة وقتل من وجد بها وخربها ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر بياس الى الملتان فحاصرها وقطع الماء عنها فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبي الذرية وقتل سدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهبا كثيرا فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى اليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر وكان بد الملتان تهدى اليه الاموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤسهم ولحاهم عنده ويزعمون ان صنمه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وعظمت فتوح محمد بن القاسم ونظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر فكان ستين الف الف درهم ونظر في الخمس الذى حمل اليه فكان مائة الف الف وعشرين الف الف فقال ربحنا النصف وهو ستون ألف ألف وأدركنا ثارنا ورأس ذاهر ولما مات الحجاج سنة خمس وتسعين كان محمد بن القاسم بالملتان فأتاه خبر وفاته فرجع الى الرور والبغرور وكان قد فتحهما فاعطى الناس ووجه الى البيلمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة ثم أتى محمد الكيرج فخرج اليه دوهر فقاتله فانهزم دوهر وقيل بل قتل ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى ومات الوليد بن عبد الملك وولى أخوه سليمان فعزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد بن أبي كبسه السكسكي فاخذ محمدا وقيده وحمله الى العراق فبكى أهل السند على محمد فلما وصل الى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فعذبه صالح ثم قتله وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأى الخوارج ومات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوما واستعمل سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند الى ممالكهم وغلبوا عليها فنزل حبيب على شاطئ مهران فاعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوما فظفر بهم ثم مات سليمان واستخلف عمر بن

عبد العزيز فكتب الى الملوك يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فاسلم جيشبة بن ذاهر والملوك وتسموا باسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر بن عبد العزيز على ذلك الثغر

﴿ ذكر غزو الهند وفتحه ﴾

لما كان عمرو بن مسلم الباهلي عاملا لعمر بن عبد العزيز على السند غزا بعض الهند فظفر ثم ان الجنيد بن عبد الرحمن المرى ولى السند أيام هشام بن عبدالملك فأتى الجنيد شط مهران فمنعه جيشبة بن ذاهر العبور وأرسل اليه أني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح بلادي ولست آمنك فاعطاه رهنا وأخذ منه رهنا على خراج بلاده ثم ترادوا وكفر جيشبة وحارب وقيل انه لم يحارب ولكن الجنيد تجني عليه فأتى الهند فجمع جموعا وأعد السفن واستعد للحرب فسار اليه الجنيد بالسفن فالتقوا في بطيحة فاخذ جيشبة أسيرا فقتله وهرب صصة بن ذاهر وهو يريد أن يمضي الى العراق ويشكو غدر الجنيد فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده في يده فقتله وكان ذلك سنة سبع ومائة وغزا الجنيد الكيرج من آخر الهند وكانوا قد نقضوا فاتخذ كباشا وصك بها سور المدينة والكباش آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحيل فتدق الحائط فينهدم فلما صك السور بالكباش ثلمه فدخلها فقتل وسبى ووجه العمال الى المرمد والمندل ودهنج وبروج وبعث جيشا الى ازين فاغاروا عليها وحرقوا ربضها وفتح البيلمان وحصل عنده سوى ما حمل أربعون الف الف وحمل مثلها وولى الجنيد الهند تميم بن زيد القيني فضعف ووهن ثم مات وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ثم ولى الحكم بن عوام الكلبي وقد كفر أهل الهند الا أهل قصة فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين وكان معه عمر بن محمد بن القاسم الثقفي وكان يفوض اليه عظيم الامور فاغزاه من المحفوظة فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة سماها المنصورة فهي التي ينزلها الامراء واستخلص ما كان بيد غلب عليه العدو ورضي الناس بولايته ثم قتل الحكم وكان العمال يقاتلون العدو فكانوا يفتحون الناحية ويأخذون ما تيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك الى ان جاءت الدولة العباسية

﴿ ذكر فتوحات موسى بن نصير بافريقية ﴾

في سنة سبع وثمانين استعمل الوليد على افريقية موسى بن نصير فوصل الى افريقية وكان البربر قد طمعوا في البلاد وبلغه ان باطراف البلاد قوما خارجين عن الطاعة فوجه اليهم ابنه عبدالله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم الف رأس وسير ابنه أيضاً في البحر الى جزيرة

ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالما فوجه ابنه هرون الى طائفة أخرى فظفر بهم وسبي منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه الى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك فبلغ الخمس ستين الف رأس من السبي ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا ثم ان افريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد فقيل له في ذلك فقال هذا مقام لايدعى فيه لاحد ولا يذكر الا الله عزوجل فسقى الناس ورخصت الأسعار ثم خرج غازيا الى طنجة يريد من بقي من البربر وقد هربوا خوفا منه فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا حتى بلغ السوس الادنى لايدافعه أحد فاستأمن البربر اليه وأطاعوه واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشا كثيفا جلهم البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض وعاد الى افريقية فربقلعة مجانة فتحصن أهلها منه وترك عليها من يحاصرها حتى فتحت وحينئذ لم يبق له في افريقية من ينازعه وقيل كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذ على مصر لاخيه عبد الملك وفي هذه السنة أعني تسعا وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية اذربيجان ففتح حصونا ومدائن هناك وغزا مسلمة أيضاً أرض الروم سنة تسعين ففتح حصونا خمسة وغزا العباس ابن الوليد حتى بلغ اردن

﴿ ذكر غزوة قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ﴾

في سنة احدى وتسعين سار قتيبة الى شومان فحصرها وكان سبب ذلك أن ملكها طرد عامل قتيبة من عنده فارسل اليه قتيبة رسولين أحدهما من العرب اسمه عياش والآخر من أهل خراسان يدعوان ملك شومان ان يؤدى ما كان صالح عليه فقدما على شومان فخرج أهلها اليهما فرموهما فانصرف الخراساني وقاتلهم عياش فقتلوه ووجدوا به ستين جراحة وبلغ قتله قتيبة فسار اليهم بنفسه فلما أتاها أرسل أخاه صالح بن مسلم الى ملكها وكان صديقا له يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة ان رجع الى الصلح فأبى وقال لرسول صالح أتخوفني من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصنا فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه وقتل رجل في مجلس الملك بحجر فلما خاف ان يظهر عليه قتيبة جمع ما كان بالحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لا يدرك قعرها ثم فتح القلعة وخرج اليهم فقاتلهم حتى قتل وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم سار الى كش ونسف ففتحهما وامتنعت عليه فارياب فاحرقها فسميت المحترقة وسير من كش ونسف أخاه عبد الرحمن الى الصغد وكان ملكها طرخون فقبض عبد الرحمن من طرخون

ما كان صالحه عليه قتيبة ودفع اليه رهنا كان معه ورجع الى قتيبة ببخارا وكان قد سار اليها من كش ونسف فرجعوا الى مرو ولما كان قتيبة ببخارى تملك بخارا خذاه وكان غلاما حدثا وقتل من يخاف ان يضاده وقيل ان قتيبة سار بنفسه الى الصغد فلما رجع عنهم قالت الصغد لطرخون انك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير لاحاجة لنا فيك فحبسوه وولوا غوزك فقتل طرخون نفسه وفي هذه السنة غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وارمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك فغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق وغزا مسلمة بن عبدالملك أرض الروم في سنة ثنتين وتسعين ففتح حصونا ثلاثة وجلا أهل سوسنة الى بلاد الروم

﴿ ذكر فتح الاندلس ﴾

في سنة ثنتين وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الاندلس في اثنى عشر ألفا وكانوا قبل ذلك سبعة آلاف فنزلوا جبل طارق ثم أمدهم موسى بخمسة آلاف فصاروا اثنى عشر ألفا فلقي ملك الاندلس بعد ان جمع جيوشه في أعمال شذونة فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الملك وكان جيشه مائة الف واتصلت الحرب ثمانية أيام ثم قتل ملكهم قتله طارق بيده وهزم الله الكفار وسار طارق متبعاً لهم فادرك خلقا من المنهزمين فقاتلوه قتالا شديدا ثم انهزموا ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون له بلدا بلدا ومعقلا معقلا فتوغل في بلاد الاندلس وفتحها مدينة بعد مدينة والكلام على ذلك يطول وهو مبسوط في التواريخ واستقامت الامور هنالك وعلا الاسلام وأما القتلى من الكفار من أول الفتح الى آخره فشئ كثير لايمكن احصاؤه والقتلى من المسلمين بالنسبة لذلك قليل جداً وأما الغنائم من الذهب والفضة والحلل والجواهر والاثاث وبقية الاشياء فشئ كثير لايمكن حصره ولا ضبطه وكان يوجد الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فكان الجند اذا وجدوها لايستطيعون حملها فيأتون بالفاس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر ومما وجدوا في تلك الغنائم مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الجواهر الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكي مرصعة بالجواهر ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ومن أوانى الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ومما وجدوه مائدة سليمان عليه السلام قيل انها

من منهوبات بخت نصر لما خرب بيت المقدس وقيل انها لم تكن لسليمان وانما أصلها ان العجم في أيام ملكهم كان أهل الثروة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فصاغوا من ذلك المال تلك المائدة وكانت مصوغة من الذهب وقيل من الذهب والفضة مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم ير الراؤن مثلها وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد كلها مكللة بالجواهر وحافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلاثمائة وستون رجلا وقيل خمسة وستون فحملت الى الوليد ومعها ثلاثون ألف رأس من السبي ومن الذهب والفضة والجواهر ونفائس الامتعة مالا يقدر قدره وكان ابتداء القتال والفتح لليلتين بقيتا من رمضان سنة ثنتين وتسعين والتحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد في رمضان سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفا وتوغلا في الاندلس الى ان وصلوا الى بلاد الافرنج فنمى الخبر الى الوليد بن عبد الملك واشتد قلقه على المسلمين فبعث اليهم يأمرهم بالرجوع قيل انهم انتهوا الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فاصابوا فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا فيها يابني اسماعيل انتهيتم فارجعوا وان سألتم الى ماذا ترجعون أخبرتكم انكم ترجعون الى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض وقد فعلتم فرجعوا سنة خمس وتسعين وولى موسى على افريقية ابنه عبد الله وعلى الاندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبد الملك فصار جميع الاندلس والمغرب بين أولاده ورجع هو ومولاه طارق قيل كان رجوعهم قبل وفاة الوليد وقيل بل كان بعد موت الوليد وولاية سليمان وقيل قدموا والوليد مريض مرض الموت ثم اتسع أمر المسلمين بالاندلس وصار لهم ملك ضخم ثم استولى عليها النصارى شيأ فشيأ الى سنة تسعمائة وأربع فاستولوا عليها جميعها وبقي قليل من المسلمين لاناصر لهم قاموا في بعض الجبال على النصارى ثم تقووا عليهم وأخرجوهم وكان آخرهم خروجا سنة الف وعشر وأسأل الله أن يهيئ للاسلام من ينصره حتى يسترجع ماستولى عليه الكفار

(ذكر غرق المسلمين الذى حصل منهم غلول في غنائم الاندلس)

لما فتح موسى بلاد الاندلس سير طائفة من عسكره في البحر الى جزيرة سردانية وهى في بحر الروم من أكبر الجزائر كثيرة الخيرات فدخلها المسلمون وعمد النصارى الى ماعندهم من آنية ذهب وفضة فالقوا الجميع في الميناء التى لهم وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للبيعة العظمى التى لهم تحت السقف الاول وغنم المسلمون فيها مالايحد ولا يوصف وأكثروا الغلول فاتفق ان رجلا اغتسل في الميناء فعلقت رجله في شئ فاخرجه فاذا صحفة من فضة فاخذ

المسلمون جميع مافي الميناثم دخل رجل من المسلمين الى تلك الكنيسة فنظر الى حمام في سقف الكنيسة فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف وانكسر لوح فنزل منه شئ من الدنانير فاستخرج المسلمون جميع ما كان في السقف وأخذوه وازدادوا غلولا فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمي مافي جوفها ويملأ جلدها دنانير ويخيط عليه ويلقيها في الطريق فاذا خرج أخذها وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلا يقول اللهم غرقهم فغرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم وفي سنة خمس وثلاثين ومائة غزا هذه الجزيرة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وكان على الاندلس فقتل من بها قتلا ذريعا ثم صالحوه على الجزية فاخذت منهم ثم منعوا وبقيت لم يغزها أحد بعده فعمرها الروم فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة أخرج اليها المنصور بن القائم العلوى صاحب افريقية اسطولا من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا باهل سردانية وسبوا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا مافيها وفي سنة ست وأربعمائة غزاها محمد العامرى من الاندلس وكان صاحبها في البحر في مائة وعشرين مركبا ففتحها وقتل فأكثر وسبى النساء والذرية فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا اليه وساروا اليه من البر الكبير في جمع عظيم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية ولم تغز بعد ذلك

﴿ ذكر غزو سجستان ﴾

وفي سنة ثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان وأراد قصد رتبيل الاعظم فلما نزل قتيبة سجستان أرسل رتبيل اليه رسلا بالصلح فقبل ذلك وانصرف واستعمل عليهم عبد ربه ابن عبد الله الليثى

﴿ ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد ﴾

في سنة ثلاث وتسعين صالح قتيبة بن مسلم خوارزم شاه وكان سبب ذلك ان ملك خوارزم كان ضعيفا فغلبه أخوه خرزاد على أمره وكان أصغر منه وكان اذا بلغه أن عند أحد ممن هو منقطع الى الملك جارية أو مالا أودابة أو بنتا أو أختا أوامرأة جميلة أرسل اليه وأخذه منه وكان لايمتنع عليه أحد ولا الملك فاذا قيل للملك قال لاأقوى به وهو مغتاظ عليه فلما طال ذلك عليه كتب الى قتيبة يدعوه الى أرضه ليسلمها له واشترط عليه ان يدفع اليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى ولم نطلع أحدا من مرازبته على ذلك فاجابه قتيبة الى ماطلب وتجهز للغزو واظهر قتيبة انه يريد الصغد وسار من مرو وجمع خوارزم شاه

أجناده ودهاقينه وقال ان قتيبة يريد الصغد وليس بغازيكم فهلموا نتنعم في ربيعنا هذا فاقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزارسب فقال خوارزم شاه لاصحابه ماترون قالوا نرى ان نقاتله قال لكني لاأرى ذلك لانه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكني أصرفه بشيء أؤديه اليه فاجابوه الى ذلك فسار خوارزم شاه ونزل بمدينة الفيل من وراء النهر وهي أحصن بلاده وقتيبة لم يعبر النهر فارسل اليه خوارزم شاه فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع وعلى ان يعينه على خام جرد فقبل قتيبة ذلك وقيل صالحه على مائة ألف رأس ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن الى خام جرد وكان أحد أعداء خوارزم شاه وكان يغازي خوارزم شاه فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه وقدم منهم باربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة وسلم قتيبة الى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع أموالهم الى قتيبة

﴿ ذكر فتح سمرقند ﴾

لما قبض قتيبة صلح خوارزم شاه قام اليه المجشر بن مزاحم السلمي فقال له سرا ان أردت الصغد يوما من الدهر فالآن فانهم آمنون من ان يأتيهم عامل وانما بينك وبينهم عشرة أيام فقال أشار عليك بهذا أحد قال لاقال فسمعه منك أحد قال لاقال والله لئن تكلم به أحد لاضربن عنقك فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الأثقال الى مرو فسار يومه فلما أمسى كتب اليه قتيبة اذا أصبحت فوجه الأثقال الى مرو وسر بالفرسان والرماة الى الصغد وأكتم الاخبار فاني في الأثر ففعل عبد الرحمن ماأمره وخطب قتيبة الناس وقال لهم ان الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا مابلغكم واني ارجو ان تكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير ثم سار فاتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع فحصرهم بسمرقند شهرا واستجاشوا ملك الشاش واخشاد خاقان وفرغانة وكتبوا لهم ان العرب ان ظفروا بنا أتوكم بمثل ماأتونا به فانظروا لانفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها فنظروا وقالوا انما نؤتى من سفلتنا فانهم لايجدون كجدنا فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والاساورة والابطال وولوا عليهم ابن خاقان وأمروهم ان يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فانه مشغول بحصار سمرقند فساروا و بلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره ستمائة فارس من الشجعان وبعث بهم أخاه صالح بن مسلم وأمرهم بالمسير الى عدوهم فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم فجعل صالح له كمينين فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم فلما رأوا صالحا

حملوا عليه فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال فلم يرَ قوم كانوا أشد من أولئك قال بعض أصحاب صالح انا لنقاتلهم في الليل اذ رأيت قتيبة وقد جاء سرا فضربت ضربة أعجبتنى فقلت كيف ترى بأبى وأمى قال اسكت فض الله فاك ثم قاتلوهم أشد القتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم الا الشريد وحوينا اسلابهم وسلاحهم واحتززنا رؤسهم وأسرنا منهم أسرى فسألناهم عمن قتلنا فقالوا ماقتلتم الا ابن ملك أو عظيما أو بطلا كان الرجل منهم يعد بمائة رجل وكتبنا أسماءهم على آذانهم ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا فلم يأت أحد بمثل ماجئنا به من القتلى والاسرى والخيل ومناطق الذهب والسلاح قال وأكرمنى قتيبة وأكرم معى جماعة وظننت انه رأى منهم مثل الذى رأى منى ولما رأى أهل الصغد ذلك خافوا خوفا شديدا ونصب قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها وثلم ثلمة فقام عليها رجل فشتم قتيبة فرماه بعض الرماة فقتله فاعطاه قتيبة عشرة آلاف وسمع بعض المسلمين قتيبة وهو يقول كانه يناجى نفسه حتى متى ياسمرقند يعشش فيك الشيطان أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية فانصرف ذلك الرجل فقال لاصحابه كم من نفس تموت غدا وأخبر الخبر فلما أصبح قتيبة أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم واشتد القتال وأمرهم قتيبة ان يبلغوا ثلمة السور فجعلوا الترسة على وجوههم وحملوا فبلغوها ووقفوا عليها ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا فارسل الصغد الى قتيبة فقالوا انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا فقال قتيبة لانصالحهم الا ورجالنا على الثلمة فصالحوه والرجال على الثلمة على الف الف ومائتى ألف مثقال في كل عام وان يعطوه في تلك السنة ثلاثين ألف رأس وان يخلوا لقتيبة مدينة سمرقند فلا يكون لهم فيها مقاتل الى ان يبنى فيها مسجدا ويدخل ويصلى ويخطب ويتغدى ويخرج فلما تم الصلح وأخلوا المدينة وبنى المسجد دخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم فدخل المسجد فصلى فيه وخطب وأكل طعاما ثم أرسل الى الصغد من أراد منكم ان يأخذ متاعه فليأخذ فانى لست خارجا منها ولست آخذ منكم الا ماصالحتكم عليه غير أن الجند يقيمون فيها فاكرههم على اقامة جند فيها وقيل انه شرط عليهم أيضاً بيوت النيران وحلية الاصنام فقبض ذلك وأتى الاصنام فكانت كالقصر العظيم وأخذ ماعليها من الحلية وأمر بها فأحرقت فجاءه غوزك فقال ان شكرك على واجب لاتتعرض لهذه الاصنام فان منها أصناما من أحرقها هلك فقال قتيبة أنا أحرقها بيدى فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين الف مثقال وأصاب بالصغد جارية من ولد يزدجرد فأرسلها الى الحجاج فأرسلها الحجاج الى

الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ولما بعث قتيبة بالفتح الى الحجاج انتقل الى مرو واستعمل على سمرقند اياس بن عبدالله ثم ان أهل خوارزم استضعفوا اياسا فجمعوا له جموعا وأرادوا قتاله فوجه قتيبة جموعا الى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله وعزل اياسا من سمرقند وولى أخاه عبد الله بن مسلم فلما قدم المغيرة على سمرقند خشى ماكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففر الى بلاد الترك وجاء المغيرة فقتل وسبى وملك خوارزم وصالحه الباقون على الجزية

﴿ ذكر غزوة قتيبة الشاش وفرغانة ﴾

في سنة أربع وتسعين قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه فوجههم الى الشاش وتوجه هو الى فرغانة فأتى خجندة فجمع له أهلها جموعا واقتتلوا معه مرارا كل ذلك يكون الظفر للمسلمين ثم ان قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم الى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف الى مرو وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم ففتح انطاكية وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد غزالة وبلغ الوليد بن هشام المعيطى برج الحمام ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية

﴿ ذكر غزوة الشاش ﴾

في سنة خمس وتسعين بعث الحجاج بجيش من العراق الى قتيبة فغزا بهم الشاش فلما كان بشاس أو بكشاهان أتاه موت الحجاج في شوال فغمه ذلك ورجع الى مرو وتفرق الناس فأتاه كتاب الوليد قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى انظر الى بلائك والثغر الذى أنت فيه وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة وفيها فتح آخر الهند الا الكيرج والمندل وقد تقدم ذكر ذلك وفي هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنسرين

﴿ ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر ﴾

في سنة ست وتسعين غزا قتيبة كاشغر فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الا بجواز منه ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهى أدنى مداين الصين وبعث جيشا مع كثير بن فلان الى كاشغر فغنم وسبى سبيا فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين فكتب اليه ملك الصين ان ابعث الى رجلا شريفا يخبرنى عنكم وعن دينكم فانتخب قتيبة

عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك وخيول حسنة وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه أنى قد حلفت أنى لاأنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم فساروا وعليهم هبيرة فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بياضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا فقال الملك لمن حضره كيف رأيتم هؤلاء فقالوا رأينا قوما ماهم الا نساء مابقي منا أحد الا انتشر ماعنده فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشى والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا وقال لاصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة قالوا هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى مثل الجبال فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون فقال الملك لاصحابه كيف ترونهم فقالوا مارأينا مثل هؤلاء فلما أمسى بعث اليهم أن ابعثوا الى زعيمكم فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج فقال له قد رأيتم عظم ملكي وانه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي وانى سائلكم عن أمر فان لم تصدقوني قتلتكم قال سل قال لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ماصنعتم قال اما زينا اليوم الاول فلباسنا في أهالنا وأما اليوم الثاني فزينا اذا أممنا أمراءنا وأما الثالث فزينا لعدونا قال ماأحسن مادبرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلككم قالوا كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون يعنون الشام واما تخويفك الينا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه وقد حلف أميرنا ان لاينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية قال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث اليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها ثم بعث اليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم وشئ من تراب أرضهم وأجاز العشرة الوافدين فأحسن جائزتهم فقدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزوة بموت الوليد فرجع

﴿ ذكر مقتل قتيبة بن مسلم ﴾

كان قتيبة فحل عمال الدولة الاموية والحجاج فرعونها ومكث قتيبة على خراسان ثلاث

عشرة سنة وفتح كثيرا من المداين التي كانت فتحت قبله ثم كفر أهلها وتغلبوا فقاتلهم حتى فتحها وفتح غيرها أيضاً كما تقدم وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة وسبب قتله موافقته للوليد بن عبد الملك حين أراد خلع أخيه سليمان وذلك ان عبد الملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ثم من بعده لاخيه سليمان فأراد الوليد ان يخلع أخاه سليمان و يبايع لابنه عبد العزيز فلم يوافقه على ذلك الا الحجاج وقتيبة ابن مسلم ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ولم يتمكن من خلع أخيه فبويع لاخيه سليمان فخاف قتيبة منه وكان سليمان بن عبد الملك صديقا ليزيد بن المهلب فخاف قتيبة ان يعزله ويولي يزيد بن المهلب فدعا الناس لخلع سليمان وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان عن رياسة بني تميم وصيرها لضرار بن حصين الضبي فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع وتجمع معه كثير من قومه فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها فقتل فيها قتيبة وقتل معه من أهله اخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحصين وعبدالكريم ومسلم وقتل كثير ابنه وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلا ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤس أهل بيته الى سليمان بن عبد الملك وقام بالامر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات لجعلناه في تابوت فكنا نستسقي به و نستفتح به وفي هذه السنة جهز سليمان ابن عبد الملك الجيوش الى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة وفيها غزا مسلمة بن عبدالملك الوضاحية ففتح الحصن الذى فتحه الوضاح صاحب الوضاحية وفيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم في البحر فشتى بها

﴿ ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان ﴾

كان سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب العراق وبعد مقتل قتيبة بتسعة أشهر ولاه خراسان فاقام عمالا له بالعراق وتوجه الى خراسان

﴿ ذكر فتح جرجان وطبرستان ﴾

في سنة ثمان وتسعين غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان لما قدم خراسان وسبب غزوهما واهتمامه بهما انه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحا يقول ليزيد ألا ترى الى مايفتح الله على قتيبة فيقول يزيد مافعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ويقول هذه الفتوح ليست بشئ الشأن هي جرجان ولم تكن جرجان يومئذ مدينة انما هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد

فلما ولاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان فسار اليها في مائة الف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالى والمتطوعة فابتدأ بقهستان فحاصرها وكان أهلها طائفة من الترك وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهزمهم المسلمون في كل ذلك فاذا هزموا دخلوا الحصن فخرجوا ذات يوم وخرج اليهم الناس فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزموا ودخلوا الحصن ثم ألح عليهم القتال وقطع عنهم المواد واشتد عليهم الحصار فطلب الصلح صول دهقان قهستان على ان يؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع له المدينة بما فيها فصالحه ووفى له ودخل المدينة فاخذ مما كان فيها من الاموال والكنوز والسبي مالا يحصى وقتل أربعة عشر الف تركى صبرا وكتب الى سليمان بن عبد الملك بذلك ثم خرج حتى أتى جرجان وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص وكانوا يجبون أحيانا مائة الف وأحيانا مائتى الف وأحيانا ثلاثمائة ألف ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجا ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد الا على فارس وكرمان وأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولى خراسان وبقى أمر جرجان كذلك حتى ولى يزيد بن المهلب فأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه فأجابهم الى ذلك وصالحهم فلما فتح قهستان وجرجان طمع في طبرستان ان يفتحها فعزم على ان يسير اليها فاستعمل عبد الله بن المعمر اليشكرى على ساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف ثم أقبل الى أدنى جرجان مما يلى طبرستان فاستعمل على ايز وساراشد بن عمرو وجعله في أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان فأرسل اليه الاصبهبد صاحبها يسأله الصلح وان يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها ووجه أخاه أبا عيينة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبى من وجه ومع كل منهم جيش وقال اذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس فسار أبو عيينة وأقام يزيد معسكرا واستجاش الاصبهبد أهل جيلان والديلم فأتوه فالتقوا في سفح الجبل فانهزم المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون حتى انتهوا الى فم الشعب فدخل المسلمون وصعد المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون يرومون الصعود فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عيينة والمسلمون يركب بعضهم بعضا يتساقطون في الجبل حتى انتهوا الى عسكر يزيد وكف عدوهم عن اتباعهم وخافهم الاصبهبد فكاتب أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم ان يبيتوا من عندهم من المسلمين وان يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الاسلام ويعدهم أن يكافئهم على ذلك فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون في ليلة

وقتل عبد الله بن المعمر ومن معه فلم ينج منهم أحد وكتبوا الى الاصبهبد بأخذ المضايق والطرق وبلغ ذلك يزيد بن المهلب وأصحابه فعظم عليهم وهالهم وفزع يزيد الى حيان النبطي وكان من رؤساء جنده ليسير الى الاصبهبد في عمل الصلح فأتى حيان الاصبهبد فقال له أنا رجل منكم وان كان الدين فرق بيني وبينكم فانا لكم ناصح فأنت أحب الى من يزيد بن المهلب وقد بعث يستمدوامداده منه قريبة وانما أصابوا منه طرفا ولست آمن من أن يأتيك من لاتقوم له فأرح نفسك وصالحه فان صالحته صير حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه فصالحه على سبعمائة ألف وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة ثم رجع حيان الى يزيد بن المهلب فقال أبعث من يحمل صلحهم فقال من عندهم أومن عندنا فقال من عندهم وكان يزيد قد طابت نفسه ان يعطيهم ماسألوا ويرجع الى جرجان فارسل يزيد من يقبض ماصالحهم عليه حيان وانصرف الى جرجان

ذكر فتح جرجان الفتح الثانى

قد تقدم ذكر فتح قهستان وجرجان ثم غدر أهله باصحاب يزيد بن المهلب فلما صالح يزيد اصبهبد طبرستان سار الى جرجان وعاهد الله لئن ظفر بهم لايرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم ويأكل من ذلك الطحين فأتاها وحصر أهلها بحصن فجأة سبعة أشهر وهم يخرجون اليه في الايام فيقاتلون ويرجعون وكانوا متمنعين في الجبال والاوعار فبيناهم كذلك اذ ظفروا برجل يعرف الطرق فضمن له يزيد دية ان دلهم على الحصن وطرقه ومعالمه فانتخب معه يزيد ثلاثمائة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وقال يزيد للرجل متى تصلون قال غدا العصر فساروا فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو الى النار فهالهم ذلك فهجم خالد بن يزيد ومن معه عليهم قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه وسار يزيد بمن معه يقاتلهم من جهة أخرى فما شعروا الا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعا الى حصنهم وركبهم المسلمون فأعطوا بايديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين الى يمين الطريق ويساره قيل ان الذين قتلهم أربعون ألفا فلذلك كان عمر بن عبد العزيز يسمى يزيد بن المهلب جبارا وأجرى الماء على الدم وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر يمينه فطحن وخبز وأكل وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ذلك مدينة ورجع الى خراسان واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفي وكتب بالفتح الى سليمان وأخبره انه قد حصل

من الخمس ستمائة الف الف فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس لاتكتب تسمية المال فانك من ذلك بين أمرين اما استكثره فامرك بحمله واما سمحت نفسه لك به فاعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء الا استقله فكأني بك قد استغرقت ماسميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذى سميت مخلدا في دواوينهم فان ولى وال بعده أخذك به وان ولى من يتحامل عليك لم يرض باضعافه ولكن اكتب فسله القدوم وشافهه بما أحببت فهو أسلم فلم يقبل منه وأمضى الكتاب فكان الامر كما قال كاتبه فان عمر بن عبد العزيز لما ولى بعد سليمان طالبه بذلك المال سنة تسع وتسعين وعزله وقيده وحبسه ثم هرب من السجن في مدة مرض عمر بن عبد العزيز ثم لما بويع يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز طلب يزيد بن المهلب فجمع جموعا وقاتل يزيد بن عبد الملك بعد ان خلعه وبايع الناس لنفسه وكانت جموع يزيد بن المهلب نحو مائة الف وآخر الامر قتل هو وكثير من اخوته وأهل بيته وذلك سنة اثنتين ومائة وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ قيل ان يزيد بن المهلب أصاب في غنائم جرجان تاجا فيه جوهر فقال لاصحابه أترون أحدا يزهد في هذا قالوا لا فدعا محمد بن واسع الازدى فقال خذ هذا التاج قال لاحاجة لى فيه قال عزمت عليك فاخذه فامر يزيد رجلا ينظر مايصنع به فلقى سائلا فدفعه اليه فاخذ الرجل السائل فاتى به يزيد فاخبره فاخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيرا

ذكر محاصرة القسطنطينية

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وتسعين سار سليمان بن عبد الملك الى دابق وجهز جيشا مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير الى القسطنطينية وسبب ذلك انه مات ملك الروم فاتى اليون من اذربيجان لسليمان بن عبد الملك فاخبره بموته وضمن له فتح الروم فوجه ذلك الجيش مع أخيه مسلمة فسار الى القسطنطينية فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من طعام على عجز فرسه الى القسطنطينية ففعلوا فلما أتاها أمر بالطعام فالقى أمثال الجبال وقال للمسلمين لاتأكلوا منه شيأ واغيروا في أرضهم وازرعوا وعمل بيوتا من خشب فشتى فيها وصاف وزرع الناس وبقى الطعام في الصحراء والناس يأكلون ماأصابوا من الغارات والزرع وأقام مسلمة قاهرا للروم معه أعيان الناس فارسل الروم الى مسلمة يعطونه عن كل رأس دينارا فلم يقبل فقال الروم لاليون ان صرفت عنا المسلمين ملكناك فاستوثق منهم فاتى مسلمة فقال له ان الروم قد علموا انك لاتصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فامر به فاحرق فقوى الروم وأصابوا

المسلمين حتى كادوا يهلكون وبقوا على ذلك حتى مات سليمان سنة تسع وتسعين وقيل انما خدع اليون مسلمة بان سأله ان يدخل من الطعام الى الروم بمقدار مايعيشون به ليلة واحدة ليصدقوا ان أمر مسلمة وأمره واحد وانهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم فاذن له وكان اليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر الا مالا يذكر وأصبح اليون محاربا وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لامرأة لعيبت بها ولقي الجند مالم يلقه جيش آخر حتى ان الرجل كان يخاف ان يخرج من العسكر وحده وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب وسليمان مقيم بدابق ودخل الشتاء فلم يقدر ان يمدهم حتى مات فلما بويع عمر بن عبد العزيز بعده بعث الى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ووجه له خيلا عتاقا وطعاما كثيرا وحث الناس على معونتهم فرجعوا سنة تسع وتسعين وفي سنة مائة واحدى توفي محمد بن مروان وتوفي عمر بن عبد العزيز فبويع ليزيد بن عبد الملك وكان في مدته الحرب المتقدم ذكره بينه وبين يزيد بن المهلب

ذكر غزوة الترك

في سنة اثنتين بعد قتل يزيد بن المهلب استعمل يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان أخاه مسلمة بن عبد الملك فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد الملقب خذينة ومعناه الدهقانة ربة البيت لانه كان رجلا لينا متنعما وهو سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص فجده الحارث أخو مروان بن الحكم فاستضعفه الناس وسموه خذينة فطمعت الترك فجمعهم خاقان ووجههم الى الصغد وعلى الترك صول فأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي محاصرين لمن فيه من المسلمين وفيه أهل مائة بيت من اسمعين بذراريهم وكان على سمرقند عثمان بن عبدالله بن مطرف بن الشخير استعمله سعيد خذينة فكتبوا اليه يستمدونه وخافوا ان يبطئ عليهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفا وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة وندب عثمان الناس فانتدب أربعة آلاف مع المسيب بن بشر الرياحي من سائر القبائل فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم فرجع عنه ألف وقال ذلك أيضا بعد فرسخ فرجع ألف آخر ثم أعادها ثالثه بعد فرسخ وعتزله الف فلما كان على فرسخين من العدو أخبره بعض الدهاقين ان قوما أتاهم ملك الترك وبايعه كل الدهاقين سرى وأنا في ثلاثمائة مقاتل فهم معكم وعندي الخبر قد كانوا صالحوهم وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة فلما بلغهم مسيركم اليهم قتلوا الرهائن وميعادهم ان يقاتلوا غدا ويفتحوا لهم القصر

يعني قصر الباهلي الذي فيه أهل مائة بيت فبعث المسيب الى القصر المذكور رجلين عجميا وعربيا يأتيانه بالخبر فجاؤا في ليلة مظلمة وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل اليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهما الربيئة فقالا له اسكت وادع لنا فلانا من المسلمين الذين في القصر فدعاه فأعلماه قرب العسكر وسألاه هل عندكم امتناع غدا فقال لهما نحن مستميتون وقد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت امامنا حتى نموت جميعا غدا فرجعا الى المسيب فاخبراه فقال لمن معه انى سائر الى هذا العدو المحاصرين للقصر فمن أحب ان يذهب فليذهب فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت فاصبح وسار وقد ازداد القصر تحصينا بالماء الذى أجراه الترك فلما كان بينه وبين الموضع الذى فيه الترك نصف فرسخ نزل وكان قد أجمع على بياتهم فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه وقال ليكن شعاركم يامحمد ولا تتبعوا موليا وعليكم بالدواب التى لهم فاعقروها فانها اذا عقرت كانت أشد عليهم منكم وليست بكم قلة فان سبعمائة سيف لايضرب بها في عسكر الا أوهنوه وان كثر أهله فلما دنوا منهم كبروا وذلك في السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب وترجل المسيب في رجال معه فقاتلوا قتالا شديدا وانقطعت يمين رجل من المسلمين فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيده حتى استشهد وقتلوا كثيرا منهم وعظيما من عظمائهم فانهزمت الترك ونادى منادى المسيب لاتتبعوهم واقصدوا القصر لاطلاق من فيه واحملوا من فيه ولا تحملوا من متاعهم الا الماء ومن حمل امرأة أو صبيا أو رجلا ضعيفا لايقدر على المشي حسبة فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهما وان كان في القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه فأتوا القصر وحملوا من فيه وأخرجوهم ثم ساروا الى سمرقند ورجعت الترك من الغد فلم يروا في القصر أحدا ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤنا بالامس من الانس قال بعض من كان بالقصر لما التقوا ظننا ان القيامة قد قامت لما سمعنا من هماهم القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل وفي هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية ارمينية وهو على الجزيرة قبل ان يلي العراق فهزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا وقتل سبعمائة أسير وفيها غزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم فافتتح دلسة

﴿ ذكر غزوة الصغد ﴾

وفي هذه السنة عبر سعيد خذينه النهر وغزا الصغد وقد كانوا نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين فقال الناس لسعيد انك قد تركت الغزو وقد أغار الترك وأعانهم أهل الصغد فقطع النهر وقصد الصغد فلقيه الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون فقال سعيد

لاتتبعوهم وقال هم جباية أمير المؤمنين يعني يأخذ منهم المال ففي استئصالهم ضياع له وفي رواية قال هم بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم أفتريدون بوارهم وقد قاتلتم يا أهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم فانكفوا عنهم ثم سار المسلمون الى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر وقد أكمن لهم الترك فخرجوا عليهم وانهزم المسلمون الى الوادى ثم تلاحق المسلمون وجاء الامير والناس فانهزم العدو وكان سعيد اذا بعث سرية فاصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب السرية فثقل سعيد على الناس وضعفوه وسعوا في عزله فعزل سنة ثلاث ومائة وولى مكانه سعيد الحرشي بالحاء المهملة والشين المعجمة من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ينتهى الى قيس بن عيلان بن مضر وفي سنة ثلاث ومائة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها دلسة

ذكر الوقعة بين الحرشي والصغد

لما قدم الحرشي خراسان كان الناس بازاء العدو وقد نكبوا فخطبهم وحث الناس على الجهاد وقال انكم لاتقاتلون بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لاحول ولا قوة الا بالله ولما سمع أهل الصغد بقدوم الحرشي خافوا على أنفسهم لانهم كانوا قد أعانوا الترك على أصحاب خذينة فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم فقال لهم ملكهم لاتفعلوا وأقيموا واحملوا خراج مامضى واضمنوا له خراج مايأتي وعمارة الارض والغزو معه ان أراد ذلك واعتذروه مما كان منكم واعطوه رهائن قالوا نخاف ان لايرضى ولا يقبل ذلك منا ولكن نأتي خجندة فنستجير ملكها ونرسل الى الامير فنسأله الصفح عما كان منا ونوثق انه لايرى أمرا يكرهه فقال لهم ملكهم أنا رجل منكم والذى أسرت به عليكم خير لكم فأبوا وخرجوا الى خجندة وأرسلوا الى ملك فرغانة يسألونه ان يمنعهم وينزلهم مدينته فأراد أن يفعل فقالت أمه لايدخل هؤلاء الشياطين مدينتك ولكن فرغ لهم رستاقا يكونون فيه فأرسل اليهم سموا رستاقا تكونون فيه حتى أفرغه لكم وأجلوني أربعين يوما وقيل عشرين يوما فاختاروا شعب عصام بن عبد الله الباهلي وكان قتيبة قد حلفهم فيه فقال نعم ولا أنا على عقد وجوار حتى تدخلوه وان أتتكم غزية قبل ان تدخلوه ليس لكم على جوار فرضوا ففرغ لهم الشعب فجاء الخبر الى الحرشي فغزاهم وعاجلهم قبل ان يدخلوا شعب عصام وخرج أهل الصغد للقتال فانهزموا وقد كانوا حفروا خندقا وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال فلما انهزموا أخطأهم الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق ثم حاصرهم الحرشي ونصب عليهم المجانيق فارسلوا

الى ملك فرغانة ليجيرهم فقال قد شرطت عليكم ان لاجوار قبل الاجل الذى بيني وبينكم فطلبوا الصلح من الحرشى على ان يردوا مافي أيديهم من سبي العرب ويعطوا ما كسر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة ولا يقتالوا أحدا فان أحدثوا حدثا استبيحت دماؤهم فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا في العسكر وبلغ الحرشى انهم قتلوا امرأة ممن كان في أيديهم من المسلمين فقتل الذى قتلها فخاف منه بعض عظمائهم ان يقتله فنقض وخرج واعترض الناس ومعه جماعة منهم فقتل ناسا وتضعضع العسكر ولقوا منه شرا وانتهى الى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت وقتل الصغد اسرى عندهم من المسلمين مائة وخمسين رجلا فاخبر الحرشى بذلك فامر بقتلهم وعزل التجار عنهم فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة آلاف وغنم أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ماعجبه وكتب الى يزيد بن عبد الملك بالفتح وسرح الحرشى سرية الى حصن يطيف به وادى الصغد فتلقوها على فرسخ وقاتلوا فهزموا ودخلوا الحصن فحصروا فيه ثم طلبوا الصلح على ان لايتعرض لنسائهم وذراريهم ويسلموا القلعة فقبل منهم ذلك وبعث الامناء لقبض مافي القلعة فقبضوه وباعوه وقسموه وسار الحرشى الى كش وصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار قبض صلح كش وكان في لسف خزائن منيعة فوجه اليها المسربل بن الخريت وكان صديقا لملكها فجاء للملك وأخبره بما صنع الحرشي بأهل خجندة وخوفه قال فما ترى قال ان تنزل بأمان قال فما أصنع بمن لحق بى قال تجعلهم في أمانك فصالحهم فامنوه وبلاده ورجع الحرشى الى بلاده ومعه الملك فقتله وصلبه ومعه الامان وكانت هذه الوقائع سنة أربع ومائة وفيها عزل الحرشى عن خراسان ووليها مسلم بن سعيد الكلابى

ذكر غزو المسلمين بلاد الخزر وظفر الخزر بهم

في هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهرانى فاجتمعت الخزر وهم التركمان في جمع كثير وأعانهم ففجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا المسلمين في مكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديدا فقتل كثير من المسلمين واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال ثبيت ياأمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع سيفى غير ان الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد

﴿ ذكر غزوة أخرى على الخزر ﴾

ولما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا فولى يزيد على ارمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف فسار لغزو الخزر فتسامعوا به فعادوا حتى نزلوا بالباب والابواب ونزل الجراح الى بردعة فاقام بها حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح اليه فحينئذ أمر الجراح مناديه فنادى في الناس ان الامير مقيم ههنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة فكتب ذلك الرجل الى ملك الخزر يخبره ان الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل فسار مجدا حتى انتهى الى مدينة الباب والابواب فلم ير الخزر فدخل البلد وبث السرايا للنهب والغارة على مايجاوره فغنموا وعادوا من الغد وسار الخزر اليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا اقتتالا شديدا فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع مامعهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فاجابهم ونقلهم عنها ثم سار الى مدينة يرغوا فاقام عليها ستة أيام وهو مجد في قتالهم فطلبوا الامان فامنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منه

(ذكر فتح بلنجر)

ثم سار الجراح الى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن وكانت تلك العجل اشد شئ على المسلمين في قتالهم فلما رأوا الضرر الذى عليهم انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلا وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل وجد الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ما كان يحجب عين الشمس فلم يرجع أولئك حتى وصلوا الى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذى يمسكها وجذبوها فانحدرت وتبعها سائر العجل لان بعضها كان مشدودا الى بعض وانحدر الجميع الى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر ثم ان الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة وغنموا جميع مافيه فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين الفا ثم ان الجراح احضر صاحب بلنجر ورد اليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبرهم بما يفعله الكفار ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندرويه نحو

أربعين الف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه ثم ان الترك والتركمان تجمعوا
وأخذوا الطرق على المسلمين فكتب صاحب بلنجر الى الجراح يعلمه بذلك فعاد مجدا حتى
وصل الى رستاق ملى وادركهم الشتاء فاقام المسلمون به وكتب الجراح الى يزيد بن عبد
الملك يخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد فوعده انفاذ العساكر اليه
وأدرك يزيد أجله قبل انفاذ الجيش وكان موته في شعبان سنة خمس ومائة فلما مات يزيد
وبويع أخوه هشام بن عبد الملك أرسل الى الجراح وأقره على عمله ووعده المدد ثم
أرسله اليه فقوى أمر الجراح فغزا اللان في سنة ست وصالحه أهلها فأدوا الجزية ثم ان
هشاما عزل الجراح عن ارمينية سنة سبع ومائة وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك الى سنة
احدى عشرة ثم عزل أخاه مسلمة وولاها الجراح ثانية فدخل بلاد الخزر من ناحية
تفليس ففتح مدينتهم البيضا وانصرف سالما فجمعت الخزر جوعها وحشدت وسارت الى
بلاد الاسلام من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا اشد قتال
رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ومن كان
معه بمرج اردبيل وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على ارمينية ولما قتل الجراح
طمع الخزر وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين وكان الجراح
خيرا فاضلا وكان أولا من عمال عمر بن عبد العزيز على خراسان ورثاه كثير من الشعراء
ولما بلغ هشاما خبره دعا سعيد الحرشي وكان قد عزل عن خراسان فقال له باغني ان
الجراح قد انحاز عن المشركين قال كلا ياأمير المؤمنين الجراح اعرف بالله من أن ينهزم
ولكنه قتل قال فمارأيك قال تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد ثم تبعث الى كل يوم
أربعين رجلا ثم اكتب الى أمراء الاجناد يوافوني ففعل ذلك هشام وسار الحرشي فكان
لايمر بمدينة الا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ولم يزل كذلك حتى وصل الى
مدينة أرزن فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكى لبكائهم وفرق فيهم نفقة وردهم
معه وجعل لايلقاه أحد من أصحاب الجراح الارده معه ووصل الاخلاط وهي ممتنعة عليه
فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في أصحابه ثم سار عن خلاط وفتح القلاع والحصون شيأ بعد
شئ الى أن وصل الى برذعة فنزلها وكان ابن خاقان يومئذ باذربيجان يغير وينهب ويسبي
ويقتل وهو محاصر مدينة ورثان فخاف الحرشي ان يملكها فارسل بعض أصحابه الى أهل
ورثان سرا يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر فسار القاصد ولقيه بعض الخزر فاخذوه
وسألوه عن حاله فأخبرهم وصدقهم فقالوا له ان فعلت مانأمرك به أحسنا اليك وأطلقناك

والا قتلناك قال فما الذي تريدون قالوا تقول لاهـل ورثان انكم ليس لكم مدد ولا من يكشف مابكم وتأمرهم بتسليم البلد الينا فأجابهـم الى ذلك فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم أتعرفوني قالوا نعم أنت فلان قال فان الحرشي قد وصـل الى مكان كذا في عساكر كثيرة وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر فني هذين اليومين يصل اليكم فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقتلت الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينـة ورثان فوصلها الحرشي في العساكر وليس عندها أحد فارتحل يطلب الخزر الى أرديـل فسار الخزر عنها ونزل الحرشي باجروان فأتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له هل لك أيها الامير في الجهاد والغنيمة قال كيف لى بذلك قال هـذا عسكر الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من المسلمين اسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ فسار الحرشي ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربعة جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد واطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم الى باجروان فلما دخلها أتاه ذلك الرجـل صاحب الفرس الابيض فسلم وقال هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا فسار الحرشي اليهم فما شعروا الا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا ولم يفلت من الخزر الا النرير واستنقذوا من معهـم من المسلمين والمسلمات وغنموا أموالهم وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن اليهم وحمـل الجميع الى باجروان وبلغ خبر مافعـله الحرشي بعساكر الخزر ابن ملكهم فوبخ عساكره وذمهم ونسبهم الى العجز والوهن فحرض بعضـهم بعضا وأشاروا عليـه بجمع أصحابه والعود الى قتال الحرشي فجمع أصحابه من نواحي اذربيجان فاجتمع معـه عساكر كثيرة وسار الحرشي اليه فالتقيا بارض برزند واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه فانحاز المسلمون يسيرا فحضرهم الحرشي فأمرهـم بالصبر فعادوا الى القتال وصـدقوهم الحملة واستغاث من مع الخزر من الاسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضا ولم يبق أحد الا وبكى رحمة للاسرى واشتدت نكايتهم في العدو فولوا الادبار منهزمين وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس وعادوا عنهـم وحووا ما في عساكرهـم من الاموال والغنائم وأطلقوا الاسرى والسبايا وحملوا الجميع الى باجروان ثم ان ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره وعاد بهـم نحو الحرشي فنزل على نهر البيلقان وبلغ الخـبر الحرشي فسار نحوه في عساكر المسلمين فوافاهـم وهم على نهر البيلقان فالتقوا هناك فصاح الحرشي بالناس فحملوا حملة

صادقة ضعضعوا صفوف الخزر وتابع الحملات وصبر الخزر صبرا عظيما ثم كانت الهزيمة عليهم فولوا الادبار منهزمين وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممن قتل وجمع الحرشى الغنائم وعاد الى باجروان فقسمها وارسل الخمس الى هشام بن عبد الملك وعرفه مافتح الله على المسلمين فكتب اليه هشام يشكره وأقام بباجروان فأتاه كتاب هشام يأمره بالمسير اليه واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على ارمينية واذربيجان فوصل الى البلاد وسار الى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفي سنة ثلاث عشرة ومائة فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مداين وحصون على يديه وقتل منهم واسر وسبي واحرق ودان له من وراء جبال بانجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع لايعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق فعزله هشام وولى ارمينية واذربيجان مروان بن محمد وسيأتي الكلام ان شاء الله على غزواته ومافتحه وانما تابعنا الكلام الى سنة ثلاث عشرة لارتباط بعضه ببعض ولنرجع الى اتمام الكلام على الفتوحات الحاصلة في غير اذربيجان وارمينية من سنة خمس الى سنة ثلاث عشرة فنقول كان في سنة خمس غزوة لسعيد بن عبد الملك بارض الروم فبعث سرية في نحو الف مقاتل فأصيبوا جميعا وفي سنة ١٠٤ استعمل مسلم بن سعيد الكلابى أميرا بخراسان بعد عزل الحرشى عنها فغزا الترك بما وراء النهر سنة ١٠٥ فلم يفتح شيأ وقفل فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جيحون فوقف على الساقة عبيد الله بن زهير ومعه خيل بنى تميم حتى عبر الناس سالمين وغزا مسلم أيضا تلك السنة افشين فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع اليه القلعة وفي سنة خمس أيضا غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونيه من أرض الروم وكمخ

ذكر غزو مسلم بن سعيد الكلابى الترك

في سنة ست ومائة قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه فلما بلغ بخارا أتاه كتاب خالد بن عبيد الله القسرى يخبره بولايته العراق ويأمره باتمام غزاته فسار الى فرغانة فلما وصلها بلغه ان خاقان قد أقبل عليه وانه في موضع ذكروه فارتحل فسار ثلاث مراحل في يوم وأقبل اليهم خاقان فلقى طائفة من المسلمين وأصاب دواب لمسلم وقتل جماعة من المسلمين ثم أطاف خاقان بالعسكر وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر فرحل مسلم

بالناس فسار ثمانية أيام والترك يحيطون بهم وأصاب الناس عطش واحرق الناس ماثقل من الامتعة فحرقوا ماقيمته الف الف وأتوا خجندة فأصابتهم مجاعة ولما أراد عبور النهر والترك محيطون به أمر مسلم الناس ان يخترطوا سيوفهم ويحملوا ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفا فأفرجوا لهم فعبروا ثم وافاه كتاب خالد بن عبد الله بعزله وولاية أخي خالد وهو أسد ابن عبد الله القسري وفي سنة سبع ومائة ملك الجنيد بن عبد الرحمن بعض بلاد السند وقتل صاحبه حيشبة وتقدم تفصيل ذلك

﴿ ذكر غزوة بالاندلس ﴾

في سنة سبع ومائة غزا عنبسة بن شحيم الكلبي عامل الاندلس لهشام بن عبد الملك بلد الفرنج في جمع كثير ونازل مدينة قرقونه وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالهم وعلى جميع مافي المدينة من اسرى المسلمين واسلابهم وان يعطوا الجزية ويلتزموا باحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه فعاد عنهم عنبسة

﴿ ذكر غزوة الغور ﴾

في هذه السنة غزا اسد بن عبد الله الغوري وهو جبال هراة فعمد أهلها الى اثقالهم فصيروها في كهف ليس اليه طريق فامر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بسلاسل فتوصلوا الى الكهف فاستخرجوا ما قدروا عليه

﴿ ذكر غزوة الختل والغور ﴾

في سنة ثمان ومائة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال وقيل عاد مهزوما من الختل واظهر انه يريد يشتو بسرخ دره فامر الناس فارتحلوا ووجه راياته وسار في ليلة مظلمة الى سرخ دره فكبر الناس فقال مالهم فقالوا هذه علامتهم اذا قفلوا فقال للمنادى نادان الامير يريد الغوريين فمضى اليهم فقاتلوهم يوما وصبروا لهم ثم عادوا من الغد فاقتتلوا وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد واسروا وسبوا وغنموا ورجعوا وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم مما يلي الجزيرة ففتح قيسارية وهي مدينة مشهورة وفيها أيضا غزا ابراهيم بن هشام ففتح حصنا من حصون الروم وفيها أيضا سار ابن خاقان ملك الترك الى اذربيجان فحصر بعض مدنها فسار اليه الحارث بن عمرو الطائي فالتقوا فاقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهرارس فعاد اليه ابن خاقان فعاود الحرب أيضا فنهزم ابن خاقان وقتل من الترك خلق كثير وفي سنة تسع ومائة فصل هشام بن عبد الملك ولاية خراسان عن ولاية العراق وعزل أسدا عن

خراسان واستعمل على خراسان اشرس بن عبد الله السلمي وله وقائع مع أهل سمرقند ستأتي وفي هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة الفهرى في البحر وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصنا يقال له طيبة وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان وتقدم ذكر ذلك وفي هذه السنة أيضا غزا بشر بن صفوان عامل افريقية جزيرة صقلية فغنم شيأ كثيرا ثم رجع الى القيروان

﴿ذكر ماجرى لاشرس بن عبدالله السلمي مع أهل سمرقند وغيرها﴾

في سنة عشر ومائة ارسل اشرس جماعة الى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية فدعوهم لذلك فأسلموا فجاء الخبر الى اشرس بأن الخراج قد انكسر فكتب اشرس الى العامل بلغني أنهم لم يسلموا رغبة وانما أسلموا نفورا من الجزية فانظروا من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورا من القرآن فارفعوا الجزية عنه وعزل ذلك العامل وولى ابن هانى فكتب لاشرس انهم اسلموا وبنوا المساجد فكتب اليه أشرس ان يعيد الجزية على من كانت عليه ولو أسلم فاعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند وامتنعوا وأرادوا القتال فكتب اشرس بوضع الخراج عنهم فرجعوا وضعف أمرهم ثم تتبعوا وحبسوا واقيمت عليهم العقوبات وخرقت ثيابهم والقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن أسلم فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا بالترك فخرج اشرس غازيا فنزل آمل واقام شهرا وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقى الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان فحصروا قطنا في خندقه واغار الترك على سرح المسلمين فبعث اشرس خيلا استنقذت من أيدى الترك ماأخذوه ثم عبر اشرس النهر بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا امامهم وسار اشرس بالناس حتى جاء بيكند فحصرها المسلمون فقطع أهل البلد عنهم الماء وأصابهم العطش فرحلوا قاصدين البلد فاعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالا شديدا حتى أزالوا الترك عن الماء وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم الى الليل ثم رجع اشرس الى بخارى وجهز عليها عسكرا يحاصرونها ثم حاصر خاقان مدينة كمرجه من خراسان وبها جمع من المسلمين فاغلقوا الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق ليمنعوا الكفار من الدخول اليهم ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون فيه الحطب الرطب ليعبروا عليه وجعل المسلمون يلقون حطبا يابسا على الحطب الرطب حتى سوى الخندق فاشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعا من الله فاحترق الحطب في ساعة واحدة وكانوا جمعوه في سبعة أيام

ثم فرق خاقان على الترك أغناما وأمرهم ان يأكلوا لحمها ويحشوا جلودها ترابا ويكبسوا خندقها ففعلوا ذلك فأرسل الله سحابة فأمطرت مطرا شديدا فاحتمل السيل مافي الخندق والقاه في النهر الاعظم ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة في سرته فمات من ليلته وكان داهية وكان خاقان لايخالفه فدخل عليهم بموته أمر عظيم فلما امتد النهار جاؤا بالاسرى الذين عندهم وهم مائة فقتلوهم وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال ولم يزل أهل كمرجه كذلك حتى اقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة فعير خاقان قومه في طول المدة وعدم الفتح قال زعمتم انها تفتح في خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا أمهلنا الى غد وانظر مانصنع فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطار بنده فقاتل المسلمين وقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على ثلمة الى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمي بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل اذنه فصرع وطعنه آخر فقتله فاشتد قتله على الترك وأرسل خاقان الى المسلمين انه ليس من رأينا ان نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها فارحلوا أنتم عنا فقالوا له ليس من ديننا ان نعطى بايدينا حتى نقتل فاصنعوا مابدالكم فاعطاهم الترك الامان على ان يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها الى سمرقند أو الدبوسية فرأى أهل كمرجة ماهم فيه من الحصار فأجابوا الى ذلك فأخذوا من الترك رهائن ان لا يعرضوا لهم وطلبوا ان كورصول التركى يكون معهم في جماعة ليمنعهم الى الدبوسية فسلموا اليهم الرهائن وأخذوا هم أيضا من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ثم رحلوا هم بعده فقال الاتراك الذين مع كورصول ان بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن ان يخرجوا علينا فقال لهم المسلمون ان قاتلوكم قاتلناهم معكم فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها الى الفرسان فظنوا ان كمرجة فتحت وان خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فارسل المسلمون اليهم يخبرونهم خبرهم فلقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشى ومن كان مجروحا فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا الى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه باطلاقهم فجعلت العرب تطلق رجلا من الرهن والترك رجلا حتى بقى سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر فقال سباع خلوا رهينة الترك فخلوه وبقى سباع مع الترك فقال له

كورصول ماحملك على هذا قال وثقت بك وقات ترفع نفسك عن الغدر فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذونا وأطلقه وكان مدة حصار كرجة ثمانية وخمسين يوما فيقال انهم لم يسقوا ابلهم خمسة وثلاثين يوما وفي هذه السنة ارتد أهل كردر فارسل اليهم اشرس جندا فظفروا بهم وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الروم ففتح صملة وغزا الصائفة عبد الله ابن عقبة الفهرى وفيها مات الحسن البصرى وعمره سبع وثمانون سنة وفيها أيضاً مات محمد ابن سيرين وعمره احدى وثمانون سنة

ذكر غزو ماوراء النهر

في سنة احدى عشرة ومائة عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل عليها الجنيد بن عبد الرحمن المرى الغطفانى القيسى فلما قدم خراسان سار الى ماوراء النهر وأرسل الجنيد الى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد ان أمدنى بخيل وخاف ان يقتطع دونه فوجه اليه أشرس عامر بن مالك الحمانى في جماعة فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد فدخل حائطا حصينا وقاتلهم على الثلمة وكان ممن معه واصل بن عمرو القيسى وعاصم بن عمر السمرقندى فاستداروا مع جماعة من القوم حتى صاروا من وراء الماء الذى هناك ثم جمعوا قصبا وخشبا وعبروا عليه فلم يشعر خاقان الا والتكبير من خلفه وحمل المسلمون على الترك فقاتلوهم وقتلوا عظيما من عظمائهم وانهزم الترك وسار عامر الى الجنيد فلقيه وأقبل معه فلما انتهى الى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم فكاد الجنيد يهلك ومن معه ثم أظهره الله وسار حتى قدم العسكر فظفر الجنيد وقتل الترك وزحف اليه خاقان فالتقوا دون رزمان من بلاد سمرقند وأسر الجنيد من الترك ابن أخى خاقان فبعث به الى هشام ورجع الجنيد الى مرو وقد ظفر وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية وغزا في البحر عبد الله بن أبى كريم وفي سنة ثنتى عشرة ومائة كان دخول الجراح ابن عبد الله الحكمى بلاد الخزر وقتله وتقدم الكلام على ذلك مستوفي

ذكر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن المرى بالشعب

في سنة ثنتى عشرة ومائة خرج الجنيد من مرو غازيا طخارستان فوجه عمارة بن حريم الى طخارستان في ثمانية عشر ألفا ووجه ابراهيم بن بسام الليثى فى عشرة آلاف الى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر فكتب سورة الى الجنيد ان خاقان جاش الترك فخرجت اليهم فلم اطق ان أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فامر

الجنيد الناس بعبور النهر فقال له جماعة من جنده ان الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفا ولا زحفا وقد فرقت كثيرا من الجند ولا يعبر النهر في أقل من خمسين الفا فاكتب الى عمارة فليأتك وامهل ولا تعجل قال فكيف بسورة ومن معه من المسلمين لو لم أكن الا في بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر الجنيد بمن كان حاضرا فنزل كش وتأهب للمسير و بلغ الترك مسيره فغوروا الآبار التى في طريق كش فقال الجنيد أى طريق الى سمرقند أصلح فقالوا طريق المحترقة فقال المجشر بن مزاحم السلمى القتل بالسيف أصلح من القتل بالنار طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين فان لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء فاخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى في الجبل فاخذ المجشر بعنان دابته وقال انه كان يقال ان رجلا مترفا من قيس يهلك على يديه جند من جنود خراسان وقد خفنا ان تكونه فقال ليفرخ روعك قال أما ما كان بيننا مثلك فلا فبات في أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف اليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك فحمل خاقان على المقدمة فرجعوا الى العسكر والترك تتبعهم وجاؤا من كل وجه فرتب الجنيد جيشه وجعل على كل جهة رئيسا مشهورا بالشجاعة وشد نصر بن سيار هو ومن معه على العدو فكشفوهم ثم كروا عليهم وقتل يومئذ من الازد ثمانون رجلا وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لا تقطع شيأ فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى مل الفريقان فكانت المعانقة ثم تحاجزوا فبينا الناس كذلك اذ أقبل رهج وطلعت فرسان فنادى منادى الجنيد الارض الارض فترجل وترجل الناس ثم نادى ليخندق كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا وقد أصيب من الازد مائة وتسعون رجلا وكان قتالهم يوم الجمعة فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم يجد موضعا للقتال أسهل من موضع لدى نزل به قبائل بكر ابن وائل فقصدهم فلما قربوا حملت بكر عليهم فافرجوا لهم وسجد الجنيد واشتد القتال بينهم فلما رأى الجنيد شدة الامر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر اما ان تهلك انت أو سورة بن الحر قال هلاك سورة أهون على قال فاكتب له فليأتك من سمرقند في أهل سمرقند فانه اذا بلغ الترك اقباله توجهوا اليه فكتب اليه الجنيد يأمره بالقدوم فقال سورة حليس بن غالب الشيبانى ان الترك بينك وبين الجنيد فان خرجت كروا عليك فاختطفوك فكتب الى الجنيد انى لا أقدر على الخروج فكتب اليه الجنيد يا ابن اللخناء

تخرج والا وجهت اليك شداد بن خليد الباهلي وكان عدوه فاخرج والزم الماء ولا تفارقه فاجمع على المسير وقال اذا سرت على النهر لا أصل في يومين وبيني وبين هذا الوجه ليلة فاذا سكنت الرجل سرت فجاءت عيون الاتراك فاخبروهم بمقالة سورة ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلي وسار في اثنى عشر ألفا فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ فقاتلهم أشد القتال وصبروا فقال غورك لخاقان اليوم حار فلا تقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح فوافقهم وأشعل النار في الحشيش وحال بينهم وبين الماء فقال سورة لعبادة ماترى ياأبا سليم فقال أرى أن الترك يريدون الغنيمة فاعقر الدواب وأحرق المتاع وجرد السيف فانهم يخلون لنا الطريق وان منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفا وانما هو فرسخ حتى نصل الى العسكر فقال لاأقوى على هذا ولا فلان وفلان وعد رجالا ولكن اجمع الخيل فأصكهم بها سلمت أم عطبت وجمع الناس وحملوا فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهيب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم غير ألفين ويقال ألف وكان ممن نجى عاصم بن عمير السمرقندي وانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة الى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصرا هناك فأتاهم الاشكند صاحب نسف ومعه غورك فأعطاهم غورك الامان فقال قريش بن عبد الله العبدي لاتثقوا بهم ولكن اذا جننا الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند فعصوه فنزلوا بالامان فساقهم الى خاقان فقال لاأجيز أمان غورك فقاتلهم الوحف بن خالد ومعه المسلمون فاصيبوا غير سبعة عشر رجلا فقتلوا غير ثلاثة وقتل سورة في اللهب فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادرا فقال له خالد بن عبيد الله سر واسرع فقال له المجشر انزل وأخذ بلجام دابته فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك فقال المجشر له لو لقونا قبل نزولنا ونحن نسير ألم يهلكونا فلما أصبحوا تناهضوا فجال الناس فقال الجنيد أيها الناس انها النار فرجعوا ونادى الجنيد أي عبد قاتل فهو حر فقاتل العبيد قتالا عجب منه الناس فسروا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا فقال موسى ابن الثغراء تفرحون بما رأيتم من العبيد ان لكم منهم ليوما اروزبان أي ذارياسة ومضى الجنيد الى سمرقند فحمل عيال من كان مع سورة الى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ولما انصرف الترك بعث الجنيد بالخبر الى هشام وكتب اليه ان سورة عصاني أمرته بلزوم الماء فلم يفعل فتفرق عنه أصحابه فأتتني طائفة وطائفة الى نسف وطائفة الى سمرقند وأصيب

سورة فى بقية أصحابه فكتب هشام الى الجنيد قد وجهت اليك عشرة آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها ترسة ومثلها سيفا فافرض أى ماشئت في العطا فلا غاية لك في الفريضة بخمسة عشر ألفا ولما سمع هشام مصاب سورة قال انالله وانا اليه راجعون مصاب سورة بخراسان ومصاب الجراح بالباب وأبلى نصر بن سيار يومئذ بلاء حسنا وأرسل الجنيد ليلة بالشعب رجلا وقال له تسمع مايقول الناس وكيف حالهم ففعل ثم رجع اليه فقال رأيتهم طيبة أنفسهم يتناشدون الاشعار ويقرؤن القرآن فسره ذلك قال عبيد بن حاتم ابن النعمان رأيت فساطيط بين السماء والارض فقلت لمن هذه فقالوا لعبدالله بن بسطام وأصحابه فقتلوا في غد فقال رجل مررت في ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشممت رائحة المسك وأقام الجنيد بسمرقند وتوجه خاقان الى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم فخاف الجنيد الترك على قطن بن قتيبة فشاور أصحابه فقال قوم نلزم سمرقند وقال قوم نسير منها فنأتى ربنجن ثم كش ثم الى نسف فنتصل منها الى أرض زم ونقطع النهر وننزل آمل فنأخذ عليه بالطريق واستشار عبدالله ابن أبي عبدالله مولى بنى سالم وأخبره بما قالوا فاشترط عليه ان لايخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال ونزول وقتال فقال نعم قال فانى أطلب اليك خصالا قال وماهى قال تخندق حيثما نزلت ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطئ نهروان تطيعنى في نزولك وارتحالك قال نعم قال اما ماأشاروا عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث فالغياث يبطئ عنك وأما ماأشاروا من طريق كش ونسف فانك ان سرت بالناس من غير الطريق فتت في أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى مافعلت فيستسلموا لعدوهم وان أخذت الطريق الاعظم هابك العدو والرأى عندى أن تأخذ عيال من قتل مع سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحماهم معك فانى ارجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطى كل رجل تخلف بسمرقند الف درهم وفرسا فاخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن أبى عبد الله بن الشخير في أربعمائة فارس وأربع مائة راجل فشتم الناس عبد الله بن أبى عبد الله وقالوا مأراد الا هلا كنا فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الاشحب بن عبيد الحنظلى ومعه عشرة من الطلائع وقال كلما مضت مرحلة تسرح الى رجلا يعلمنى الخبر وسار الجنيد فاسرع سيره فقال له عطاء الدبوسى انظر اضعف شيخ في العسكر فسلحه سلاحا تاما بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ثم سر على قدر مشيه فانا لانقدر على سرعة المسير

والقتال ففعل الجنيد ذلك ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الاماكن المخوفة ودنا من الطواويس وأقبل اليه خاقان بكرمينية أول يوم من رمضان واقتتلوا فاتاه عبد الله بن أبي عبد الله وهو يضحك فقال الجنيد ليس هذا يوم ضحك قال الحمد لله اذ لم يلقك هؤلاء في جبال معطشة وعلى ظهر انما أتوك وأنت مخندق آخر النهار كالين وأنت معك الزاد فقاتلوا قليلا ثم رجعوا ثم قال للجنيد ارتحل فان خاقان ود أنك تقيم فينطوي عليك اذا شاء فسار وعبدالله على الساقة ثم أمره بالنزول فنزل واستقى الناس وباتوا فلما أصبحوا ارتحلوا فقال عبد الله أتوقع ان خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال فقواهم الجنيد وجاءت الترك فمالت على الساقة فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وقتل مسلم بن أحوز عظيما من عظماء الترك فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدراهم البخارية فأعطاهم عشرة عشرة قال عبد المؤمن بن خالد رأيت عبد الله ابن أبي عبد الله في المنام بعد موته فقال حدث الناس عنى برأيي يوم الشعب وكان الجنيد يذكر خالد بن عبد الله فيقول زبدة من الزبد صنبور من صنبور ذل من قل هيفة من الهيف والهيفة الضبع والقل الفرد والصنبور الذى لاأخ له وقدمت الجنود من الكوفة والبصرة على الجنيد فسرح معهم حوثرة بن زيد العنبرى فيمن انتدب معه وبقى الجنيد في ولايته الى سنة ست عشرة ومائة كما سيأتى وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبد الله البطال أرض الروم ومعه عبد الوهاب بن بخت فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وهو يقول مارأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمى ان لم أسفك دمك ثم القى بيضته عن رأسه وصاح أنا عبد الوهاب ابن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى امامك فخالط القوم فقتل وقتل فرسه وفي هذه السنة أيضا فرق مسلمة بن عبدالملك الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مداين وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من كانوا وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الامم جميعها الخزر وغيرهم على خاقان في جمع لايعلم عددهم الا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فاوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل الى الباب والابواب في آخر رمق وقد تقدم ذكر ذلك وأعيد هنا ليرتبط الكلام ببعضه

﴿ ذكر قتل عبد الرحمن الغافقي أمير الاندلس ﴾

وفي سنة ثلاث عشرة أيضاً كان غزو من المسلمين الذين بافريقية على بلادافرنجه وذلك ان هشام بن عبد الملك كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على افريقية والاندلس فاستعمل عبيدة على الاندلس عبدالرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا افرنجه وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة وكان فيما أصاب صورة رجل بكسرالراء وسكون الجيم من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبا شديدا وكتب اليه يتهدده فاجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا أما بعد فان السموات والارض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا يعنى فان الله قادرأن ينجيني مماتتهددني به ثم خرج غازيا مرة ثانية ببلاد الفرنج فقتل هو ومن معه شهداء

ذكر ولاية مروان بن محمد ارمينية واذربيجان بعد انقضاء غزو مسلمة بن عبد الملك

في سنة أربع عشرة ومائة استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهوابن عمه على الجزيرة واذربيجان وأرمينية وكان سبب ذلك انه كان في عسكر مسلمة بارمينية حين غزا الخزر فلما عاد مسلمة سار مروان الى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه فسأله عن سبب قدومه فقال ضقت ذرعا بما أذكره ولم أر من يحمله غيرى قال وماهو قال مروان قد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين مادخل به الوهن على المسلمين ثم رأى أمير المؤمنين انه يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك اليهم فوالله ماوطئ من بلادهم الا أدناها ثم انه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب الى الخزر يؤذنهم بالحرب وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية وكان قصاراه السلامة وقد أردت ان تأذن لى في غزوة أذهب بها عنا العار وأنتقم من العدو قال قد أذنت لك قال وتمدنى بمائة وعشرين ألف مقاتل قال قد فعلت قال وتكتم هذا الامر عن كل واحد قال قد فعلت وقد استعملتك على ارمينية فودعه وسارالى أرمينيه والياعليها وسيرهشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون ألفا فاظهر انه يريد غزو اللان وقصد بلادهم وأرسل الى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه الى ذلك وأرسل اليه ملك الخزر من يقرر الصلح فامسك الرسول عنده الى ان فرغ من جهازه وما يريد ثم أغلظ لهم القول وآذنهم بالحرب وسير الرسول الى صاحبه بذلك ووكل به من سيره على طريق فيه بعد وسار هو في أقرب الطريق فما وصل الرسول الى صاحبه الا ومروان قد وافاهم فاعلمه صاحبه الخبر وأخبره

بما قد جمع له مروان وحشد واستعد فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا ان هذا قداغترك
ودخل بلادك فان أقمت الى ان تجمع جنودك لم يجتمعوا عندك الا بعد مدة فيبلغ منسك
مايريد وان أنت لقيته على حالك هــذه هزمك وظفر بك والرأى ان تتأخر الى أقصى
بلادك وتدعه وما يريد فقبل رأيهم وسار حيث أمروه ودخل مروان البلاد وأوغل فيها
وأخربها وغنم وسبي وانتهى الى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم ودخل
بلاد ملك السرير فاوقع بأهله وفتح قلاعا ودان له الملك وصالحه على ألف رأس لصفين
خمسمائة غلاما وخمسمائة جارية سود الشعور ومائة ألف مد من البر تحمل الى الباب وصالحه
أهل قرمان على مائة رأس نصفين وعشرين الف مد من البر ثم دخل أرض زريكران
فصالحه ملكها ثم أتى أرض حمزين فابى حمزين ان يصالحه فحاصرهم فافتتح حصنهم عنوة
ثم أتى سغدان فافتتحها صلحا ووظف على طبر شانشاه عشرة آلاف مد بر كل سنة تحمل
الى الباب ثم نزل على قلعة صاحب اللكز قد امتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك اللكز يريد
ملك الخزر فقتله راع بسهم وهو لايعرفه فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملا
وسار الى قلعة شروان وهي على البحر فاذعن أهلها بالطاعة وسار الى الدودانية فاوقع
بهم ثم عاد وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى فأصاب ربض أقرن وغزا
عبدالله البطال الروم والتقى هو وقسطنطين في جمع فهزمهم البطال وأسر قسطنطين وغزا
سليمان بن هشام الصائفة اليمنى وبلغ قيسارية وفي سـنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن
هشام أرض الروم وغزا عبد الملك بن قطن عامل الاندلس أرض البشكنس فغنم وعاد
سالمـا وفي سنة ست عشرة ومائة غزا معاوية بن عبـد الملك أرض الروم الصائفة وفيها
عزل هشام بن عبدالملك الجنيد بن عبد الرحمن المرى عن خراسان واستعمل عليها عاصم
ابن عبد الله الهلالى وسبب ذلك ان الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام
لعداوته ليزيد بن المهلب لانه خلع أخاه يزيد بن عبد الملك كما تقدم فولى عاصما خراسان
وكان الجنيد أصابه استسقاء فقال هشام لعاصم ان أدركته وبه رمق فأزهق نفسـه فقدم
عاصم وقد مات الجنيد وفي هذه السـنة استعمل هشام على افريقية عبيد الله بن الحجاب
الموصلى فسير جيشا الى صقلية وهى بكسرات مشددة اللام جزيرة بالمغرب فلقيهم مراكب
الروم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزمت الروم وكانوا قد أسروا جمـاعة من المسلمين منهم عبد
الرحمن بن زياد فبقى أسيرا الى سنة احدى وعشرين ومائة وفي سنة ست عشرة أيضاً جهز
عبيدالله بن الحجاب جيشا مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم الى أرض السودان فظفر بهم

ظفرا لم يظفر أحد مثله وأصاب ماشاء ثم غزا البحر ثم انصرف سالما وفيها سير أيضاً ابن الحجاب جيشا الى السوس فغنموا وظفروا وعادوا وفي سنة سبع عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم وفيها بعث مروان بن محمد وهو على ارمينية بعثين وافتتح أحدهما حصونا ثلاثة من اللان ونزل الآخر على تومانشاه فنزل أهلها على الصلح وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبدالله عن خراسان وأعاد أمر خراسان لوالى العراق خالد بن عبد الله القسرى فولى خالد خراسان أخاه أسد بن عبد الله وهذه ولايته الثانية وسيأتى ذكر غزواته وفيها بعث عبيد الله بن الحجاب حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع غازيا الى المغرب فبلغ السوس الاقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد الا ظفر به وأصاب من الغنائم والسبي أمرا عظيما فلئ أهل المغرب منه رعبا وأصاب في السبي جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدى واحد ورجع سالما وسير جيشا في البحر سنة سبع عشرة ومائة أيضاً الى جزيرة السردانية وهي جزيرة كبيرة ببحر المغرب ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا وسير جيشا الى صقلية سنة اثنتين وعشرين فلم يلقه أحد الا هزمه فظفر ظفرا لم ير مثله حتى نزل على مدينة سرقوسة وهي من أعظم مدن صقلية فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية وفي سنة ثمان عشرة ومائة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم وفي هذه السنة كانت وفاة معاوية المذكور في حياة والده وأعقب أولادا منهم عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذى ملك الاندلس ثم أولاده بعده وفي هذه السنة غزا أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان طخارستان ثم أرض جبوية فغنم وسبي وفيها غزا مروان بن محمد بن مروان ارمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب فهرب منه ورنيس الى الخزر ونزل حصنه فحصره مروان ونصب عليه المجانيق فقتل ورنيس قتله بعض من اجتاز به وأرسل رأسه الى مروان فنصبه لاهل حصنه فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبي الذرية

ذكر مقتل خاقان

لما كانت سنة تسع عشرة ومائة غزا أسد بن عبد الله القسرى بلاد الختل فافتتح منها قلاعا وامتلأت أيدى العسكر من السبي والشاء ولما بلغ الخبر خاقان جيش جيوشه وقصد أسدا فعبر المسلمون النهر راجعين الى بلادهم فتبعهم خاقان والتقوا بعد عبور النهر واقتتلوا قتالا شديدا وهزموا خاقان ثم مضى أسد الى بلخ وشتى فيها ثم قصدهم خاقان

بجيوشه الى بلخ ثم التقوا على فرسخين من الجوزجان فانهزم خاقان ومن معه وتبعهم المسلمون ثلاثة فراسخ وغنموا مائة وخمسين الفا من الشاء ودوالى كثيرة ورجع أسد الى بلخ ثم وصل خاقان الى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ولاعب يوما خاقان بالنرد كورصول فتمزه كور صول وتشاجرا فصك كورصول يدخاقان فكسرها فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع جمعاً ثم بيت خاقان فقتله وتفرقت الترك واشتغلت الترك بغير بعضهم على بعض وأرسل أسد مبشرا الى هشام فلما بلغ هشام بن عبد الملك مقتل خاقان سجد شكرا لله ثم غزا أسد الختل مرة ثانية وفرق عسكره في أودية الختل فملؤا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله الى الصين وفي سنة تسع عشرة أيضاً غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم وغزا مروان بن محمد بن مروان من أرمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها الى بلاد الخزر فمر ببلنجر وسمندر وانتهى الى البيضاء التى يكون فيها خاقان وكان ذلك قبل مقتل خاقان فهرب منه خاقان وفي سنة عشرين توفي أسد بن عبد الله بمدينة بلخ وفيها عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله عن العراق وولى يوسف بن عمر الثقفي وولى نصر بن سيار الكنانى خراسان بعد موت أسد بن عبد الله وفي هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وفتح سندرة وغزا اسحاق بن مسلم العقيلى تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها وفي هذه السنة توفي مسلمة بن عبد الملك بن مروان وفي سنة احدى وعشرين ومائة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير

﴿ ذكر غزوات نصر بن سيار الكنانى ماوراء النهر ﴾

كان نصر بن سيار عاقلا حازما شجاعا مدبرا عمرت خراسان في مدة ولايته عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية مكث واليا على خراسان الى سنة ثلاثين ومائة فكانت مدة ولايته عشر سنين وكان قبل ولايته من امراء الاجناد بخراسان وولى على بعض المداين وكان جعفر بن حنظلة الذى استخلفه أسد على خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخارى فاستشار البخترى بن مجاهد مولى بنى شيبان فقال له لاتقبلها لأنك شيخ مضر وكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها فلما أتاه عهده بعث الى البخترى ليأتيه فقال البخترى لاصحابه قد ولى نصر خراسان فلما أتاه سلم عليه بالامارة فقال له من أين علمت فقال كنت تأتينى فلما بعثت الى علمت أنك قد وليت ولما مات أسد بن عبد الله وبلغ خبر موته هشام بن عبد الملك استشار عبد الكريم بن سليط الحنفى وكان عالما فيمن يوليه خراسان فقال عبد الكريم ياأمير المؤمنين أما رجال خراسان حزماً ونجدة فالكرمانى

فاعرض عنه وقال ما اسمه قال جديع بن على قال لاحاجة لى فيه وتطير قال فالمسن المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيبانى قال هشام ربيعة لاتسد بها الثغور قال عبد الكريم فقلت في نفسى كره ربيعة واليمن فارمه بمضر فقلت عقيل بن معقل الليثى ان غفرت هنته قال ماهى قلت ليس بالعفيف قال لاحاجة لى فيه فقلت منصور بن أبى الخرقاء السلمى ان غفرت نكره فانه مشؤم قال غيره قلت فالمجشر بن مزاحم السلمى عاقل شجاع له رأى مع كذب فيه قال لاخير في الكذب قلت يحيى بن الحصين قال ألم أخبرك ان ربيعة لاتسد بها الثغور قال فقلت نصر بن سيار قال هو لها قلت هو عفيف مجرب عاقل ان غفرت له واحدة قال ما هى قلت عشيرته بخراسان قليلة قال لاابالك تريد أكثر من عشيرة أنا عشيرته فكتب عهده وبعثه مع عبد الكريم فأعطاه نصر لما أتاه به عشرة آلاف درهم واستعمل نصر على أعمال خراسان رجال مضر الى أربع سنين لم يستعمل أحدا من غير مضر وغزا نصر في سنة احدى وعشرين ما وراء النهر مرتين احداهما من نحو الباب الحديد فسار من بلخ من تلك الناحية ثم رجع الى مرو وخطب الناس وأخبرهم أنه أقام منصور بن عمر بن أبى الخرقاء على كشف المظالم وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فرغبوا في الاسلام فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون الف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم وثمانون الفا من المشركين كانت قد القيت عنهم فحول ماكان على المسلمين اليهم ووضعه عن المسلمين ثم صنف الخراج ووضعه مواضعه ثم غزا الثانية الى ورغسر وسمرقند ثم رجع ثم غزا الثالثة الى الشاش من مرو فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر الفا وكان معهم الحارث بن سريج وكان قبل ذلك من أمراء المسلمين على جند خراسان ثم وقعت فتنة بينهم فاعتزلهم وصار مع خاقان ثم مع كورصول فعبر كورصول في أربعين رجلا فبيت العسكر في ليلة مظلمة ومع نصر ملك بخارى في أهل بخارى ومعه أهل سمرقند وكش ونسف وهم عشرون الفا فنادى نصران لايخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم فخرج عاصم بن عمير السعدى وهو على جند سمرقند فمرت به خيل الترك فحمل على رجل في آخرهم فأسره فاذا هو ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ثم تبين انه كورصول فأتى به الى نصر فقال له نصر من أنت قال كورصول فقال نصر الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو الله قال ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من ابل الترك والف برذون تقوى به جندك وتطلق سبيلى فاستشار نصر أصحابه فأشاروا باطلاقه فلم يوافقهم ثم سأله عن عمره قال لاأدرى قال كم غزوت قال اثنتين

وسبعين غزوة قال اشهدت يوم العطش قال نعم قال نصر لو اعطيتني ماطلعت عليه الشمس ماافلت من يدي بعد ماذ كرت من مشاهدك وقال لعاصم بن عمير السعدى قم الى صلبه نخذه فقال من أسرني فقال نصر وهو يضحك اسرك يزيد بن قران الحنظلى وأشار اليه قال هذا لايستطيع ان يغسل استه أولا يستطيع ان يتم له بوله فكيف يأسرني أخبرني من أسرني قال اسرك عاصم بن عمير قال لست أجد ألم القتل اذا كان أسرني فارس من فرسان العرب فقتله وصلبه على شاطئ النهر فلما قتل كورصول أحرقت الترك ابنيه وقطعوا آذانهم وقطعوا شعورهم واذناب خيلهم فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه فكان ذلك أشد عليهم من قتله وارتفع الى فرغانة فسبى بها ألف رأس وكتب يوسف بن عمر أمير العراق الى نصر سر الى هذا الغادر دينه في الشاش يعني الحارث بن سريج فان أظفرك الله به وبأهل الشاش نخرب بلادهم واسب ذراريهم واياك وورطة المسلمين فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم فقال يحيى بن الحصين انظر أهـذا من أمير المؤمنين أو من الامير فقال نصر يايحيى تكلمت بكلمة أيام عاصم فبلغت الخليفة فحظيت بها وبلغت الدرجة الرفيعة فقلت أقول مثلها سريا يحيى فقد وليتك مقدمتي فلام الناس يحيى فسار الى الشاش فأتاهم الحارث ابن سريج فنصب عليهم عرادتين بالتشديد تثنية عرادة شئ أصغر من المنجنيق واغار الاخرم وهو فارس الترك على المسلمين فقتلوه والقوا رأسه الى الترك فصاحوا وانهزموا وسار نصر الى الشاش فتلقاه ملكها بالصلح والهدية والرهن واشترط عليـه نصر اخراج الحـارث بن سريج عن بلده فأخرجه الى فاراب ثم تنقل الحارث في بلاد الترك الى سنة ست وعشرين ثم اصطلح مع المسلمين ورجع الى خراسان سنة سبع وعشرين فكانت مدة مفارقته للمسلمين واتصاله بالترك ثاني عشرة سنة ورد عليه نصر ما كان أخذ له ثم استعمل نصر على الشاش بعد الصلح مع أهله نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة وكانوا احسوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة فوجه نصر الى ولى صاحب فرغانة فحاصروه في حصن وغفلوا عنه فخرج وغنم دواب المسلمين فوجه اليهم نصر رجالا من تميم ومعهم محمد بن المثنى وكمن المسلمون لهـم فخرج الترك واستاقوا بعض الدواب فخرج عليهم المسلمون فهزموهم وقتلوا الدهقان واسروا منهم واسروا ابن الدهقان فقتله نصر ثم سألوه الصلح فأرسل نصر سليمان بن صول بكتاب الصلح الى صاحب فرغانة فأمر به فادخل الخزائن ليراها ثم رجع اليه فقال كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم قال سهلا كثير المـاء والمرعى فكره ذلك وقال ماعلمك فقال سليمان قد غزوت غرشستان وغور

الختل وطبرستان فكيف لااعلم قال فكيف رأيت ماعددنا قال عدة حسنة ولكن ماعلمت ان المحصور لايسلم من خصال لايامن اقرب الناس اليه واوثقهم في نفسه أويفنى ماجمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت فكره ماقال له وأمره فأحضر كتاب الصلح فأجاب اليه وسير أمه معه وكانت صاحبة أمره فقدمت على نصر فأذن لها وجعل يكلمها وكانت مما قالت له كل ملك لايكون عنده ستة أشياء لايكون ملكا وزير يبث اليه مافي نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته وطباخ اذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهى وزوجة اذا دخل عليها مغتما فنظر الى وجهها زال غمه وحصن اذا فرغ أتاه فانجاه تعني البرذون وسيف اذا قاتل لايخشى خيانته وزخيرة اذا حملها عاش بها أين كان من الارض ثم دخل تميم بن نصر في جماعة فقالت من هذا قالوا هذا فتى خراسان تميم بن نصر فقالت ماله نبل الكبير ولاحلاوة الصغير ثم دخل الحجاج بن قتيبة بن مسلم الباهلي فقالت من هذا فقالوا الحجاج بن قتيبة بن مسلم فأحبته وسألت عنه وقالت يامعشر العرب مالكم وفاء ولايصلح بعضكم بعضا قتيبة الذى ذلل لكم ماأرى وهذا ابنه تقعده دونك فحقه ان تجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه وعقدت الصلح ورجعت

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

في سنة احدى وعشرين غزا مروان بن محمد بأرمينية وهو واليها فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبى ودخل غوميك وهو حصن فيه بنت الملك وسريره فهرب الملك منه حتى أتى حصنا يقال له خيزج فيه سرير من ذهب فسار اليه مروان ونازله صيفيته وشتويته فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مد فصالحه وسار مروان فدخل أرض أزر وبطران فصالحه ملكها ثم سار في أرض تومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصنا له شهرا فصالحه ثم أتى مروان أرض مسداره فافتتحها على صلح ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من ارمينية الى طبرستان وفي هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير وفي هذه السنة قتل البطال واسمه عبد الله أبو الحسين الانطاكي وقتل معه جماعة من المسلمين ببلاد الروم وكان كثير الغزو الى الروم والاغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم حكى انه دخل بلادهم في بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلا وامرأة تقول لصغير لها يبكى تسكت والا سلمتك للبطال ثم رفعته بيدها وقالت خذه يابطال وكان قريبا منها ولم تعلم به فتناوله من يدها وكان عبدالملك بن مروان يرسله مع ابنه مسلمة الى بلاد الروم وأمره مرة

على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه مسلمة ان يجعله على مقدمته وطلائعه وقال انه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس وله قصص ووقائع كثيرة

﴿ ذكر صالح نصر بن سيار مع الصغد ﴾

في سنة ثلاث وعشرين ومائة صالح نصر بن سيار الصغد وسبب ذلك أن خاقان لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله تفرقت الترك في اغارة بعضها على بعض فطمع أهل الصغد في الرجعة اليها وانحاز قوم منهم الى الشاش فلما ولى نصر بن سيار أرسل اليهم يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا وكانوا يسألون شروطا أنكرها امراء خراسان منها ان لا يعاقب من كان مسلما فارتد عن الاسلام ولا يعدى عليهم في دين لاحد من الناس ولا يؤخذ اسراء المسلمين منهم الا بقضية قاض وشهادة عدول فعاب الناس ذلك على نصر وتكلموا فيه فقال لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك وأرسل رسولا الى هشام بن عبد الملك في ذلك فأجابه اليه وفي سنة أربع وعشرين ومائة غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقي أليون ملك الروم فهزمه وقتل وسبي وغنم وفي سنة خمس وعشرين توفي هشام بن عبد الملك وبويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأقر نصر بن سيار على خراسان ثم ثارت فتن بين أولاد عبد الملك وقتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين وبويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك وتوفي بعد ستة أشهر وبويع أخوه ابراهيم بن الوليد ثم خلع بعد سبعين يوما وبويع مروان بن محمد سنة سبع وعشرين فأقر نصر بن سيار على ولاية خراسان واستمر مروان بن محمد خمس سنين وعشرة أشهر وثارت الفتن بينه وبين بني العباس وقتل مروان بن محمد سنة اثنتين وثلاثين وعمره اثنتان وستون سنة وقامت الدولة العباسية وتفصيل ذلك كله طويل مذكور في التواريخ والقصد في هذا الكتاب ذكر الفتوحات التى فيها جهاد الكفار وفي مدة هذه الفتن انقطع الغزو والجهاد وانتشرت الفتن بين المسلمين في كل قطر واقليم

﴿ ذكر ملك الروم ملاطية ﴾

نشأ من الفتن التى كانت بين المسلمين في هذه السنين ان الروم طمعوا في البلاد فأقبل قسطنطين ملك الروم الى ملاطية وكمخ في سنة ثلاث وثلاثين في خلافة السفاح أول خلفاء بنى العباس فلما أقبل قسطنطين نازل كمخ فأرسل أهلها الى أهل ملطية يستنجدونهم فسار اليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلوهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم ملطية وحصروها وارسل قسطنطين الى أهل ملطية انى لم أحصركم الا على علم من المسلمين

واختلافهم ناكم الامان وتعودون الى بلاد المسلمين حتى احترث ماطية فلم يجيبوه الى ذلك فنصب المجانيق فاذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ما أمكنهم حمله ومالم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجارى وساو ملك الروم الى قاليقلا فنزل مرج الحصى وارسل كوشان الارمنى فحصرها فنقب اخوان من الارمن من أهل المدينة ردما كان في سورها فدخل كوشون ومن معه المدينة فغلبوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا النساء وساق الغنائم الى ملك الروم وفي هذه السنة كان متوليا على خراسان أبو مسلم القائم بدعوة بنى العباس فوجه أبا داود خالد بن ابراهيم الذهلى الى الختل فدخلها فلما انتهى الى أرض فرغانة تخالف اخشيد فرغانة وملك الشاش واستمد اخشيد ملك الصين فأمده بمائة الف مقاتل فحصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين وبلغ الخبر أبامسلم فوجه الى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا وهرب الباقون الى الصين

﴿ذكر غزوة كش﴾

في سنة أربع وثلاثين غزا أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلى أهل كش فقتل ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه وأخذ منهم من الاوانى الصينية المنقشة المذهبة مالم يرمثلها ومن السروج ومتاع الصين من الديباج والطرف شيأ كثيرا وحمله الى أبى مسلم وهو بسمرقند وقتل عدة من دهاقينهم ورجع أبو داود الى بلخ وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبدالله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى بعد أن غزا أيضا تلمسان وفي سنة ست وثلاثين توفي السفاح وبويع أخوه المنصور وقتل أبا مسلم سنة سبع وثلاثين وولى خراسان بعدقتل أبى مسلم أبا داود خالد بن ابراهيم الذهلى وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم الى بلادالاسلام فدخل ملطية عنوة وغلب وقهر أهلها وهدم سورها وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية فبعث المنصور أخاه العباس بن محمدبن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ومعه صالح بن على وعيسى بن على في جيش فبنوا ماكان ملك الروم أخربه من سور ملطية ثم غزوا الصائفة سنة تسع وثلاثين ومائة من درب الحدث فوغلوا في أرض الروم وغزا مع صالح اختاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى امية ان تجاهدا في سبيل الله وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة المهرانى وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها وردأهلها اليها وندب اليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم فأقاموا فيها وحموها ولم يكن بعد ذلك صائفة الى سنة ست وأربعين

لاشتغال المنصور بالفتنة التي كانت بينه وبين بني عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب وقيل ان الحسن بن تحطبة غزا الصائفة سنة أربعين مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فاحجم عنهم ثم لم يكن بعدها صائفة الى سنة ست وأربعين لكن حصات وقائع وغزوات بخراسان وغيرها في هذه المدة كما سترى ذلك وفي سنة تسع وثلاثين ومائة كان دخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاندلس وتملكها فخرجت الاندلس عن ولاية بني العباس وقصة تملك عبد الرحمن الداخل الاندلس طويلة ملخصها انه لما قامت الدولة العباسية أخذوا يتتبعون بني أمية قتلا فهرب عبد الرحمن المذكور مختفياً ومازال يتنقل حتى دخل الاندلس وكان بالاندلس رجال من بقايا عمال بني أمية ومواليهم فأعانوه حتى انتزع الاندلس من عمال بني العباس بعد حروب كثيرة واستفحل ملكه وملك بنيه بعده بالاندلس وكان دخوله الاندلس في خلافة المنصور العباسي وكان المنصور يعجب من أمره ويسميه صقر قريش وأراد استرجاع الاندلس من يده فلم يتمكن له ذلك والكلام على ذلك طويل ذكرته في التاريخ الذي جمعته في أخبار الاندلس ملخصا من نفح الطيب وغيره ولما استقامت أموره وتمكنت دولته بلغه عن بعض من أعانه أنه يقول لولا انا ماتوصل لهذا الملك وكان منه أبعد من النجم وقال قائل آخر انما أعانه سعده لاعقله وتدبيره فحركه ذلك الى ان قال

لايأنف ممتن علينا قائل ... لولاى ماملك الامام الداخل
سعدى وحزمي والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ان لايغفلوا ... ايروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لاعقله ... خير السعادة ماحواها العاقل
ابني أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلي امام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

وما زال مستمرا في ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر الى أن توفي سنة ١٧٢ وعمره تسع وخمسون سنة واستمر الملك في بنيه الى أواخر القرن الرابع وسيأتي ذكر كثير من غزواته وفتوحاتهم ولنرجع الى تمام الكلام على فتوحات بني العباس ففي سنة ١٤٠ مات أبو داود خالد بن ابراهيم الدهلي عامل خراسان وأقيم مقامه عبد الجبار بن عبد الرحمن

الازدى ثم ظهر منه مخالفة وعصيان وأراد خلع المنصور فجهز المنصور في سنة احدى وأربعين ابنه المهدى وعمره نحو خمس عشرة سنة ومعه جيش فأسر عبد الجبار وبعث به الى المنصور فقتله وصارت ولاية خراسان للمهدى بن المنصور وكان كثير من أهل خراسان قد نقضوا لما تغيرت الدولة واسترجع بعض الكفار ما كان لهم من الملك فكتب المنصور الى ابنه المهدى ان يغزو طبرستان

﴿ ذكر غزوة طبرستان ﴾

في سنة احدى وأربعين ومائة كتب المنصور الى ابنه المهدى وهو على خراسان أن يغزو طبرستان وينزل الرى و يوجه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود الى الاصبهبذ وكان الاصبهبذ يومئذ محاربا للمصمغان ملك دنباوند معسكرا بازائه فلما بلغه دخول جنود الاسلام بلاده ودخول أبى الخصيب سايره فقال المصمغان للاصبهبذ متى قهروك صاروا الى فاجتمعوا على حرب المسلمين فانصرف الاصبهبذ الى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب فوجه المنصور عمر بن العلاء الى طبرستان وكان عالما ببلاد طبرستان فاخذ الجنود وقصد الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وسار الاصبهبذ الى قلعته فحصر فطلب الامان على ان يسلم القلعة بما فيها من الذخائر وكتب المهدى الى المنصور بذلك فوجه المنصور رجالا احصوا ما في الحصن وانصرفوا ودخل الاصبهبذ بلاد جيلان من الديلم وأخذت ابنته وقصدت الجنود بلد المصمغان فظفروا به وبالبحيرة أم منصور بن المهدى وفي سنة ثنتين وأربعين ومائة خلع الطاعة عيينة بن موسى بن كعب عامل السند فبعث المنصور عمر بن أبى حفص العتكى عاملا على السند والهند فسار وغلب عليها بعد حروب

﴿ ذكر نكث الاصبهبذ ﴾

في سنة ثنتين وأربعين ومائة نكث الاصبهبذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم فلما انتهى الخبر الى المنصور سير مولاه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة وروح بن حاتم فاقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه فلما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب في ذلك فقال لاصحابه اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ففعلوا ذلك ولحق بالاصبهبذ فقال له فعل بى هذا تهمة منهم لى ان يكون هوى معك وأخبره انه معه وانه دليل على عورة عسكرهم فقبل ذلك الاصبهبذ وجعله في خاصته والطفه وكان باب حصنهم من حجر يلقى القاء يرفعه الرجال وتضعه عند فتحه واغلاقه وكان الاصبهبذ يوكل به ثقات أصحابه

نوبا بينهم فلما وثق الاصبهبذ الى أبي الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه واغلاقه حتى أنس به ثم كتب أبو الخصيب الى روح وخازم والقى الكتاب في سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة في فتح الباب فلما كانت تلك الليلة فتح لهم فقتلوا من في الحصن من المقاتلة وسبوا الذرية وأخذوا اسكلا أم ابراهيم ابن المهدى وكان مع الاصبهبذ سم فشربه ومات

ذكر نكث الديلم

في سنة ثلاث وأربعين نكث الديلم وثاروا بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فبلغ ذلك المنصور فندب الناس الى قتال الديلم وجهادهم فساروا اليهم وقاتلوهم حتى أخضعوهم سنة أربع وأربعين وفي سنة خمس وأربعين كان ابتداء بناء مدينة بغداد وانتقل المنصور اليها سنة ست وأربعين وفيها خرجت الترك والخزر بباب الابواب فقتلوا من المسلمين بارمينية جماعة كثيرة وفي سنة ست وأربعين غزا الصائفة جعفر بن حنظلة البهرانى وغزا مالك بن عبد الله الخثعمي بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة وفي سنة سبع وأربعين أغار استرخان الخوارزمي في جمع من الترك على المسلمين بناحية ارمينية وسبى من المسلمين خلقا ودخلوا تفليس فسير المنصور الى محاربتهم جبرائيل بن يحيي وحرب بن عبد الله في جند كثير فقاتلوهم فهزم جبرائيل وقتل حرب وقتل من أصحاب جبرائيل خلق كثير وفي سنة تسع وأربعين غزا العباس بن محمد أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الاشعث وأغزا عبد الرحمن الداخل صاحب الاندلس مولاه بدرا الى بلاد العدو فجاوز اليه وأخذ الجزية

ذكر خروج استاذسيس

في سنة خمسين ومائة خرج استاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان وساروا حتى التقوا هم وأهل مرو الروذ فخرج اليهم الاجثم المروذى في أهل مرو الروذ فقاتلوه قتالا شديدا فقتل الاجثم وكثر القتل في أصحابه وهزم عدة من القواد فوجه المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدى فولاه المهدى محاربة استاذسيس وضم اليه القواد فسار خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم في أخريات الناس يكثر بهم من معه وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفا ثم انتخب منهم ستة آلاف وضمهم الى اثنى عشر ألفا كانوا معه من المنتخبين وكان بكار بن سلم العقيلي فيمن انتخب وتعبي للقتال وكان لؤلؤة مع الزبرقان فمكر بهم وراوغهم في ان ينقلهم من موضع الى موضع وخندق الى خندق حتى قطعهم ثم سار خازم الى موضع فنزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه وجعل له أربعة أبواب وجعل

على كل باب ألفا من أصحابه الذين انتخبوا وأتى أصحاب استاذسيس ومعهم الفوس والرازة والزبل ليطموا الخندق فاتوا الخندق من الباب الذى عليه بكار بن سلم فحملوا على أصحاب بكار حملة هزموهم بها فرمى بكار بنفسه فترجل على باب الخندق وقال لاصحابه لايؤتى المسلمون من ناحيتنا فترجل معه من أهله وعشيرته نحو خمسين رجلا وقاتلوهم حتى ردوهم من بابهم ثم أقبل على الباب الذى عليه خازم رجل من أصحاب استاذسيس اسمه الحريش وهو الذى كان يدبر أمرهم فلما رآه خازم مقبلا بعث الى الهيثم بن شعبة وكان في الميمنة يأمره ان يخرج من الباب الذى عليه بكار فان من بازائه قد شغلوا عنهم ويسير حتى يغيب عن أبصارهم ثم يرجع من خلف العدو وقد كانوا يتوقعون قدوم أبى عون وعمرو بن مسلم بن قتيبة من طخارستان وبعث خازم الى بكار يقول له اذا رأيت رايات الهيثم قدجاءت فكبروا وقولوا قد جاء أهل طخارستان ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم في القلب على الحريش يشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض فبيناهم على ذلك نظروا الى اعلام الهيثم قد أقبلت فتنادوا بينهم جاء أهل طخارستان وحمل أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم فطعنوهم بالرماح ورموهم بالنشاب وخرج نهار بن حصين من ناحية الميسرة وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف فقتلهم المسلمون فأكثروا فكان عدد من قتل سبعين ألفا وأسروا أربعة عشر ألفا ونجا استاذسيس الى جبل في نفر يسير فحصرهم خازم وقتل الاسرى ووافاه أبو عون وعمرو بن سلم ومن معهما فنزل استاذسيس على حكم أبى عون فحكم ان يوثق استاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد وان يعتق الباقون وكانوا ثلاثين الفا فامضى خازم حكمه وكسى كل رجل ثوبين وكتب الى المهدى بذلك فكتب المهدى الى المنصور وقد قيل ان أستاذسيس قد ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل قيل انه جد المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون وفي هذه السنة قدم المهدى من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنؤه بمقدمه فأجازهم وحباهم وكساهم وفعل بهم المنصور مثل ذلك وبنى له الرصافة وفيها غزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ابن محمد بن على وفي سنة ثنتين وخمسين ومائة استعمل المنصور على خراسان حميد بن قحطبة فغزا كابل وغزا الصائفة عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام وفي سنة ثلاث وخمسين غزا الصائفة معيوف بن يحيي فوصل الى حصن من حصون الروم ليلا وأهله نيام فسبي وأسر من كان فيه ثم قصد اللاذقية الخراب فسبي منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين وفي سنة أربع وخمسين غزا الصائفة زفر بن

عاصم الهلالى فبلغ الفرات وفي سنة خمس وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى وفيها طلب ملك الروم الصلح الى المنصور على ان يؤدى الجزية وفي سنة ست وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى وفي سنة سبع وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى فسبى وغنم وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور وبويع ابنه محمد المهدى وغزا الصائفة معيوف بن يحيي من درب الحدث فلقي العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا.وفي سنة تسع وخمسين غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية فبلغوا القره وفتحوا مدينة للروم ومطمورة ولم يصب من المسلمين أحد ورجعوا سالمين

﴿ ذكر فتح مدينة باربد بالهند ﴾

في سنة ستين ومائة فتحت مدينة باربد وكان المهدى سير في سنة تسع وخمسين جيشا في البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعى الى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمتطوعة وفيهم الربيع بن صبيح فساروا حتى نزلوا على باب باربد فلما نازلوها حصروها من نواحيها وحرض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة واحتمى أهلها بالبد الذى لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقتل الباقون واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا وأفاءها الله عليهم وفي سنة ستين أيضاً غزا ثمامة بن العبس الصائفة وغزا الغمر بن العباس الخثعمى بحر الشام وفي سنة احدى وستين غزا الصائفة ثمامة ابن الوليد فنزل بدابق وجاشت الروم في ثمانين الفا فأتى ثمامة عمق مرعش فقتل وسبى وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم وقتل من المسلمين عدة كثيرة وكان عيسى بن على مرابطا بحصن مرعش فانصرف الروم الى جيحان وبلغ الخبر المهدى فعظم عليه وتجهز لغزو الروم كما سنذكره وفي سنة اثنتين وستين خرجت الروم الى الحدث فهدموا سورها وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ اذروليه وأكثر التحريق والتخريب في بلاد الروم ولم يفتح حصنا الا لقى جمعا ورجع الناس سالمين وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمى من ناحية قاليقلا فغنم وافتتح ثلاثة حصون وسبى

﴿ ذكر غزو المهدى ﴾

في سنة ثلاث وستين تجهز المهدى لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الاجناد من خراسان وغيرها وسار عنها واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادى وعمره نحو عشرين سنة واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وعمره نحو سبع عشرة سنة وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات الى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من تلك الناحية من الزنادقة

فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم وسار عنها مشيعا لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان فسار هارون بالجيش حتى نازل حصن سمالوا فحصروه ثمانية وثمانين يوما ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالامان ووفى لهم وفتحوا فتوحا كثيرة ورجعوا ولما عاد المهدى من الغزاة زار بيت المقدس وفي سنة أربع وستين ومائة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد ابن زيد بن الخطاب من درب الحدث فأتاه ميخائيل البطريق في تسعين الفا فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم فاراد المهدى قتله فشفع فيه فحبسه وفي هذه السنة غزا عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس بلاد الافرنج فدوخها ونهب وسبى وبلغ قلهرة وفتح مدينة فكيرة وهدم قلاع تلك الناحية وسار الى بلاد البشكنس ونزل على حصن مثمين الاقرع فافتتحه ثم تقدم الى ملدوثون بن اطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبالها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربوها ثم رجعوا

﴿ ذكر غزو هرون الرشيد الروم ﴾

في سنة خمس وستين سير المهدى ابنه هارون الرشيد لغزو الروم في خمسة وتسعين الفا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلا فأوغلوا في بلاد الروم ولقيهم عسكر نقيطا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد الشيبانى فأثخنه يزيد وانهزمت الروم وغلب المسلمون على عسكرهم وساروا الى الدستق وهو صاحب المسالح أى الثغور فحمل لهم مائة الف دينار وثلاثة وتسعين الفا وأربعمائة وخمسين دينار ومن الفضة احدى وعشرين الف الف درهم وأربعة عشر الفا وثمانمائة درهم وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية وملك الروم يومئذ عطسة امرأة أليون وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية وان تقيم له الادلاء والاسواق في الطريق وذلك انه دخل مدخلا ضيقا مخوفا فأجابته الى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة ورجع عنها وكانت الهدنة ثلاث سنين وكان مقدار ما غنم المسلمون الى ان اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبي وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين الف رأس وذبح من البقر والغنم مائة الف رأس وقتل من الروم في الوقائع قبل الصلح أربعة وخمسون الفا وقتل من الاسرى الفان وتسعون أسيرا وفي سنة ثمان وستين ومائة نقض الروم الصلح فوجه على بن سليمان وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن البدر بن البطال فغنموا وظفروا وفي سنة تسع وستين ومائة توفي المهدى وبويع ابنه موسى الهادى وغزا الصائفة معيوف بن يحيي من طريق الراهب وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤا مع بطريقهم الى الحديثة فهرب الوالى وأهل السوق

فدخلها الروم فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى وفي سنة سبعين ومائة توفي الهادى وبويع أخوه هارون الرشيد واستمر الى سنة ثلاث وتسعين ومائة فكانت مدته ثلاثا وعشرين سنة وكان يحج سنة ويغزو سنة وفي سنة احدى وسبعين توفي عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام صاحب الاندلس وكانت دولته بالاندلس ثلاثا وثلاثين سنة ثم صار الملك لاولاده بعده فقام بالامر بعده ابنه هشام وفي سنة أربع وسبعين غزا الصائفة عبد الملك بن صالح الهاشمي من قبل هارون الرشيد وفي سنة خمس وسبعين غزاها ابنه عبد الرحمن بن عبدالملك ابن صالح وفيها سار هشام بن عبد الرحمن صاحب الاندلس الى بلاد الفرنج فقصد ألبة والقلاع فلقيه العدو فظفر بهم وقتل منهم خلقا كثيرا وفتح الله عليه وفي السنة التي بعدها غزا عبدالملك ابن عبد الواحد ففعل مثل ذلك وكذا في سنة سبع وتسعين فدخلوا بلاد العدو فبلغوا اريونة وجرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها الى أريونة ففعل مثل ذلك وأوغل في بلادهم ووطئ أرض برطانية فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهورا يخرب الحصون ويحرق وينهب قد أجفل العدو من بين يديه هاربا وأوغل في بلادهم ورجع سالما معه من الغنائم مالا يعلمه الا الله تعالى وهي من أشهر مغازى المسلمين بالاندلس وفعل مثل ذلك في السنتين اللتين بعدها وتوفي هشام صاحب الاندلس سنة ثمانين ومائة وقام بالامر بعده ابنه الحكم ومن غزوات الرشيد الشهيرة غزوة أرض الروم في سنة احدى وثمانين فتح فيها حصن الصفصاف وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم فبلغ انقرة وافتتح مطمورة وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة الاسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة غزا الصائفة عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح فبلغ افسوس مدينة أصحاب الكهف

﴿ ذكر غزو الخزر بلاد الاسلام ﴾

في سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر من باب الابواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمرا عظيما لم يسمع بمثله فولى الرشيد أرمينية ليزيد بن مزيد الشيبانى مضافا الى اذربيجان ووجه اليهم فظفر بهم وفي سنة ست وثمانين ومائة ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالاندلس وأخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم اليها وتأخر المسلمون الى ورائهم وكان سبب ملكهم اياها اشتغال المسلمين بفتنة كانت بينهم

﴿ ذكر غزو الروم ﴾

وحيث ذكر الروم هنا وفيما تقدم وفيما يأتى فالمراد بهم النصارى اليونان الذين كان لهم ملك

القسطنطينية وهم غير النصارى المعروفين بالافرنج كالفرلسيس وانكلترا وفي سنة سبع وثمانين ومائة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فاناخ على قرة وحصرها ووجه العباس ابن جعفر بن محمد بن الاشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها فبعث اليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيرا من المسلمين على ان يرحل عنهم فاجابهم ورحل عنهم صلحا وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ريني فخلعها الروم وملكت نقفور فكتب نقفور الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها والا فالسيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد ان ينظر اليه دون ان يخاطبه وتفرق جلساؤه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديدا فأمن رجعة الرشيد اليه فلما جاء الخبر بنقضه ما جسر أحد على اخبار الرشيد خوفا على أنفسهم من العود في مثل ذلك البرد وأشفاقا من الرشيد فاحتيل له بشاعر من أهل جنده فقال أبياتا منها

نقض الذي أعطيته نقفور … فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فانه … فتح أتاك به الاله كبير

فتح يزيد على الفتوح يؤمنا … بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال أوقد فعل ذلك نقفور فرجع الى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم فأقام بها حتى شفي واشتفى وبلغ ما أراد ورجع وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة تطيلة بالاندلس فتجهز الحكم صاحب الاندلس وسير العسكر مع ابن عم له فلقي المشركين وقاتلهم ففض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ونجا الباقون منهزمين وفي سنة ثمان وثمانين ومائة غزا ابراهيم بن جبرائيل الصائفة فدخل أرض الروم فخرج اليه نقفور ملك الروم واقتتلوا وقتل من الروم أربعون الفا وسبعمائة وفي سنة تسع وثمانين كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم

ذكر فتح هرقلة وقبرس وغيرهما

في سنة تسعين غزا هارون الرشيد الروم في مائة الف وخمسة وثلاثين الفا من المرتزقة سوى الاتباع والمتطوعة وفتح هرقلة واخربها ووجه داود بن عيسى سائرا في أرض الروم في سبعين الفا يخرب وينهب ففتح الله عليه وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف ومقدونية واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرس وكانوا قد نقضوا العهد فهدم واحرق وسبى من أهلها سبعة عشر الفا ثم سار الرشيد الى طوانة فنزل بها وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك وكتب نقفور الى الرشيد في جارية من سبى هرقلة كان خطبها لولده فأرسلها اليه

ذكر غزو الفرنج بالاندلس

في سنة احدى وتسعين ومائة تجهز لذريق ملك الفرنج بالاندلس وجمع جموعه ليسير الى مدينة طرطوشة ليحصرها فبلغ ذلك الحكم صاحب الاندلس فجهز العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن فاجتمعوا في جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة فسار فلقوا الافرنج في اطراف بلادهم قبل ان ينالوا من بلاد المسلمين شيأ فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفذوا معه فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتال فيهم والاسر ونهبت أموالهم وأثقالهم وعاد المسلمون ظافرين غانمين وفي هذه السنة غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلا وسلم الباقون وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس التى في الثغور وألزم أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم وفي سنة اثنتين وتسعين تحركت الخرمية بناحية اذربيجان فوجه اليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر فأمره الرشيد بقتل الاسرى وبيع السبي وفي هذه السنة كان الفداء الثانى بين المسلمين والروم وكان عدة الاسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير وفي سنة ثلاث وتسعين توفي هارون الرشيد وبويع ابنه الأمين ثم وقع الاختلاف بينه وبين أخيه المأمون الى ان قتل الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة وكان المأمون بخراسان فبويع وقدم العراق سنة اثنين ومائتين وقيل سنة أربع

ذكر الغزو بالاندلس الى بلاد الفرنج

في سنة مائتين جهز الحكم صاحب الاندلس جيشا مع وزيره عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعا وصل الى غيره فاستخرج خزائن ملوكهم فلما رأى ملكهم

فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب فاقبل في جموع عظيمة بإزاء عسكر المسلمين وبينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام والمسلمون يريدون ان يعبروا النهر وهم يمنعون المسلمين من ذلك فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون اليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون الى النهر فاخذهم السيف والاسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من ملوكهم وقامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما يقتتلون كل يوم فجاءت الامطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم وفي سنة احدى ومائتين وقع انتقاض في الديلم فسير المأمون عبد الله بن خرداذبه والى طبرستان فافتتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم وأشخصه الى المأمون وفي سنة ست ومائتين توفي الحكم صاحب الاندلس وقام بالامر بعده ابنه عبد الرحمن الاوسط وفي هذه السنة غزا المسلمون من افريقية جزيرة سردانية فغنموا وأصابوا من الكفار وأصيب منهم ثم عادوا وفي سنة ثمان ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى الافرنج واستعمل عليه الوزير عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فساروا الى البة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال واطلاق الاسرى من المسلمين فغنم أموالا جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيرا وعادوا سالمين وفي سنة عشر ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم أيضاً جيشا الى بلاد الافرنج واستعمل عليه ابنه عبيد الله المعروف بابن البلنسي فسار ودخل بلاد العدو وتردد فيها بالغارات والسبي والقتل والاسر ولقي جيوش الاعداء في ربيع الاول فاقتتلوا وانهزم المشركون وكثر القتل فيهم وكان فتحا عظيما وفيها افتتح عسكر سيره عبد الرحمن أيضاً حصن القامة من أرض العدو وتردد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان وفي سنة ثنتي عشرة ومائتين سير عبد الرحمن أيضاً جيشا الى بلاد الافرنج فوصلوا الى برشلونة ثم ساروا الى جرنده وقاتل أهلها فأقام الجيش شهرين ينهبون ويقتلون ويخربون ثم رجعوا وفي هذه السنة سير زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب عامل المأمون على افريقية جيشاً في البحر الى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها فلما وصلوا اليها ملكوا كثيرا منها ثم أمد الروم قسطنطين ملكهم بجيوش ووقعت وقائع كثيرة ثم كان النصر للمسلمين وقتلوا من الروم خلقا كثيراً

ذكر غزوة المأمون الى الروم

في سنة خمس عشرة ومائتين سار المأمون الى الروم في المحرم وانتهى الى طرسوس ودخل منها بلاد الروم في جمادى الاولى ودخل ابنه العباس من ملطية فاقام المأمون على حصن قرة حتى افتتحه عنوة وهدمه وقيل ان أهله طلبوا الامان فأمنهم وفتح قبله حصن ماجدة ووجه اشناس الى حصن سندس فأتاه برئيسه ووجه عجيف بن عنبسة وجعفر الخياط الى صاحب حصن سناذ فسمع وأطاع ثم رجع المأمون وفي سنة ست عشرة ومائتين عاد المأمون الى بلاد الروم وسبب ذلك انه بلغه ان ملك الروم قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة فسار حتى دخل أرض الروم وقيل ان سبب دخوله ان ملك الروم كتب اليه بدأ بنفسه فسار ولم يقرأ كتابه فلما دخل أرض الروم أناخ على انطيعوا فخرجوا على صلح ثم سار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصنا ومطمورة ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فاغار وقتل وأحرق وأصاب سبيا ورجع ثم سار المأمون الى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل الى دمشق ثم الى مصر ثم رجع الى الروم سنة سبع عشرة ومائتين فاناخ على لؤلؤة وهي اسم لحصن مائة يوم ثم رحل عنها وترك عجيفا عليها فخدع وأسر ثمانية أيام ثم أطلق ثم جاء ملك الروم فأحاط بعجيف فبعث اليه المأمون الجنود فارتحل ملك الروم وخرج أهل لؤلؤة الى عجيف بأمان وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك وفي سنة ثماني عشرة ومائتين توفي المأمون وهو في بلاد الروم عند نهر البدندون وحمل الى طرسوس فدفن بها وبويع أخوه المعتصم بوصية منه وعهد اليه وفي هذه السنة دخل كثير من أهل الجبال وهمذان واصفهان وماسبذان وغيرها في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان فوجه اليهم المعتصم العساكر وعليهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب فأوقع بهم في اعمال همذان وقتل منهم ستين ألفا وهرب الباقون الى بلاد الروم والخرمية فرقة من المجوس يعتقدون مذهب التناسخ وان الارواح تنتقل من حيوان الى غيره والرجل منهم ينكح أمه وأخته وبنته ورئيسهم بابك الخرمي وكان للمعتصم معهم وقائع يطول الكلام بذكرها الى ان أباد كثيرا منهم بالقتل والاسر

﴿ ذكر خروج الروم الى زبطرة ﴾

في سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج ملك الروم الى بلاد الاسلام وأوقع باهل زبطرة وغيرها قيل انه خرج في مائة ألف وقيل أكثر من ذلك فقتل أهل زبطرة الرجال وسبي الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبي المسلمات ومثل

بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم فنفر الى قتالهم أهـل الثغور من الشام والجزيرة الا من لم يكن له دابة ولا سلاح

﴿ ذكر فتح عمورية وهى بروسة ﴾

لمـا خرج ملك الروم وفعل في بلاد الاسلام مافعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة في أيدى الروم وامعتصماه فاجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير وبلغه ان عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية فتجهز بمـا لم يعهد من السلاح وحياض الادم وغير ذلك وفرق عساكره ثلاث فرق فخربوا بلاد الروم وقتلوا كثيرا وأحرقوا ووصلوا الى انقورية ثم اجتمعوا في عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غاية الحصانة وقد ذكر الشيخ محى الدين بن العربى في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين وسبب فتحها ان رجلا وقف على المعتصم فقال ياأمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء سيرة قد لطمها عاج في وجهها فنادت وامعتصماه فقال العاج وما يقدر عليه المعتصم يجيء على ابلق ينصرك وزاد في ضربها فقال المعتصم وفي أى جهة عمورية فقال له الرجل هكذا وأشار الى جهتها فرد المعتصم وجهه اليها وقال لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله أجابك ثم تجهز اليها في اثنى عشر ألف فرس أبلق وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبو تمام حبيب الطائى

لبيت صوتا زطبيا قد هرقت له ... كاس الكرى ورضاب الخرد العرب

فلما حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له انا نرى انك ماتفتحها الا في زمان نضج العنب والتين فبعد عليه ذلك واغتم لذلك فخرج ليلة متجسسا في العسكر يسمع مايقول الناس فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيـل وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة يضرب نعال الخيل ويقول في رأس المعتصم فقال له معلمه اتركنا من هذا مالك والمعتصم فقال ماعنده تدبير له كذا وكذا يوم على هـذه المدينة مع قوته ولا يفتحها لو أعطانى الامر مابات غدا الا فيها فتعجب المعتصم مما سمع وانصرف الى خيامه وترك بعض رجاله موكلا بالغلام فلما أصبح جاؤا به فقال ماحملك ياهذا على مابلغنى عنك فقال الذى بلغك حق ولنى ماوراء خبائك وقد فتح الله عمورية فقال قد وليتك وخلع عليه وقدمه على الحرب فجمع الرماة واختار منهم أهل الاصابة وجاء الى بدن من أبدان الصور وفي البدن من أوله الى آخره خط اسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر فحمى السهام بالنار وقال للرماة من

أخطأ منكم ذلك الخط الاسود ضربت عنقه واذا بذلك الخط خشب ساج فعند ماحصلت فيه السهام المحمية قام النار فيه واحترق فنزل البدن كما هو وتحامى الرجال ودخل البلد بالسيف وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجمون وفي ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائى في قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتحه عمورية

السيف أصدق أنباء من الكتب　　في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في　　متونهن جلاء الشك والريب

الى آخر ماذكره في القصيدة فلما دخلها ومعه الرجل الذى بلغه حديث الجارية قال له سرلى الى الموضع الذى رأيتها فيه فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها ياجارية هل أجابك المعتصم وملكها العلج الذى لطمها والسيد الذى كان يملكها وجميع ماله وأخذ السيف الروم وأقبل الناس بالاسرى والسبى من كل وجه وأقام عليها خمسة وخمسين يوما وفرق الاسرى على القواد وسار الى نحو طرسوس ثم رجع الى دار ملكه

﴿ ذكر غزوات زيادة الله بن ابراهيم بن الاغاب عامل افريقية ﴾

قد تقدم ذكر غزوة من غزواته سنة ثنتى عشرة ومائتين ثم كانت له غزوة في سنة ثلاث عشرة وكذا في سنة أربع عشرة وهكذا الى سنة ثلاث وعشرين ومائتين والكلام على تفصيل تلك الغزوات طويل وفي أكثرها كان النصر للمسلمين وتوفي زيادة الله المذكور سنة ثلاث وعشرين وولى بعده أخوه الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب وسير سرية سنة أربع وعشرين الى صقلية فغنمت وسلمت وفي سنة خمس وعشرين استأمن عدة حصون الى المسلمين من جزيرة صقلية منها حصن البلوط وقرلوره ومرو وسار اسطول المسلمين الى قلوريه ففتحها ولقى اسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فعاد الاسطول الى القسطنطينية مهزوما فكان فتحا عظيما وفي سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية الى قصريانة فغنمت واحرقت وسبت فلم يخرج اليهم أحد فسارت الى حصن الغيران وهو أربعون غارا فغنمت جميعها وفي سنة ثلاث وعشرين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا الى البة والقلاع فنزلوا حصن الفرات وغنموا مافيه وقتلوا أهله وسبوا النساء والذرية وعادوا وسير جيشا أيضاً في سنة أربع وعشرين فكان بينهم وبين المشركين حرب شديد فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصي وفعل مثل ذلك سنة خمس وعشرين ومائتين وفي سنة أربع وعشرين نقض كثير من أهل طبرستان فجهز المعتصم عليهم الجيوش وقاتلهم وقتل كثيرا منهم وأسر آخرين حتى رجعوا الى الطاعة وتوفي المعتصم

سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع ابنه الواثق وفي هذه السنة سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشاً الى أرض العدو فلما كانوا بين اربونة وشرطانية تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم وفي هذه السنة أيضاً سير عبد الرحمن بن الحكم جيشاً وجعل عليه عبدالله المعروف بابن البلنسى الى بلاد العدو فوصلوا الى البة والقلاع فخرج اليه المشركون في جمعهم وكان بينهم حرب شديد وقتال عظيم فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وجمعت الرؤس أكداسا أى مجموعا بعضها فوق بعض حتى كان الفارس لايرى من يقابله وفيها خرج ملكهم لذريق في عسكره وأراد الغارة على مدينة سالم من الاندلس فسار اليه فرتون بن موسى في عسكر جرار فلقيه وقاتله فانهزم لذريق وكثر القتل في عسكره وسار فرتون الى الحصن الذى كان بناه أهل البة ورآه ثغور المسلمين فحصره وافتتحه وهدمه

ذكر غزوات بافريقية

وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين غزا في البحر بافريقية الفضل بن جعفر الهمدانى فنزل مرسى مسينى وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وصاروا معه وقاتل الفضل الروم الذين بهامدة سنتين واشتد القتال فلم يقدر على أخذها فمضى طائفة من العسكر واستداروا خلف جبل مطل على المدينة فصعدوا اليه ونزلوا الى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه فلما رأى أهل البلد ان المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح البلد وفتح أيضاً مدينة مسكان وفي سنة تسع وعشرين ومائتين خرج أبو الاغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ شرة فقاتله أهلها قتالا شديدا فانهزمت الروم وقتل منهم مايزيد على عشرة آلاف رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية مثلها وفي سنة أثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مسينى فأخبر الفضل ان أهل مسينى كاتبوا البطريق الذى بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم ان العلامة عند وصولى ان توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلانى فاذا رأيتم ذلك في اليوم الرابع أصل اليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال فلما رأى أهل مسينى النار أخذوا في أمرهم واعد الفضل ماينبغي ان يستعد به وكمن الكمناء وأمر الذين يحاصرون المدينة ان ينهزموا الى جهة الكمين فاذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فاذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسينى وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد أحد

الاخرج فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم ووضعوا السيف فيهم فلم ينج منهم الا القليل فسألوا الامان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة فأجابهم المسلمون الى ذلك وأمنوهم وسلموا المدينة وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم فارسوا بمرسى الطين وخرجوا ليغيروا واضلوا الطريق فرجعوا خائبين وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين صالح أهل رغوس وسلموا المدينة الى المسلمين بما فيها فهدمها المسلمون وأخذوا منها ماأمكن حمله وفي سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين الى المدينة قصريانة فغنموا وسبوا واحرقوا وقتلوا في أهلها وكان الامير على صقلية للمسلمين محمد بن عبدالله بن الاغلب وكان مقيما بمدينة بلرم ولم يخرج منها وانما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم وكانت امارته عليها تسع عشرة سنة وتوفي سنة ست وثلاثين ومائتين وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن بن الحكيم صاحب الاندلس جيشا عليهم الحارث بن بزيغ لقتال الافرنج فوقع القتال وأصاب الحارث ضربة في وجهه قلعت عينه ثم اسر فجهز عبد الرحمن بن الحكم جيشا واستعمل عليه ابنه محمدا فأوقع بالافرنج وقتل ملكهم غرسية وكثيرا من قومه واطلق الحارث ابن بزيغ وفي سنة ثلاثين ومائتين خرج جماعة كثيرون في بحر الاندلس من المجوس وأوقعوا بالمسلمين في مدائن كثيرة فجهز عليهم عبد الرحمن بن الحكم جيوشا كثيرة مع قواده فقاتلوا المجوس قتالا شديدا وهزموهم وقتلوا كثيرا منهم في وقائع كثيرة وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين بعث الواثق جيشا لقتال الروم فقصدوا جليقية وقتلوا واسروا وسبوا وغنموا ثم قصدوا مدينة اليون فحصروها ورموها بالمجانيق فخاف أهلها فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين فغنم المسلمون منهم ماأرادوا وخربوا البلاد ولم يقدروا على هدم سورها لأن عرضه سبع عشرة ذراعا فتركوه ومضوا وقد ثلموا فيه ثلما كثيرا وفي هذه السنة أمر الواثق بفداء المسلمين واجتمع المسلمون والروم على نهر اللامس وأحضر المسلمون من معهم من الاسرى وأحضر المشركون من معهم من الاسرى وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الاسير فيطلق الروم الاسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر ويأتي كل الى أصحابه فاذا وصل الاسير الى المسلمين كبروا واذا وصل الاسير الى الروم صاحوا حتى فرغوا وكان النهر مخاضة تعبره الاسرى وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا ومن النساء والصبيان ثمانمائة نفس والملحق بالمسلمين من أهل الذمة مائة نفس ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد ابن سعيد بن مسلم الباهلي المقدم في أمر الفداء شاتيا فأصاب الناس ثلج ومطر فمات من المسلمين مائتا

نفس واسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير وجاء بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لاحمدان عسكرا فيه سبعة آلاف لاتتخوف عليهم فان كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم ففعل وغنم نحوا من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ورجع فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعى وتوفي الواثق سنة اثنين وثلاثين وبويع أخوه المتوكل ابن المعتصم وفي سنة خمس وثلاثين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس جيشا كثيرا لقتال الافرنج فبلغوا البة وغنموا وظفروا وفي سنة ست وثلاثين سير جيشا الى برشلونة فقتلوا من أهلها فأكثروا وأسروا جما غفيرا وغنموا وعادوا سالمين وكذا في سنة سبع وثلاثين وتوفي الحكم سنة ثمان وثلاثين وقام بالامر بعده ابنه محمد

ذكر غزوات وفتوحات بأفريقية

قد تقدم ان ابتداء فتوح المسلمين لافريقية كان في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة عشرين من الهجرة ولما كانت خلافة هارون الرشيد ولى على افريقية ابراهيم بن الاغلب التميمى سنة أربع وثمانين ومائة وتوارث بنوه الملك بعده عمالا لخلفاء بنى العباس واستمر ذلك فيهم الى سنة مائتين وست وتسعين فزالت دولتهم لما صار ملك افريقية للفاطميين ويقال لهم العبيديون فكانت مدة ملك بنى الاغلب مائة سنة واثنتى عشرة سنة وكان مقر ملكهم القيروان واتسع ملكهم وقوى بافريقية وصار لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب في البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وقد تقدم ذكر كثير منها وسيأتى غيرها وأكثر فتوحات افريقية كان على أيديهم وتقدم ان أول من اختط مدينة القيروان عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه ولد في عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم تثبت له صحبة وكان صالحا من كبار التابعين وخيارهم وكان خطة القيران سنة خمسين من الهجرة حين كان أميرا على افريقية في خلافة معاوية رضى الله عنه فلما اختطها صارت قاعدة افريقية ومقر ملكها ثم بعد سنين كثيرة صارت مدينة تونس بدلا عنها وافريقية بلاد واسعة قال في القاموس ان افريقية قبالة الاندلس وقال السيد مرتضى في شرحه على القاموس ان افريقية قبالة جزيرة صقلية منحرفة الى الشرق والاندلس منحرفة عنها الى جهة المغرب وصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة بالمغرب كثيرة البلدان والقرى والمواشى افتتح المسلمون كثيرا من مدائنها وقراها بعد غزوات كثيرة وكان أول الغزو اليها زمن ولاية معاوية بن خديج على افريقية في خلافة معاوية رضى الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو اليها

في زمن ولاية بنى الاغلب من أول دولتهم الى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو اليها ولم يتم فتحها الى ان انقضت ولاية بنى الاغلب سنة مائتين وست وتسعين وجزيرة صقلية الآن داخلة في ممالك ايطاليا واعلم ان المغرب يشتمل على ثلاث ممالك عظام وهى المغرب الادنى والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى فالمغرب الادنى القيروان وتونس وطرابلس الغرب وأعمال كل منها والمغرب الاوسط تلمسان والجزائر وأعمالها وذلك الآن بيد الفرنسيس تملكوه من سنة الف ومائتين وست وأربعين والمغرب الاقصى فاس ومراكش والسوس وأعمال كل منها وذلك الآن بيد سلطان فاس وانما قيل لذلك المغرب الاقصى لانه أبعد عن دار الخلافة في صدر الاسلام وكان قبل استحداث مدينة تونس موجود مدينة عظمى تسمى (قرطاجنة) بتشديد النون المفتوحة وكانت مدينة شهيرة من عجائب الدنيا وكانت عند الروم تضاهي مدينة رومه وكان بها كثير من ملوك الفرنج ومعهم من الفرنج امم لاتحصى فغزاها المسلمون سنة تسع وستين من الهجرة بأربعين الفا من الجند أميرهم حسان بن النعمان في خلافة عبد الملك بن مروان فحاصرها حسان بن النعمان بمن معه من الجند الى ان افتتحها وقتل كثيرا ممن كان فيها ونجا قوم منهم في المراكب الى جزيرة صقلية وقوم منهم الى الاندلس ولما انصرف عنها حسان بن النعمان دخلها قوم من أهل الصواحي والبادية وتحصنوا بها فرجع اليهم حسان وقاتلهم أشد قتال وافتتحها عنوة وأمر بتخريبها واعفاء أثرها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ولم يبق بها الا آثار خفيفة تدل على ما كان فيها من عجائب الصنعة واحكام العمل وعمر بأنقاضها مدينة تونس بالقرب منها ومن غزوات بنى الاغلب غزوة لزيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب في سنة مائتين واثنتين جهز جيشا في مراكب في البحر الى مدينة سردانية وهى جزيرة كبيرة ببحر المغرب كانت للروم فغنموا وقتلوا كثيرا ورجعوا سالمين وفي سنة سبع ومائتين سير جيشا ففتحوا مواضع من جزيرة صقلية وسير أيضاً جيشاً في سنة ثنتى عشرة ففتحوا أيضا مواضع كثيرة من جزيرة صقلية ثم وقع اختلاف بين ملوك الروم الذين كانوا في صقلية فاستنجد بعض منهم بزيادة الله بن الاغلب ووعده بأنه يملكه جزيرة صقلية فسير معه جيشا في ربيع الاول من سنة ثنتى عشرة ومائتين فوصلوا الى مدينة مازر من صقلية ثم ساروا فلقيهم جمع من الروم فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا فانهزمت الروم وقتل كثير منهم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ثم توجهوا الى حصار قصريانة وهى من جزيرة صقلية وبث المسلمون السرايا في كل ناحية فغنموا شيئا كثيرا وافتتحوا

عمرانا كثيرة حول سرقوسة وحاصروا سرقوسة برا وبحرا ولحقتهم الامداد من افريقية فضيقوا على سرقوسة فوصل اسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير من الروم مددا لجماعتهم وذلك في سنة ثلاث عشرة ومائتين وكان قد حل بالمسلمين وباء شديد هلك فيه كثير منهم فلما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول الروم تحمل المسلمون في مراكبهم ليسيروا ويتركوا الحصار فوقف الروم في مراكبهم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم وعادوا ورحلوا الى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن وسار طائفة منهم الى حصن جرجنت فقاتلوا أهله وملكوه وسكنوا فيه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا الى مدينة قصريانة ووصل جيش كثير من القسطنطينية مددا لمن في الجزيرة فتصافوا هم والمسلمون واقتتلوا فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل منهم من سلم قصريانة ثم ان سرية للمسلمين سارت للغنيمة فخرج عليها طائفة من الروم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وعادوا من الغد ومعهم جمع من عسكر المسلمين فخرج اليهم الروم وقد اجتمعوا وحشدوا وتصافوا مرة ثانية واقتتلوا فانهزم المسلمون أيضاً وقتل منهم نحو ألف قتيل وعادوا الى معسكرهم وخندقوا عليهم فحصرهم الروم ودام القتال بينهم فضاقت الاقوات على المسلمين فعزموا على بيات الروم فعلموا بهم ففارقوا الخيام فلما خرج المسلمون لبيات الروم لم يجدوا أحدا وأقبل عليهم الروم من كل ناحية فأكثروا القتل في المسلمين وانهزم الباقون من المسلمين ودخلوا ميناو فحصرهم الروم ودام الحصار على المسلمين حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع بذلك من في مدينة جرجنت من المسلمين هدموا المدينة وساروا الى مازر ولم يقدروا على نصرة اخوانهم من المسلمين ودام الحال الى ان دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك اذ أقبل أسطول كثير من المسلمين الذين في الاندلس خرجوا غزاة ووصل أيضاً في ذلك الوقت مراكب كثيرة من افريقية مددا للمسلمين فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب فنزلوا الى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وفرج الله عنهم وسار المسلمون الى مدينة بلرم وكانت للروم فحصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الامان لنفسه ولاهله ولماله فاجيب الى ذلك وسار في البحر الى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ست عشرة ومائتين فلم يروا فيه الا أقل من ثلاثة آلاف انسان وكان فيه لما حصروه سبعون ألفا وماتوا كلهم وبقي المسلمون الى سنة تسع عشرة ومائتين ثم ساروا الى مدينة قصريانة فخرج اليهم من كان فيها من الروم فاقتتلوا أشد قتال ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم الى معسكرهم ثم رجعوا في الربيع فقاتلهم فنصر الله المسلمين أيضاً ثم سار المسلمون

يضاً سنة عشرين الى قصريانة فقاتلهم الروم فهزمهم الله تعالى وانتصر المسلمون عليهم وأسرت امرأة لبطريقهم وابن له وغنم المسلمون ما كان في معسكرهم وعادوا الى بارم ثم سيروا عسكرا الى ناحية طبرمين فغنموا غنائم كثيرة ثم عدا بعض عسكر المسلمين على أمير المسلمين وهو محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم فأرسل زيادة الله بن الاغلب من افريقية الفضل ابن يعقوب عوضا عنه فسار في سرية الى ناحية سرقوسة فأصابوا غنائم كثيرة وعادوا ثم سارت سرية كبيرة فغنمت وعادت فعرض لهم الملك صاحب صقلية ومعه جمع كثير من الروم فتحصنوا من الروم في أرض وعرة وشجر كثيف فلم يتمكن الملك من قتالهم ووافقهم الى العصر فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد عنهم فتفرق أصحابه وتركوا التعبية فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطعن الملك وجرح عدة جراحات وسقط عن فرسه فأتاه حماة أصحابه واستنقذوه جريحا وحملوه وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة وسير زيادة الله بن الاغلب من افريقية الى صقلية أبا الاغلب ابراهيم بن عبد الله أميرا على تلك الجيوش فوصل اليهم منتصف رمضان فبعث اسطولا فلقوا جمعا للروم في اسطول فغنم المسلمون ما فيه من مال وأسروا ما فيه من رجال فضرب أبو الاغلب رقاب كل من فيه وبعث اسطولا آخر الى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم ورجل من أهل افريقية كان مسلما فتنصر فأتى بهم فضربت رقابهم وسارت سرية اخرى الى جبل النار والحصون التي في تلك الناحية فاحرقوا الزرع وغنموا واكثروا القتل ثم سير أبو الاغلب سنة احدى وعشرين ومائتين سرية الى جبل النار أيضاً فغنموا غنائم عظيمة حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان وعادوا سالمين وفيها سير أبو الاغلب أيضاً سرية الى قسطلياسة فغنموا وسبوا ولقيهم العدو فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم وفيها أيضاً جهز اسطولا فساروا نحو الجزائر فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدنا ومعاقل وعادوا سالمين وفيها أيضاً سير سرية الى مدينة قصريانة فخرج اليهم العدو فاقتتلوا فانهزم المسلمون واصيب منهم جماعة ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وشلندى فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غفلة من أهل قصريانة فتقرب ورأى طريقا فدخل منه ولم يعلم به أحد ثم انصرف الى العسكر فأخبرهم فجاؤا معه فدخلوا من ذلك الموضع وكبروا وملكوا ربضه وتحصن المشركون منهم بحصنه وطلبوا الامان فأمنوهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا الى بلرم وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين وصل كثير من الروم في البحر الى صقلية وكان المسلمون قد حاصروا جفلوذى وقد طال حصارها فلما وصل الروم

ورحل المسلمون عنها وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروب كثيرة ثم جاء المسلمين الخبر بوفاة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب أمير افريقيــة فوهن المسلمون ثم تشجعوا وضبطوا أنفسهم (سرقوسة) بسين مفتوحة وقاف وواو وسين ثانية (وبلرم) بفتح الباء الموحــدة واللام وتسكين الراء وبعدها ميم (ميناو) بميم وياء تحتها نقطتان ونون وبعــد الالف واو و(جرجنت) بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة وتاء فوقها نقطتان و (قصريانه) بالقاف والصاد المهملة والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الألف نون مشددة وهاء وهــذه الغزوات هي التى ذكرت مجملة قبل هذا الموضع بورقة استحسنا تداركذ كرها تفصيلا لما اشتملت عليه من الفوائد ولما توفي محمد بن عبدالله أمير صقلية سنة ست وثلاثين كما تقدم اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب فولوه أمرهم وكتبوا بذلك الى محمد بن الاغلب أمير افريقيــة فأرسل اليه عهدا بولايته فكان العباس يرســل السرايا ويأتيــه الغنائم الى أن أتاه عهــده بولايته فخرج بنفسه وأرسل سرية الى قلعة أبي ثور فغنموا وأسروا وعادوا فقتل الاسرى ثم توجه الى مدينة قصريانة فنهب وأحرق وخرب ليخرج اليه البطريق فلم يفعل فعاد العباس وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج حتى بلغ قصريانة وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان قبلها يسكن سرقوســة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقــل دار الملك الى قصريانة لحصانتها فخرج العباس ومعــه جمع عظيم فغنم وخرب وأتى قطانية وسرقوســة ونوطس ورغوس فغنم من جميع هذه البلاد وخرب واحرق ونزل على شيرة وحصرها خمسة أشهر فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس وفي سنة اثنتين وأربعين سار العباس في جيش كثيف ففتح حصونا جمة وفي سنة ثلاث وأربع سار الى قصريانة فخرج أهلها فلقوه فهزمهم وقتل فيهم فأكثر وقصد سرقوسة وطبرمين وغيرهما فنهب وخرب وأحرق ونزل على القصر الجديد وحصره وضيق على من به من الروم فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار فلم يقبل منهم وأطال الحصر فسلموا اليه الحصن على شرط ان يطلق مائتى نفس فأجابهم الى ذلك وملكه وباع كل من فيه سوى مائتى نفس وهدم الحصن

﴿ ذكر فتح قصريانة ﴾

في سنة اربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قصريانة وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى قصريانة لحصانتها وسبب فتحها ان العباس ســار في جيوش المسلمين الى مدينــة قصريانة وسرقوسة وسير جيشا في البحر فلقيهم أربعون شلندى للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم

وأخذ المسلمون منهم عشر شلنديات برجالها وعاد العباس الى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا وكان معهم أسير من الروم له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندي نصيحة قال وماهي قال املكك قصريانة والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس الفي فارس انجادا أبطالا وسار الى ان قاربها وكمن هناك مستترا وسير عمه رباحا في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدى رباح فأراهم الموضع الذى ينبغي ان يملك منه فنصبوا السلالم وصعدوا حتى وصلوا الى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من باب صغير فيه يدخل منه الماء وتاتى فيه الاقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الابواب وجاء العباس في باقى العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح بها يوم الخميس وبنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيه من المقاتلة وأخذوا مافيها من بنات البطارقة بحليهن وابناء الملوك وأصابوا فيها مايعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية في ثلاثمائة شلندى وعسكر كثير فوصلوا الى سرقوسة فخرج اليهم العباس من المدينة ولقى الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندى وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من قلاع صقلية فخرج العباس اليهم وقاتلهم فانهزم الروم وقتل كثير منهم وسار الى بعض القلاع التى نكثت فحصرها فأتاه الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل اليهم وجرى بينه وبينهم قتال شديد فهزمهم وعاد الى قصريانة فحصنها وشحنها بالعساكر وفي سنة سبع وأربعين ومائتين سار العباس الى سرقوسة فغنم وسار الى غيران فرقنة فاعتل ومات بعد ثلاثة أيام فنبشه الروم وأحرقوه وكانت ولايته احدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفا وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين

﴿ذكر مسير الروم الى أرض مصر﴾

في سنة تسع وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل جاءت ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها الى صدر الرجل فمن جازها الى الارض أمن من مراكب البحر فجازه قوم فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار الى مصر وكان على معونة مصر عنبسة بن اسحاق الضبي

فلماحضر العيد أمر الجند الذين بدمياط ان يحضروا الى مصر فساروا منها فاتفق وصول الروم وهي فارغةمن الجند فنهبوا وأحرقوا وسبواوأحرقوا جامعها وأخذوامابها من سلاح ومتاع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قدحبس بسر بن الاكشف بدمياط فكسر قيده وخرج يقاتلهم وتبعه جماعة وقتل من الروم جماعة وسارت الروم الى أشتوم تنيس وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم فنهبوا مافيه من سلاح وأخذوا البابين ورجعوا ولم يعرض لهم أحد وغزا الصائفة في هذه السنة على بن يحيي الارميني وفي سنة أربعين كان قتال بين محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس وبين الافرنج فكان النصر له عليهم وقتل منهم نحو ثمانية آلاف وفي سنة احدى وأربعين قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين أثنى عشر ألفا فانها عرضت النصرانية على الاسرى فمن تنصر تركته ومن أبى قتلته وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم ففداهم المتوكل وكانوا سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة

﴿ ذكر اغارة البجاة على مصر ومجاوة أرض النوبة والبجاة أهل تلك الارض ﴾

في سنة احدى وأربعين اغارت البجاة على أرض مصر وكانت قبل ذلك لاتغزوا بلاد الاسلام لهدنة قديمة وفي بلادهم معادن الدهب يؤدون منها الخمس الى أهل مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين فلما بلغ الخبر المتوكل شاور وزراءه في أمرهم فذكروا له أنهم أهل بادية وأهل ابل وشياه وان الوصول الى بلادهم صعب لانها مفاوز وبين أرض الاسلام وبينها مسيرة شهر في أرض قفر وجبال وعرة وان كل من يدخلها من الجيوش يحتاج ان يتزود للمدة التي يتوهم انه يقيمها الى ان يخرج الى بلاد الاسلام فان جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد وان أرضهم لاترد على سلطان شيأ فامسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمى محاربتهم وكتب الى عنبسة بن اسحاق عامل حرب مصر بازاحة علته واعطائه من الجند مايحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى أرض البجاة وتبعه ممن يعمل في المعادن والمتطوعة عالم كثير فبلغت عدتهم نحوا من عشرين ألفا بين فارس وراجل ووجه الى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالذخيرة وأمر أصحابه ان يوافوه بها في ساحل البحر مما يلي بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل منها الذهب وسار الى حصونهم وقلاعهم وخرج اليه ملكهم وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له

في جيش كثير أضعاف من مع القمي وكانت البجاة على الابل فتحاربوا أياما وطاولهم البجاة لتفنى ازواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذوهم بغير حرب فأقبلت تلك المراكب التى فيها الاقوات في البحر ففرق القمى ماكان فيها في أصحابه فاتسعوا فيها فلما رأى ملك البجاة ذلك صدقهم القتال وجمع لهم فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا وكانت ابلهم ذعرة تنفر من كل شئ فلما رأى القمى ذلك جمع كل جرس في عسكره وجعلها في أعناق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت ابلهم لاصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والاودية وتبعهم المسلمون قتلا واسرا حتى أدركهم الليل ثم رجع الى معسكره ولم يقدر على احصاء القتلى لكثرتهم ثم ان ملكهم طلب الامان فامنه على مملكته وبلاده فأدى لهم الخراج للمدة التى كان منعها وهى أربع سنين وسار القمى الى المتوكل فخلع عليه وعلى أصحابه وفي هذه السنة أغارت الروم على عين زربة فاخذت من كان بها أسيرا من الزط (الزط جيل من السودان طوال الاجسام) من نسائهم وذراريهم ودوابهم وفي هذه السنة أيضا سير محمد صاحب الاندلس الجيوش الى غزو الافرنج فدخلوا بلادهم ووصلوا الى البة والقلاع وافتتحوا بعض حصونها وعادوا وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت الروم من ناحية سميساط حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحوا من عشرة آلاف ثم رجعوا فخرج قوم من المتطوعة في آثارهم فلم يلحقوهم وكتب المتوكل الى على بن يحيي الارمينى ان يسير الى بلادهم ثانيا ففعل وفي هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس جيشا الى بلاد الافرنج فدخلوا الى برشلونة وحاربوا قلاعها وجاوزوها الى ماوراء أعمالها ففتحوا كثيرا وافتتحوا حصنا من أعمال برشلونة يسمى طراجة من آخر حصون برشلونة وفي سنة أربع وأربعين بعث المتوكل بغا الكبير في العساكر الصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحى ورجع وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقا كثيرا وغزا على بن يحيي الارمينى الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود اليها فبعث اليهم ملك الروم يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على ان يسلموا اليه (لؤلؤة) قلعة للصقالبة فاصعدوا البطريق اليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ثم سلموا البطريق ولؤلؤة الى بلكاجور فسيره الى المتوكل فبذل ملك الروم في فدائه ألف مسلم كانوا مأسورين عنده وفي سنة ست وأربعين أيضا غزا عمر بن عبيد الله الاقطع الصائفة فجاؤا بسبعة عشر ألف رأس وغزا قريياس فجاء بخمسة آلاف رأس وغزا الفضل بن قارون فافتتح حصن انطاكية وغزا بلكاجور فغنم وسبا وغزا على بن يحيي الارمينى فاخرج

خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحوا من عشرة آلاف رأس وفي هذه السنة كان الفداء على يد على بن يحيي الارمني ففودى بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسا وفي هذه السنة والتى قبلها خرج المجوس من بلاد الاندلس في مراكب الى بلاد الاسلام فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب البلاد باخراج العساكر الى قتالهم فوصلت مراكب المجوس الى اشبيلية فحلت بالجزيرة ودخلت الى قتالهم وأحرقت المسجد الجامع ثم جازت الى العدوة ثم تقدموا الى حائط افرنجة وأغاروا وأصابوا من النهب والسبي كثيرا ثم انصرفوا فالقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم فأحرقوا مركبين من مراكب المجوس وأخذوا مركبين آخرين فغنموا مافيها فحمى المجوس عندذلك وجدوا في القتال واستشهد جماعة من المسلمين ثم مضت مراكب المجوس حتى وصلت الى مدينة بنبلونه فأصابوا صاحبها غرسية الافرنجي فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار وفي هذه السنة غزا عامل طرسوسة بنبلونه فافتتح حصن بيلسان وسبي أهله ثم كانت على المسلمين في اليوم الثاني وقعة استشهد فيها جماعة وفي سنة سبع واربعين غزا محمد صاحب الاندلس في جيوش كثيرة بنبلونة فوطئ بلادها ودوخها وخربها ونهبها وقتل فيها فأكثر وافتتح حصونا واسر فوتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه وفي هذه السنة قتل المتوكل قتله خدمه الاتراك وبويع ابنه المنتصر ومات بعد ستة أشهر وبويع المستعين بن المعتصم

﴿ ذكر فتوحات وغزوات بافريقية ﴾

لما توفي أمير صقلية العباس بن الفضل سنة سبع وأربعين ولى الناس عليهم ابنه عبد الله وكتبوا الى الامير بافريقية بذلك واخرج عبد الله السرايا ففتح قلاعا متعددة وبعد خمسة أشهر وصل من افريقية خفاجة بن سفيان أميرا على صقلية وكان وصوله سنة ثمان وأربعين فأكثر الغزوات والسرايا على الروم الذين بتلك النواحي وشن عليهم الغارات ففتح حصونا كثيرة واستمر الى سنة خمس وخمسين وتوفي وأقيم بعده ابنه محمد وكان الروم يحاصرون مالطة فسير اليهم جيشا سنة ست وخمسين فلما سمع الروم بذلك رحلوا ثم قتل محمد بن خفاجة سنة سبع وخمسين قتله خدمه الخصيان وهربوا فطلبهم الناس فأدركوهم فقتلوهم وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين سار جيش للمسلمين بالاندلس الى مدينة برشلونة وهي للفرنج فأوقعوا بأهلها فراسل صاحبها ملك الفرنج يستمده فأرسل اليه جيشا كثيفا وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالا شديدا فملكوا أرباضها وبرجين من أبراج المدينة فقتل من المشركين خلق كثير وسلم المسلمون وعادوا وقد غنموا وفي سنة ثمان وأربعين غزا

وصيف التركي بلاد الروم ومعه اثنا عشر الفا فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قرورية وفي سنة تسع وأربعين سير محمد صاحب الاندلس جيشا الى مدينة البة والقلاع من بلاد الفرنج فجالت الخيل في ذلك الثغر وغنمت وافتتحت بها حصونا منيعة وفي سنة تسع وأربعين أيضا غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصنا ومطامير واستأذنه عمر بن عبيد الله الاقطع في المسير الى بلاد الروم فأذن له فسار في خلق كثير من أهل ملطية فلقيه الملك في جمع عظيم من الروم بمرج الاسقف فحاربه محاربة شديدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا وقتل عمر وممن معه ألفان من المسلمين فلما قتل عمر بن عبيد الله خرج الروم الى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى أموال المسلمين وحرمهم فبلغ ذلك على بن يحيي وهو قافل من أرمينية الى ميافارقين في جماعة من أهلها ومن أهل السالسلة فنفر اليهم فقتل في نحو من أربعمائة رجل ولما اتصل الخبر ببغداد وسامروا بقتل عمر بن عبيد الله وعلى بن يحيي وكانا من شجعان الاسلام شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عن المسلمين في الثغور شق ذلك عليهم مع استعظامهم قتل الاتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وقام بعض الاجناد يطلبون أرزاقهم وثار من ذلك فتن متتابعة يطول الكلام بذكرها واستمرت الى ان خلع المستعين وبويع المعتز بن المتوكل سنة احدى وخمسين ومائتين ثم قتل المستعين سنة ثنتين وخمسين وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر

﴿ ذكر غزوة عظمى بالاندلس على بلاد الفرنج ﴾

في سنة احدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس جيشا مع ابنه المنذر الى بلاد الفرنج فساروا وقصدوا الملاحة وكانت أموال لذريق ملك الفرنج بناحية البة والقلاع فلما عم المسلمون بلدهم بالخراب والنهب جمع لذريق عساكره وسار يريدهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركوين فاقتتلوا فانهزم الفرنج الا أنهم لم يبعدوا واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لايلوون على شئ وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكان عدد ماأخذ من رؤس الفرنج ألفين وأربعمائة واثنين وتسعين رأسا وكان فتحا عظيما وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة وسير جيشا أيضا في السنة التى بعدها فقصدوا البة والقلاع ومدينة مانة وقتلوا من أهلها عددا كثيرا ثم قفلوا سالمين وفي سنة ثلاث وخمسين أيضا سير جيشا فافتتحوا حصون جرفيق وغلبوا على أكثرها وفي سنة خمس وخمسين ومائتين خلع المعتز

ثم قتل وبويع المهتدى بن الواثق وخلع ثم قتل سنة ست وخمسين وبويع المعتمد على الله ابن المتوكل وفي سنة تسع وخمسين ومائتين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ثم نازلوا ملطية وقاتلهم أهلها فانهزم الروم وقتل بطريق من بطارقتهم وفي هذه السنة سارت سرية للمسلمين بافريقية الى سرقوسة فصالحهم أهلها على ان يطلقوا الاسرى من المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا ثلاثمائة وستين أسيرا فلما أطلقوهم عادوا عنهم

﴿ ذكر القتال مع صاحب الزنج ﴾

ابتداء ظهور صاحب الزنج كان في سنة خمس وخمسين ومائتين وذكر القتال معه ماحق بالقتال مع الكفار لانه وان كان يدعي الاسلام لكن مافعله بأهل الاسلام أشنع مما تفعله الكفار كما ستراه والكلام على قصته طويل مبسوط في التواريخ وتلخيصها ان رجلا من بني عبد القيس اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم كان في سر من رأى وأصله من الري وكان متصلا بحاشية المنتصر بن المتوكل يمدحهم بشعره ويستمنحهم من عطائهم ثم انه شخص من سر من رأى سنة تسع وأربعين ومائتين الى البحرين وادعى نسبته في العلويين فقال مرة انه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما وقال مرة انه من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبي طالب ودعا الناس بهجر الى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم وخالفه آخرون فجرى بين الطائفتين عصبية وقتال قتل فيه جماعة وكان أكثر البحرين قد أحلوه محل نبي وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه فقام منهم جماعة وتنكروا له فانتقل الى الأحسا وصحبه جماعة من أهل البحرين ثم تنقل في البادية وقال أوتيت في تلك الايام بالبادية آيات من آيات امامتى ظاهرة للناس منها أنى لقنت سورا من القرآن فجرى بها لساني في ساعة وحفظتها في دفعة واحدة منها سبحان والكهف وص ومنها أني تفكرت في الموضع الذي اقصده حيث نبت بي البلاد فاظلتني غمامة وخوطبت منها فقيل لى اقصد البصرة الى غير ذلك من مقالاته المخترعة وفي تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى أنه ادعى أنه أرسل الى الخلق فرد الرسالة وكان له منبر يصعد اليه ويسب عثمان وعليا ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة وفي تاريخ ابن الاثير وابن خلدون أنه كان يرى رأى الخوارج وهذا يبطل انتسابه الى العلويين وكان أول ظهوره للناس سنة خمس وخمسين ومائتين وكان في مبدأ أمره يدعو الغلمان من الزنوج الذين يسكنون السباخ في جهة البصرة فاجتمع له منهم خلق كثير وكان يعدهم بالعتق ويرغبهم في الاحسان فاذا جاء أحد من موالى الزنوج يطلبون عبيدهم يأمر

كل عبد ان يضرب مولاه ثم يحبسهم ثم يطلقهم فامتنع موالى الزنوج من طلب عبيدهم وكان يخطب العبيد وغيرهم ممن تبعه في كل وقت ويرغبهم ولم يزل هذا دأبه والزنوج يأتون اليه بكثرة ويتابعونه ويدخلون في أمره واتخذ له راية وكتب عليها قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة الآية فكثرت جيوشه واستحكم أمره وشن الغارات وبث أصحابه يمينا وشمالا للاغارة والنهب وسار بالجيش الى الابلة فخرجوا له باربعة آلاف فهزمهم وملك الابلة ثم سار الى القادسية فملكها ونهبها فكثر عنده المال والسلاح فخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله فهزمهم وقتل منهم وأخذ سلاحهم ثم خرج طائفة أخرى فكذلك وأخرى فكذلك ثم خرج له قائدان من البصرة بجيش فهزمهما وقتل منهما وكان معهما سفن ألقتها الريح الى الشط فغنم مافيها وكثر شغبه وفساده وجاء أبو هلال من قواد الاتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقيه فهزمه وقتل كثيرا من أصحابه ثم خرج اليه أبو منصور أحد موالى الهاشميين في عسكر عظيم فهزمهم وكان من أعيان أصحابه يحيي بن محمد الازرق البحرانى وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه وذكر ريحان أحد غلمان السورجيين وهو أول من صحبه منهم أنه قال كنت موكلا بغلمان مولاى انقل لهم الدقيق فاخذنى أصحابه فساروا بي اليه وأمرونى أن اسلم عليه بالأمرة ففعلت فسألنى عن الموضع الذي جئت منه فاخبرته وسألنى عن اخبار البصرة فقلت لا علم لى وسألنى عن غلمان السورجيين وعن أحوالهم ومايجرى لهم فأعلمته فدعانى الى ماهو عليه فاجبته فأمرنى ان احتال على من قدرت عليه من الغلمان الزنج وأقبل بهم عليه ووعدنى ان يجعلنى قائدا على من أتيته بهم فعدت اليه من الغداة وقد أتيته بجماعة من الزنج وجاء جماعة مع غلمان الدباشين وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وغيرهم فيقبلون اليه للخلاص من الرق والتعب فاجتمع عنده خلق كثير منهم فخطبهم ووعدهم ان يجعلهم قواداً ويملكهم الاموال وحلف لهم بالايمان أن لايغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيأ من الاحسان اليهم ولمن أتى بهم وجاء اليه بعض موالى العبيد وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم لكل منهم عبده فبطح أولئك الموالى وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم كل سيد خمسمائة سوط وكان اذا خطب العبيد يذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال وان الله تعالى أبعدهم من ذلك وانه يريد ان يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال وجاءه مرة رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبي صالح بثلاثمائة من الزنج فلما كثروا جعل القواد فيهم منهم وقال لهم كل من أتى منكم برجل فهو مضموم اليه ومازالت جيوشه تكثر من الزنج وغيرهم حتى بلغت ألوفا

مؤلفة واعدادا لا تحصى فشن الغارات على القرى والامصار وأكثر القتل والنهب وجهز له الخليفة الجيوش الكثيرة المرة بعد الاخرى وهو يهزم تلك الجيوش ويقتل كثيرا منها ويسبي من القرى والامصار النساء والذرية وما زال أمره هكذا أربع عشرة سنة حتى ظفروا به وقتلوه واضمحل أمره قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء استمر القتال مع صاحب الزنج من حين تولي المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد سنة ست وخمسين ومائتين الى سنة سبعين ومائتين فقتل فيها رئيس الزنج لعنه الله قال وذكر الصولي ان الذين قتلهم من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف انسان وقتل باليوم الواحد بالبصرة ثلاثمائة ألف ولما قوى أمر صاحب الزنج صار المباشر لقتاله وقيادة الجيوش الموفق طلحة بن المتوكل وهو أخو الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وباشر معه أيضا لقيادة بعض تلك الجيوش ابنه أبو العباس أحمد الذى صار بعد المعتمد على الله خليفة ولقب بالمعتضد قال المسعودى في تاريخه المسمى مروج الذهب شخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج في صفر سنة سبع وسبعين ومائتين وقدم الموفق ابنه أبا العباس في ربيع الآخر الى سوق الجيش وقيادته وكان رجل يقال له الشعراني من أصحاب صاحب الزنج قد تحصن في جمع كثير من الزنج ففتح أبو العباس بن الموفق هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه ثم فتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج وسار الموفق الى الاهواز فأصلح ما أفسده الزنج ثم عاد الى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والانثى ويحرق ويخرب وقد كان أتى البصرة في وقعة واحدة من وقايعه فقتل ثلاثمائة ألف من الناس وكان المهلبي من أصحاب صاحب الزنج بعد هذه الوقعة بالبصرة فنصب منبرا وكان يصلي يوم الجمعه بالناس ويخطب على ذلك المنبر ويدعو لصاحب الزنج ويلعن جبابرة بني العباس وكثيرا من الصحابة فاجتمع من بقي من أهل البصرة وأرادوا الخروج على المهلبي ليقتلوه فعلم بهم فوضع السيف فيهم فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق واختفى كثير من الناس في الدور والآبار فكانوا يظهرون في الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها فيأكلونها والفيران والسنانير فافنوها حتى لم يقدروا منها على شئ فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا مع ذلك الماء العذب وذكر عن امرأة منهم انها حضرت امرأة تنازع وعندها أختها وقد احتوشوها ينظرون ان تموت فيأكلون لحمها قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها ثم جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعوا على أختي

فما تركوها حتى تموت موتا حسنا حتى قطعوها فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيأ الارأسها هذا وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا ثم قال المسعودى وبلغ من امر عسكر صاحب الزنج انه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وابناء الناس فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان الفلانى ولكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما كانت عند بعض الزنج وسألته ان ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه فقال هو مولاك وأولى بك من غيره ثم قال المسعودى وقد تكلم الناس في مقدار ماقتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فأما المكثر فانه يقول أفنى من الناس مالا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا الله تعالى عالم الغيب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف انتهى وقال الجلال السيوطى في تاريخ الخلفاء ولما قتل هذا الخبيث لعنه الله تعالى أتى برأسه على رمح ودخلوا به بغداد وعملت الزينة وضج الناس بالدعاء للموفق طلحة ومدحه الشعراء وكان يوما مشهودا وتراجع الناس الى المدائن التى كان أخذها وهي كثيرة كواسط والبصرة وغيرهما انتهى وبالجملة فان هذه القضية كانت مصيبة عظمى على أهل الاسلام هذا تلخيص قصة صاحب الزنج باختصار وان أردت تفصيل الوقايع والحروب التي كانت لهذه القصة في تلك السنين فانظرها في التواريخ تجدها مبسوطة والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ ذكر ملك الروم ولؤلؤة ﴾

في سنة ثلاث وستين ومائتين سلمت الصقالبة لؤلؤة الى الروم وهى قلعة للصقالبة وكان سبب ذلك ان أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل ان يلى مصر فلما ولى مصر سنة خمس وخمسين كان يؤثر ان يلى طرسوس ليغزو منها أميرا فلم يجب الى ذلك وكان العمال الذين يأتون الى طرسوس يسيؤن السير وآل الامر الى استيلاء الروم على القلعة المذكورة فشق ذلك على أهل طرسوس لانها كانت شجى في حلق العدو ولم يكن يخرج الروم في بر أو بحر الا رأوه وأنذروا به واتصل الخبر بالمعتمد على الله فقلد طرسوس أحمد ابن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو العدو ويحفظ ذلك الثغر ويقيم الجهاد وفي هذه السنة سير محمد صاحب الاندلس ابنه المنذر في جيش كبير وجعل طريقه على ماردة فلما

جاوزها الى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع كثير من الفرنج فاقتتلوا قتالا كثيرا صبروا فيه وقتل من الفرنج عدد كثير ثم استظهر المشركون على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم أكرمهم الله بالشهادة وفي سنة أربع وستين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاووس في أربعين ألفا من أهل الثغور الشامية فأثخن في الروم وغنم ورجع فلما رحل عن البدندون خرج عليه جمع من الروم فاحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون ونزلوا وعرقبوا دوابهم وقاتلوا حتى قتلوا الا خمسمائة فانهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل الروم من قتلوا وأسروا عبد الله بن رشيد بعد ضربات اصابته وحمل الى ملك الروم فبعث به الى أحمد بن طولون صاحب مصر ومعه كثير من الاسرى وأهدى لابن طولون عدة مصاحف

ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة

في سنة أربع وستين ومائتين ملك المسلمون سرقوسة وهى من أعظم مدائن صقلية وكان سبب ملكها ان جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فافسد زرعها وزرع ماحولها من بلاد صقلية التى بارض الروم ونازل سرقوسة وحصرها برا وبحرا وملك بعض ارباضها فوصل مراكب الروم نجدة لها فسير اليها اسطولا فاصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فاقام العسكر محاصرا لها تسعة أشهر وفتحت عنوة وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم مالم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها الا الفذ النادر وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها وانصرف المسلمون الى بلادهم وفي هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس ابنه المنذر في جيش الى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة فقاتل أهلها ثم انتقل الى تطيلة وجال في مواضع ثم دخل بنبلونة فخرب كثيرا من حصونه واذهب زروعه وعاد سالما وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم الى اذنة فقتلوا وأسروا قتلوا نحوا من ألف وأربعمائة وأسروا نحوا من أربعمائة وكان ارجوز والى الثغور فعزل عنها وفي سنة ست وستين ومائتين وردت سرية من الروم الى ديار ربيعة فاسرت نحوا من مائتين وخمسين انسانا ومثلت بالمسلمين فنفر اليهم أهل الموصل ونصيبين فرجعت الروم وفي هذه السنة لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية فظفر الروم بالمسلمين بعد قتال شديد ولحق من سلم منهم الى مدينة بلرم من صقلية وفي هذه السنة أيضا غزا عامل ابن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة من أهل

طرسوس واعترضهم أربعـة آلاف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل المسلمون خلقا كثيرا من العدو وأصيب من المسلمين جماعة وفي سنة سبع وستين ولي جزيرة صقلية الحسن بن العباس فبعث السرايا الى كل ناحيـة وخرج الى قطانية فافسـد زرعها وزرع طبرمين وقطع أشجارها وسار الى بقارة فافسد زرعها وانصرف الى بلرم وأخرجت الروم سرايا فاصابوا من المسلمين كثيرا وفي سنة ثمان وستين سارت سرية من صقلية فلقيهم جيش الروم فاصيب المسلمون كلهم غير سـبعة نفر وعزل الحسن بن العباس عن صقلية ووليها محمد بن الفضل فبث السرايا في كل ناحية من صقلية وخرج هو في جيش عظيم فسار الى مدينة قطانية فاهلك زرعها ثم رحل الى أصحاب الشلندية فقاتلهم فأصاب فيهم فأكثر القتل ثم رحل الى طبرمين فافسد زرعها ثم رحل فلقي عسكر الروم فاقتتلوا وانهزم الروم وقتل أكثرهم فكانت عدة القتـلى ثلاثة آلاف قتيل ووصلت رؤسهم الى بلرم ثم سار المسلمون الى قلعة كان الروم بنوها عن قريب وسموها مدينة الملك فملكها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها وفي هذه السنة خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلية فنازل ملطية فأعانهم أهل مرعش والحدث فانهزم ملك الروم وغزا الصائفة من ناحيـة الثغور الشامية الفرغانى عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفا وغنم الناس فبلغ السهم أربعين دينارا وفي سنة تسع وستين خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في عسكر الى ناحية رمطة وبلغ العسكر الى قطانية فقتل كثيرا من الروم وسبى وغنم ثم انصرف الى بارم وفي سنة سبعين زحف الروم في مائة ألف ونزلوا قلمية على سـتة أميال من طرسوس فخرج اليهم بازمار عامل طرسوس لابن طولون ليلا فبيتهم وقتل منهم سبعين ألفا وجماعة من البطارقة وقتل مقدمهم بطريق البطارقة وغنم منهم سبعة صلبان ذهب وفضة وكان أعظمها من ذهب مكللا بالجواهر وغنم خمسة عشر ألف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك وأربع كراسى من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علما من الديباج وآنية كثيرة ونحوا من عشرة آلاف علم ديباج وديباجا كثيرا وغير ذلك وفي هذه السـنة أراد اسماعيل بن موسى أحد أمراء الاندلس بناء مدينـة ماردة فلما سمع الفرنجى صاحب برشلونة جمع وحشد يريد منعه من ذلك فسمع به اسماعيل فقصده وقاتله وهزمه وقتل أكثرهم وبقى أكثر القتلى في تلك الارض دهرا طويلا وفي سنة احدى وسبعين سارت سرية للمسلمين بصقليـة الى رمطة فخرجت وغنـمت وسبت وأسرت كثيرا وعادت وسار جيش كثير من صقلية الى قطانية فأهلك مافيها وسار الى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها

وتقدم فيها فأتى رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين ورجع الجيش وفي سنة اثنتين وسبعين غزا الصائفة بازمار وخرجت سرية من صقلية الى الروم الذين بها فغنمت وعادت وفيها قدم بطريق من القسطنطينية في عسكر كبير فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين فسلموها على أمان ولحقوا بصقلية ثم سار عسكر البطريق الى مدينة منتية فحصروها حتى سلمها أهلها بامان وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازمار وتوغل في أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبي وعاد الى طرسوس وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس ومدة ملكه أربع وثلاثون سنة وولى بعده ابنه المنذر وتوفي بعد سنة واحد عشر شهرا وبويع أخوه عبد الله

ذكر غزو الروم ووفاة بازمار

في سنة ثمان وسبعين خرج بازمار غازيا في جيش فبلغوا شكند ونازلوها فاصاب بازمار شظية من حجر منجنيق فرجع ومات في الطريق ودفن بطرسوس وفي سنة تسع وسبعين توفي المعتمد على الله وبويع المعتضد بن الموفق بن المتوكل وفي سنة ثمانين غزا اسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوا من عشرة آلاف وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم من الدواب مالا يحصى وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم وفي سنة احدى وثمانين غزا المسلمون الروم فدامت الحرب بينهم اثنى عشر يوما فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا

ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية

في سنة ثلاث وثمانين سارت الصقالبة الى الروم فحصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وخربوا البلاد فلم يجد ملك الروم منهم خلاصا فجمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا لكون الصقالبة كفارا فكشفوا الصقالبة وأزاحوهم عن القسطنطينية ولما رأى ملك الروم ذلك خاف من المسلمين على نفسه فردهم وأخذ السلاح منهم وفرقهم في البلاد حذرا من جنايتهم عليه وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم فكان جملة من فدى من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب وفتح حصونا كثيرة وعاد سالما وفيها غزا ابن الاخشيد صاحب مصر بأهل طرسوس ففتح الله على يديه وبلغ اسكندرونة وفي سنة سبع وثمانين غزا أبو العباس أحمد بن الاغلب مدينة

بلرم برا وبحرا فخرج اليه أهلها فقاتلوه ثم انهزموا ووقع القتل فيهم وملك البلد ثم رحل الى طبرمين فقطع كرومها وقاتلوهم ثم رحل الى قطانية فحصرها فلم ينل منها غرضا فرجع الى صقلية الى ان دخلت سنة ثمان وثمانين فتجهز للغزو وطاب الزمان وعمر الاسطول وسيره الى قطانية ونصب عليها المجانيق واقام أياما ثم انصرف الى مسيني وجاز الى ريو وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينة بالسيف وغنم من الذهب والفضة مالايحد وشحن المراكب بالدقيق والامتعة ورجع الى مسيني وهدم سورها ووجد بها مراكب وصلت من القسطنطينية فأخذ منها ثلاثين مركبا ورجع الى المدينة وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين سير المعتضد جيشا الى صائفة الروم ففتحوا حصونا كثيرة ورجعوا باسرى كثيرة ثم ان الروم ساروا في البر والبحر الى ناحية كيسوم فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفا وعادوا وفي سنة تسع وثمانين توفي المعتضد وبويع ابنه المكتفى وفي سنة احدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير الى ماوراء النهر فوجه اليهم صاحب خراسان اسماعيل الساماني جيشا كثيرا وتبعهم من المتطوعة خلق كثير فساروا نحو الترك فوصلوا اليهم وهم غارون فكبسهم المسلمون مع الصبح وقتلوا منهم خلقا عظيما لايحصون وانهزم الباقون واستبيح عسكرهم وعاد المسلمون سالمين غانمين وفي هذه السنة خرج من الروم مائة ألف عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف الى الثغور فقصد جماعة منهم الحدث (بلدة الروم) فاغاروا وسبوا وأحرقوا وفي هذه السنة غزا من طرسوس القائد المعروف بغلام زرافه ففتح مدينة انطاكية بالسيف وقتل خمسة آلاف من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من الاسارى خمسة آلاف وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع فقسمها مع غنائم انطاكية فكان السهم ألف دينار وفي سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس واجلوهم وأصيب جماعة من المسلمين وفي هذه السنة كان الفداء فكان جملة من فودى من أسرى المسلمين ألف نفس ومائتى نفس وفي سنة ثلاث وتسعين أغارت الروم على قورص من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالا شديدا ثم انهزموا وقتل الروم أكثرهم ودخل الروم قورس فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها وفى سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبي ودواب ومتاع ودخل بطريق من بطارقة الروم في الامان وأسلم وفيها أيضا غزا ابن كيغلغ فبلغ شكند وفتح الله عليه وسار الى الليس فغنموا نحوا من خمسين ألف رأس وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا

سالمين وكان بطريق على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأرسل ذلك البطريق الى المكتفى يطلب الامان فاعطاه فخرج من حصنه ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا معه في الحصن وكان ملك الروم أرسل ليقبض عليه فاعطى المسلمين سلاحا فخرجوا معه وقبضوا على الذين أرسلهم ملك الروم ليقبضوا عليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا مافي عسكرهم فاجتمعت الروم لمحاربة البطريق فسار اليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين فبلغوا قونية فبلغ الخبر الى الروم فانصرفوا عنه فانصرف البطريق ومن معه الى بغداد وأخرب المسلمون قونيه وأرسل ملك الروم الى الخليفة المكتفى فطلب الفداء وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح اسماعيل السامانى صاحب خراسان مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم وفي سنة خمس وتسعين توفي المكتفى وبويع أخوه المقتدر بن المعتضد وفي هذه السنة فودى من المسلمين ثلاثة آلاف نفس رجالا ونساء وفي سنة ست وتسعين كان ابتداء دولة العبيديين بافريقية وتفصيل ذلك طويل مذكور في التواريخ وفي هذه السنة بعث المقتدر جيشا لغزو الروم وعليه مونس الخادم فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد وفي سنة سبع وتسعين وجه المقتدر القائد ابن سيما لغزو الصائفة وكذا في سنة ثمان وتسعين وفي سنة تسع وتسعين غزا الصائفة رستم أمير الثغور من ناحية طرسوس فحصر حصن مليح الارمنى ثم دخل بلده وأحرقها وفي سنة ثلاثمائة توفي عبد الله بن محمد صاحب الاندلس وبويع حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله واستمر عبد الرحمن الناصر خمسين سنة وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين لما رأوا ظهور الضعف في خلفاء بني العباس وكانوا قبل ذلك يقال لمن ولى منهم الامير فلان وغزا عبد الرحمن الناصر في بلاد الفرنج غزوات كثيرة وأثخن فيهم حتى خضعوا له وصاروا بها دونه ويلتمسون رضاه وتفصيل غزواته يطول الكلام بذكرها وسيأتي ذكر شئ منها وفي سنة اثنتين وثلاثمائة سار الوزير للمقتدر على بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له فغزاها ثانية في برد شديد وثلج وغزا أيضا بشر الخادم والى طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم وسبي وأسر مائة وخمسين بطريقا وكان السبي نحوا من ألفي رأس وفي سنة ثلاث وثلاثمائة أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم وظهرت الروم أيضا فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة فقتلوا منهم نحو ستمائة فارس ولم تكن للمسلمين صائفة في هذه السنة لكثرة الفتن في بغداد في مدة المقتدر وفيها خرج مليح الارمنى الى مرعش فعاث في بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد وفي سنة

القسطنطينية وكان مع الدمستق دبابات ومجانيق ومزاريق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد وكان الرامي بها من أشجعهم فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين منه وكان الدمستق يجلس على كرسي عال ليشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم للقتال حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيه نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالا شديدا فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل وفي هذه السنة أيضا غزا ثمال الصائفة من طرسوس ولقي جمعا كثيرا من الروم فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم وقتلوا من الروم كثيرا وعادوا في انعامهم وغنموا ثلاثمائة رأس من الغنم ولقيهم رجل من رؤساء الأكراد يعرف بابن الضحاك وكان له حصن يعرف بالجعفرى وكان قد ارتد عن الاسلام وتنصر وسار الى ملك الروم وخدمه فأجزل له القطيعة وأمره بالعود الى حصنه فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه وقتلوا كل من معه وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحا وجعل الصليب في جامعها ورحل الى بدليس ففعل بها كذلك وخاف أهل ارزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم الى بغداد واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا وفي هذه السنة وصل سبعمائة رجل من الروم والارمن الى ملطية ومعهم الفؤس والمعاول وأظهروا انهم يتكسبون بالعمل ثم ظهر أن مليحا الارمني وضعهم ليكونوا بها فاذا حصرها سلموها اليه فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم وأخذوا مامعهم وفي سنة سبع عشرة خلع المقتدر وبويع أخوه القاهر ثم بعد يومين أعيد المقتدر وخلع القاهر وكانت هذه الفتنة هائلة وبسببها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها ملطية وميافارقين وآمد وارزن وغيرها وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم اليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم وأرسلوا الى بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على فائدة فعادوا فصالحوا الروم وملكوهم البلاد وفي سنة سبع عشرة أيضا كان دخول القرامطة مكة يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلعوا الحجر الاسود وأنفذوه الى هجر وقاموا باب البيت وأصعدوا رجلا ليقلع الميزاب وكان من ذهب فاصيب بسهم من جبل أبي قبيس فما أخطأ نحره وخرميتا فاصعدوا آخر مكانه فسقط من فوق الى أسفل على رأسه ومات فهاب الثالث الاقدام على القلع فتركوا قلع الميزاب وكان جملة من قتلوه من الطائفين والمصلين والمحرمين في مكة وشعابها زهاء ثلاثين

ألفا وسبوا من النساء والذرية مثل ذلك وتلك مصيبة ماأُصيب الاسلام بمثلها وكان رئيسهم عدو الله المكنى بأبي طاهر وركض عند الكعبة فرسه وسيفه مشهور بيده وصفر لفرسه عند البيت الشريف فبال وراث قيل ان الذين قتلهم في المطاف ألف وسبعمائة وملأ بئر زمزم من رؤسهم والكلام على هذه القصة وغيرها من وقائعهم طويل مذكور في التواريخ وقاتلهم خلفاء بني العباس ولهم معهم وقائع كثيرة وكان ابتداء ظهورهم سنة ثمان وسبعين ومائتين ولهم عقائد قبيحة يكفرون بها وان كانوا يدعون الاسلام ويزعمون انهم يدعون الناس للبيعة للمهدى المنتظر وزعموا انه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وكل ذلك زور وباطل قال ابن الاثير ولم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبد الله ومكث الحجر الاسود عندهم في هجر اثنين وعشرين سنة وكانوا يريدون تحويل الحج الى هجر فلما أيسوا من ذلك رجعوه الى موضعه من البيت وكان ذلك في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وابتلى أبو طاهر رئيسهم بداء الأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود وتقطعت أوصاله وطال عذابه ومات شر ميته ولعذاب الآخرة أشد وابقى وانما ذكرنا هذه القصة لان قتال هؤلاء وما فعلوه ماحق بقتال الكفار وأفعالهم ولا عبرة بكونهم يدعون الاسلام فانهم كانوا يستبيحون دماء المسلمين ويرون ضلال كافة المسلمين ومن عقائدهم الزائغة المكفرة أن الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها فقط وان النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من الجنابة الا الوضوء كوضوء الصلاة وان محمد بن الحنفية رسول الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك من ضلالاتهم واستمرت شوكتهم الى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ثم اضمحل أمرهم شيأ فشيأ حتى لم يبق لهم دولة

تنبيه

يوجد على وجه الحجر الاسود قطع كانت تكسرت منه ثم الصقت به واشتهر على ألسنة كثير من الناس ان سبب تكسر هذه القطع من القرامطة لما أخرجوا الحجر الاسود وليس الامر كذلك بل سبب تكسرها ما ذكره السنجارى في تاريخ مكة ونص عبارته في سنة أربعمائة وأربع عشرة يوم النفر الاول وكان جمعة دخل المسجد رجل أشقر بيده سيف مسلول ودبوس من حديد فتقدم بعد أن فرغ الامام من صلاة الجمعة وقصد الحجر الاسود فضربه بالدبوس ثلاث مرات وقال الى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلى فليمنعنى مانع من هذا فانى أريد رب هذا البيت فخافه أكثر الحاضرين وكاد يهرب فثار اليه رجل فضربه بخنجر فقتله وقطعه الناس بالسلاح ثم أحرقوه فحصل في الحجر الاسود شظب

وخرج منه قطع صغار فأعادها سدنة الكعبة وأمير مكة وألصقوها بالك فصارت آثار ذلك باقية الى الآن اهـ ولنرجع الى ما كنا بصدده وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة غزا ثمال والى طرسوس بلاد الروم فعبر نهرا ونزل عليهم ثلج الى صدور الخيل وأتاهم جمع كثير من الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحوا من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيأ كثيرا وعاد ثمال الى طرسوس ودخل بلاد الروم صائفة في جمع كثير من الفارس والراجل فبلغوا عمورية وكان قد تجمع بها كثير من الروم ففارقوها لما سمعوا خبر ثمال ودخل المسلمون فوجدوا فيها من الطعام والامتعة شيأ كثيرا فأخذوا وأحرقوا ما كانوا عمروه منها وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة وهي التي تسمى الآن انكورية وعادوا سالمين لم يلقوا كيدا فبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار وفي هذه السنة كاتب ابن الديرانى وغيره من الارمن وهم باطراف ارمينية الروم وحثوهم على قصد بلاد الاسلام ووعدوهم النصر فسارت الروم في خلق كثير فخربوا بذكرى وبلاد خلاط وما جاورها وقتل من المسلمين خلق كثير وأسروا كثيرا منهم فبلغ خبرهم مفلحا غلام يوسف ابن أبي الساج وهو والى أذربيجان فسار في عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة الى أرمينية وقصد بلد ابن الديرانى ومن وافقه فخربه وقتل أهله ونهب أموالهم وبالغ الناس في كثرة القتلى من الارمن حتى قيل انهم كانوا مائة ألف قتيل والله أعلم وتحصن ابن الديرانى بقلعة له وفي هذه السنة أيضا سارت الروم الى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها بسعيد بن حمدان صاحب الموصل وديار ربيعة فتجهز وسار مسرعا اليهم وقد كاد الروم يفتحونها فلما قاربهم هربوا منه فسار الى ملطية وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد اليهم فحكموا على المسلمين وكان في ملطية جمع من الروم ومن عسكر مليح الارمنى ومعهم بنى ابن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصر وهو مع الروم فلما أحسوا باقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد بن حمدان في عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم فيهلكوا ففارقوها ودخلها سعيد ثم استخلف عليها أميرا وعاد عنها ودخل بلاد الروم غازيا وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقا كثيرا قبل دخوله اليها وفي سنة عشرين قتل المقتدر (استطراد) قال العلامة القطبي في تاريخه كان المقتدر في كل عام يصرف يوم عرفة من الابل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألفا وكان يصرف في كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشر

ألف دينار وكان في داره أحد عشر ألف غلام خصي غير الصقالبة والروم والسودوختن خمسة من أولاده فصرف في ختانهم ستمائة ألف دينار وقدم مرة عليه رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما لارهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل صفين من باب الشماسية الى دار الخلافة ببغداد لتمر الرسل بين الصفين في هذه المسافة وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ونصبت الستور على حيطان دار الخلافة فبلغت ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج وكانت البسط الفاخرة التي فرشت في الارض اثنين وعشرين ألف بساط وفي الحضرة مائة سبع في سلاسل الذهب والفضة وكان من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر وأغصانها تمايل بحركات مصنوعة وعلى الاغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كانت زينتها في أيام قوة دولتهم في كمال وصفها فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشؤن ولا تحوله الاحوال وهو الله الكبير المتعال لا اله الا هو وحده لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا مثال كون الاكوان وقدرها تقديرا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا انتهى * ولنذكر قصة قتل المقتدر فان فيها اعتبار الكل من كانت له بصيرة وهي تدل على هوان الدنيا وخسة قدرها عند الله تعالى وذوى البصائر من عباده وحاصلها ان مؤنسا الخادم كان عبدا خصيا من عبيد المعتضد والد المقتدر فلما صارت الخلافة للمقتدر زاده في رفعة القدر وولاه قيادة كثير من جيوشه وصار من أعظم وزرائه وفي سنة عشرين وثلاثمائة حصلت وحشة بينه وبين المقتدر فسار مؤنس الى الموصل مغاضبا للمقتدر فاستولى المقتدر على اقطاع مؤنس وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب الى بني حمدان أمراء الموصل بصد مؤنس عن الموصل وقتاله فجرى بين مؤنس وبينهم قتال فانتصر مؤنس واستولى على الموصل واجتمعت عليه العساكر من كل جهة فسار بهم الى جهة بغداد ثم لما وصل الى بغداد نزل عند باب الشماسية بجنوده فخرج المقتدر الى قتال مؤنس بمن بقي معه من العساكر لان كثيرا منهم انعزلوا عنه وانحدروا الى واسط ليكونوا مع مؤنس ولما خرج المقتدر للقتال كان بين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة وعليه البردة النبوية ووقف على تل فألح عليه أصحابه بالتقدم الى القتال فتقدم ثم انهزمت أصحابه فلحق المقتدر قوم من العسكر مغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك

ياسفلة أنت خليفة ابليس فضربه واحد منهم بسيفه فسقط الى الارض فذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ماعليه حتى سراويله وكشفت عورته ثم حفروا له في موضعه ودفنوه وعفى قبره وحملوا رأسه الى مؤنس وهو بالراشدية لم يشهد الحرب فلما رأى مؤنس رأس المقتدر لطم وجهه وبكى ثم ان القاهر أخا المقتدر لما بويع بعد قتل المقتدر وتمكن له الامر قتل مؤنسا ولم تطل مدة القاهر بل خلع سنة اثنتين وعشرين وسملت عيناه وعاش دهرا طويلا أعمى محبوسا في دار الخلافة ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوما بجامع المنصور بين الصفوف وقال تصدقوا على فأنا من قد عرفتم وذلك في أيام المستكفى ليشنع عليه فمنعوه من الخروج الى ان مات سنة تسع وثلاثين وعمره ثلاث وخمسون سنة ولما خلع القاهر بويع الراضى بن المقتدر وفي هذه السنة سار الدمستق الى سميساط في خمسين ألفا ونازل ملطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثر أهلها بالجوع وضرب خيمتين على أحدهما صليب وقال من أراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد اليه أهله وماله ومن أراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ونبلغه مأمنه فانحاز أكثر المسلمين الى الخيمة التى عليها الصليب طمعا في أهلهم وأموالهم وسير مع الباقين بطريقا يبلغهم مأمنهم وفتحها بالامان ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأكثروا القتل وفعلوا الافاعيل الشنيعة وصار أكثر البلاد في أيديهم وفتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فاوقعوا بأهلها ثم مروا بقرقيسا من ساحل الشام فاحرقوا مراكبها وعادوا سالمين وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة من فودى من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة أسير مابين ذكر وأنثى وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة توفي الراضى وبويع أخوه المتقى بن المقتدر وفي سنة ثلاثين وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلادوسبوا نحو خمسة عشر ألف انسان وفي هذه السنة غزا الثملى من ناحية طرسوس الى بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وعاد سالما وقدأسر عدة من بطارقتهم وفي سنة احدى وثلاثين أرسل ملك الروم الى المتقى لله يطلب منه منديلا يزعم ان المسيح مسح بها وجهه فصارت صورة وجهه فيه وأنه في بيعة الرها وذكر أنه ان أرسل المنديل أطلق عددا كثيرا من أسارى المسلمين فاحضر المتقى للهالقضاة والفقهاء واستفتاهم فاختلفوا فبعض رأى تسليمه الى الملك واطلاق الاسرى وبعض قال ان هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الاسلام لم يطالبه ملك من ملوك الروموفي دفعه اليهم غضاضة وكان في الجماعة على بن عيسى الوزير فقال ان خلاص المسلمين من

الاسر ومن الضر والضنك الذى هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل فامر الخليفة بتسليمه اليهم واطلاق الاسرى ففعل ذلك وأرسل الى الملك من يستلم الاسرى من بلاد الروم فاطلقوا

﴿ ذكر خروج الروسية على بلاد الاسلام ﴾

في سنة ثنتين وثلاثين خرجت طائفة من الروسية في البحر الى نواحى اذربيجان وركبوا في البحر في نهر الكر وهو نهر كبير فانتهوا الى مدينة برذعة فخرج اليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان في جموع من الديلم والمتطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتلوا عن آخرهم وتبعهم الروس الى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالامان وأقبلت العساكر الاسلامية من كل ناحية لمقاتلتهم فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم وكان عامة البلد يخرجون ويرمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فانهم كفوا أنفسهم وسار العامة والرعاع لايضبطون أنفسهم فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وان لايقيموا بعد ثلاثة أيام فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الاجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا بعد القتل بضع عشرة ألف نفس وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم والا قتلناكم وسعى لهم انسان نصرانى فقرر على كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم الا عقلاؤهم فلما رأى الروسية أنه لايحصل منهم شئ قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الشريد وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها

﴿ ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الديلم اليهم ﴾

لما فعل الروس بأهل برذعة ماذكرناه استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير وجمع المرزبان ابن محمد الناس واستنفرهم فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفا وسار بهم فقاتلوهم فامتنعوا عليه فاكمن لهم بعض الايام فهزمهم وقتل أميرهم ونجا الباقون الى حصن البلد وحاصرهم المرزبان حتى هربوا من البلد وحملوا ماقدروا عليه وطهر الله البلد منهم وملك الروس أيضا في هذه السنة رأس عين واستباحوها ثلاثا وقاتلهم الاعراب ففارقوها وكانوا ثمانين ألفا مع من سبق وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خلع المتقى بن المكتفى بن المعتضد ومكث سنة وأربعة أشهر ثم خلع وبويع المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حين تغلب بنوبويه على الخلفاء وبنوبويه كزبير ويقال أيضا بسكون الواو

وفتح الياء ينتهى نسبهم الى ملوك الفرس وانما نسبوا الى الديلم لانهم طال مقامهم ببلادهم وخدموا كثيرا من عمال الخلفاء حتى صاروا قواد جيوش ثم تقوى أمرهم حتى تغلبوا على الخلفاء وصار الملك بايديهم وليس للخلفاء الا الاسم والدعاء على المنابر وكتابة المناشير وكتابة أسمائهم على الدراهم والدنانير وأخبارهم طويلة مذكورة في التواريخ ودخل معز الدولة بن بويه بغداد بجيوشه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخلع الخليفة المستكفى بن المكتفى وأقام في الخلافة المطيع لله بن المقتدر وكان ابتداء ظهورهم سنة عشرين وثلاثمائة وما زالوا يتغلبون على ممالك بنى العباس شيأ فشيأ حتى تغلبوا على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وصاروا يتوارثون الملك بالتغلب الى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فقامت دولة السلجوقية وتغلبوا عليهم وعلى الخلفاء أيضا وفي سنة خمس وثلاثين كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصر الثملى أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص وكان عدة الاسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيرا من ذكر وأنثى وفضل للروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيرا لكثرة من معهم من الاسرى فوفاهم ذلك سيف الدولة ومن هذا التاريخ صار أمر الصوائف الى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة غزا سيف الدولة بن حمدان الى بلاد الروم فلقيه الروم واقتتلوا فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس وفي سنة ثمان وثلاثين غزا سيف الدولة أيضا بلاد الروم وأوغل فيها وفتح حصون كثيرة وسبي وغنم فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدة يسيرة

﴿ ذكر غزوة بصقلية ﴾

في سنة أربعين غزا الروم بصقلية الحسن بن على الكلبي عامل المنصور العبيدى وجاءت جنود من القسطنطينية مددا للروم بصقلية فاقتتلوا مع المسلمين أشد القتال ثم انهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى الليل وغنموا جميع أثقالهم وسلاحهم ودوابهم وفي سنة احدى وأربعين ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد وفي سنة ثلاث وأربعين غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق فعظم الامر على الروم وعلى الدمستق فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا

عند الحدث فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ثم ان الله تعالى نصر المسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق كثير وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته وعاد الدمستق مهزوما مسلولا وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة سار سيف الدولة في جيوش الى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ورجع الى اذنة فأقام بها ثم رجع الى حاب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا الى ميافارقين وأحرقوا أسوارها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا وفي هذه السنة سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفا وثمانمائة رجل وأحرقوا القرى التي حولها وفعلوا مثل ذلك أيضا بطرسوس والرها سنة ثمان وأربعين وفي سنة تسع وأربعين غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير فأثر فيها آثارا كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والغنائم والاسرى شيئاً كثيرا وبلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس أن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى ان ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ماكان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأى كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب وفي سنة ثلاثمائة وخمسين سار قفل عظيم من انطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب انطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات وفي هذه السنة غزا نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين وغنم ماقيمته قيمة عظيمة وسبى وأسر وخرج سالما

﴿ ذكر استيلاء الروم على مدينة زربة وهو ثغر قرب المصيصة والمصيصة بلدة بالشام ﴾

في سنة احدى وخمسين وثلاثمائة نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وهي في سفح جبل عظيم وهو منرف عليها وهم في جمع عظيم فانفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فملكوه فلما رأى ذلك أهلها وان الدمستق قد ضيق عليه ومعه الدبابات وقد وصل الى السور وشرع في النقب طلبوا الامان فأمنهم الدمستق وفتح له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا الى المدينة فندم على اجابتهم الى الامان ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله الى المسجد الجامع ومن تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنه

الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألفا وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله فقتلوا خلقا كثيرا من الرجال والنساء والصبيان وأمر بجميع مافي البلد من السلاح فجمع فكان شيأ كثيرا وأمر من في المسجد ان يخرجوا من البلد حيث شاؤا يومهم ذلك ومن أمسى قتل فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لايدرون أين يتوجهون وماتوا في الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ماخلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة وأقام الدمستق في بلد الاسلام احدا وعشرين يوما وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالامان وكان من جملة تلك الحصون التى فتحت بالامان حصن أمر أهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض أحد الارمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الامن يصلح ان يسترق فلما أدركه الزمن الذى يصوم فيه النصارى انصرف على انه يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وقتل أخا لابن الزيات فعاد الى طرسوس وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة ابن حمدان فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وأرسلوا له بذلك فلما علم ابن الزيات حقيقة الامر صعد الى روشن في داره فألقى نفسه الى نهر تحته فغرق وأرسل اهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

﴿ ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم منها بغير سبب ﴾

في هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها وكان سبب ذلك أن الدمستق سار الى حلب ولم يشعر به المسلمون لانه كان قد خلف عسكره بقيسارية ودخل بلادهم كما ذكرناه فلما قضى صوم النصارى وخرج الى عسكره من البلاد جريدة ولم يعلم به أحد وسار بهم فعند وصوله سبق خبره وكبس مدينة حلب ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الامر عن الجمع والاحتشاد فخرج اليه فيمن معه فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود ابن حمدان أحد قتلوا جميعهم فانهزم سيف الدولة في نفر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم وأخذ له ألفا وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح مالا يحصى فأخذ الجميع وخرب

الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم في السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل جوشن ثم ان رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أموالهم ليمنعوها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خاليا من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فصعدوا الى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله فنزلوا وفتحوا الابواب ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا السيف الى ان تعبوا وضجروا وكان في حلب ألف وأربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة فلما لم يبق مع الروم مايحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقي وأحرق المساجد وكان قد بذل لاهل البلد الامان على ان يسلموا اليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالا ذكره وينصرف عنهم فلم يجيبوه الى ذلك فملكهم كما ذكرنا وكان عدة عسكره مائتي ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن وهي الصدر والدرع وثلاثون ألفا للهدم واصلاح الطرق من الثلج ومعه أربعة آلاف بغل تحمل الحسك الحديد وهي أداة للحرب من حديد لها شوك تلقى حول العسكر للحفظ من الدخول اليهم ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم فقال له ابن أخت الملك وكان معه هذا البلد قد حصل في أيدينا فليس من يدفعنا عنه فلأي سبب تنصرف عنه فقال له الدمستق قد بلغنا مالم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا مالم يسمع بمثله فتراجعا الكلام الى ان قال له الدمستق أنزل على القلعة فحاصرها فانني مقيم بعسكري على باب المدينة فقدم ابن أخت الملك الى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم فلما قرب من باب القلعة ألقي عليه حجر فسقط ورمي بخشب فقتل فاخذه أصحابه وعادوا الى الدمستق فلما رآه قتيلا قتل من معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفا ومائتي رجل وعاد الى بلاده ولم يعرض لسواد حلب وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود اليهم بزعمه

﴿ ذكر فتح طبرمين من صقلية ﴾

وفي هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية وأميرهم حينئذ أحمد بن الحسن بن علي ابن أبي الحسن عامل العبيديين الى قلعة طبرمين من صقلية أيضا وهي بأيدي الروم فحاصروها وهي من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم

فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا الى الماء الذى يدخلها فقطعوه عنها وأجروه الى مكان آخر فعظم الامر عليهم وطلبوا الامان فلم يجابوا اليه فعادوا وطلبوا ان يؤمنوا على دمائهم ويكونوا رقيقا للمسلمين وأموالهم فيأ فأجيبوا الى ذلك وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون وكان مدة الحصار سبعة أشهر ونصفا واسكن القلعة نفرا من المسلمين وسميت المعزية نسبة للمعز العبيدى صاحب افريقية وسار جيش الى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا الى ملك القسطنطينية يعلمونه الحال ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر فجهز اليهم عسكرا عظيما يزيدون على أربعين ألف مقاتل وسيرهم في البحر فوصلت الاخبار الى الامير أحمد امير صقلية فأرسل الى المعز بافريقية يعرفه ذلك ويستمده ويسأله ارسال العساكر اليه سريعا وشرع هو في اصلاح الاسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر وأما المعز فانه جمع الرجال وحشد وفرق فيهم الأموال الجليلة وسيرهم مع الحسن بن على والد أحمد فوصلوا الى صقلية في رمضان وساروا الى الذين يحاصرون رمطة فكانوا معهم على حصارها فأما الروم فانهم وصلوا أيضا الى مدينة صقلية في شوال ونزلوا عند مدينة مسيني وزحفوا منها بجموعهم التى لم يدخل صقلية مثلها الى رمطة فلما سمع الحسن بن عمار مقدم الجيش الذين يحاصرون رمطة ذلك جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت ووصل الروم وأحاطوا بالمسلمين ونزل أهل رمطة الى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم فقاتلهم الذين جعلوا هناك لمنعهم وأبعدوهم عما أرادوا وتقدم الروم الى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال وعظم الامر على المسلمين وألحقهم العدو بخيامهم وأيقن الروم بالظفر فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ورأوا انه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد * لنفسى حياة مثل ان أتقدما

فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحمى الوطيس حينئذ وحرضهم على قتال الكفار وكذلك فعل بطارقة الروم وحملوا وحرضوا عساكرهم وحمل منويل مقدم الروم فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يؤثر فيه لكثرة ماعليه من اللباس فرمى بعضهم فرسه فقتله واشتد القتال عليه فقتل هو وجماعة من بطارقته فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون الى حرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا فيها من خوف السيف فقتل بعضهم بعضا حتى امتلأت وكانت الحرب من بكرة الى العصر

وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الاموال مالا يحد وكان في جملة الغنيمة سيف هندى عليه مكتوب هذا سيف هندى وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى المعز مع الاسرى والرؤس وسار من سلم من الروم الى ريو واما أهل رمطة فانهم ضعفت نفوسهم وكانت الاقوات قد قلت عندهم فاخرجوا من فيها من الضعفاء وبقى المقاتلة فزحف اليهم المسلمون وقاتلوهم الى الليل ولزموا القتال في الليل أيضا وتقدموا بالسلاليم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا مافيها وكان شيأ كثيرا عظيما ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها ثم ان الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم فركب الامير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضا وزحف اليهم في الماء وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيرا من المراكب التى للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لايلوى أحد على أحد وسارت سرايا المسلمين في مداين الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم كثيرا من الأموال وهادنوهم وكانت هذه الوقائع في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والهدنة في سنة أربع وخمسين وهذه الوقعة الاخيرة تعرف بوقعة المجاز ولنرجع الى تمام الكلام على حوادث سنة احدى وخمسين ففيها أخذ الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة له وفيها سير سيف الدولة حاجبه في جيش مع أهل طرسوس الى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا فقصد الروم حصن سيسية فملكوه وفيها سار نجا غلام سيف الدولة في جيش الى حصن زياد فلقيه جمع من الروم فهزمهم واستأمن اليه من الروم خمسمائة رجل وفي هذه السنة أيضا في شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان من منبج وكان متقلدا لها وكان ذا فصاحة وبلاغة وله ديوان شعر جيد وبقى أسيرا الى سنة خمس وخمسين فافتداه سيف الدولة بمال جزيل وتسلمه منهم وفي سنة احدى وخمسين أيضا سار جيش من الروم الى جزيرة اقريطش فأرسل أهلها الى المعز العبيدى صاحب افريقية يستنجدونه فأرسل اليهم نجدة فقاتلوا الروم فانتصر المسلمون وأسرى من كان بالجزيرة من الروم وفي سنة اثنتين وخمسين دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ودخلها أيضا نجا غلام سيف الدولة من درب آخر وأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا الى قونية وعادوا وفي هذه السنة اجتمع جماعة كثيرة من الارمن وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين

﴿ ذكر حصر الروم المصيصة ووصول الغزاة من خراسان ﴾

في سنة ثلاث وخمسين حصر الروم مع الدمستق المصيصة وقاتلوا أهلها ونقبوا سورها واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم وأحرق الروم رستاقها ورستاق أدنة وطرسوس لمساعدتها أهلها فقتل من المسلمين خمس عشرة ألف رجل وأقام الروم في بلاد الاسلام خمسة عشر يوما لم يقصدهم من يقاتلوهم فعادوا لغلاء الاسعار وقلة الاقوات ثم ان انساناً وصل الى الشام من خراسان يريد الغزو ومعه خمسة آلاف رجل وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين فلما وصلوا الى سيف الدولة في صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين فوجد الروم قد عادوا وافترق الغزاة الخراسانية الى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بغداد ومنها الى خراسان ولما أراد الدمستق العود الى بلاد الروم أرسل الى أهل المصيصة وادنة وطرسوس انى منصرف عنكم لا للعجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وانا عائد اليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودى قتلته ثم نزل ملك الروم بعد ذلك على طرسوس وحصرها وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط في بعضها الدمستق الى الارض وكاد يؤسر فقاتلت عليه الروم وخلصوه وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم ورحل الروم عنهم وتركوا عسكراً على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد فاشتد الغلاء على الروم وكثر فيهم الوباء فمات كثير منهم فاضطروا الى الرحيل

﴿ ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس ﴾

في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة سار نقفور ملك الروم الى قيسارية ليقرب من بلاد الاسلام وأقام بها ونقل أهله اليها فأرسل اليه أهل طرسوس والمصيصة يبذلون له اتاوة ويطلبون منه أن ينفذ اليهم بعض أصحابه يقيم عندهم فعزم على اجابتهم فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصر لهم وان الغلاء قد اشتد عليهم وقد عجزوا عن القوت وأكلوا الكلاب والميته وقد كثر فيهم الوباء فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمائة نفس فعاد نقفور عن اجابتهم وأحضر الرسول وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته وقال لهم أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فان أخذها انسان وأحسن اليها وادفأها انتعشت ونهشته وأنتم انما أطعتم لضعفكم وان تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم وسار الى المصيصة بنفسه فحصرها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها الى

بلد الروم وكانوا نحو مائتي ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحاصرها فاذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الامان فأجابهم اليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم ان يحملوا من سلاحهم وأموالهم مايطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الاسعار وتراجع اليها كثيرمن أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم والعياذ بالله تعالى وأراد الملك المقام بهاليقرب من بلاد الاسلام ثم عاد الى القسطنطينية وأراد الدمستق ان يقصد ميافارقين وبهاسيف الدولة فأمره الملك باتباعه الى القسطنطينية وفي هذه السنة نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزر فاستنصر أهل الخزر باهل خوارزم فلم ينجدوهم وقالوا أنتم كفار فان أسلمتم نصرناكم فأسلموا الا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك

﴿ ذكر خروج الروم الى بلاد الاسلام ﴾

في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة في شوال خرجت الروم فقصدوا مدينة آمد ونزلوا عليها وحاصروها وقتلوا أهلها فقتل منهم ثلاثمائة رجل وأسر نحو أربعمائة أسير ولم يمكنهم فتحها فانصرفوا الى دارا وقربوا من نصيبين ولقيهم قافلة واردة من ميافارقين فأخذوها وهرب الناس من نصيبين خوفا منهم حتى بلغت أجرة الدابة مائة درهم وراسل سيف الدولة الاعراب ليهرب معهم وكان في نصيبين فاتفق ان الروم عادوا قبل هربه فأقام بمكانه وساروا من ديار الجزيرة الى الشام فنازلوا انطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها فلم يمكنهم فتحها فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا الى طرسوس وفي سنة ست وخمسين توفي سيف الدولة وملك ابنه أبو المعالى شريف وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصلت سرية كبيرة من الروم الى انطاكية فقتلوا في سوادها وغنموا وسبوا اثنى عشر ألفا من المسلمين وفي سنة ثمان وخمسين دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله فسار في البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه فقصد قلعة عرقة فاخذه الروم وجميع ماله وكان كثيرا وقصد ملك الروم حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهبا وتحريقا وملك ثمانية عشر منبرا وأما القرى فكثيرة لاتحصى وأقام في الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء

ولا يمنعه أحد الا ان بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين فأراد أن يحصر انطاكية وحلب فبلغه ان أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون اليه فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس ولم يأخذ الا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه وكان بحلب قرعويه غلام سيف الدولة فصانع الروم عليها فعادوا الى بلادهم فقيل كان سبب عودهم كثرة الامراض والموت وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم فعادوا على عزم الرجوع وسير ملك الروم سرية الى الجزيرة فنهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا

ذكر ملك الروم انطاكية

في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة انطاكية وسبب ذلك انهم حصروا حصنا بالقرب من أنطاكية يقال له حصن لوقا ووافقوا أهله وهم نصارى على أن يرحلوا منه الى انطاكية ويظهروا انهم انما انتقلوا منه خوفا من الروم فاذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فتحها وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك وانتقل أهل الحصن ونزلوا بانطاكية بالقرب من الجبل الذى بها فلما كان بعد انتقالهم بشهرين جاءت الروم مع أخى نقفور الملك وكانوا نحو أربعين ألفا فأحاطوا بسور انطاكية وصعدوا الجبل الى الناحية التى بها أهل حصن لوقا فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا فى أهله السيف ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والاطفال من البلد وقالوا لهم اذهبوا حيث شئتم وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم الى بلاد الروم سبيا وكانوا يزيدون على عشرين ألفا

ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها

لما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشا كثيفا الى حلب وكان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة محاصرا لها وبها قرعويه غلام سيف الدولة متغلبا عليها فلما سمع أبو المعالى خبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم وحصروا البلد وبه قرعويه وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة فملك الروم المدينة وحصروا القلعة فخرج اليهم جماعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرعويه وترددت الرسل فاستقر الامر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرعويه اليهم وان يكون الروم اذا أرادوا الغزو لايمكن قرعويه أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم مايحتاجون اليه منها وكان مع حلب حماه وحمص وكفرطاب

والمعرة وافاميـة وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرايا وسلموا الرهـائن الى الروم وعادوا من حلب وتسلمها المسلمون

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفي هذه السنة أرسل ملك الروم جيشا الى ملاز كرد من أعمال أرمينية فحصروها وضيقوا عـلى من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهرا وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في اقطار البلاد وصارت كلها سائبة لاتمتنع عليهم يقصدون أيها شاؤا لضعف ملوك الاسـلام عن مدافعتهم ووقوع الفتن بينهم

ذكر مافعله الروم بالجزيرة

في سنة احدى وستين وثلاثمائة في المحرم أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا واحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر فسار جماعة من أهل تلك البـلاد الى بغـداد مستنفرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا مافعـل الروم من النهب والقتل والاسر والسبى فاستعظمه الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لامانع لهم عنهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وأغلقت الابواب فأسمعوه مايقبح ذكره

ذكر انهزام الروم وأسر الدمستق

في سنة اثنتين وستين وثلاثمـائة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدمستق بناحية ميافارقين وكان سببها ماذكرناه من غزو الروم بلاد الاسـلام فلما رأوا أنهم لامانع لهم قوى طمعهم على أخذ آمد فسار الدمسـتق اليها وبها هزارمرد غلام أبى الهيجاء بن حمدان فكتب الى أبى تغلب بن ناصر الدولة يستصرخه ويعلمه الحال فسير اليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق وكان الدمستق في كثرة فلقياه في مضيق لاتجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأخذ المسلمون الدمستق أسيرا ولم يزل محبوسا الى ان مرض سنة ثلاث وستين وبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات وفي سـنة ثلاث وستين أصاب الخليفة المطيع لله فالج فثقل لسـانه وتعذرت عليه الحركة فخلع نفسه وبويع لابنه الطائع لله وفي سنة ست وستين توفي الحكم ابن عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس وأقيم بعده ابنه هشام وكان صغيرا ولقب المؤيد وقام بأمره الوزير المنصور بن أبي عامر واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الاعداء كثيرا

وامتلأت الاندلس بالغنائم واستمر المنصور ستا وعشرين سنة غزا فيهاثنتين وخمسين غزوة يطول الكلام بذكرها وسيأتي ذكر شئ منها ومن محاسن غزواته أنه دخل بلاد الفرنج غازيا فجاز الضرب اليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل في بلاد الفرنج يسبي ويخرب ويغنم فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات واحضروا الحطب والتبن والميرة ومايحتاجون اليه فلما رأوا عزمه على المقام مالوا الى السلم فراسلوه في ترك الغنائم والجواز الى بلاده فقال أنا عازم على المقام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم الى الصلح فبذلوا له مالا ودواب تحمل له ماغنمه من بلادهم فأجابهم الى الصلح وفتحوا له الدرب فجاز الى بلاده

ذكر غزوات بالهند

وكان القائم بتلك الغزوات السلطان سبكتكين بضم السين وفتح الباء وسكون الكاف الأولى وفتح التاء وكسر الكاف الثانية وبنوه بعده وسبكتكين كان في الاصل غلاما لابى اسحق ابن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية ملوك خراسان عمال الخلفاء العباسيين وكان سبكتكين مقدما عند مولاه أبي اسحق المذكور فلما مات أبو اسحق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم فاجتمع عسكره واتفقوا على تقديم سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروأته فقدموه عليهم وولوه أمرهم سنة ست وستين وثلاثمائة فأحسن السيرة فيهم وصار له ملك ضخم توارثه بنوه في كابل والهند وخراسان الى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة لاسيما السلطان محمود بن سبكتكين فان آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة وكان مقر سلطنتهم غزنة فهي دار ملكهم وهي من مدائن كابل وهذا أول ذكر غزواتهم ففي سنة ست وستين وثلاثمائة غزا سبكتكين وهو والد السلطان محمود صاحب غزنة فافتتح قلاعا حصينة على شواهق الجبال وعاد سالما ظافرا ولما رأى جبال ملك الهند مادهمه وان بلاده تملك من أطرافها جمع الجيوش الكثيرة واستكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فسار سبكتكين عن غزنة اليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة فالتقوا واقتتلوا أياما كثيرة وصبر الفريقان وبالقرب منهم عقبة غورك وفيها عين ماء لاتقبل نجسا ولا قذرا واذا ألقي فيها شئ من ذلك اكفهرت السماء وهبت الرياح وكثر الرعد والبرق والامطار ولا تزال كذلك الى ان تطهر من الذى ألقي فيها فأمر سبكتكين بالقاء نجاسة في تلك العين فجاء الغيم والرعد والبرق وقامت القيامة على الهنود لانهم رأوا مالم

يروا مثله وتوالت عليهم الصواعق والامطار واشتد البرد حتى هلكوا وعميت عليهم المذاهب واستسلموا لشدة ماعاينوه وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل فأجابهم اليه بعد امتناع على مال يؤديه و بلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد وسير معه سبكتكين من يتسلمها فان المال والفيلة كانت معجلة فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند فاخرب كل مامر عليه من بلادهم وقصد لمغان وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الاصنام وأقام فيها شعار الاسلام وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها فلما بلغ ماأراده عاد الى غزنة فلما بلغ الخبر ملك الهند جمع العساكر وسار في مائة ألف مقاتل فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه ان يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة فعند ذلك اشتد الامر وعظم الخطب وحمل المسلمون أيضا جميعهم واختلط بعضهم ببعض فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب وأسر منهم مالا يعد وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة وذل الهنود بعد هذه الواقعة ولم يقم لهم بعدها راية ورضوا بأن لايطلبوا في أقاصي بلادهم ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الافغانية والخلج وصاروا في طاعته

﴿ ذكر غزوة للامير أبي القاسم الكلبي أمير صقلية ﴾

في سنة احدى وسبعين وثلاثمائة في ذى القعدة سار الامير أبو القاسم من صقلية يريد الجهاد وسبب ذلك ان ملكا من ملوك الفرنج يقال له بودويل خرج في جموع كثيرة يريد صقلية فحصر قلعة مالطه وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فسار الامير أبو القاسم بعساكره ليرحله عنها فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال لهم انى راجع من مكانى هذا فلا تكسروا على رأيي فرجع هو وعساكره وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا الى بردويل ملك الفرنج يعلمونه ويقولون له ان المسلمين خائفون منك فالحق بهم فانك تظفر فجرد الفرنجي من عساكره أثقالهم وسار جريدة وجد في السير فأدركهم في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين فتعبى المسلمون للقتال واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم فحمل طائفة من الفرنج على القلب والاعلام فشقوا العسكر ووصلوا اليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن اميرهم واختل نظامهم فوصل الفرنج اليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم ثم ان

المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا واشتد حينئذ الامر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأسر من بطارقتهم كثير وتبعهم المسلمون الى ان أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيرا وأفلت ملك الفرنج هاربا ومعه رجل يهودى كان خصيصا به فوقف فرس الملك فقال له اليهودى اركب فرسى فان قتلت فانت لولدى فركبه الملك ونجا وقتل اليهودى ولما قتل الامير أبو القاسم كان معه ابنه جابر فقام مقام أبيه ورحل بالمسلمين لوقتهم ولم يمكنهم من اتمام الغنيمة فتركوا كثيرا منها

ذكر دخول الروسية في دين النصرانية

قد تأخر دخول الروسية في النصرانية عن بقية الافرنج سكان أوروبا وذلك أنه كان أول دخول الروسية في دين النصرانية سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسبب ذلك أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم فاستنجد بعض منهم بملوك الاسلام وذلك البعض هو وردالرومى وكان من أكابر رؤسائهم وقواد جيوشهم وعظماء بطارقتهم فطمع في الملك ولا قدرة له على قتال بقية المتنازعين فكاتب أبا تغلب بن حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة واستنجد به وصاهره فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور فحصل له جيش ضخم فقصد قتال الروم بذلك الجيش فأخرجوا له جيشا بعد جيش وهو يهزمهم فقوى جنانه فقصد القسطنطينية ومع تلك الجيوش أيضا ورد الرومى الطالب لتملك القسطنطينية فجمعوا له جيوشا كثيرة وقاتلوه قتالا شديدا حتى انهزم فرجع ورد الرومى الى بلاد الاسلام وقصد ديار بكر ونزل بظاهر ميافارقين وكاتب عضد الدولة بن بويه المتغلب بالعراق على الخلفاء ووعده ببذل الطاعة فأجابه بجواب حسن ووعده بأنه ينصره فبلغ ذلك ملوك الروم وكان ماكان منهما أخوين مشتركين في ملك القسطنطينية فكاتبا عضد الدولة وبعثا له بهدايا واستمالاه فقوى في نفسه ترجيح جانبهما وأعرض عن نصرة ورد الرومى وكتب لنائبه بديار بكر وهو أبو على التميمى أن يقبض على ورد الرومى وأصحابه فشرع يدبر الحيلة عليه فبلغ الخبر بعض أصحاب ورد فقالوا له ان ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه في أمرنا ولا شك انهم يرغبونه بالمال وغيره فيسلمنا اليهم فالرأى ان نرجع الى بلاد الروم ونصطلح معهم ان أمكننا أو نموت ونحن نبذل أنفسنا فاما ظفرنا أو متنا كراما فقال ورد ماهذا رأى ولا رأينا من عضد الدولة الا الجميل ولا يجوز ان ننصرف قبل ان نعلم ماعنده فلما قال لهم ورد ذلك فارقه كثير من أصحابه فخرج اليه أبو على التميمى نائب عضد الدولة

بديار بكر فكاتبه وطلب حضوره عنده والاجتماع به فأجابه ورد الى ذلك وحضر عنده فلما اجتمع به قبض عليه وعلى ولده وأخيه وبعض أصحابه وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وحبسهم بميافارقين ثم حملهم لعضد الدولة ببغداد فبقوا في الحبس الى أن مات عضدالدولة سنة خمس وسبعين وصار ملك بني بويه لصمصام الدولة فأطلق ورد الرومي ومن كان محبوسا معه وشرط عليه اطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين وأن يسلم له سبع حصون عينها من بلاد الروم برساتيقها وأن لايقصد بلاد الاسلام لاهو ولا أحد من أصحابه مدة حياته وجهزه بما يحتاج اليه من مال وغيره فسار ورد الى بلاد الروم واستمال في طريقه خلقا كثيرا من أهل البوادى وغيرهم وأطمعهم في العطاء والغنيمة فاجتمع معه جيش فسار به حتى نزل بملطية فتملكها فقوى بها وبما فيها من مال وغيره وقصد من ملوك الروم ورديس بن لارن وراسله واستماله فاستقر الامر بينهما على ان تكون القسطنطينية وما جاورها من شمال الخليج لورديس والجانب الآخر لورد وتحالفا ثم اجتمعا فقبض ورديس على ورد وحبسه ثم ندم فأطلقه عن قريب وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان وضيق عليهما فكاتبا ملك الروسية واستنجدا به وعرضا عليه التزوج بأخت لهما فأجابهما لما طلباه منه من النجدة فامتنعت أختهما من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين فتنصر ملك الروسية فكان ذلك أول دخول الروسية في النصرانية ثم تزوجها وسار بجنوده الى قتال ورديس فاقتتلوا فقتل ورديس واستقر الملكان في ملكهما وكاتبا وردا واصطلحا معه وأقراه على مابيده من الممالك وبقي دهرا طويلا ثم هلك مسموما

استطراد

حيثما ذكر بعض المؤرخين ابتداء دخول الروسية في النصرانية فينبغي أيضا ذكر ابتداء دخول غيرهم من دول الافرنج في النصرانية وذلك يتوقف أولا على ذكر ابتداء دولة كل دولة منها وكيف كانت دياناتها قبل دخولها في النصرانية وبيان ذلك أن أقدم الدول وأقواها في أوائل الدهور دولة الفرس فانهم كانوا أقوى الدول وكانت الدول في أقطار الارض تخضع لهم وتنقاد لامرهم وينتهى نسب ملوك الفرس الى وشهنج وهو مهلائيل بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام وكان وشهنج ملكا مسلما صالحا له ملك واسع وآثار حميدة كثيرة ثم تغير من جاء بعده من عقبه فأحدثوا دين المجوسية واتخذوا الهين اثنين النور والظلمة فأثبتوا الها وهو النور وشيطانا وهو الظلمة وقالوا ان النور هو الله وقالوا انه قديم وسموه يزدان وقالوا ان الظلمة اله مخلوق وهو الشيطان وسموه أهرمن فأصل

دينهم مبني على تعظيم النور وهو يزدان وتحقير الظلمة وهو اهرمن فلما عظموا النور عبدوا النار وقيل ان الفرس وملوكهم ينتهى نسبهم الى فارس بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انهم من نسل يافث بن نوح وهم يقولون أنهم من ولد كيومرث وهو آدم عليه السلام ويقولون ان الملك فيهم من كيومرث وهو آدم عليه السلام وبقي فيهم الى ان استلبه منهم المسلمون من هذه الامة في أوائل ظهور الاسلام وكان في زمن قوة ملكهم موجودا في مشارق الارض ومغاربها ملوك كثيرة ولكن هم كانوا أقوى الملوك وكان أكثر الملوك ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم ومن جملة الملوك الذين كانوا يخضعون لهم ملوك اليونان وملوك الروم الى ان صار ملك اليونان للاسكندر فقاتلهم وقهرهم واستلب الملك منهم وجعل في أرضهم ملوكا من أكابرهم صاروا تحت طاعته يسمون ملوك الطوائف وكانوا عشرين ملكا وكذلك قهر الاسكندر ملوك الروم فكانوا تحت طاعته فمن حين غلبة الاسكندر لملوك الفرس صار ملك اليونان أقوى الملوك ودخل تحت طاعته ملوك الفرس وملوك الروم وهذا الاسكندر يقال له الاسكندر الرومي مع انه كان من اليونان لكنه نسب الى الروم لغلبته اياهم وقهره لهم ودخولهم تحت طاعته وينتهى نسب اليونان الى يونان بن يافث بن نوح عليه السلام وكان مبدأ ملك اليونان قبل ميلاد ابراهيم عليه السلام لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الفرس الى زمن غلبة الاسكندر للفرس فصار الروم أيضا تحت طاعته وقيل ان أول من ظهر أمره من اليونان رجل اسمه اللن ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام وقيل ان تاريخ ظهور ملك اليونان سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام وكان تاريخ غلبة الاسكندر للفرس والروم بعد مضى خمسة آلاف سنة ومائتين واحدى وثمانين سنة من هبوط آدم عليه السلام الى الارض وذلك أيضا بعد مضى ثلاثة آلاف سنة وتسع وثلاثين سنة من الطوفان وذلك أيضا بعد مضى ألف وتسعمائة سنة وثمان وخمسين سنة من مولد ابراهيم عليه السلام وبعد مضى ألف وستمائة سنة وثلاث عشرة سنة من وفاة موسى عليه السلام واما عيسى عليه السلام فكان ميلاده بعد غلبة الاسكندر بثلاثمائة وثلاث سنين وكان الناس قبل ميلاد عيسى عليه السلام يؤرخون بغلبة الاسكندر ثم بعد ميلاد عيسى عليه السلام صاروا يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام وتركوا التاريخ بغلبة الاسكندر ولما بعث نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اصطلح المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أنهم يؤرخون بالهجرة وكان بين الهجرة وميلاد عيسى عليه السلام ستمائة واحدى وثلاثين سنة وقيل

ستمائة واحدى وعشرين سنة وكان اليونان يعبدون الكواكب وكانت لهم أصنام على صور الكواكب يعبدونها وكان من اليونان الفلاسفة الذين دونوا علم الطب اليوناني وكان كثير منهم ينكرون حدوث العالمويقولون انه قديم يعتقدون التأثير الطبيعي ولما غلب الاسكندر ملوك فارس والروم بقى الملك في اليونان الى مضى ثلاثة عشر ملكا منهم وذلك في مدة مائتين واثنتين وثمانين سنة أولها من غلبة الاسكندر ثم غلبهم الروم واستلبوا الملك منهم فصارت الغلبة لملك الروم وهذا الاسكندر الذى غلب فارس والروم غير الاسكندر المذكور في القرآن الذى يقال له ذو القرنين كما حقق ذلك جماهير المفسرين للقرآن فانهم حققوا ان الاسكندر ذا القرنين المذكور في القرآن كان مسلما صالحا بل قيل بنبوته وانه كان قبل الاسكندر الرومي بدهور طويلة وأما الروم الذين غلبوا اليونان واستلبوهم ملكهم فانهم من عقب روم بن عيص بن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام فغلب الروم اليونان واستلبوهم ملكهم بعد مضى مائتين واثنتين وثمانين سنة من غلبة الاسكندر ولم يرجع لليونان ملكهم واستمروا رعية لغيرهم وسكنوا المورة واستمروا رعية أيضا الى ظهور الدولة العثمانية فلما كانت سنة ألف ومائتين وست وثلاثين حصل منهم خروج عن الطاعة للسلطان محمود الثاني العثماني فجهز عليهم وقاتلهم ثم توسط بعض الدول بينهم بالصلح وتوسطوا أيضا في جعلهم دولة مستقلة ببلاد المورة فكان الامر كذلك الى هذا الوقت واما الاروام فانهم بعد فتح السلطان محمدالفسطنطينية سنة ثمان وخمسين وثمانمائة انقرضت دولتهم ولم ترجع لهم دولة بل هم رعية للدولة العثمانية الى الآن وكان انتقال ملك اليونان للروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وخمس وأربعين سنة وكانت ديانة الروم عبادة الكواكب والاصنام التى على صور الكواكب فكانوا تابعين في ذلك لليونان لان الغالب على الناس ان يكونوا على دين ملوكهم واستمر الروم على ذلك الى ان دخلوا في دين النصارى وذلك بعد مضى مائتين وسبع وثلاثين سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ثم ان بعض ملوك الروم أعاد عبادة الاصنام وصار يقتل من يتبع الملة المسيحية وبعضهم يقبلها ويردها الى ان تملك منهم قسطنطين فارتضى الملة المسيحية ودخل فيها وأمر الناس بالدخول فيها والتمسك بها وكان ذلك سنة ثلاثمائة وست من ميلاد المسيح فتنصر الروم جميعا وكان مقر ملك الروم مدينة رومة الى ان بنى القسطنطينية فان الملك قسطنطين المذكور هو الذى بناها ونقل كرسى السلطنة من رومة الى القسطنطينية وكان ذلك سنة ثلاثمائة واثنتى عشرة من ميلاد المسيح عليه السلام وقيل ان هذا تاريخ بناء القسطنطينية

واما نقل كرسي السلطنة اليها فكان سنة ثلاثمائة وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام واما مدينة رومة فأول من بناها ملك من ملوك الروم قبل غلبتهم لليونان اسمه روملس ويقال لها رومة وروميه وكان بناؤه اياها قبل ميلاد المسيح عليه السلام بسبعمائة وثلاث وخمسين سنة وأما بيان كيفية غلبة اليونان للفرس وغلبة الروم لليونان والمحاربات الواقعة بينهم فلا حاجة الى ذكر شئ منها لان ذلك شئ طويل لافائدة في ذكره ولما ملك الروم اليونان وغلبوا عليهم واستلبوهم ملكهم خضع للروم كثير من الملوك ودخل تحت طاعتهم كثير من الملوك الذين لايستطيعون محاربة ملك الروم كملوك الافرنج الذين في أوروبا وكثير من ملوك افريقيا وآسيا وصار ملك الروم ضخما قويا واسعا واستمر ذلك الى سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة فاستاب ملك ايطاليا ملك رومة وانتزعها من ملك القسطنطينية وهو ملك الروم وفصلها عن ملكه وصارت من ممالك ايطاليا لكنه لم يستقل بملكها بل نازعه في ذلك كثير من دول أوروبا ووقع بينه وبينهم محاربات وانتزاع ورجوع مرة بعد أخرى والكلام على ذلك طويل وما صار لملك ايطاليا استقلال تام بالملك الا سنة ألف وسبع وعشرين من ميلاد المسيح الموافق ذلك سنة أربعمائة وثمان عشرة هجرية فاستقلالهم بالملك تأخر الى هذا الوقت وان كانوا متقدمين بالنسبة الى وجود أصل ملكهم فهم أقدم دول أوروبا بالنسبة لكونهم أول من أخرج رومة عن طاعة ملك الروم وان كان تمام استقلالهم متأخرا واما أول الاستقلال فهو سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة بل كان لهم ملوك أيضا قبل ذلك لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الروم بل قال بعضهم ان أول وفودهم الى أرض ايطاليا وسكناهم فيها كان قبل ميلاد المسيح بألف وسبعمائة سنة فهذا وجه قول من قال انهم أقدم ملوك الافرنج الذين في أوروبا ومن حين وفودهم في ذلك الوقت كان لهم رئيس بمنزلة الملك واما دخولهم في دين النصارى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة ثم لم يزل دين النصارى ينتشر عند الافرنج سكان أوروبا الى سنة خمسمائة وست وتسعين من ميلاد المسيح عليه السلام ثم زاد انتشاره حتى عم أكثرهم وتأخر عن الدخول فيه الروسية لانهم انما دخلوا فيه سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم ولما كانت ايطاليا أقدم تلك الطوائف كان تأسيس دينهم ومقر رؤساء الدين عندهم وقد كانت النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام مثل ما كانوا عليه حين كان بين أظهرهم من الاقرار لله بالوحدانية وله بالرسالة مع الاقرار بأنه عبد الله ورسوله ثم بعد

رفعه دخلت عليهم شبه حصل بسببها الافتراق في دينهم فانقسموا ثلاث طوائف ملكانية ونسطورية ويعقوبية فالملكانية مصرحة بالتثليث كما قال الله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة فهؤلاء يقولون الآلهة ثلاثة المسيح وأمه والله ويقولون ان المسيح ناسوت كلى قديم أزلى من قديم أزلى ويقولون ان مريم ولدت الها أزليا ويطلقون لفظ الابوة على الله تعالى وتنزه عمــا يقول الظالمون علوا كبيرا ويطلقون أيضا لفظ البنوة على عيسى عليه السلام اطلاقا حقيقيا واما النسطورية فخالفوا الملكانية فلم يقولوا بالامتزاج بل قالوا ان الكلمة أشرقت على جسد عيسى كاشراق الشمس على كوة أو على بلور واما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الاله هو المسيح كما حكى الله عنهم ذلك بقوله لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وأما المسلمون فقالوا كما ذكر الله تعالى ان مثل عيسى عنــد الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فهذا هو المراد من الكلمة ومن الشبه التي دخلت على النصارى حتى قالوا بالوهية عيسى عليه السلام انه يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى وما عقلوا انذلك بأمر الله بل هو فعل الله وخلقه وايجاده أجراه على يد عيسى عليه السلام وقد أقام الله عليهم الحجة في ابطال زعمهم فقال سبحانه وتعالى * ماالمسيح ابن مريم الارسول قدخلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانايأ كلان الطعام انظر كيف نبين لهــم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * فقوله سبحانه وتعالى كانا يأ كلان الطعام برهان على افتقارهمــا الى الطعام كافتقار جميع الحيوانات فكيف يكون الها من يفتقر الى الطعام ولا يكون قوامه الابه وأيضا أ كل الطعام يستلزم البول والغائط فكيف يكون الها من يحتاج الى أن يبول ويتغوط فأ كل الطعام كناية عن البول والغائط لكن لم يعبر بالبول والغائط لفحش الاتيان بلفظهما والقرآن العزيز ألفاظه في غاية النزاهة والعذوبة مع غاية الفصاحة والبلاغة ومن شبههم أيضا كون المسيح ولد بلا أب فنسبوه الى الله تعالى وغاب عن عقولهم آدم عليه السلام فانه أغرب من عيسى عليه السلام فانه بلا أب ولا أم وقد أبطل الله لهم هذه الشبهة حيث قال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون فخلق آدم بلا أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب وبعد دهور طويلة افترق النصارى فرقتين احداهما تسمى كاتوليكية والاخرى بروتستانية ومع ذلك فبينهم اختلاف كثير ويتشعب من اختلافهم مذاهب كثيرة ليس هذا محل تفصيلها وكلهم يقرون بالبعث ثم منهم من يقول ان البعث بالاجساد والارواح ومنهم من يقول انه بالارواح فقط وفي تاريخ الامام محمد بن جرير الطبري ان قيام الساعة ممــا يؤمن ويقربه

جميع أهل الاسلام وأهل التوراة وأهل الانجيل والمجوس وانما ينكره قوم من غير أهل التوحيد ثم قال وكل الذين ذكرناهم فانهم مقرون بفناء جميع العالم حتى لايبقى غير القديم الواحد ومقرون بأن الله عزوجل محييهم بعد فنائهم وباعثهم بعد هلاكهم الا قوما من عباد الاوثان فانهم يقرون بالفناء وينكرون البعث اه ويسمون الملكانية كاتوليكية وهي صفة مدح عندهم مثل التسمية بأهل السنة عند المسلمين اما اليعقوبية والنسطورية فلم يوجد الآن أحد منهم في بلاد الافرنج بل هم الآن كلهم ملكانية وكان اليعقوبية والنسطورية موجودين في الزمن السابق وانقرضوا ولربما يوجد أحد من اليعقوبية والنسطورية في نصارى الشام ومصر والعراق والحبشة والحاصل ان أهل المذهب الكاتوليكي كلهم ملكانية ورئيس المذهب الكاتوليكي عند النصارى هو الاسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الفخيم ويسمونه البابا ومقره وسكناه رومة عند دولة ايطاليا فله الرياسة على كل متمسك بالمذهب المذكور بمعنى ان له النظر في اجراء الاحكام الدينية الباطنية فهو عندهم بمنزلة القطب عند المسلمين وكان له عندهم ملك سياسي في الاراضي التي تحت سلطته وأكثر ايطاليا على المذهب الكاتوليكي وكانوا في سنة سبعمائة وست وعشرين من ميلاد المسيح الموافق مائة وثمانية من الهجرة جعلوا للبابا دولة جمهورية تكون تحت رياسته فكان ذلك التاريخ مبدأ أمره ولم يزل يترقى أمر الباباوات حتى صارت لهم سطوة الدين والدنيا فكانت لهم ممالك واسعة في الارض وكانوا رؤساء في الدين والدنيا بحيث انهم صار لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبا وعزلهم حسب مشيئتهم فكانت سطوتهم سائدة على كل ملوكهم وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأماهم فكان لهم ثلاث تيجان واحد فوق واحد دلالة على كمال السلطنة وعلوها وبلغ اعتبارهم عندهم انهم عند ماكانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم وكانوا اذا أمروا بمحاربة أمة لايخالفهم أحد ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حي وكان البابامرة الزم أمبراطور ألمانيا ان يقف حافيا ثلاثة أيام في فصل الشتاء امام باب قصره ليطلب منه الغفران ورفس البابامرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثيا امامه يطلب الغفران قال بعض مؤرخي الافرنج المتأخرين ان جهالة تلك الاعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يروا خطأ في رؤساء الدين فكانوا يذعنون لكل أحكامهم ويخضعون لكل مايستقر عليه رأيهم كأنه منزل من الله تعالى لايشوبه عيب فلما بلغت شوكتهم الى هذا الحد لم يبق في أوروبا مملكة الا واضطربت من أفعالهم ولا ملك الا تعكر من مطامعهم ولا كرسي الا وارتج من شوكتهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة كان

منها انحطاط أمر البابوات شيأ فشيأ الى سنة ألف وثمانمائة واحدى وسبعين مسيحية الموافق ألفا ومائتين وثمانيا وثمانين هجرية فسقط أمرهم بالكلية ودخل الايطاليون الى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وابقوه على الكاتوليكية رئيسا فقط ومقره في الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك واستمر الامر كذلك الى هذا الوقت وأما الاحكام بين الرعايا وما يتعلق بالسياسة وتدبير الملك فقد جعلوا لها قوانين دونوها بعقولهم واتخذوا لكل نوع منها مجالس مخصوصة وهكذا سائر دول أوروبا مع انه كان عندهم في الانجيل وفي الكتب القديمة أحكام مدونة تتعلق بالعبادات والمعاملات والانكحة فتركوا كثيرا منها وأسسوا تلك القوانين العقلية ورأوها أقوى في تثبيت ملكهم ثم ان الملكانية الذين تقدم انهم يسمون كاتوليكية استمروا على المذهب الكاتوليكى الى القرن التاسع فلما كثر المنكرون رياسة البابا صاحب رومة صاروا يسمون المنكرين لرياسته بروتستان وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعة الخارجين عن مذهب أهل السنة عند المسلمين فان المسلمين أهل السنة يسمون المخالفين لهم بالمبتدعة فصار عندهم النصارى الملكانية لا يسمى كاتوليكيا الا من اعترف برياسة البابا ومن لم يعترف بها فهو بروتستان بمنزلة المبتدع عند المسلمين وكان هذا الاصطلاح عندهم في القرن التاسع من قرون الهجرة النبوية فهذا هو الفرق الاعظم عندهم بين الفريقين ومع ذلك فالذين يسمونهم بروتستان كثير منهم لا يستأنفون من هذه التسمية لكن الاكثر منهم اذا قيل له أنت بروستان يستأنف من ذلك ولا يرضى بهذا اللقب لأنه بمنزلة المبتدع ويقول بل انا كاتوليكى وان كان غير معترف برياسة البابا ثم ان بين الفريقين أيضا اختلافا في مسائل كثيرة فأعظمها ان البروتستان لا يعترفون برياسة البابا بل يقولون هو من جملة رؤساء الاساقفة ولا تنحصر رياسة الاساقفة فيه بل هي فيه وفي أسقف القسطنطينية وأسقف اسكندرية لامزية ولا رياسة لاحد الثلاثة على الآخرين ولا يزيد قدر أحد الثلاثة على الآخرين وأما الكاتوليكية الاصليون عندهم فهم المعترفون برياسة البابا صاحب رومة على غيره ومن الاختلاف الواقع بينهم ان بعض البروتستان يخالفون مذهب الملكانية الاصلي ويرغبون في اعتقاد التثليث لانهم نظروا في كتب أهل الاسلام وأدلتهم على وحدانية الله واعترفوا بصحة تلك الادلة واعترفوا بوحدانية الله تعالى لكنهم لم يعترفوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واعترفوا برسالة عيسى المسيح عليه السلام وقالوا انه عبد الله ورسوله وهم فقوم متحدون في بقية ديانتهم فهذا موضع من مواضع المخالفة بينهم وبين الكاتوليكية لكن هذا الاعتقاد أعني اعتقاد الوحدانية لله تعالى

لايقول به كل البروتستان بل بعضهم والبعض الآخر من البروتستان يقولون بالتثليث مثل الكاثوليكية لكنهم سموهم بروتستان لعدم اعترافهم برياسة البابا بل يقولون أصول الاساقفة أسقف رومة وأسقف القسطنطينية وأسقف الاسكندرية ثم ان جميع الفريقين لهم عبادات ومشروعات مختلفة اختلافا كثيرا لم يتفقوا كلهم على شئ منها الا الدعاء فانهم كلهم اعترفوا بمشروعيته واما صلاتهم وصيامهم وباقى عباداتهم فهم مختلفون فيها اختلافا كثيرا فمن ذلك ان الصوم يقول الكاثوليكيه انه فرض ويقول البروتستان انه سنة وليس بفرض والصوم المذكور هو صوم أربعين يوما في فصل الربيع الذى يكون قبل الصيف بحيث يكون آخر الاربعين موافقا لآخر الربيع هـذا متفق عليه بينهم لكن الكاثوليكيه الاكثر منهم وهم أهل الديانة القوية منهم يقولون ان الصوم هو امساك عن تناول الطعام والشراب من طلوع الشمس الى غروبها في الاربعين يوما وأما البروتستان وبعض الكاثوليكية الذين ضعفت دياناتهم فانهم يجوزون في حالة الصيام تناول الطعام والشراب لكنهم يقولون لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه وكذا ماتولد من الحيوان كاللبن والسمن الا الحوت فانهم يجوزون تناوله حالة الصيام ويتناولون أيضا الخبز والحلوى وسائر الاطعمة غير اللحم الذى ليس لحم حوت ويشربون الخمر والماء في حالة الصيام ومن الفرق بين الفريقين ان لكل منهم أولياء يعتقدون فيهم ويتوسلون بهم لكن بينهم اختلاف في بعض الاولياء فهذا البعض يعترف به أحد الفريقين دون الآخر وبالعكس فاذا كان الاولياء الذين يعتقدهم الكاثوليك لا يعتقدهم انسان يقولون انه بروتستان وهناك فرقة يسمونهم اللاتينية وفرقة يسمونهم أهل الديانة الروسية (ارثودكس) وذلك بسبب عدم اعترافهم برياسة البابا وان كانوا موافقين الكاثوليك في جميع ماهم عليه من الديانات والاعتقادات ومع ذلك فكثير من اللاتينية وأهل الديانة الروسية يقولون نحن كاثوليك افتخارا بهذا اللقب فيقولون لهم كذبتم أنتم لاتينية أو من أهل الديانة الروسيه حيث انكم لم تعترفوا برياسة البابا وهناك فروق كثيرة بين طوائفهم ومذاهب مختلفة يكفر فيها بعضهم بعضا لاحاجة الى ذكرها وانما المدار عندهم في الفرق بين الكاثوليكية والبروتستان الاعتراف برياسة البابا وعدم الاعتراف بها وقد عرفت ان الاصل الاصيل عندهم في تأسيس الديانات والاقدمية في الملك هى دولة ايطاليا ومع ذلك فبعض منهم ينكرون رياسة البابا فيكونون عندهم بروتستان لكن الاكثرون منهم يعترفون بها فيقرون هم بأنهم كاثوليك وبعض من الفرنسيس والانكليز وغيرهم خرجوا عن ملة النصارى بالكلية في الباطن وان كانوا يعترفون بها في الظاهر واما في الباطن فصاروا

كالزنادقة عند المسلمين فهؤلاء لايعترفون في الباطن بشيء من دياناتهم بل ولا بنبوة عيسى ولا غيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بل بعض منهم ينكرون الصانع ولا يعترفون ببعث ولا نشور ويقولون ماهي الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر فهؤلاء دهرية لكنهم لايتظاهرون بذلك بل يخفونه ويظهرون انهم على ملة النصارى وفي هذا القدر كفاية فلنتمم الكلام على ذكر بقية دولهم وكيفية ابتداء كل دولة ومتى كان دخولهم في النصرانية (اما دولة الفرنسيس) فأصلهم أيضا شعوب وقبائل مختلفة دخلت تلك البلاد في أوقات مختلفة واستوطنوا تلك الارض التى هم فيها الآن وأخص تلك القبائل وأشهرها قوم يقال لهم الكلتيين ويقال لهم أيضا الافرنك بالكاف ثم غيرت بجيم فصار الافرنج وقيل أصله فرنك بالكاف فابدلت الكاف سينا فصار فرنسه وفي تاريخ ابن خلدون عند ذكره الفرنسيس قال هذه الامة المعروفة بالافرنجة تسميها العامة بالافرنسيس نسبة الى بلد من أمهات بلدانهم تسمى افرنسة وينتهى نسب الاكثر منهم الى يافث بن نوح عليه السلام ومع ذلك فقد اختلط بهم كثير من غير جنسهم وصاروا ملحقين بهم والغالب انه اذا أطلق الافرنج انما ينصرف اليهم فيراد بهم الفرنسيس وقد يطلق اسم الافرنج على غيرهم من تلك الطوائف الساكنين باوروبا حتى صار هذا الاطلاق شائعا في هذه الازمان وابتدأ الملك في الفرنسيس من سنة أربعمائة وعشرين من ميلاد المسيح عليه السلام وذلك قبل الهجرة بمائتين واثنتين من السنين هذا ابتداء انتظام الملك فيهم واستقلالهم فيه وأما قبل ذلك فكان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل لهم الاستقلال بل كانوا تارة يكون لهم استقلال وتارة يكونون تحت طاعة غيرهم وقهره وأما اذا اعتبر ابتداؤهم الأصلي فانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة قرون وكانوا تحت قهر ملوك اليونان ثم بعد ذهاب ملك اليونان صاروا تحت قهر ملوك الروم فلا يحسب لهم ملك مستقل في تلك الازمان وكانت دياناتهم عبادة الاوثان التى على صور الكواكب وعبر بعضهم عن ديانتهم قبل دخولهم في النصرانية بانها تشبه ديانات أهل الهند عباد الاوثان ثم دخلوا في النصرانية سنة ست وتسعين وأربعمائة من ميلاد المسيح عليه السلام وكان أول من دخل منهم في النصرانية الملك كاويس وأكثرهم يدعون انهم على المذهب الكاثوليكي وكثير منهم على المذهب البروتستانى ومنهم من لايتدين بدين النصارى ولا غيرهم وينكرون بعثة الانبياء عليهم السلام بل منهم من ينكر الصانع ولكنهم يتسترون ويقولون انهم على دين النصارى ومن ملوك الفرنسيس المشهورين كارلويس الكبير المسمى شارلمان كان ساعيا في ترقى أسباب العلوم العقلية والفنون

الادبية والصناعية التى يتسع بهـا ملكهم وشاع صيته وانتشر ذكره ومكث في الملك خمسا
وأربعين سنة وكان معاصرا لهارون الرشيد وكان بينه وبينه مكاتبات واهدى اليه الرشيد
مرة شطرنجا ثمينا وساعة فلكية من مخترعات بلاد المشرق واهدى اليه أيضا أنواعا كثيرة
من البزورات التى تزرع وليست في بلادهم الافرنجية وأرسل له مفاتيح كنيسة في بيت
المقدس وأمر الرشيد العمال الذين كانوا له في بيت المقدس ان يعاملوا الزوار الذين يأتون
من بلاد الفرنيس للزيارة أحسن المعاملة ومات شارلمان المذكور سنة ثمانمائة وأربع عشرة
مسيحية الموافق مائة وتسعا وتسعين هجرية فيكون موته بعد وفاة الرشيد واما عدد سكان
أرضهم وعدد رعاياهم وعدد عساكرهم وما هو عندهم من الاموال والسلاح وغير ذلك
فلا حاجـة بنا الى ذكره وكذا ماكان يقع بينهم وبين بقية الدول الافرنج من المحاربات
وتغلب بعضهم على بعض فلا حاجة بنا الى ذكره نعم وقع بينهم وبين الانكليز أمر غريب
عجيب وهو انهم تحاربوا ومكث الحرب بينهم واستدام نحو مائة وست عشرة سنة تارة تكون
الغلبة لهؤلاء وتارة لهؤلاء وكان ابتداء ذلك الحرب من سنة ألف وثلاثمائة وسبع وثلاثين
مسيحية الموافق سبعمائة وثمانيا وثلاثين هجرية وانتهاؤه بالصلح بينهم سنة ألف وأربعمائة
وثلاث وخمسين مسيحية الموافق سنة ثمـانمائة وسبعا وخمسين هجرية وذلك مبسوط في
تواريخهم ويسمونه حرب المـائة سنة وكان استيلاء الفرنسيس على الجزائر بافريقية سنة
ألف ومائتين وست وأربعين وفي سنة ألف ومائتين وست وتسعين أدخلوا المحاكم التونسية
في حمايتهم (واما دولة الانكليز) ويقال لها دولة انكلترا أو بريطانيا فكان أول ظهورهم
قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمس وخمسين سنة وكان بينهم وبين الافرنج دول أوروبا
محاربات كثيرة ولم ينتظم الملك لهم ويتم الاستقلال الا سنة ثمانمائة وسبع وعشرين مسيحية
الموافق مائتين وثلاثا وأربعين هجرية وكان أول دخولهم في النصرانية سنة خمسمائة وست
وتسعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وهم أيضا مثل الفرنسيس فيهم
الكاثوليكية والبرتستان والدهرية وأما أصلهم الذى تنتهى اليـه أنسابهم فهم أيضا مجتمعون
من أصناف وفروع شتى وفيهم جماعة من الكلتيين وجماعة ينتهى نسبهم الى يافث بن نوح
عليه السلام ولهم جزيرتان منفصلتان احداهمـا جزيرة بريتانيا والاخرى جزيرة ايرلندا
ولذلك اشتهرت مملكتهم بمملكة بريتانيا وايرلندا وكانوا في أول أمرهم كالوحوش ويلبسون
جلود الوحوش وكانت مساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الاعواد وأوراق الشجر وتارة
من الطين وكان شغلهم صيد الحيوانات يتعيشون منها وحالهم يشبه اجلاف العرب وكانوا

يسجدون للصخور والحجارة وينابيع المـاء ثم لم يزل أمرهم يظهر ويقوى حتى صارت لهم دولة قوية وكان استيلاؤهم على الهند مبتدأه سـنة ألف وسبعمائة وسبع وخمسـين مسيحية الموافق سـنة ألف ومائة وثنتين وسبعين هجرية وتمام استيلائهم على الهند سنة ألف وثمانمائة وست عشرة مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وثمـانيا هجرية وكان تمـام استيلائهم المذكور بعـد حروب وعناء شديد واما استيلائهم على جبل الطارق الذى في المغرب فكان سنة ألف ومائة وست عشرة هجرية انتزعوه من الاسبانيول في السنة المذكورة وقد حاول الاسبانيول والفرنسيس انتزاعه بعد ذلك من الانكليز مرارا عديدة فلم يتيسر لهم ذلك وكان الاسبانيول قبل أخذه منهم قد انتزعوه من المسلمين سنة ثمـانمـائة وسبع وستين هجرية وهذا الجبل من أعظم الحصون في العالم ويعتبر مفتاحا للبحر المتوسط وهو مقابل للجزيرة الخضراء التى هى من بلاد الاندلس فاصـل بينها وبين افريقية ويسمى جبل الفتح وجبل طارق وهو طارق بن زياد الذى فتح الاندلس سنه ثنتين وتسعين من الهجرة وطارق هذا هو مولى موسى بن نصير بضم النون وفتح الصاد مصغرا وموسى المذكور هو مولى عبد العزيز بن مروان أخو عبـد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز فسمى الجبل باسم طارق المذكور لانه نزل بالمسلمين عنده لمـا قصد فتح الاندلس ويسمى جبل الفتح أيضا للعلة المذكورة والعامة يسمونه جبل الطار وصوابه جبل طارق

وأما دولة النمسا المسماة أيضا أوستوريا

فهم أيضا من أصناف شتى وأكثرهم من التتار وابتداء دولتهم كان من سنة ثلاث وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السـلام وكان بعض دول أوروبا يدخلونهم تحت طاعتهم ويتغلبون عليهم وما حصل للنمسا اسـتقلال املك التام الا من سنة تسعمائة وثنتين وثمـانين مسيحية الموافق سنة مائتين وثمانيا وأربعين هجرية ودخولهم في النصرانية في حدود السنين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم ومثل ذلك يقال فيمن يأتى ذكرهم من الدول الا الروسية فانه تأخر دخولهم في النصرانية الى سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم

وأما دولة البروسية

فهم قسم كبير من جرمانيا ويقال جرمانيا أيضا ألمانيا وهم أمم كثيرة لهم ملوك شتى والبروسية طائفة منهم وابتداء دولتهم من سنة أربع وخمسين من ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام واستقلالهم التام بالملك من سنة ألف وثلاثمائة وخمس عشرة مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وثمان عشرة هجرية ثم انضم الى حمايتهم كثير من الدول الصغار من دول جرمانيا فقوى

ملكهم واتسع

﴿ وأما دولة الروسية المسماة بالوسكوف ﴾

فهم أيضا مجتمعون من أجناس كثيرة ومنهم من ينتهى نسبه الى يافث بن نوح عليه السلام وكانوا قبل استقلالهم في الملك تحت الرومانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ثم لما تقوى بعض دول أوروبا تغلبوا عليهم فكانوا تحت طاعتهم وما كان لهم الاستقلال التام بالملك الا من سنة ثمانمائة واثنتين وستين مسيحية الموافق مائتين وثمانيا وأربعين هجرية وكانوا يعبدون الاوثان كغيرهم من دول أوروبا ودخولهم في النصرانية سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين كما تقدم

﴿ وأما دولة اسبانيا ويقالهم أيضا الاسبانيول ﴾

فهم أيضا من أجناس مختلفة وكان لهم ملوك في القديم تابعون لدولة اليونان ثم لدولة الرومانيين بعد اليونان ثم تغلب عليهم بعض من هو أقوى منهم من ملوك أوروبا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتح الاندلس فكان الاندلس تحت يد اسبانيا الى سنة ثنتين وتسعين هجرية فانتزعه المسلمون منهم وبقى لهم ملك ضعيف في آخر الاندلس ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة ثم انتزعوا الاندلس من المسلمين شيأ فشيأ الى أواخر التسعمائة من الهجرة ثم أخرجوا من بقى من المسلمين بالاندلس في سنة ألف وعشر واستقلوا بالملك وكانت ديانتهم عبادة الاوثان كغيرهم ممن تقدم ودخلوا في النصرانية في الزمن الذى دخل فيه من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة البرتوغال ﴾

فكانت تابعة أيضا للرومانيين وكانت ممالكهم في أواخر الاندلس فلما استولى المسلمون على الاندلس أضافوها الى ما بيدهم من الاندلس ثم انتزعت من المسلمين سنة أربعمائة وتسع وثمانين هجرية واستولى عليها الاسبانيول ثم انتزعها البرتوغال من الاسبانيول واستقلوا بالملك فيها سنة ألف وخمسين هجرية

﴿ وأما دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك ﴾

فكانت تحت طاعة اسبانيا وكان بين الدولتين حروب كثيرة استمرت نحو ثمانين سنة الى ان استقلوا بالملك في حدود تسعمائة وسبع وثمانين من الهجرة وكان في السنين المذكورة استيلاؤهم على بلاد الجاوى وكان دخولهم في النصرانية في حدود السنين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم

﴿ وأما دولة الديمارك ﴾

فكانت تحت طاعة ملوك أوروبا الى سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف مسيحية الموافق سبعمائة وتسعا وتسعين هجرية فاستقلوا بالملك

(وأما دولة السويد والنوريج)

فكانت أيضا تحت ملوك أوروبا ثم ساروا تحت طاعة الدنيمارك ثم استقلوا بالملك سنة ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين مسيحية الموافق تسعمائة وثلاثين هجرية

(وأما دولة البلجيك)

فهى من ممالك جرمانيا وما صار استقلالها الا من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وستا وأربعين هجرية

(وأما دولة السويسره)

فكانت أيضا يتداول التملك عليها ملوك أوروبا واستقلت بالملك سنة ألف وستمائة وثمان وأربعين مسيحية الموافق سنة ألف وثمانيا وخمسين هجرية

(وأما دولة باواريا)

فمملكتهم تجمع ملوكا كثيرة كل واحد منهم له مملكة صغيرة وكانت تلك الممالك وملوكها تحت طاعة من قوى من ملوك أوروبا ثم صارت ممالك باواريا مستقلة سنة خمسمائة وثلاثين مسيحية الموافق لما قبل الهجرة باثنين وتسعين سنة ثم صارت هذه الممالك في هذه السنين تابعة لملك البروسية

(فائدتان)

الأولى تتفرع مسئلة فقهية على معرفة تاريخ دخول هذه الطوائف في دين النصرانية وهى انه ان كان دخولهم فيه قبل نسخه فانهم يلحقون بأهل الكتاب في حل أكل ذبيحتهم وفي حل تزوج المسلمين نساءهم وان كان دخولهم فيه بعد نسخه فلا يلحقون بأهل الكتاب فيما ذكر ونسخ دينهم انما كان ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال الامام الرازى في تفسيره عند تفسيره قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم مانصه قال الكثير انما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن قالوا والدليل عليه قوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم فقوله من قبلكم يدل على أن من دان بالكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم أهل الكتاب اه وذكر الخطيب الشربينى في تفسيره مثل ذلك في حل أكل ذبائحهم وهذا الذى ذكره كل منهما هو مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه واما أهل المذاهب الثلاثة فلم يقولوا

بهذا التفصيل بل أطلقوا القول بحل أكل ذبائح أهل الكتاب وحل التزوج من نسائهم ولو دخلوا في دين أهل الكتاب بعد نسخه

(الفائدة الثانية)

كانت دول الفرنج قبل ظهور الاسلام في غاية التوحش وعدم المعرفة بالحرب والصنائع وأنواع السياسات وتدبير الحروب وأنواع العلوم العقلية وما وجد ذلك فيهم وانتشر الا بعد ظهور الاسلام ومخالطتهم للمسلمين فتعلموا ذلك منهم فحصل لهم التمدن والحضارة قال بعض مؤرخيهم عند ذكر الحروب التى كانت بينهم وبين المسلمين في القرن السادس أيام السلطان صلاح الدين الايوبى المسماة بحرب الصليب مانصه ان تلك الحروب وان هلك فيها كثير من النفوس وذهب فيها كثير من الاموال من غير حصول على المقصود لكنه أعقب نتائج نافعة لهم منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيرا من العلوم العقلية والفلكية وألفوا التواريخ النافعة وتوسعوا في معرفة علم الفلك وألفوا فيه وتخلقوا بأخلاق الحضر وتعودوا الاسفار برا وبحرا لاستكشاف أحوال الاقطار واكتشفوا على أمريكا في أسفارهم سنة ثمانمائة وتسعين هجرية ولم تكن قبل ذلك معلومة لأحد قط واكتسبوا من المسلمين أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح وتعاطوا المعانى الغريبة في كلامهم وأشعارهم لاسيما من كانوا منهم مخالطين للمسلمين بالاندلس وتعلموا أيضا المشورة في الاحكام وعلموا ان الملك يفسد بالاستبداد وعدم المشورة فدونوا لهم أحكاما وقوانين يرجعون اليها واستكثروا من جمع كتب الاسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها فأخذوا منها مايكون به صلاح الملك واتخذوا مدارس لتعليم أنواع الفنون وعرفوا ان الملك لاينتظم الا بذلك كله ومن مقالات بعض مؤرخيهم لا تصلح السكنى ببلد حتى تكون الشريعة فيها أقوى من السلطان ومراده بالشريعة ماأسسوه من القواعد العقلية لاحكامهم وسياسة ملكهم واذا كان هذا في تلك الاحكام العقلية فكيف اذا رجع المسلمون الى شريعتهم المطهرة المؤسسة بالوحي من الله تعالى وتمسكوا بها حتى يكون حكم السلطان تابعا لحكمها فلا شك انها تكون أقوى من السلطان وقال بعض مؤرخيهم أيضا مابلغت أمة من الامم غاية الاستقامة الا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل كما ان عدم احترامها يكون منشأ الرجوع الى القهقرى ولا يتوهم ان ذلك لبركة في قوانينهم العقلية وانما ذلك بسبب ابتنائها على التجارب العادى ومراعاة الوازع الدنيوى واما الشريعة المطهرة فهى أقوى من ذلك كله لانها مبنية على

الوحي الالهي الذي يحصل من اتباعه كمال البركة واذا كانت مخالفة قوانينهم يرونها موجبة للانحطاط فلا شك ان مخالفة الشريعة المطهرة يحصل منها كمال الانحطاط مع مايعقب ذلك من العذاب في الدار الآخرة وقال بعض مؤرخيهم وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوروباويين للامة الاسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عند الاوروباويين

(تتميم)

ذكر كثير من المفسرين للقرآن العزيز وكثير من المؤرخين أن الذين ملكوا الدنيا من مشرقها الى مغربها ثلاثة مسلمان وكافر أما المسلمان فهما سليمان بن داود عليهما السلام وذوالقرنين وأما الكافر فهو النمرود الذى كان في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام وزاد بعضهم رابعا كافرا وهو بختنصر فيكونون أربعة مسلمان وكافران لكن قال ابن الاثير في الكامل أن بختنصر لم يملك الدنيا كلها وانما كان له ملك واسع وهو الذى خرب بيت المقدس وقتل بنى اسرائيل وأسر سبعين ألفا منهم لان الله سلطه عليهم لما كثرت فيهم المعاصى والمخالفات وبختنصر هذا كان مجوسيا من مجوس بابل ولم يعرف له أب وكان عاملا على العراق لملك الفرس وكان بين ابتداء ملكه وتخريبه بيت المقدس تسع عشرة سنة وبين الهجرة وتخريبه بيت المقدس ألف وثلاثمائة وتسع وستون سنة وبقى خرابا سبعين سنة ثم عمر وتراجعت اليه بنو اسرائيل والذى عمره بعض ملوك الفرس بوحى من الله تعالى الى النبى أرميا عليه السلام فأخبر ذلك النبي ملك الفرس فامتثل أمره وعمره ثم خرب مرة ثانية بعد رفع عيسى عليه السلام بأربعين سنة وذلك قبل الهجرة بخمسمائة ونيف وخمسين سنة وكان ذلك التخريب لما قتل اليهود يحيى بن زكريا عليهما السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم فقتلوهم وسبوهم ونفوهم من ديارهم وخربوا بيت المقدس وقد ذكر الله تعالى هذين التخريبين في القرآن العزيز في سورة الاسراء في قوله تعالى * وقضينا الى بنى اسرائيل في الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد الآية * وذكر المرة الثانية في قوله تعالى * فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم * أى بعثناهم وسلطناهم ليسوؤا وجوهكم وبقى خرابا الى ان عمره ملك من ملوك الروم بعد تنصرهم وبنى كنيسة قمامة على القبر الذى تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام دفن فيه وخربوا هيكل بيت المقدس الى الارض وأمروا أن يلقى في موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريفة مزبلة وبقى على ذلك الى ان قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام سنة ست عشرة من الهجرة وفتح بيت المقدس فأزال

ذلك وأرجع موضع الصخرة كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم * ولنرجع الى ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات الاسلامية فنقول وفي سنة احدى وثمانين وثلاثمائة خلع الطائع لله وبويع القادر بالله أحمد بن اسحاق بن المقتدر وفي سنة ثنتين وثمانين نزل ملك الروم بأرمينية وحصر خلاط وملاذكرد وارجيش فضعفت نفوس الناس عنه ثم هادنه أبو على الحسن بن مروان الكردى مدة عشر سنين فعاد ملك الروم الى بلاده وفي هذه السنة سار بغراخان ايلك ملك الترك بعساكره الى بخارى فسير اليه الامير نوح بن منصور السامانى جيشا كثيرا ولقيهم ايلك فهزمهم فعادوا الى بخارى وهو في أثرهم فخرج الامير نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه فاقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن هزيمة ايلك فعاد منهزما الى بلاده وفي سنة ثلاث وثمانين جمع ملك الترك جيوشا كثيرة وسار الى بخارى فملكها بسبب اختلاف وقع بين المسلمين مع بعضهم وفي سنة سبع وثمانين توفي سبكتكين صاحب غزنة ووقع اختلاف بين ولديه اسماعيل ومحمود ثم تم الملك لمحمود فاستولى على خراسان وغيرها وصار له ملك ضخم وجاءه التقليد من الخليفة القادر بالله ولقب يمين الدولة

﴿ ذكر غزوة يمين الدولة الساطان محمود بن سبكتكبن صاحب غزنة ﴾

في سنة اثنتين وتسعين تجهز بجيوش كثيرة لغزو الهند وقصد برشور فأتاه عدوّ الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة فاختار يمين الدولة من عساكره خمسة عشر ألفا وسار نحوه فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ملك الهند ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفيسة ومن جملة ذلك قلادة كانت في عنق ملكهم من الجوهر العديم النظير قومت بمائتى ألف دينار وأصيب أمثالها في أعناق مقدمى الاسرى وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلادا كثيرة فلما فرغ من غزواته أحب ان يطلق ملك الهند الذى أسره ليراه الهنود في شعار الذل فأطلقه بما قرره عليه فأدى المال ومن عادات الهنود انهم من حصل منهم في أيدى المسلمين أسيرا لم ينعقد له بعدها رياسة فلما رأى ملك الهند حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة

﴿ ذكر غزوة أخرى الى الهند أيضا ﴾

لما فرغ يمين الدولة السلطان محمود سبكتكين من أمر جيبال رأى ان يغزو غزوة أخرى فسار نحو ويهند فأقام عليها محاصرا لها حتى فتحها قهرا وبلغه ان جماعة من الهند قد اجتمعوا

بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد فسير اليهم طائفة من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم الا الشريد الفريد وعاد الى غزنة سالما ظافرا

﴿ ذكر غزوة بهاطية من بلاد الهند ﴾

في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند وهي مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها ثم انه خرج الى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم في الرابع وطاب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقه المسلمون الى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الاموال وأما الملك فانه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار الى رؤس تلك الجبال فسير اليه يمين الدولة سرية فلم يشعر الملك الا وقد أحاطوا به وحكموا السيوف في أصحابه فلما أيقن بالعطب أخذ خنجرا فقتل نفسه وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها الى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها مايجب عليهم تعليمه ولقي في عوده شدة شديدة من الامطار وكثرتها وزيادة الأنهار فغرق مما معه ومن عسكره شئ عظيم

﴿ ذكر غزوة المولتان ﴾

في سنة ست وتسعين وثلاثمائة غزا السلطان يمين الدولة المولتان وكان سبب ذلك ان واليها كان قد أسلم ثم نقل عنه خبث الاعتقاد ونسب الى الالحاد ودعا أهل ولايته الى ماهو عليه فأجابوه فرأى يمين الدولة ان يجاهده ويستنزله عما هو عليه فسار نحوه فرأى الانهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد وخاصة سيحون فانه منع جانبه من العبور فأرسل الى اندبال يطلب اليه ان يأذن له في العبور من بلاده الى المولتان فلم يجبه الى ذلك فابتدأ به قبل المولتان فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لاموال أهلها والاحراق لابنيتها ففر اندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان من مضيق الى مضيق الى ان وصل الى قشمير ولما سمع ملك المولتان بخبر اندبال علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله الى سرنديب وأخلى المولتان فوصل يمين الدولة اليها ونازلها فاذا أهلها في ضلالهم يعمهون فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم

﴿ ذكر غزوة كواكير ﴾

ثم سار عن المولتان الى كواكير وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق الاصنام فهرب

صاحبها الى قلعة له فسار خلفه اليها وهى حصن كبير يسع خمسمائة ألف انسان وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة وفي الحصن مايكفى الجميع مدة فلما قام بها يمين الدولة وبقى بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالأحد طاقة عليه فأمر بقطعها ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر فأمر ان يطم منه مقدار مايسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ووصل الى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ثم بلغه اختلاف في خراسان فأراد الرجوع فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من فضة ولبس خلعة يمين الدولة بعد ان استعفى من شد المنطقة وقطع أصبعه الخنصر وأنفذها الى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه وعاد يمين الى خراسان لاصلاح مااختلف فيها وكان عازما على الدخول في بلاد الهند

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة سار يمين الدولة نحو الهند وسبب ذلك ان بعض أولاد ملوك الهند كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ماافتتحه من بلادهم فلما كان الآن بلغه انه ارتد عن الاسلام ومال لاهل الكفر والطغيان فسار اليه مجدا فخين قاريه فر الهندى من بين يديه واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها الى حكم الاسلام واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد الى غزنة

﴿ ذكر غزوة بهيم نغر ﴾

في سنة ثمان وتسعين غزا يمين الدولة وانتهى الى شاطئ نهر هندمند فلاقاه هناك ابرهمن بال بن أندبال في جيوش الهند فاقتتلوا مليا من النهار وكادت الهند تظفر بالمسلمين ثم ان الله تعالى نصر عليهم فظفر بهم المسلمون فانهزموا على أعقابهم وأخذهم المسلمون بالسيف وتبع يمين الدولة أثر ابرهمن بال حتى بلغ بهيم نغر وهى على جبل عال وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الاعظم فينقلون اليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن واعلاق الجواهر وهم يعتقدون ذلك دينا وعبادة فاجتمع فيها على طول الازمان مالم يسمع بمثله فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقاتلهم فلما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال وزحفهم اليهم مرة بعد أخرى خافوا وجبنوا وطلبوا الامان وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة وصعد يمين الدولة اليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ومن الأوانى الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة من وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا الى غير

ذلك من الامتعة وعاد الى غزنة بهذه الغنائم ففرش تلك الجواهر في صحن داره وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك فأدخلهم اليه فرأوا مالم يسمعوا بمثله

﴿ ذكر غزوة بالهند ﴾

في سنة أربعمائة تجهز يمين الدولة الى الهند عازما على غزو نارين فسار اليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها فلما رأى ملك الهند انه لاقوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلا وان يكون في خدمته ألفا فارس لايزادون فقبض منه مابذله وعاد عنه الى غزنة

﴿ ذكر غزو يمين الدولة بلاد الغور وغيرها ﴾

في سنة احدى وأربعمائة غزا يمين الدولة بلاد الغور وهي بلاد تجاور غزنة وكان الغور كفارا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غاقة وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها فلما كثر ذلك منهم أنف يمين الدولة ان يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر فجمع العساكر وسار اليهم حتى انتهى مقدمة جيشه الى مضيق قد شحن بالمقاتلة فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان فسمع يمين الدولة الحال فجد في السير اليهم وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا الى عظيم الغورية فبرز من مدينته في عشرة آلاف مقاتل فقاتلهم المسلمون الى أن انتصف النهار فرأوهم أشجع الناس وأقواهم على القتال فأمر يمين الدولة عساكره ان يولوا الادبار على سبيل الخديعة والاستدراج ففعلوا فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم فعطف المسلمون عليهم ووضعوا السيف فيهم فأبادوهم قتلا وأسرا وكان في الاسرى كبيرهم وزعيمهم ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا مافيها وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعا فلما رأى كبيرهم مافعل المسلمون شرب سما كان معه فمات وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وأظهر يمين الدولة في تلك الاعمال شعار الاسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد ثم سار الى طائفة أخرى من الكفار فقطع مفازة من رمل ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون منه فلطف الله سبحانه وتعالى بهم وأرسل عليهم مطرا سقاهم وسهل عليهم السير في الرمل فوصل الى الكفار وهم جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض ثم ان الله نصر المسلمين وهزم الكفار وأخذ غنائمهم وأكثر القتل فيهم وعاد سالما مظفرا منصورا

﴿ ذكر فتح يمين الدولة ناردين ﴾

في سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند في جمع عظيم وحشد كثير وقصد واسطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه وبرز الى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسالك فاحتمى به وطاول المسلمين وكتب الى الهنود يستدعيهم من كل ناحية فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا فلما تكاملت عدته نزل من الجبل وتصاف هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الامر ثم ان الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا مامعهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك فلما فرغ من غزوته أرسل الى الخليفة القادر بالله يخبره فكتب له منشورا وعهدا بخراسان وما بيده من الممالك ولقبه نظام الدين

﴿ ذكر غزوة تانيشر ﴾

في سنة خمس وأربعمائة ذكر ليمين الدولة ان بناحيــة تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب وان صاحبها غال في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين فعزم على غزوه في عقر داره وان يذيقه شربة من كأس قتاله فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارا فسيحة الاقطار والاطراف بعيدة الأكناف والماء بها قليل فلقوا شدة وقاسوا مشقة الى ان قطعوها فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرا شديد الجرية صعب المخاضة وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها أي يتعزز بها فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر واشتغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقاتلوهم من جميع جهاتهم الى آخر النهار فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا مامعهم من أموال وفيلة وعادوا الى غزنة موفرين ظافرين

﴿ ذكر غزوة الى الهند ﴾

في سنة ست وأربعمائة غزا يمين الدولة الهنــد على عادته فضل أدلاؤه الطريق ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معــه وخاض المــاء بنفسه أياما حتى تخلص وعاد الى خراسان

﴿ ذكر غزوة قشمير وقنوج وغيرهما ﴾

في سنة سبع وأربعمائة سار يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من غزنة الى الهند عازما على غزو قشمير اذ كان قد استولى على ماينــه وبين قشمير من بلاد الهند وأتاه المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد وسار اليها ثلاثة أشهر سيرا

دائما وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الاتاوة فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه الى مقصده فبلغ ماجون في العشرين من رجب وفتح ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ماهاله وأرعبه وعلم أنه لاينجيه الا الاسلام فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الاخلاص طلبا للخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه الى قلعة كلجند وهو من أعيان الهند وشياطينهم وكان على طريقه غياض ملتفة لايقدر السالك على قطعها الا بمشقة فسير كلجند عساكره وفيوله الى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة الى الحصن فلم يشعروا الا وهو معهم فقاتلهم قتالا شديدا فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا وأخذهم السيف من خلفهم ولقوا نهرا عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم وكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا وعمد كلجند الى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند وهو من أحصن الابنية على نهر ولهم به من الاصنام كثير منها خمسة أصنام من الذهب الاحمر مرصعة بالجواهر وكان فيها من الذهب سبمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال وكان بها من الاصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي وسار نحو قنوج وصاحبها راجيال فوصل اليها في شعبان فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كنك وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة وان من غرق نفسه فيه طهر من الآثام فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها وهي سبع على الماء المذكور وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عمات من مائة ألف سنة الى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا ولما فتحها أباحها عسكره ثم سار الى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا فلما عضهم السلاح علموا أنهم لاطاقة لهم فاستسلموا للسيف فقتلوا ولم ينج منهم الا السريد ثم سار نحو قلعة آسي وصاحبها جندبال فلما قاربها هرب جندبال وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه ثم سار الى قلعة شروة وصاحبها جند رآى فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها وعمي خبره فلم يدر أين هو فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم مافيه وسار في طلب جندرآى جريدة وقد بلغه خبره فلحق به في آخر شعبان فقاتله فقتل أكثر جند جندرآى وأسر كثيرا منهم وغنم مامعه من مال وفيول وهرب جندرآى في نفر من أصحابه

فتيحا وكان السبي في هذه الغزوة كثيرا حتى أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم ثم عاد الى غزنة ظافرا ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله ووسع فيه وكان جامعها القديم صغيرا وأنفق ماغنمه في هذه الغزوة في بنائه وفي هذه السنة تفرقت ممالك الاندلس وصار عامل كل قطر منه متغلبا على مابيده لضعف ملوك بنى أمية وكثرت الفتن بينهم وبين العلويين بنى ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى

(ذكر خروج الترك من الصين)

في سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاه وكانوا أجناسا منهم الخطابية الذين ملكوا ماوراء النهر وكان خروجهم للاستيلاء على ممالك الاسلام وكان أقرب بلاد الاسلام اليهم بلاساغون وكان ملكها من صالحى ملوك الاسلام يحب العلم وأهله ويميل الى أهل الدين ويصلهم ويقربهم واسمه طغان خان وكان قد ملك أيضا تركستان ومرض مرضا شديدا وطال به المرض فطمعوا في البلاد لذلك فساروا اليه وملكوا بعض ممالكه وغنموا وسبوا وبقى بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام فلما بلغه الخبر وكان مريضا بها سأل الله أن يعافيه فينتقم من الكفرة ويحمى البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ماأراد فاستجاب الله له وشفاه فجمع العساكر وكتب الى سائر بلاد الاسلام يستنفر الناس فاجتمع اليه من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفا فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا الى بلادهم فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتى ألف رجل وأسر نحو مائة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الاوانى الذهبية والفضية ومعمول الصين مالا عهد لاحد بمثله وعاد الى بلاساغون فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الانصارى في غزوة الخندق فانه دعا الله لما جرح في أكحله ان يبقيه حتى يأخذ ثاره من بنى قريظة فاستجاب الله دعاءه ثم بعد الانتقام منهم وقتلهم انفجر جرحه ومات رضى الله عنه ولما مات طغان خان ملك بعده أخوه رسالان خان ولقب شرف الدولة

(ذكر غزوة يمين الدولة الى الهند والافغانية)

في سنة تسع وأربعمائة سار يمين الدولة الى الهند غازيا واحتشد وجمع واستعد واعد أكثر مما تقدم وقصد بيد اللعين وكان أعظم ملوك الهند مملكة وأكثرهم جيشا وتسمى مملكته كجوراهة وسار يمين الدولة عن غزنة وابتدأ في طريقه بالافغانية وهم كفار

يسكنون الجبال ويفسدون في الارض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم الكثير ثم استقل على المسير وبلغ الى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته وعبر نهر كنك ولم يعبره قبلها فلما جازه رأى قفلا قد بلغت عدة احماله ألف عدد فغنمها وهى من العود والامتعة الفائقة وجد به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له بروجيبال قد سار من بين يديه ملتجأ الى بيداليحتمى به عليه فطوى المراحل فلحق بروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان وبينه وبين الهنود نهر عميق فعبر اليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ثم عبر هو وباقى العسكر اليهم فاقتتلوا عامة نهارهم فانهزم بروجيبال ومن معه وكثر فيهم القتل والاسر وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون وأخذوا منهم الكثير من الجواهر وأخذوا مايزيد على مائتى فيل وسار المسلمون يقتصون آثارهم وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره وأرسل الى يمين الدولة يطلب الامان فلم يؤمنه ولم يقنع منه الا بالاسلام وقتل من عساكره مالا يحصى وسار بروجيبال ليلحق بيدا فانفرد به بعض الهنود فقتله فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم الى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والاتاوة وسار يمين الدولة بعد الوقعة الى مدينة بارى وهى من أحصن القلاع والبلاد وأقواها فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة وقتل من أهلها خلقا كثيرا وسار يطلب بيد الملك فلحقه وقد نزل الى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه اذا أراد القتال وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلا فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأخرج اليهم بيدا مثلهم ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان فأدركهم الليل وحجز بينهم فلما كان الغد بكر يمين الدولة اليهم فرأى الديار منهم بلاقع وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الاخرى ووجد خزائن الاموال والسلاح بحالها فغنموا الجميع واقتفى آثار المنهزمين فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والاسر ونجا بيدا فريدا وحيدا وعاد يمين الدولة الى غزنة منصورا

(ذكر فتح قلعة من الهند)

في سنة أربع عشرة وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأوغل فيها فغنم وقتل حتى وصل الى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد الامن موضع واحد وهى كبيرة تسع خلقاوبها

خمسمائة فيل وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع مايحتاج الناس اليه فحصرهم يمين الدولة وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال فقتل منهم كثير فلما رأوا ماحل بهم أذعنوا له وطلبوا الامان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منه وأهدى له هدايا كثيرة منها طائر على هيئة القمرى من خاصيته انه اذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها

(ذكر فتح سومنات)

في سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومنات وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون اليه كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ماينيف على مائة انسان وتزعم الهنود ان الارواح اذا فارقت الاجساد اجتمعت اليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء وكانوا يحملون اليه كل علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الوقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية وقد اجتمع في البيت الذى هو فيه من نفيس الجوهر مالا يحصى قيمته ولاهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون أنها تساق الى جنة النعيم وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتى فرسخ وكان يحمل من مائه كل يوم الى سومنات مايغسل به ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود اليه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤس زواره ولحاهم وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم ولكل واحد من هؤلاء شئ معلوم كل يوم وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحا وكسر صنما يقول الهنود ان هذه الاصنام قد سخط عليها سومنات ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه واهلاكه ظنا منه ان الهنود اذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم دخلوا في الاسلام فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان في هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان وفي طريقه الى الهند برية قفر لاساكن فيها ولا ماء ولا ميرة فتجهز هو وعسكره على قدرها ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد انهلوارة فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها فيسر الله فتحها عند قربه منها بالرعب الذى قذفه الله في قلوبهم وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها وامتاروا منها الماء وما يحتاجون اليه وسار الى انهلوارة فوصلها مستهل ذى القعدة فرأى

صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصنا له يحتمى به فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار الى سومنات فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الاوثان شبه الحجاب النقباء لسومنات على ماسول لهم الشيطان فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها وسار الى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء فلقي عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك فأرسل اليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولواره وهى على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها ظنا منهم ان سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها وسار عنها الى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذى القعدة فرأى حصنا حصينا مبنيا على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه وأهله على الاسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم فلما كان الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به فرأى الهنود من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا اليه وأعلنوا بكلمة الاخلاص وأظهروا شعار الاسلام فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود الى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض فلما كان الغد بكر المسلمون اليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل واجلوهم عن المدينة الى بيت صنمهم سومنات فقاتلوا على بابه أشد قتال وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل الى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون اليه ويخرجون فيقاتلون الى ان يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقى منهم القليل فدخلوا البحر الى مركبين لهم لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرق بعض وأما البيت الذى فيه سومنات فهو مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء وليس بصورة مصورة فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه الى غزنة فجعله عتبة الجامع وكان بيت الصنم مظلما وانما الضوء الذى عنده من قناديل الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا من كلما مضى طائفة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين الى عبادتهم وعنده خزانة فيها عدة من الاصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب الى عظيم من عظمائهم وقيمة مافي البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل ثم ان يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب انهلوارة قد قصد

قلعة تسمى كندهة في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخا فسار اليها يمين الدولة من سومنات فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه أنه يمكن خوضه لكن ان تحرك الهواء يسيرا غرق من فيه فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا سالمين فرأوا بهم قد فارق قلعته وأخلاها فعاد عنها وقصد المنصورة وكان صاحبها قد أسلم ثم ارتد عن الاسلام فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبة فقصده يمين الدولة من موضعين فأحاط به وبمن معه فقتلوا أكثرهم وغرق منهم كثير ولم ينج منهم الا القليل ثم سار الى بهاطية فأطاعه أهلها ودانوا له فرحل الى غزنة فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمائة

﴿ ذكر غرق الاسطول بجزيرة صقلية ﴾

في سنة ست عشرة وأربعمائة خرج الروم الى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية وهى مجاورة لجزيرة صقلية وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك فبلغ ذلك المعز بن باديس عامل افريقيـة للعبيديين فجهز أسطولا كبيرا أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيرا وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة في الاجر فسار الاسطول في كانون الثانى فلما قرب من جزيرة قوصرة وهى قريب من برافريقية خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج الا اليسير

﴿ ذكر غزوة للمسلمين الى الهند ﴾

في سنة احدى وعشرين وأربعمائة غزا أحمد بن ينالتكين النائب عن يمين الدولة ببـلاد الهند مدينة للهنود وهى من أعظم مدنهم يقال لها نرسى ومع أحمد نحو مائة ألف فارس وراجل وشن الغارة على البـلاد ونهب وسبى وخرب الاعمال وأكثر القتل والاسر فلما وصل الى المدينة دخـل من أحد جوانبها ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوما من بكرة النهار الى آخر النهـار ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهرجيـين حسب وباقى أهـل البلد لم يعلموا بذلك لان طوله منزل من منازل الهنود وعرضه مثله فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيـه لكثرة أهله فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره وبلغ من كثرة ما نهب انهم اقتسموا الذهب والفضة كيلا ولم يصل الى هذه المدينة عسكر للمسلمين قبله فلما فارقه أراد العود اليه مرة أخرى فلم يقدر على ذلك ومنعه أهله وفي هـذه السنة توفي يمين الدولة السلطان محمود بن سـبكتكين وعمره احدى وستون سنة ومدة ملكه أربع وثلاثون سـنة وكان صالحا عادلا محبا للعلماء مكرما لهم ومحبا للجهاد ووقع بعـده

اختلاف بين ابنه محمد ومسعود وتم الملك لمسعود

(ذكر خروج ملك الروم الى الشام وانهزامه)

في سنة احدى وعشرين وأربعمائة خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل الى الشام فلم يزل بعساكره حتى بلغ قريب حلب فلحقهم عطش شديد وكان أصحابه مختلفين عليه وعبر على عسكره جمع من العرب ليسوا بالكثير فظن انها كبسة نخاف ورحل وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الارمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا وهلك كثير من الروم عطشا ونجا الملك وحده ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شئ البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا حتى أن الملك لبس خفا أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الاحمر فتركه ولبس الاسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ماكان معهم

(ذكر غزو فضلون الكردى الخزر وماكان منه)

كان فضلون الكردى هذا بيده قطعة من أذربيجان استولى عليها وملكها فاتفق انه غزا الخزر في هذه السنة فقتل منهم وسبى شيأ كثيرا فلما أراد العود الى بلاده أبطأ في سيره وظن أنه دوخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه مجدين وكبسوه وقتلوا من أصحابه والمتطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل واستردوا الغنائم التى أخذت منهم وغنموا أموال العساكر الاسلامية وعادوا

(ذكر ملك الروم مدينة الرها)

في سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم مدينة الرها وكان بالرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر الكبير بيد ابن عطير والصغير بيد ابن شبل فراسل ابن عطير ارمانوس ملك الروم وباعه مابيده بعشرين ألف دينار وعدة قرى فتسلموا البرج الذى له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل وقتل الروم المسلمين وخربوا المساجد فسمع نصر الدولة ابن مروان مالك بلاد الكرد الخبر فسير جيشا الى الرها فحصروها وفتحوها عنوة واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى غيرهم بالبيعة التى لهم وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقى الروم بالبرجين وسير اليهم ابن مروان عسكرا نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخل الروم البلد وملكوها وما جاورهم من بلاد المسلمين فصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج وحمل اليهم

خراجا وفي هذه السنة توفي الخليفة القادر بالله وكانت خلافته احدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وبويع بعده ابنه القائم بأمر الله

﴿ ذكر ملك الروم قلعة افامية ﴾

في سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم قلعة افامية بالشام بسبب اختلاف العمال من المسلمين فدخل حسان بن المفرج الطائي بلد الروم هاربا من الدزبرى عامل في الشام لخليفة مصر ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار الى افامية فكبسها وغنم مافيها وسبي أهلها وأسرهم

﴿ ذكر فتح قلعة سرستى وغيرها من بلاد الهند ﴾

في سنة خمس وعسرين وأربعمائة قصد السلطان مسعود بن محمود سبكتكين قلعة سرستى وهى من أمنع حصون الهند وأحصنها فحصرها وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها فلما حصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالا على الصلح فأجابه الى ذلك وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها لمسعود من جملة ماتقرر عليه فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها اليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها وأنه ان صابرهم ملكهم فرجع عن الصلح وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبي ذراريهم وأخذ ماجاورها من البلاد ثم رحل عنها الى قلعة نغسى وحصرها فرآها عالية لاترام يرتد البصر دونها وهو حسير الا أنه أقام عليها يحصرها فخرجت عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندى طويلا وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشته منها الى جهة عسكر المسلمين فمرض وأصبح لايقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفا شديدا فرحل عن القلعة لشدة المرض فحين فارقها زال ماكان بها وأقبلت الصحة والعافية اليه وسار نحو غزنة

﴿ ذكر ملك الروم قلعة بركوى ﴾

هده قلعة متاخمة للارمن كانت في يد أبى الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت وهودان بن مملان فتنافر هو وخاله فأرسل خاله الى الروم فأطمعهم فيها فسير ملك الروم اليها جمعا كثيرا فملكوها سنة خمس وعسرين وأربعمائة فبلغ الخبر الى الخليفة فارسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة فاصطلحا ولم يتمكنا من استعادتها واجتمع اليهما خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها وفي سنة سبع وعشرين اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا جموعا وأمدهما نصر الدولة بن

مروان بعسكر كثيف فساروا جميعا الى السويدا وربض الرها وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت واجتمع اليها أهل القرى المجاورة لها فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وغنموا مافيها وسبوا خلقا كثيرا وقصدوا الرها فحصروها وقطعوا الميرة عنها واشتد الامر فخرج البطريق الذى فيها متخفيا ولحق بملك الروم وعرفه الحال فسير معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم فعرف ابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة الحال فكمنوا لهم فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق وحمل الى باب الرها وقالوا لمن فيها اما أن تفتحوا الباب والا قتلنا البطريق والاسرى الذين معه ففتحوا الباب للعجز عن حفظه وتحصن أجناد الروم بالقلعة ودخل المسلمون المدينة وغنموا مافيهاوامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وأكثروا القتل وأرسل ابن وثاب الى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤس القتلى وأقام محاصرا للقلعة ثم ان حسان بن الجراح الطائى سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لمن بالرها فسمع ابن وثاب بقربه فسار اليه مجدا ليلقاه قبل وصوله فخرج من الرها بجمع من الروم الى حران فقاتلهم أهلها وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعا فوقع على الروم فقتل منهم كثيرا وعاد المنهزمون الى الرها ثم صالح ابن وثاب الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلم اليهم ربض الرها وكثر الروم بها وعمروها وحصنوها وفي سنة تسع وعشرين هادن المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر ملك الروم وشرط عليه اطلاق خمسة آلاف أسير وشرط الروم عليه ان يعمروا بيعة قمامة فأرسل الملك اليها من عمرها وأخرج على عمارتها مالا جليلا ثم انتقضت الهدنة سنة ٣٢ وجهز الروم جيشا فالتقوا مع جيش المسلمين بين مدينة حماة وافامية واشتد القتال ثم ان الله نصر المسلمين وأذل الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر ابن عم للملك وبذلوا في فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسراء المسلمين وانكف الروم عن الاذى بعدها وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا قتل مسعود بن محمود سبكتكين وتملك ابنه مودود والقاتل لمسعود أولاد أخيه محمد والقصة طويلة ليس هذا محل ذكرها وفي سنة خمس وثلاثين أخرج ملك الروم من القسطنطينية المسلمين والغربا ونادى أن لايقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة فمن أقام بعدها كحل فخرج منها أكثر من مائة ألف انسان ولم يبق بها أكثر من اثنى عشر نفسا فضمنهم الروم فتركهم

(ذكر تملك مودود بن مسعود بن محمد سبكتكين عدة من حصون بلد الهند)

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها

فجمع مقدم العساكر الاسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل الى صاحبه مودود يستنجده فأرسل اليه العساكر فاتفق ان بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد الى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران الى بلدهما فسارت العساكر الاسلامية الى أحدهما فانهزم منهم وصعد الى قلعة له منيعة هو وعساكره فاحتموا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم فطلب الهنود الامان على تسليم الحصن فامتنع المسلمون من اجابتهم الى ذلك الا بعد أن يضيفوا الى ذلك باقي حصون ذلك الملك الذى لهم فحملهم الخوف وعدم الاقوات على اجابتهم الى ماطلبوا وتسلم المسلمون الجميع وغنموا الاموال وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين وكانوا نحو خمسة آلاف نفر فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثانى فتقدم اليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزمت الهنود وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم فلما رأى باقى الملوك من الهند مالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة وطلبوا الامان وحملوا الاموال وطلبوا الاقرار على بلادهم فاجيبوا الى ذلك

﴿ ذكر أخبار الروم والروسية ﴾

وفي سنه خمس وثلاثين ورد الى القسطنطينية عدد كثير من الروسية في البحر يريدون حرب الروم فاجتمعت الروم على حربهم وكان بعضهم قد فارق المراكب الى البر فألقى الروم في مراكبهم النار فلم يهتدوا الى اطفائها فهلك كثير منهم بالحرق والغرق وأما الذين في البر فقاتلوا ثم انهزموا فلم يكن لهم ملجأ فمن استسلم أولا استرق ومن امتنع حتى أخذ قهرا قطع الروم أيمانهم وطيف بهم في البلد ولم يسلم منهم الا قليل مع ابن ملك الروسية وفي سنة تسع وثلاثين سير المعز بن باديس صاحب افريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد

﴿ ذكر غزو السلجوقية بلاد الروم ﴾

ولنذكر أولا ابتداء ظهور الدولة السلجوقيه أصلهم من الترك الذين مما وراء النهر أسلم جدهم سلجوق ووافقه على الاسلام جماعة منهم فخرج بهم من دار الحرب الى ديار الاسلام وصار يقاتل الكفار من الترك ووقع بينه وبين ملوك خراسان المسلمين وقائع وقتال يطول الكلام بذكره وولد له أولاد قاموا بالجهاد بعده وكثرت جموعهم وقويت شوكتهم وصاروا يتغلبون على ممالك خراسان والعراق شيأ فشيأ الى ان دخلوا بغداد وأذهبوا دولة

بني بويه وتغلبوا على الخلفاء كما كان بنو بويه وكان دخولهم بغداد في خلافة القائم بأمر الله ابن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة وكان الداخل منهم بغداد السلطان طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق وتوفي السلطان طغرلبك سنة خمس وخمسين وأربعمائة وصار الملك بعده لابن أخيه الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق واستمر الملك في بنيه الى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان ابتداء تملكهم طوس وقيل الرى سنة أربعمائة وتسع وعشرين فتكون مدة ملكهم مائة وستين سنة وطغرلبك ضبطه ابن خلكان بقوله بضم الطاء وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموحدة بعدها كاف وهو اسم تركى مركب من طغرل وهو اسم علم وبك معناه أمير وسلجوق بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف وكانت هذه الغزوة التى سنذكرها قبل تملكهم بغداد وهذه الغزوة التى سنذكرها هى انه في سنة أربعين وأربعمائة غزا السلجوقية بلاد الروم وقائد الجيش الامير ابراهيم اينال أخو الساطان طغرلبك السلجوقى فظفروا وغنموا ووصلوا الى ملازكرد وأرزن الروم وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحى كلها ولقيهم عسكر للروم يبلغون خمسين ألفا فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء وكان آخر الامر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل في الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط وكان من ملوكهم فبذل في فداء نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجب الى ذلك ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد الى ان صار بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا مافيها وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والاموال مالا يقع عليه الاحصاء وحملت الغنائم على عشرة آلاف عجلة ومن جملة الغنائم عشرة آلاف درع ثم في سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى الساطان طغرلبك هدية عظيمة وطلب منه الصلح والمعاهدة فأجابه اليها وعمر ملك الروم مسجدا بالقسطنطينية وكان بها كثير من المسلمين فأقاموا بالمسجد المذكور الصلاة والخطبة لطغرلبك بأمر ملك الروم ثم بعد ذلك دانت الناس لطغرلبك وتمكن في ملكه وتملك كثيرا من البلاد قبل دخوله بغداد

﴿ ذكر غزوة أخرى للساجوقية ﴾

في سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك ساطان الساجوقية الى ارمينية وقصد ملازكرد وهى للروم فحصرها وضيق على أهلها ونهب ماجاورها من البلاد وأخربها

وهى مدينـة حصينة وأثر السلطان المذكور في هذه الغزوة آثارا عظيمة ونال منهم من النهب والقتل والاسر شيأ كثيرا وبلغ في غزوته هذه الى أرزن الروم وعاد الى أذربيجان لما هجم الشتاء ومن السلجوقية قتلمش ابن عم طغرلبك كانت له ولبنيـه دولة في قونيـة واقصرا وبلاد الروم لان السلجوقية لمـا انتشروا في البلاد طالبين للممالك دخل قتلمش هذا الى بلاد الروم وملك قونية واقصرا ونواحيها وافتتح بلادا واسعة وبقى الملك في بنيه الى ظهور الدولة العثمانيـة فمن تلك الممالك التى افتتحوها وكانت تحت أيديهـم قونيـة واقصرا وسيواس وتوقات وانقورية وملطية وبلاد البسـتان وقيسارية وتيكسار واماسية وأعمـال هذه المدن

﴿ ذكر فتح الب ارسلان مدينة * آنى * وغيرها من بلاد النصرانية ﴾

في سنة ست وخمسين وأربعمائة غزا السلطان الب ارسلان بلاد النصارى فسار من الرى الى أذربيجان ثم سلك مضايق الى ان وصل الى نقجوان فأمر بعمل السفن لعبور نهر أرس فقيل له ان سكان خوى وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الطاعة وانهم قد امتنعوا ببلادهم فسـير اليهم عميد خراسان ودعاهم الى الطاعة وتهددهـم ان امتنعوا فأطاعوا وصاروا من جملة حزبه وجنده واجتمع عليـه هناك من الملوك والعساكر مالا يحصى فلما فرغ من جمع العساكر والسفن سـار الى بلاد الكرج وجعل عسكرا مع ولده ملكشاه ونظام الملك وزيره فسار ملكشاه ونظام الملك الى قلعـة فيها جمع كثير من الروم فنزل أهلها منها وتخطفوا من العسكر وقتلوا منهم فئة كثيرة فنزل نظام الملك وملكشاه وقاتلوا من بالقلعة وزحفوا اليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون وساروا منها الى قلعة سرمارى وهى قلعة فيها المياه الجارية والبساتين فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها وكان بالقرب منها قلعة أخرى ففتحها ملكشاه وأراد تخريبها فنهاه الوزير نظام الملك عن ذلك وقال هى ثغر للمسلمين وشحنها بالرجال والاموال والسلاح والذخائر وسلم هذه القلاع الى أمير نقجوان وسار ملكشاه ونظام الملك الى مدينـة مريم نشين وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى وعامتهـم يتقربون الى أهل هذه البلدة وهى مدينة حصينة سورها من الاحجار الكبار الصلبة المشـدودة بالرصاص والحديد عندها نهر كبير فأعد نظام الملك لقتالها مايحتاج اليه من السفن وغيرها وقاتلها وواصل قتالها ليلا ونهارا وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة فضجر الكفار وأخذهم الاعياء والكلال فوصل المسلمون الى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا الى أعلاه لان المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره

فلما رأى أهلها المسلمين على السورفت ذلك في أعضادهم أى أضعفهم وسقط في أيديهم ودخل ملكشاه ونظام الملك البلد وأحرقوا البيع وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلها وأسلم كثير منهم فنجوا من القتل واستدعى الب ارسلان ابنه ملكشاه ونظام الملك فلحقوه في بلاد الكرج وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده وفتح ملكشاه في طريقه عدة من القلاع والحصون وأسر من النصارى مالا يحصى ثم ساروا جميعا مع السلطان الب ارسلان الى تسبيذشهر فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها من المسلمين كثير ثم ان الله تعالى يسر فتحها فملكها ألب أرسلان وسار منها الى مدينة اعال لال وهى حصينة عالية الاسوار شاهقة البنيان وهى من جهة الشرق والغرب على جبل عال وعلى الجبل عدة من الحصون ومن الجانبين الآخرين نهر كبير فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها وكان ملكها من الكرج وهكذا ماتقدم من البلاد التى ذكرنا فتحها وعقد السلطان جسرا على النهر عريضا واشتد القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الامان والتمسا من السلطان ان يرسل معهما طائفة من العسكر فسير جمعا صالحا فلما جازوا الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر واشتد القتال وكان السلطان ذلك الوقت يصلى فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدم الى الكفار وقاتلهم وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين فدخلوا البلد والمسلمون معهم ودخلها السلطان وملكها واعتصم جماعة من أهلها في برج من ابراج المدينة فقاتلهم المسلمون فامر السلطان بالقاء الحطب حول البرج واحراقه ففعل ذلك وأحرق البرج ومن فيه وعاد السلطان الى خيامه وغنم المسلمون من المدينة مالا يحد ولا يحصى ولما جن الليل عصفت ريح شديدة وكان قد بقى من تلك النار التى أحرق بها البرج بقية كثيرة فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها وملك السلطان قلعة حصينة كانت الى جانب تلك المدينة ثم سار منها الى ناحية قرس ومدينة آنى وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما دسل ورده ونوره فخرج أهلهما مذعنين بالاسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد وسار منهما الى مدينة آنى فوصل اليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لاترام ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية لو طرحت فيه الحجارة الكبار لاخذها وحملها والطريق اليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم وهى بلدة كبيرة عامرة كثيرة الاهل فيها مايزيد على خمسمائة بيعة فحصرها وضيق عليها الا ان المسلمين قد أيسوا من

فتحها لما رأوا من حصانتها فعمل السلطان برجا من خشب وشحنه بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب فكشفوا الكرج عن السور وتقدم المسلمون اليه لينقبوه فأتاهم من لطف الله مالم يكن في حسابهم فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها مالا يحصي عددهم بحيث أن كثيرا من المسلمين عجزوا عن دخول البلد بسبب كثرة القتلى وأسروا نحوا مما قتلوا وسارت البشرى بهذه الفتوحات في البلاد فسر المسلمون وقرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخليفة فبرز خط الخليفة بالثناء على الب ارسلان والدعاء له ورتب فيها أميرا في عسكر جرار وعاد عنها وقد راسله ملك الكرج في الهدنة فصالحه على أداء الجزية كل سنة فقبل ذلك وفي سنة ثنتين وستين وأربعمائة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف الى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم جموعا للعرب ثم ارتحل وعاد الى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع

﴿ ذكر خروج ملك الروم الى خلاط واسره ﴾

في سنة ثلاث وستين وأربعمائة خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤا في تجمل كثير وزي عظيم وقصد بلاد الاسلام فوصل الى ملازكرد من أعمال خلاط فبلغ السلطان الب ارسلان الخبر وهو بمدينة خوى من أذربيجان وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسير الأثقال مع زوجته ونظام الملك الى همدان وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجد في السير وقال لهم انى أقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة من الله وان كانت الشهادة فان ابنى ملكشاه ولى عهدى وساروا فلما قاربوا العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل الى السلطان فجدع أنفه وأنفذ بالسلب الى نظام الملك وأمره أن يرسله الى بغداد فلما تقارب العسكران أرسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال ملك الروم لاهدنة الا بالرى فانزعج السلطان لذلك فقال له امامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفي انك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التى تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم من أراد الانصراف

فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال ان قتلت فهذا كفني وزحف الى الروم وزحفوا اليه فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤا وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مالايحصى حتى امتلأت الارض من جثث القتلى وأسر ملك الروم أسره بعض الغلمان فأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع ملك الروم لاتقتله فانه الملك وكان هذا الغلام الذى أسره قد عرضه سيده على نظام الملك فرده استحقارا له فأثنى عليه سيده فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك فلما أسر الغلام ملك الروم أحضره عند سيده فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمر باحضاره فلما أحضره ضربه السلطان الب ارسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له ألم أرسل اليك في الهدنة فأبيت فقال دعنى من التوبيخ وافعل ماتريد فقال السلطان ماعزمت أن تفعل بى ان أسرتنى فقال افعل القبيح قال له فما تظن انى أفعل بك قال اماأن تقتلنى واما أن تشهرنى في بلاد الاسلام والاخرى بعيدة وهى العفو وقبول الاموال واصطناعى نائبا عنك قال ماعزمت على غير هذا ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وان يرسل اليه عساكر الروم أى وقت طلبها وان يطلق كل أسير في بلاد الروم واستقر الامر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد فقال ملك الروم أين جهة الخليفة فدل عليها فقام وكشف رأسه وأومأ الى الارض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده وسير معه عسكرا أوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا وأما الروم فانهم لما بلغهم خبر الوقعة وأسر الملك وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد فلما وصل أرمانوس الملك الى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل الى ميخائيل يعرفه ماتقرر مع السلطان وقال ان شئت أن تفعل مااستقر وان شئت أمسكت فأجابه ميخائيل بايثار مااستقر وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك وجمع أرمانوس ماعنده من المال وكان مائتى ألف دينار فأرسله الى السلطان وطبقا ذهبا عليه جواهر بتسعين ألف دينار وحلف له انه لا يقدر على غير ذلك ثم ان أرمانوس استولى على أعمال الارمن وبلادهم ومدح الشعراء السلطان الب ارسلان وذكروا هذا الفتح فأكثروا لأنه يشبه فتوحات الصحابة رضى الله عنهم

﴿ ذكر مقتل السلطان الب ارسلان ﴾

في سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان الب ارسلان ماوراء النهر لقتال ملك من ملوك الاسلام خرج عن طاعته اسم الملك شمس الملك فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيف وعشرين يوما وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي جرى منه جناية وارتكاب وحمل الى قرب سريره مع غلامين فأراد عقابه على ارتكابه فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه اليها فقال له يوسف يامخنث مثلي يقتل هذه القتلة فغضب السلطان الب ارسلان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خلياه ورماه السلطان بسهم فأخطأه ولم يكن يخطئ سهمه فوثب يوسف يريده والسلطان على سريره فقام عنه وعثر فوقع فبرك عليه يوسف وضربه في خاصرته بسكين كانت معه وقتل الاتراك يوسف وقطعوه ونهض السلطان فدخل الى خيمة أخرى ومات السلطان من جراحته تلك ومات بعد أيام وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر اجتمعوا وختموا ختمات وسألوا الله أن يكفيهم أمره فاستجاب الله لهم ولما جرح السلطان قال مامن وجه قصدته وعدو أردته الا استعنت بالله تعالى عليه ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الارض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علي فعجزني الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله واستقيله من ذلك الخاطر وتملك بعده ابنه ملكشاه وفي سنة سبع وستين وأربعمائة توفي القائم بأمر الله وبويع حفيده المقتدى بأمر الله وفي سنة ثمان وستين أخذت مدينة منبج من الروم ورجعت الى الاسلام والذى انتزعها منهم نصر بن محمود بن مرداس

﴿ ذكر فتوح في بلاد الهند ﴾

في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا الملك ابراهيم بن مسعود بن محمود سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند فحصر قلعة أجور وهى على مائة وعشرين فرسخا من لهاور وهى قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوى عشرة آلاف رجل من المقاتلة فقاتلوه وصبروا تحت الحصر وزحف اليهم غير مرة فرأوا من شدة حربه ماملأ قلوبهم خوفا ورعبا فسلموا القلعة اليه وفتح أيضا قلعة روبال وكانت على رأس جبل وليس لها طريق الا من مكان ضيق مملوء بالفيلة والمقاتلة وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة فتابع عليهم الوقائع وألح عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب الى ان ملك القلعة واستنزلهم منها وكان في موضع يقال له دره نوره أقوام من الكفار لم يتعرض اليهم أحد من الملوك فسار اليهم ابراهيم ودعاهم الى

الاسلام أولا فامتنعوا من اجابته وقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وتفرق من سلم منهم في البلاد وسبي واسترق من النسوان والصبيان مائة ألف ثم قصد موضعا آخر يقال له وره في طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة وأهله كفار فقاتلهم ثلاثة أشهر الى ان نصره الله عليهم فقتل كثيرا منهم وسبي وغنم وعاد سالما وكان ابراهيم بن مسعود بن محمود عاقلا ذا رأى متين فمن آرائه أن السلطان ملكشاه السلجوقى جمع عساكره يريد قتال ابراهيم المذكور في غزنة وينتزع الملك منه ونزل باسفرار فكتب ابراهيم بن مسعود كتابا الى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم ويعتذر لهم بما فعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلاده ليتم لنا ما استقر بيننا من الظفر به وتخليصهم من يده ويعدهم الاحسان على ذلك وأمر القاصد بالكتب أن يتعرض ملكشاه في الصيد ففعل ذلك فأخذ وأحضر عند السلطان فسأله عن حاله فأنكره فامر السلطان بجلده فجلد فدفع الكتب اليه بعد جهد ومشقة فلما وقف ملكشاه عليها تحيل على أمرائه وترك المسير الى ابراهيم وعاد الى بلده ولم يقل لاحد من أمرائه في هذا الامر شيأ خوفا أن يستوحشوا منه ثم وقعت المكاتبة بينه وبين ابراهيم والمصافاة حتى زوج ابراهيم ابنه مسعود بابنة ملكشاه

﴿ ذكر فتح انطاكية وانتزاعها من الروم ﴾

في سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب قونية الى الشام فملك مدينة انطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة حصرها بعساكره ونصب السلالم فصعدوا عليها وأخذ البلد فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيرا من أهلها ثم أذعنوا له فعفا عنهم وتسلم القلعة وأحسن الى الرعية ورجع سالما

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة صقلية ﴾

في سنة أربع وثمانين وأربعمائة خرج الفرنج بجموع كثيرة وتملكوا جزيرة صقلية بعد حروب كثيرة وكان ملوك المسلمين بصقلية لما ضعف أمر الخلفاء قد تفرقوا ممالك صقلية وصارت كل جهة منها بيد ملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة الى أن بقي بأيدى المسلمين قصريانة وجرجنت فحصرهما الفرنج في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بجيوش كثيرة فكان من ذلك ذل للمسلمين وتضييق شديد عليهم حتى أكلوا الاموات فلما اشتد الامر عليهم أذعنوا الى التسلم فتسلمها الفرنج لعنهم الله تعالى في السنة المذكورة فصارت الجزيرة كلها بأيديهم وفي سنة خمس وثمانين توفي السلطان ملكشاه السلجوقى ووقع بين أولاده اختلاف وحروب كثيرة لطلب الملك وفي

سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي المقتدى بأمر الله وبويع ابنه المستظهر بالله ثم ان الفرنج لما ملكوا صقلية بالتمام كان الملك عليهم رجار الفرنجى من ملوك ايطاليا ثم طمعوا في تملك كثير من افريقية فخرجوا في أسطول كبير وجم غفير من مشهورى فرسان الفرنج فحاصروا مدينة جربة ونزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فقتل منهم بشر كثير ثم انهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم ثم بعد مدة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وعلقوا الكلاليب في سور البلد وثقبوه ثم وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوى أهل البلد بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليه حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والأثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه الامير يحيي بن عبد العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا ثم جهزوا أسطولا كثيرا وسيروه الى طرابلس الغرب فأحاطوا بها برا وبحرا فخرج اليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس مع بعضهم آل الامر فيه الى قتال بعضهم بعضا فانتهز الفرصة الفرنج ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج البلد عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب ثم نودى بالامان في كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها وولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا رهائنه وحده وأعادوا رهائن غيره واستقامت أمور المدينة وألزم ملكهم أهل صقلية والروم بالسفر اليها وعمرت سريعا ثم ان أهل قابس عصى أميرهم على الحسن بن على بن يحيي بن تميم أمير افريقية وكاتب صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريدمنك خلعة وعهدا بولاية قابس لأكون نائبا عنك فسير اليه صاحب صقلية الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بمجمع من الناس فسمع بذلك الحسن أمير افريقية فجهز عسكرا كثيرا فساروا الى قابس ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بالامير الذى ملكها لصاحب صقلية وقبضوا عليه بعد قتال بينهم وبينه وسيروه الى أمير

افريقية فقتله بعد تعذيبه بأنواع العذاب من ذلك أنهم قطعوا ذكره وجعلوه في فيه وتولى على قابس معمر بن رشيد وهرب جماعة من أقارب الامير الأول الى صقلية وشكوا الى صاحب صقلية واستجاروا به فغضب لذلك فجهز أسطولا كثيرا بلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا وقصدوا المهدية وكان بها أمير افريقية الحسن بن على وكان قد حصل بافريقية في تلك السنين قحط وغلاء شديد حتى ان أكثر الناس فارقوا البلاد والقرى وصاروا الى صقلية فلما علم الحسن بن على بمسير الفرنج اليه جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم في القتال فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال أخاف أن يحصرونا برا وبحرا ويحولوا بيننا وبين الميرة وليس عندنا ماتقتات به شهرا فنؤخذ قهرا وانا أرى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك فالرأى ان نخرج بالأهل والولد و نسلم البلد فمن أراد أن يفعل ذلك فليبادر ثم أمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حصره وما خف حمله وخرج ناس كثير معه بأهلهم وأموالهم وأولادهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس ثم دخل الفرنج البلد بلا مانع ولا مدافع ووجدوا قصر الأمير بحاله لم يأخذ الحسن منه الاماخف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأوا الخزائن مملوءة من الذخائر وكل شئ نفيس غريب يقل وجود مثله فختم الفرنج عليه وجمعوا اسرارى الحسن من قصره ونهبت المدينة مقدار ساعتين ثم نادوا بالأمان فخرج من كان مستخفيا وبعد جمعة رجع أهل البلد وأما الحسن أمير افريقية فانه سار الى ملك مراكش عبد المؤمن بن على فأكرمه وأحسن نزله وبقى عنده مكرما الى ان فتح المهدية عبد المؤمن بن على كما سيأتى ذكر ذلك ولما استقر الفرنج بالمهدية سيروا أسطولا الى سفاقس وأسطولا الى مدينة سوسة وأسطولا الى قابس فأما أهل سوسة فانهم لما سمعوا خبر المهدية وكان أميرهم على بن الحسن أمير افريقية خرج على المذكور والتحق بأبيه الحسن وخرج الناس لخروجه ودخل الفرنج البلد بلا قتال وأما سفاقس فان أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم كثير ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقى من الرجال وسبي الحريم ثم نودى بالأمان فعاد أهلها اليها وأفتكوا حريمهم وفعلوا مثل ذلك بقابس وملكوها ثم سار الفرنج الى قلعة قلبية وهي قلعة حصينة فلما وصلوا اليها سمع بذلك العرب فاجتمع منهم خلق كثير وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا فرجعوا خاسرين الى

المهدية ثم رجع الفرنج اليهم مرة أخرى وملكوها والحاصل ان الفرنج لما ملكوا صقلية تتابعت اغاراتهم على افريقيـة فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وتطاون وغير ذلك وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن الغرب الى القيروان وكانت هذه الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وذكرناها متتابعة ليتصـل بعضها ببعض وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة اختلف ملك الفرنج صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك صاحب صقلية جميع بلاد افريقية وكان القتال بينه وبين صاحب القسطنطينية برا وبحرا والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى دخل فم المينا وأخـذ عدة شوانى لصاحب القسطنطينية وأسر كثيرا من الروم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذى يفعل هـذا بالروم وبالمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية ثم هلك جرجى ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه فعقد صلحا مع صاحب القسطنطينية وسكنت الفتنة وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هلك رجار ملك صقلية وكان عمره قريبا من ثمانين سنة وملك بعده ولده غليالم وكان فاسد التدبير وسلك طريقة ملوك الأسلام من الجنائب والحجاب وغير ذلك وأسكن في جزيرة صقلية الفرنج مع المسلمين وأكرم المسلمين ومنع من التعدى عليهم وقربهم فخرج عن حكمه عدة حصون من حصون صقلية وتعدى الامر الى افريقية فانه لما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة قوى طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل افريقية منهم أهل سفاقس وقد كان أبوه رجار لما فتحها استعمل عليها أبا الحسين العريانى وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال له استعمل ولدى فاستعمل ولده عمر بن أبى الحسين وأخذ أباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر انى كبير السن وقد قارب أجلى فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظرنى انى أقتل وأحسب أنى قدمت فلما وجد الفرصة دعا أهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليـه قال هو أمرنى بهذا واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فمـا مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ثم تبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وفعل مثل فعله وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر لعبد المؤمن الى بونة فملكوها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبى

الحسين الى زويلة وهى مدينـة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وتقدم عرب البلاد الى زويلة فأعانوا أهلها على من بها من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين والد عمر صاحب سفاقس وعرفه ماعمل ابنه وأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبـة فعله فقال له من قدم على هذا لايرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ماارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج أهـل البلد جميعهم ومعهـم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر الى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء فاصنعوا به ماأردتم فعاد الرسول الى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله حتى مات واما أهـل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب وبأهـل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليهاوكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى أهل زويلة واما أهل سفاقس فانهم ركبوا في البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا من قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شئ من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوامن وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان أخذهاعبد المؤمن وسيأتى ان شاء الله ذكر ذلك هذا حاصل ماكان من الفرنج في افريقية وأما ماكان منهم في هذه السنين في الديار الشامية فسيأتى ذكره عندذكر الحرب المسمى بحرب الصليب لكن ينبغى قبل ذلك ان نذكر بقيـة ماكان بالاندلس من الفتوحات والغزوات وما يتبع ذلك ثم بعد اتمام ذلك نذكر حرب الصليب

اتمام الكلام على غزوات الاندلس وما يتبع ذلك

قد تقدم ذكر بعض غزوات الاندلس باختصار ولو بسط الكلام فيها لطال وبقى كثير من غزواتها وأخبارها لم يذكر فينبغى اتمام الكلام على ذلك تتميما للفائدة وأكثر التواريخ لم يذكروا فيها كثيرا من أخبار الاندلس فصار المشهور المستفيض عند أكثر الناس أخبار غير الأندلس مع ان المسلمين كان لهم بالاندلس ملك ضخم وكانت لهم وقائع ومجامع وأخبار

عجيبة فينبغي ذكر كثير من ذلك وان كان في بعض تلك الاخبار زيادة على الغزوات والفتوحات التي لاجلها كان جمع هذا الكتاب لان ذكر ذلك يحصل به زيادة فائدة ولا يخل بمقصود الكتاب وقد تقدم ان الاندلس فتح في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بضم النون مصغرا والصاد المهملة وهو مولى عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز وعبد العزيز هو أخو عبد الملك بن مروان والاندلس مشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ومشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك قال في نفح الطيب نقلا عن لسان الدين بن الخطيب خص الله بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الاسنان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك وأحكام التمدن بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها أعادها الله للاسلام ببركة النبي عليه الصلاة والسلام وقال أيضا ان الاندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال تتصل فواكهه أكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة وفي نفح الطيب ان من الاندلس مدينة شنترة من خواصها ان القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر قال ابن اليسع قال لى أبو عبد الله الباكورى وكان ثقة أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى اليه أربعا من التفاح مايقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة أشبار وفي الاندلس من أنواع المعادن مالا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الاندلس ثلاثون يوما وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهرا كبارا وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من القرى والحصون مالا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية وقيل ان طول الاندلس أربعون يوما وعرضه ثمانية عشر يوما واما طيب ثمار الاندلس فلا يعادله شئ في الدنيا قال بعض العلماء ان النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا يعني بذلك الاندلس وقال بعضهم ان المرية مدينة من مدائن الاندلس كان بها لنسج طرز الحرير ثلاثمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون

كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية كذلك وكان بها من الحمامات نحو الالف واتسع ملك المسلمين فيها وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وعدد دور الرعايا الواجب على أهلها المبيت داخل السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار غير دور الوزراء وأكابر الناس وعدة دور أهل الدولة ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ومساجدها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون مسجدا وحماماتها سبعمائة وكانت قرطبة قبة الاسلام وبها استقر سرير الخلافة المروانيــة وهي معدن العلماء وهي من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير في الدنيا طوله ثلاثمــائة وثلاثون ذراعا وعرضــه مائتان وخمسون ذراعا وسواريه ألف وأربعــمائة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازورد وبمخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام اليه وكانوا لايكون فيهم مقلص الا من حفظ الموطأ وقيل الا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليــه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون في مساجدهم نوابا يصلون بالناس الجمعة نيابة عنهم وتقدم ان ملوك بنى أمية الذين كانوا بالاندلس أول من تملك منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل كان ابتداء ملكه بالاندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة هرب من الشام مستخفيا حين كان ابتداء دولة بنى العباس وكانوا يقتلون بنى أمية فلما كان بالاندلس تغلب على عمال بنى العباس الذين كانوا بالاندلس وانتزع الملك منهــم فكان له ملك ضخم وكان في عصر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وكان المنصور يسميه صقر قريش قال المنصور يوما لاصحابه أخبرونى عن صــقر قريش من هو قالوا أمير المؤمنــين يعنون المنصور الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء وأباد الاعداء قال ماصنعتم شيئا قالوا فمعاوية قال ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ولا هذا قالوا فمن ياأمير المؤمنين قال عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الذى عــبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا مفردا فمصر الامصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك كان ببيعة له عقدها وأمير المؤمنين يعنى نفســه بطلب غيره واجتماع شيعته وعبــد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه اه وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل ثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة وعمره تسع وخمسون أو ثمان وخمسون سنة ومن عقبه

الخليفة عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد عبد الرحمن الاوسط بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولى الملك سنة ثلاثمائة وتوفي سنة ثلاثمائة وخمسين واتسع الملك بالاندلس في مدته ومن اتساعه انه بنى تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه هي من عجائب الدنيا دالة على عظم قدر بانيها وأنفق فيها من الاموال خمسة وسبعين مائة ألف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ستة آلاف وثلاثمائة وأربعة عشر وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون وقيل ستة آلاف وثمانمائة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة وينقع لها من الحمص كل يوم ستة أقفز واما أوصاف مدينة الزهراء فانها طويلة ثم لما كثرت الفتن في الاندلس هدمت تلك المدينة ومن أغرب مايحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوما فقعد في البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذا أطل زرزور فصعد على اناء من ذهب في المجلس وأنشد ذلك الزرزور

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا * انما تفصد عرقا فيه محي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسربه غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكروا له ان أم ولده الحكم صنعت ذلك وأعدته لذلك الامر فوهب لها ماينيف على ثلاثين ألف دينار وتقدم ان الناصر مكث في الملك خمسين سنة وكان اذا حصل له يوم كان مسرورا فيه بدون نكد وتكدير يكتبه ووجد ذلك مكتوبا بخطه فاذا هي أربعة عشر يوما في تلك الخمسين سنة وكان جده هشام بن عبد الرحمن الداخل يقتدى في سيرته بعمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته يسألون الناس عن سيرة عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه جور من أحد من عماله أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن للامام مالك رضي الله عنه قال نسأل الله ان يزين موسمنا بمثل هذا وفي رواية نسأل الله ان يزين حرمنا بملككم أو كلاما هذا معناه فبلغ هشاما ماقاله مالك مع مابلغه من جلالة مالك ودينه فحمل هشام الناس على مذهب مالك وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الاوزاعي فهشام هو السبب في انتشار مذهب الامام مالك بالمغرب وغزا هشام مدينة اربونة الشهيرة وافتتحها واشترط على المعاهدين من أهل جليقية أن ينقلوا عددا من احمال التراب من سور اربونة المفتتحة يحملونها الى باب

القصر بقرطبة فبنى منه المسجد الذى قدام امام باب الجنان ومناقب هشام هذا كثيرة قال في العقد الفريد في وصفه هو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة الذى أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها لم يعرف منه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه وكان يصر الصرر بالاموال في ليالى المطر والظلمة ويبعث بها الى المساجد فيعطى من وجد فيها يريد بذلك عمارة المساجد بالعلم والعبادة وأوصى رجل في زمنه بمال في فك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد اسيرة احتراسا منه للثغر واستنقاذا لاهل السبي وكان في أيامه المنجم الضبي وكان مشهورا بكمال المعرفة في علم النجوم فلما ولى هشام الملك سأله عن مدة ملكه فأخبره انه نحو ثمانية سنين فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال ياضبي ماأخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك والله ان هذه المدة لو كانت في سجدة لله تعالى لكانت قليلا في طاعته ثم ازداد زهدا في الدنيا وفعلا للخير توفي سنة ثمانين ومائة وولى بعده ابنه الحكم بن هشام وكان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في توطيد الدولة وشدة الملك وقمع الاعداء وغضب الحكم يوما على خادم فأمر بقطع يده وحضر عنده زياد بن عبد الرحمن فقال له زياد أصلح الله الاميران مالكا حدثني في خبر رفعه ان من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم وأن يعفى عنه ثم قال له آلله ان مالكا حدثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدثني بهذا * ومما يحكى عن الحكم بن هشام ان عمه سعيدا الخير بن عبد الرحمن الداخل كان له خصومة مع ابن بشير وكان مع سعيد الخير وثيقة فيها شهادات شهود من جملتهم الحكم بن هشام كان شهد بها قبل أن يصير خليفة فجاء عمه سعيد الخير يطلب منه الشهادة وهو خليفة فخشى أن القاضى يرد شهادته فأرسل قبل أن يؤدى الشهادة ورقة بخطه للقاضى يخبره بأنه يشهد على ذلك القاضى أن يقبل فأبى شهادته فلم يغضب من رد شهادته بل قال ان القاضى رجل صالح ولا تأخذه في الله لومة لائم ومن أخبار عبدالرحمن بن الحكم بن هشام انه أغضب جاريته طروب فهجرته وكان يحبها فأرسل اليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر فأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا في المراجعة على ان لها جميع ماسد به الباب من البدر فاجابت وفتحت الباب فانهالت البدر في بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع محضر الخصى فلا يرد شيأ تبرمه وخلف عبد الرحمن المذكور من الذكور مائة وخمسين ومن الاناث

خمسين وكانوا يسمونه عبد الرحمن الاوسط ومن أخبار عبد الرحمن الناصر انه لما بنى الزهراء صنع له قبة لجلوسه وزخرفها وزينها بالذهب وصنع طعاما دعا اليه العلماء وجلس في تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى فلما رأى تلك القبة جعلت دموعه تحادر على لحيته ثم قال والله ياأمير المؤمنين ماظننت ان الشيطان لعنه الله تعالى بلغ منك هذا المبلغ ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين فانفعل عبد الرحمن الناصر لقوله وقال له انظر ماتقول وكيف أنزلتنى منزلتهم قال نعم أليس قال الله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية فوجم الخليفة وطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى ثم أقبل على منذر فقال له جزاك الله ياقاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر في الناس أمثالك وأمر بنقض سقف القبه الذى طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس فيها مايذكر عليه فيه وكان القاضى منذر بن سعيد ذا علم متين وذكاء رصين متفننا في العلوم عاملا بعلمه ورعا زاهـدا وكان خطيبا بليغا آية في الوعظ لايسمع أحد وعظه الا خشع وبكى وكان حاضر الجواب قوى الحجة ذا منظر جميل وخلق حميد وتواضع لاهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم قد أفردت ترجمته بالتأليف ولد رضى الله عنه سنة خمس وستين ومائتين وتوفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وعمره تسعون سنة ولاه الناصر قضاء الجماعة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى أن توفي الناصر فأبقاه في قضاء الجماعة الحكم بن الناصر واستمر منذر المذكور في القضاء الى أن توفاه الله سنة خمس وخمسين وثلاثمـائة فكانت مدة ولايته القضاء الجماعة ست عشرة سنة وقضاء الجماعة عند أهل المغرب هو المعبر عنه عنـد أهل المشرق بقاضى القضاة وله رحمه الله تآليف منهـا كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من كتب الفقه وغـيرها وقد تقدم ذكر غزو عبد الرحمن الناصر الجلالقه سنة ثمان وثلاثمائة وانه وطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة ثلاثمائة وثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذبه في الجبال والاوطار فلم يقدر العدو أن يظفر منه بشئ ورجع سالما وقسم الغنائم ثم بعد مدة ثار عليه بعض المسلمين واستعان بالنصارى فظفر بذلك الثائر وقتله وقتل من كان معه من النصارى أهل البة وسار اليهم وفتح ثلاثين من حصونهم وكان البشكنس

ملكوا عليهم امرأة يقال لها طوطرة واسعقد بينه وبينهم صلح ثم نقضوا ذلك الصلح فغزا
طوطرة ملكة البشكنس في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة ثم غزا
الجلالقة سنة ٣٢٧ سبع وعشرين وثلاثمائة وسار اليهم بنفسه فنزل على دار مملكة الجلالقة
وهي مدينة سمورة عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السابقة وبين
الاسوار وصلات ومياه واسعة فافتتح منها سورين وكان جيشه مائة ألف أو يزيدون والتقى
مع ردمير ملك الجلالقة وكان معه جنود كثيرة من الفرنج وحصل القتال الشديد بين
الفريقين فكان النصر في أول الامر للمسلمين ثم رجع النصارى عليهم فحصل الانهزام
للمسلمين وكتب الله الشهادة لكثير منهم وكان الذين قتلوا من المسلمين نحو خمسين ألفا ثم
والى عليهم الغزوات وصار يبعث الجيوش مع قواده وقتل منهم أضعاف ماقتلوا من المسلمين
قبل ذلك وقد ذكر العلامة أحمد بن عبد ربه الاندلسي في كتابه المسمى بالعقد الفريد
ثنتين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها في منظومة من الرجز وكان معاصرا
له قال وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج مالم يطؤوه قبل ذلك في أيام سلفه حتى
أذعن له أمم النصرانية وأوفدوا اليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل
المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة
الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما يليها من الثغور فقبلوا يده
والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما ملكه فتملك سبتة وفاسا وغيرهما
من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره وأطاعه بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة
والبربر حتى صار ملكه في غاية الضخامة ورفعة الشان وتقدم أن مدة ملكه كانت خمسين
سنة وانه توفي سنة خمس وثلاثمائة وبويع بعده ابنه الحكم المستنصر بالله فقام باعباء الملك
أتم قيام ولما توفي والده الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزاهم الحكم بنفسه واقتحم بلد
فردلندين فنازل شنت اشتيبن وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معه
وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزا غالبا مولاه وسار الى مدينة سالم ليتوصل منها الى دخول
دار الحرب فجمع له الجلالقة واتيهم فهزمهم واستباحهم وأثخن فيهم وأوطأ العساكر بلد
فردلندين ودوخها وكان البشكنس قد انقض فاغزاه الحكم صاحب سرقسطة في العساكر
وجاء ملك الجلالقة لنصر البشكنس فهزمهم فامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ثم أغزا
الحكم بن يعلى ويحيي بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها وأغزى
هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القوس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم

وقواد الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه ثم عمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح بعض عمالة قطونية وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والاثاث والغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبى مالا يحصى كان كل ذلك في أقرب الزمن وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة جهز جيشا مع مولاه غالب الى بلد البة ومعه يحي بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف فدوخوا بلادهم ورجعوا غانمين وفي هذه السنة ظهرت مراكب للمجوس في البحر الكبير فأفسدوا ببسائط اشبونه من الاندلس وناشبهم الناس القتال وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ثم جاءت الاخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة فرجعوا الى مراكبهم ثم كانت وفادة أردون ابن ادفونش ملك الجلالقة يتوقع مظاهرة الحكم مستجيرا به من ابن عم له خرج عليه فأكرمه الحكم ووعده النصر من عدوه وخلع عليه ثم بعث ابن عمه أيضا يطلب البيعة والدخول في الطاعة فتقبل بيعتهم على شروط ثم بعث ملك برشلونة وملك طركونة وغيرهما من ملوك الفرنج كلهم يطلبون المعاهدة والدخول في طاعة الحكم وبعثوا بهدايا جزيلة فتقبلهم الحكم وعقد لهم الصلح والبيعة وشرط عليهم أن يهدموا الحصون التى تضر بثغور المسلمين وان لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وان ينذروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية ملك بشكنس يسألون الصلح والدخول في الطاعة والبيعة فعقد لهم فاغتبطوا ورجعوا ثم وصلت أم لذريق وهو القومس الاكبر فاحتفل لقدومها فعقدت السلم لابنها فرجعت وصنع لقدوم هؤلاء الملوك عليه احتفالات ومواكب فيها اظهار عز الاسلام يطول الكلام بذكرها وكلها مذكورة في التواريخ وكانوا عند دخولهم على الحكم يكشفون رؤسهم ويخلعون برانطهم اعظاما له ويقبلون يده ويقول كل واحد منهم أنا عبد أمير المؤمنين واذا قام كل واحد منهم للانصراف يكون متقهقرا لايولي الخليفة ظهره تعظيما له ويعلنون له بالدعاء وكان الحكم عالما نبيلا أقام للعلماء والعلم سوقا نافقا واجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله قال ابن حزم ان عدد الفهرست التى فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرست وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها الا أسماء الدواوين واما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشئ كثير قيل ان كتبه كلها كانت أربعمائة ألف مجلد وقلما يوجد كتاب منها الا وله فيه قراءة ونظر ومكتوب على هوامشه خطه ولما ألف أبو الفرج الاصفهاني كتابه المسمى بالاغاني بعث للحكم نسخة فأجازه بألف دينار تولى الحكم سنة ست وستين وثلاثمائة ومدة ملكه ست عشرة سنة وخلف ابنه هشام المؤيد

وكان صغيرا عمره تسع سنين وكان جعله ولي عهده واستوزر له محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور المعافري ومعافر بطن من حمير وكان يخدم أم هشام المؤيد ثم ترقى الى أن ولاه الحكم قضاء بعض المواضع فظهرت نجابته ثم ترقى الى أن ولاه الزكاة والمواريث ثم استوزره لابنه فحجب الخليفة هشاما المؤيد وباشر الوزير المذكور تدبير الملك بنفسه وله صفات حميدة مذكورة في التواريخ ومفردة بالتأليف وجاشت الروم في أول ولاية هشام فجهز عليهم الوزير المذكور جيوشا له لدفاعهم فنصره الله عليهم فتمكن حبه من قلوب الناس خاصتهم وعامتهم واستجلب الناس بكرمه وحسن أخلاقه فانتشر صيته وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وأوسع الجند في العطاء وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالما متفننا وسيرة هذا الوزير وهو منصور بن أبي عامر طويلة مذكورة في التواريخ وأباد المتغلبين على الخلافة المارقين عن الطاعة وكرر الغزو والجهاد واستبد في جميع الامور بحيث لم يبق ذكر لاحد من رجال الدولة ولا من أولاد الخلفاء بل الذكر والتصرف كله له وحده والخليفة محجور عليه واستمر على ذلك سبعا وعشرين سنة وكان يغزو كل سنة غزوتين غزوة في الصيف وغزوة في الشتاء قال في نفح الطيب ان المنصور بن أبي عامر عرس ببلاد الشرك أعظم تعريس ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس وغادرهم صرعى في البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع

ذكر غزوة من غزواته

سبب هذه الغزوة أن أحد رسله سار في بعض مسيراته الى غرسية ملك البشكنس ابن شانجة فوالى في اكرامه وتناهى في بره واحترامه وطالت اقامته عنده فلا متنزه الا مر عليه متفرجا ولا منزل الا سار اليه معرجا فحل مرة أكبر الكنائس هناك فبينما هو يجول في ساحتها ويجيل العين في ساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الاسر قوية على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسها وقالت له أيرضى المنصور ان يتنعم بلبوس العافية ولي سنين مأسورة مختبيه وناشدته الله ان يبلغ المنصور خبرها فلما رجع الى المنصور عرفه بما يجب تعريفه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته فتذكر أمر المرأة المأسورة فأعلمه بقصتها فلامه على ان لم يبدأ به كلامه ثم أخذ للتجهز للجهاد من فوره فلما تم جهازه وتكاملت جنوده سار حتى وافي ابن شانجة فأخذت هيبته بسمعه وبصره فبادر بالكتاب اليه ليتعرف ما الجلية ويحلف أنه ماجنى ذنبا ولا جفا عن مصجع الطاعة فعنف المنصور رسل ابن شانجه وقال لهم قد كان

عاقدني على أنه لايبقي ببلاده مأسورة ولا مأسور ولو بعثه الى في حواصل الطيور وقد بلغني بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة والله لاأنتهي عن أرضه حتى أكتسحها فرجعوا الى ابن شانجة وأخبروه فارسل المرأة ومعها امرأتان أخريان وأقسم أنه ماأبصرهن ولا سمع بهن قبل ذلك واعلمه ان تلك الكنيسة قد بالغ في هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه في الاخذ فيه بطوله فاستحى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة ومن معها الى نفسه والحق توحشهن بانسه وأوصلها الى أهلها ورجع من غزوته وكان الخليفة هشام لايراه خاص وعام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه انعام وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لايعرفونه وأمرهم لايذكرونه ولا يعهد فيه الا الاسم السلطاني في السكة التي يتعامل الناس بها والدعوة على المنابر وربما أركبه في بعض السنين وجعل عليه برنسا ويركب معه بعض جواريه ويجعل عليهن مثل ماعليه فلا يعرف من بينهن ويأمر من ينحي الناس عن طريقه حتى ينتهي الى موضع تنزهه ثم يعود وأخذ في اغتيال من يخشى منه خوفا من أن يثوروا به وكانت غزواته نحو الخمسين يطول الكلام بذكرها وكلها كانت من مفاخر الاسلام حتى اشتدت هيبته في قلوب الكفرة اللئام * ومما يحكى مما كان في بعض غزواته ان بعض الاجناد نسي رايته مركوزة على جبل بقرب احدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لايعرف الروم ماوراءها بعد رحيل العسكر وهذا مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث لانهم لما أشربت قلوبهم الخوف من المنصور وعلم كل من ملوكهم انه لاطاقة له بحربه لجئوا الى الفرار وتحصنوا بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الاشراف من بعد والاطلاع ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته انه مر بين جبلين عظيمين في طريق ضيق بوسط بلاد الفرنج فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد من ذلك الطريق فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المحل الضيق الذي بين الجبلين وكان الوقت شاء فلمارأى مافعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم لجيشه ونزل به فيمن معه من العساكر وأمرهم ببناء دور ومنازل وان يجمعوا آلات الحرث ونحوها ليعلم الفرنج انه أراد الاقامة بأرضهم وبث سراياه فسبت وغنمت فلما طال البلاء على العدو أرسلوا اليه في طلب الصلح وان يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه ان يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابي قد أبوا ان يخرجوا وقالوا انا لانكاد أن نصل الى بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد ههنا

الى وقت الغزوة الاخرى فاذا غزونا عدنا فما زال الفرنج يسألونه أن يرتحل الى ان قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم مامعهم من الغنائم والسبي وان يمدوه بالميره حتى يصل الى بلاده وان ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف عنهم ولعمرى ان هذا العز ماوراءه مطمح ونصر لايكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم عن الطريق وقد تقدم ذكر هذه الغزوة مختصرا فاعادتها لا تخلو من فائدة

خبر عجيب من أخبار المنصور

ومن أخبار المنصور بن أبى عامر انه قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان وكان قصد ملك الروم من ارساله اياه أن يطلع على أحوال المسلمين وقوتهم فلما علم المنصور به قبل وصوله أمر ان يغرس نيلوفر كثير عند بركة عظيمة في بستان من بساتينه ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة من الفضة فسبكت قطعا صغارا على قدر ماتسع النيلوفر ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى عند البركة فلما جاء رسول ملك الروم اليه فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامى في موضعه المسمى بالزاهرة المشرف على موضع البركة فلما قرب طلوع الفجر جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة منهم أطباق من الذهب وبيد خمسمائة أطباق من الفضة فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل هيئتهم ولم يدر ماالمراد فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة فبادروا الى أخذ الذهب والفضة من النيلوفر وصاروا يجتنونه كما يجتنى الثمر من الشجر وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ذلك وجاؤا به فوضعوه بين يدى المنصور حتى صار كوما بين يديه فتعجب رسول ملك الروم من ذلك وأعظمه وظن ان ذلك ثمر ذلك الشجر فطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعا الى مرسله وقال له لاتعاد هؤلاء القوم فانى رأيت الارض تخدمه بكنوزها وهذه القصة من الغرائب وانها لحيلة عجيبة في اظهار عز الاسلام وأهله وكان المنصور بن أبى عامر آية من آيات الله سبحانه وتعالى في السعد ونصرة الاسلام

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة انه لقيته امرأة حين رجع من بعض غزواته فقالت له يامنصور استمع ندائى فانت في طيب عيشك وأنا في بكائى فسألها عن مصيبتها فذكرت ان لها ابنا أسيرا في بلاد سمتها له وأخبرته انها لايهنأ عيشها لفقده فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وأمر بالتجهز الى الغزو وسار بجيوشه حتى بلغ تلك البلاد التى سمتها له وفيها ابنها فجاسوا أقطار

تلك الديار وتخللها قتلا وأسرا ونهبا وتخريبا حتى دوخها حتى خلص ابنها وجميع من كان هناك من الاسرى ورجع مظفرا منصورا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنجدة الايمانية ومن مناقبه التى لم تكن لغيره من الملوك أن أكثر جنده من السبى الذى كان يأخذه من العدو ومن محاسن أخباره انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه في أسفاره يقرأ فيه ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد اليهم أن يجعلوه في حنوطه فكان كذلك وكان يحمل تلك الصرة حيث سار ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينهزم في حرب قط وما انصرف من موطنه الا قاهرا غالبا على كثرة ما زاول من الحروب قيل له مرة ان فلانا مشؤم فلا تستخدمه فقال أف لسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى به جرت العادة شئ

﴿ ذكر غزوة أخرى من غزواته ﴾

من غزواته المشهورة غزوة مدينة شنت ياقب وهى قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل به من الارض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فبها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون ان القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشرة الحواريين وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه للزومه اياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس ثم خرج يستقرئ الارض داعيا الى الله لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى الشام فمات بها وعمره مائة وعشرون سنة فاحتمل أصحابه جثته فدفنوه بهذه الكنيسة ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها والوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد مشتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازيا بالصائفة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لست بقين من جمادى الآخرة ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمكنين في الطاعة فصاروا في عسكر المسلمين وكان المنصور أمر بانشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبى وانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجاله وحمل في الاسطول الاقوات والعدة والسلاح استظهارا على نفوذ العزيمة الى ان خرج ذلك الاسطول بموضع برتقال على نهر دوين فدخل في النهر الى المكان الذى عينه لهم المنصور للعبور منه فعقد هنالك جسرا بقرب الحصن وجعله يتصل بالاسطول فوجهوا ما كان فيه من الميرة الى الحصن ثم

منه الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الاقطار وقطع عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسلك فيه ولا طريق ولم يهتد الادلاء الى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه حتى قطعه العسكر وعبروا بعده وادى بنية وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم الى ديرقشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموا وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ اليها وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجا في معبرين أرشد الادلاء عليه ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم اليه من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا صفصفا ثم كان النزول بعده على شنت ياقب وذلك لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الاذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها قبله مسلم فجعل في طريقه وهو راجع القصد على عمل برمند بن أردون تعيث جيوشه في عمله تخربه وتفسده حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين كانوا معه في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازا حتى خرج على حصن بايقيه فأجاز هنالك القوامس الذين كانوا معه وأكرمهم على أقدارهم وكساهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بايقية وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه ملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى واحدى وعشرين كساء من صنوف البحر وكساءين عنبريين واحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مرشيا وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروة فنك ووافي قرطبة بجميع العساكر سالما غانما وعظمت المنة

على المسلمين ولم يجد بشدت ياقب الا شيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال أوس يعقوب فأمر بالكف عنه

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة ان جماعة من صنهاجة وهم من البربر قدموا على المنصور بن أبي عامر من المغرب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة فنزلوا عليه بقرطبة فأكرمهم وأجرى عليهم الوظائف وسألهم عن سبب انتقالهم من افريقية الى الاندلس فقالوا أنا اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله تعالى فاستحسن ذلك منهم ووعدهم ووصلهم فأقاموا أياما ثم دخلوا عليه وسألوه اتمام ماوعدهم به من الغزو فقال انظروا ماأردتم من الجند لأجل ان اعطيكم فقالوا مايدخل معنا بلاد العدو غيرنا الا الذين معنا من بني عمنا ومن بقية صنهاجة وموالينا فأعطاهم الخيل والسلاح والاموال وبعث معهم دليلا وكان الطريق ضيقا فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلا وكمنوا في بستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوا جميع الخارجين وقتلوهم جميعهم ورجعوا فتسامع العدو فركبوا في أثرهم فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم وكبروا فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدو كثير فانهزموا وتبعهم صنهاجة فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا الى قرطبة فعظم ذلك عند ابن أبي عامر ورأى من شجاعتهم مالم ير من جند الاندلس فأحسن اليهم وجعلهم بطانته فلما رأى أهل الاندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد فقالوا للمنصور بن أبي عامر لقد نشطنا هؤلاء للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الاقطار وخرج الى الجهاد بنفسه وكان رأى في المنام تلك الليلة كان رجلا أعطاه الاسبراج وهو اسم لتبب فأخذه من يده وأكل منه فعبره على ابن أبي جمعة فقال له اخرج الى بلد اليون فانك ستفتحها فقال من أين أخذت هذا فقال لان الاسبراج يقال له في المشرق الهليون كرذون فلذلك الرؤيا قال لك هااليون فخرج بتلك الجيوش ونازلها وهي من أعظم مدائنهم واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجنود كثيرة واقتتلوا ليلا ونهارا فكثر القتل في الفرنج وصبرت صنهاجة صبرا عظيما ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز اليه جلالة بن زيري الصنهاجي فحمل كل منهم على صاحبه فطعنه الفرنجي فمال عن الطعنة وضرب الفرنجي بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجي الى الارض وحمل المسلمون على النصارى فانهزموا الى

بلادهم وقتل منهم مالا يحصى وملك المدينة وغنم ابن أبي عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها واجتمع من السبي ثلاثون ألفا وأمر بالقتلى فنضد بعضهم على بعض وأمر مؤذنا فأذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة ورجع سالما هو وعسكره قال في نفح الطيب وانتهت هيبة المنصور بن أبي عامر وضبطه للجند الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلا في الاطراق حتى أن الخيل لتمثل في الاطراق مثل فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سله بعض الجند أقصى الميدان لهزل أوجد بحيث ظن أن لحظ المنصور لايناله فقال علي بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ماحملك على أن شهرت سيفك في مكان لايشهر فيه الا عن اذن فقال انى أشرت به الى صاحبي مغمدا فزلق من غمده فقال ان مثل هذا لايسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودي عليه بذنبه وذكر أيضا أن المنصور كان به داء في رجله واحتاج فيه الى الكي فأمر الذى يكويه أن يكويه وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويتصرف في أموره ورجله تكوى والناس لايشعرون حتى شموا رائحة الجلد والمحم وهو غير مكترث بذلك فتعجب الناس من ذلك وذكر في نفح الطيب كثيرا من أخباره في الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تحتمل مجلدات فلنمسك العنان توفي المنصور بن أبي عامر في غزوة للافرنج في شهر صفر سنة ثلاثمائة واثنتين وتسعين بمدينة سالم لسبع وعشرين سنة من ملكه وقام بالامر بعده ابناه عبد الملك وعبد الرحمن واحدا بعد واحد فقام بالامر أولا ابنه عبد الملك فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادا دامت مدة سبع سنين ثم قام بالامر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم ثاب له رأى في الاستيثار بالمملكة فطلب ان هشاما يجعله ولى عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك فقرئ في ذلك المجمع وكتب القضاة والوزراء وسائر الناس شهاداتهم بخطوطهم ثم سعى كثير من الامويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة الى ان قتلوا عبد الرحمن سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ثم خلعوا الخليفة هشاما وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ثلاث وأربعمائة وقيل قتل وثار من ذلك فتن كثيرة يطول الكلام بذكرها آل الامر فيها الى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر ثم صار في كل مملكة خليفة يدعى أمير المؤمنين وتبدد شمل الجماعة

بالاندلس ثم صار الملك في طوائف متغلبين في كل ناحية ملك مستقل متغلب ولاحاجة بنا الى ذكر أسمائهم وعند ذلك استفحل أمر النصارى وصاروا يتغلبون على ممالك الاندلس ويملكونها قطرا بعد قطر وناحية بعد ناحية وصار ملوك الطوائف لايسأل بعضهم عن بعض ولا يحامى ولا يدافع الا عن نفسه وربما تقاتلوا مع بعضهم وتغلب بعضهم على البعض

﴿ ذكر أول مدينة تملكها الطاغية ﴾

أول مدينة تملكها الطاغية بلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة وتعرف هذه الوقعة بوقعة بطرنة اسم موضع هناك وذلك أن الافرنج خذلهم الله تعالى انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب معرضون عن أمر الطعن والضرب مقبلون على لذات الاكل والشرب ولما نازلها الفرنج أظهروا لاهلها الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها وخدعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا وكان المتغلب على تملكها من ملوك الطوائف عبد العزيز بن أبي عامر المعافرى ثم ان العدو جعل في مواضع خارج المدينة كمناء وجماعة من الفرسان فظن أهل البلد أن العدو تفرق وارتحل عنهم فخرجوا في زينتهم ومعهم أميرهم فصبر العدو لهم استدراجا ومكرا حتى خرج الناس كأنهم في عيد فخرج عليهم الكمناء وعطفوا عليهم بالقتل والاسر حتى استأصلوهم وما نجا منهم الا من بقي أجله وخاص الامير نفسه واستولى العدو على بلنسية وكانت بلنسية في شرقى الاندلس وكان في شرقى الاندلس من المدائن العظيمة بلنسية ومرسية وتطيلة وسرقسطة ولاردة ودانية والسهلة والثغر الاعلى ولكل واحدة من هذه أعمال واسعة وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى مالكا مستبدا بمدينة تطيلة ثم ملك سرقسطة والثغر الاعلى وبلنسية ولاردة ودانية والسهلة فكان استيلاء العدو أولا على بلنسية في السنة المذكورة وسيأتى ذكر رجوعها للمسلمين ثم استرجاع النصارى اياها مرة أخرى

﴿ ذكر تملك العدو بربشتر وسرقسطة وذلك قصبة برطانية ﴾

من الممالك التي في شرقى الاندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الاعلى ومدينة تطيلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان بن محمد بن هود الجذامى من سنة احدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانتزعها منهم بنو هود في السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الاردمليش وحاصرها وقصر الامير يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ووكل أهلها الى نفوسهم فاقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته

واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها وكان لها مدينتان فدخل المدينة الاولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجي ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجرى فيها من أنهر الى المدينة تحت الارض في سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الامان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الامان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الاموال والامتعة مالا يحصى حتى ان الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية ابكارا ومن وقار الحلى والكسوة مايحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والاسرى مائة ألف نفس ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه ان المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أولولدها فيقول لها اعطنى ما معك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها وكان السبب في قتالهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ماهاله فشرع في قتالهم فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى وأمر ان يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب الى ان مات منهم خلق كبير ونزلوا من الاسوار بالحبال خشية من الازدحام في الابواب ومبادرة الى شرب الماء وقد كان تحيز في المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ماينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الابواب والاسوار وهلك في الزحمة نودى في تلك البقية أن يبادر كل منهم الى داره بأهله وله الامان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الافرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها نعوذ بالله تعالى وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برؤس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبيناهم في الطريق اذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم الا القليل ممن نجى أجله وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها وجرى من هذه الامور والأحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم ان يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعبثون فيهن وبلغ الكفرة منهم مالا يمكن

ان يوسف على الحقيقة ولما عزم ملكهم على القفول الى بلاده تخير من بنات المسلمين الجوارى الابكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الوفا حملهم معه ليهديهم الى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين ومماكان في هذه الوقعة الشنعاء ان بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصلن في سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت الى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شئ من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بى وسألنى عن قصدى فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ماأبذل له في بعض اللواتى كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه ماأسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبى وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول الى الحصن فلا رأى لى فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فاعطنى بعض من هنا فانى أعطيك رغبتك قال وما عندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كانك تشهينى ماليس عندى ياباجه ينادى بعض أولئك الوصائف بريد يابهجة فغيره بعجمته قومى فأعرضى عليه مافي ذلك الصندوق فقامت اليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أرنى الى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظرى وبهت واسترذلت ماعندى ثم قال لى لقد كثرهنا عندى كل شئ حتى ماالتذ به ثم حلف لى أنه لو لم يكن عنده شئ من ذلك ثم بذل لى أحد مثل ذلك ماسخت بهذه الجارية التى تطلبها نفسى فهى ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جمالها لأجل أن تلد لى وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا اذا ملكونا حين كانت دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار الى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يافلانة خذى عودك فاخذت العود وقعدت تسويه وانى أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلج مسحه بيده واندفعت تغنى بشعر مافهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ماباأيديهم من السبى والمغنم فطال تعجبى قال في نفح الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ماباأنفسهم فان أهل

الاندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والالفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدى الى الهلكة لامحالة وأنهم كانوا يملون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعيم الزائل وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جميعا فلاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

﴿ ذكر استرجاع المسلمين بربشتر وسرقسطة ﴾

ولما كانت السنة التى بعد أخذها وهي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثار أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها والمتهم على أهلها لانحرافهم الى أخيه صمد لها مع امداد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وسعى لاصمات سوء المقالة عنه وقد كتب الله تعالى عليه منها مالا يمحوه الا عفوه تعالى فتأهب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين فجاهدوا الكفار بها جلادا ارتاب منه كل جبان وأعز الله تعالى أهل الحقيقة والشجعان وحمى الوطيس بينهم الى ان نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه وولوا الادبار مقتحمين أبواب المدينة فاقتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين الامن فر من مكان الوقعة ولم يدخل المدينة فاجيل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين الا من استرق من أصاغرهم وفدى من أعاظمهم وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارى وأصيب في منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصرة الدين نحو الخمسين كتب الله لهم الشهادة وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدى الافك واسترجع بلنسية المأمون بن ذى النون وولى عليها أبا بكر بن عبد العزيز المنصور فداخله ابن هود في الانتقاض ففعل واستبد ببلنسية وضبطها وذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة ثم مات أبو بكر بن عبد العزيز فتملكها بعده ابنه القاضى عثمان بن أبي بكر وبقى الى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فلما تملك الطاغية طليطلة في هذا العام كما سيأتى وتسلمها من القادر بن ذى النون شرط عليه القادر أن يمكنه من تملك بلنسية فسار معه الطاغية بجيوشه الى ان ملكه بلنسية وذلك ان المسلمين لما أقبل عليهم القادر بن ذى النون ومعه جيوش الطاغية خافوا أن يتملكها الطاغية فخلعوا القاضى عثمان بن أبى بكر وسلموها للقادر بن ذى النون وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وبقى الى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وكان ذلك بعد دخول يوسف بن تاشفين الاندلس وتغلبه على ملوك الطوائف كما سيأتى بيانه فجهز جيشا لتخليص بلنسية من القادر بن ذى النون وجعل امارة

بلنسية للقاضى أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن حجاف فحصر بها القادر بن ذى النون الذى مكن الاذفونش من طليطلة ثم هجم عليه القاضى في جماعة من المرابطين فقتلوه وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وتملك ابن حجاف بلنسية ثم رجع عنه طائفة المرابطين الذين كان استنصر بهم وأعانوه على تملكه اياها وصار خائفا من استيلاء الطاغية عليه وجعل يستصرخ الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فيبطأ عليه النصر وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضى بن حجاف واشترط عليه احضار ذخيرة كانت للقادر بن ذى النون فاقسم انها ليست عنده فاشترط عليه انه ان وجدها عنده قتله فاتفق انه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعاث في بلنسية وكان الاستيلاء عليه سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في التى قبلها وهذا الطاغية الذى أخذها يقال له أيضا القنطيور وحاصرها قبل أخذها عشرين شهرا قيل انه دخلها صلحا وقيل بل عنوة وحرقها وعاث فيها وممن أحرقوا فيها الاديب أبا جعفر ابن البناء الشاعر المشهور ثم وجه اليها جيشا أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وجعل أميرا على الجيش أبا محمد مرزلى ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وبقيت بلنسية بيد المسلمين الى سنة ستمائة وثلاثين ثم أخذها العدو وسيأتى ماكان بعد ذلك ومما استولى عليه العدو مدينة المرية وهى من مدائن الاندلس العظيمة الشهيرة استولى عليها العدو سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة وأحصى عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا قال ابن حبيش وهو آخر الحفاظ بالاندلس كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله للاسلام فتقدمت الى زعيم النصارى وهو ابن بنت الاذفونش وقلت له انى أحفظ نسبك منك الى هرقل فقال لى قل فذكرته له فقال لى اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقا بلا شئ ثم انها بعد ان أخذت في السنة المذكورة استرجعها المسلمون سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين الى ان أخذها الكفار مرة أخرى سيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر تملك الطاغية طليطلة ﴾

قال في نفح الطيب ان الاندلس ينقسم الى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الاقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لايحصون في غاية التنعم والرفاهية فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ومن شرق الاندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الأعلى وسرقسطة وتطيلة

وغير ذلك مما يطول ذكره ومن غرب الاندلس اشبيلية وماردة واشبونة وشلب وشريش ولبلة والحضرا وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره ولما ضعف أمر الخلافة وافترق ملوك الاندلس وكثر الاختلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة يسمون ملوك الطوائف لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده من الممالك وهم مختلفون في اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك واستبداد تملك الطوائف من سنة سبع وأربعمائة وصاروا يقاتل بعضهم بعضا فيتغلب بعضهم على بعض ويستولى على مابيد الآخر وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لاحاجة الى ذكر أسمائهم وكان أعظم الممالك عندهم قرطبة وهي مقر دار الخلافة وسرير الملك والسلطنة وكان المستولى على قرطبة من ملوك الطوائف المعتضد بن عباد وكانت قبل تغلبه عليها عند أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور المغافرى الكلبي استبد بها من سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ثم صار لبنيه من بعده فأخذها منهم ابن ذى النون صاحب طليطلة سنة أحدى وستين وبقيت عنده الى سنة تسع وستين وأربعمائة فانتزعها منهم المعتضد بن عباد بعد قتال وضمها الى ماكان بيده من الممالك فصار ابن عباد أعظم ملوك الطوائف فكانوا يهابونه ويهادونه ويخضعون له ويخشون سطوته وكان أبو المعتضد وهو الذى أسس له هذا الملك قيل انه من لخم وينتهى نسبه الى النعمان بن المنذر ملك الحيرة في الجاهلية وتوفي المعتضد بن عباد سنة احدى وستين وأربعمائة وصار الملك بعده لابنه المعتمد محمد بن عباد فاتسع ملكه وشمخ سلطانه أكثر مما كان لابيه وكان أيضا من أعظم الممالك طليطلة وكانت لبنى ذى النون وكانت قبلهم ليعيش بن محمد بن يعيش من أول الفتنة والتفرق الى سنة سبع وعشرين وأربعمائة فانتزعها منهم وتغلب عليها اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذى النون أصله من البربر من قبيلة هوارة وضمها الى ماكان بيده من الممالك فاتسع ملكه وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة فولى بعده ابنه المأمون أبو الحسن يحيي فاستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه وتوفي سنة سبع وستين وأربعمائة فولى بعده حفيده القادر بالله يحيي بن اسماعيل بن المأمون يحيي فانتزعها الطاغية منه وهي من المتوسطة من الاندلس وكانوا يسمونها وجهاتها الثغر الادنى ويسمون سرقسطة وجهاتها الثغر الاعلى وتسمى طليطلة أيضا مدينة الاملاك لانها ملكها اثنان وسبعون ملكا قيل ان سليمان بن داود عليه السلام دخلها وكذا عيسى بن مريم عليهما السلام ودخلها أيضا ذو القرنين وهى مدينة حصينة قديمة من بناء العمالقة ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورساتيق مريعة

وضياع بديعة وقلاع منيعة وبها القنطرة العجيبة البناء يعجز الواصفون عن وصفها وطول تلك القنطرة ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعا على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعا وهى تصعد الماء الى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة وبنى المأمون فيها قصرا تأنق في بنائه وأنفق مالا كثيرا وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسبق الماء الى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة متواليها كلها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من الماء يسكب ولا يفتر والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولوشاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو فيها يوما اذ سمع منشدا يقول

أتبنى بنــاء الخالدين وانمـا * بقاؤك فيها لو علمت قليل

لقد كان في ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا الا يسيراً حتى قضى نحبه وذلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وولى بعده ابنه يحيى القادر بالله الى ان أخذت منه ثم صارت له بالمنسية بواسطة الطاغيــة الى ان قتل كما تقدم وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفــة الطعوم والالوان وفيها ايوان كبير يقال ان الجيــل تلعب فيه وكان بنو ذى النون ملوك طليطلة لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف الى الغاية فطمع في ملكهم الطاغية المسمى بالاذفونش واشتغل القادر يحيى صاحبها بالخلاعة والمجون وأكثر مهادة الافرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتــدت يده الى أموال الرعية ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئا بعد شيء حتى أخذت منه طليطلة وسلبته ملكه ولما أرادوا أخذها سار اليها الاذفونش بجيوشه وصار يتملك قراها وأعمالهــا ويضيق عليها بالحصار وكان ذلك كله في مدة سبع سنين فلما اشتد عليهم الحصار رضى صاحبها والمسلمون أن ينزلوا عنها وقد فنى بالقتل والاسر والنهب كثير منهم في قراها وبواديها قال ابن بسام بعد ذكره وقعة بطرنة المتقدم ذكرها وذكر ماصار للمسلمين عند أخذها وهكذا جرى لاهل طليطلة فان العدو خذله الله استظهر عليهم وقتل جماهيرهم وكان من جملة ماغنمه الفرنج من أهلها لمــا خرجوا اليهم من ثياب الترفه ألف عفارة خارجاً عما سواها وكان أخذ الطاغية طليطلة سنة ثمــان وسبعين وأربعمائة وأعطى الامان لصاحبها القادر بالله ولمن بقى بها من المسلمين ثم لمــا ملكها الطاغية صار يستميل أهلها الباقين فيها ويظهر لهم صورة العدل حتى حبب التنصر الى كثير من الطغام منهم وقيل لملكهم الطاغية ينبغى ان تلبس التاج كمن كان قبلك من الملوك فقال حتى نأخــذ قرطبتهم

وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وأخذ في الاستمداد لتملك قرطبة ومما يدل على عظم مدينة طليطلة وحصانتها ان المسلمين لما استرجعوا ماتملكه الاعداء من المدائن والقرى عجزوا عن استرجاع طليطلة وبقيت في يد العدو الى آخر المدة ولما فتح المسلمون الاندلس فى أول الامر ألقى الله الرعب في قلوب النصارى وصاروا يأخذون في الفرار ولم يثبت منهم أحد بعد أول وقعة كانت بينهم وبين المسلمين حتى انهم أخلوا طليطلة فوجدها المسلمون خالية ووجدوا فيها مائدة سليمان عليه السلام وقيل انها ليست لسليمان وانما هى لملوكهم تأنقوا في صنعها وكانت مصوغة من الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ير الراؤن مثلها وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا بكسر الراء وسكون الجيم وكان عليها طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد وكلها مكللة بالجوهر حافاتها وأرجلها وكانت أرجلها منها فاخذها طارق بن زياد فاتح الاندلس واتحف بها الوليد بن عبد الملك

﴿ ذكر ماجرى بعد استيلاء العدو على طليطلة بين العدو والمعتمد بن عباد صاحب قرطبة ﴾

قد تقدم ان ابن عباد كان أعظم ملوك الطوائف وذلك لانه قاتل كثيرا من ملوك الطوائف وانتزع منهم كثيرا من ممالكهم فصار له قرطبة واشبيلية وبطليوس وشريش وقرمونة ورندة وغير ذلك فكان الباقون من ملوك الطوائف يهابونه ويلتمسون رضاه ولما رأى ابن عباد قوة الاذفونش الطاغية صار يداهنه ويهاديه ويخضع له وجعل له ضريبة على نفسه يؤديها اليه كل سنة فلما تملك الاذفونش طليطلة وأرسل اليه المعتمد الضريبة المعتادة التى كان يدفعها كل سنة فلم يقبلها الاذفونش وأرسل اليه يتهدده ويتوعده المسير الى قرطبة ليفتحها الا أن يسلم اليه الحصون المنيعة التى يريدها فيبقى العهد للمسلمين وكان رسول الاذفونش الى المعتمد معه جمع من النصارى أتباع الاذفونش كانوا نحو خمسمائة فارس فلما وصل الى المعتمد أنزله وحده وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر المعتمد قواد عسكره أن يقتل كل منهم من كان عنده من أولئك النصارى الذين جاؤا مع رسول الاذفونش فقتلوهم وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من أولئك النصارى المرسلين ثلاثة نفر فرجعوا الى الاذفونش وأخبروه الخبر وكان قد تجهز الى قرطبة ليحاصرها فرجع الى طليطلة ليزيد في التجهز ويجمع مابقى من آلات الحصار ويكثر الجيوش والعدة فلما بلغ المعتمد اهتمام الطاغية في التجهيز رحل الى اشبيلية لتدبير هذا الامر وسمع بذلك العلماء من مشائخ قرطبة وتحققوا جميع ماجرى وعلموا قوة الفرنج وضعف المسلمين وتأملوا في أمر ملوك الطوائف فوجدوهم منهمكين في اللذات والشهوات ويقاتل بعضهم بعضا ويستعين

بعضهم على بعض بالفرنج فاجتمع العلماء يتشاورون في هذا الامر فقال بعضهم هذه بلاد الاندلس قد غلب عليها الافرنج وملكوا كثيرا منها ولو استمرت الحال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت ثم ساروا الى قاضي القضاة المسمى عندهم بقاضي الجماعة وكان في ذلك الوقت هو القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنظر الى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية للطاغية بعد ان كانوا يأخذونها منه وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال ماهو قالوا نكتب الى عرب افريقية ونبذل لهم اذا وصلوا الينا أنصاف أموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله فقال لهم اذا وصلوا الينا يخربون بلادنا ويطمعون فينا ويبدؤن بنا قبل الافرنج ثم يذهبون بأموالنا الى بلادهم ويتركونا مع الافرنج فيزدادون قوة علينا والذي أراه ان المرابطين أتباع يوسف بن تاشفين ملك مراكش أقرب الينا من عرب افريقية وكان يوسف بن تاشفين له ملك ضخم وقوة عظيمة في مراكش وفاس وأعمالهما فاستحسن العلماء ما قاله قاضي الجماعة ثم ذهب قاضي الجماعة الى المعتمد بن عباد وعرض عليه ماقالوه واستحسنوه فاستحسنه المعتمد بن عباد وقال للقاضي المذكور أنت الرسول الى ملك مراكش يوسف بن تاشفين فامتنع وأراد أن يبرئ نفسه من تهمة تقع عليه فلم يقبل منه المعتمد هذا الامتناع بل ألح عليه المعتمد الى ان رضي وعزم على المسير اليه فكان ماسيأتي ذكره وينبغي قبل ذكر مسير قاضي الجماعة ان نذكر شيأ مما يتعلق بدولة يوسف ابن تاشفين ملك مراكش وكيف كان ابتداء أمره ليعلم بذلك كيف ترقت دولته حتى كانت في غاية القوة والمتانة وتعرف دولته بدولة المرابطين والملثمين لانهم كانوا يتلثمون دائما وهم عدة قبائل أشهر تلك القبائل قبيلة لمتونة وكان يوسف بن تاشفين منهم ومنهم قبيلة جدالة وملطة واختلفوا في انتهاء نسبهم اختلافا كثيرا فاختار ابن الاثير انهم ينسبون الى حمير فهم على قوله من العرب وكان أول مسيرهم من اليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فسيرهم الى الشام زمن فتوحات الشام ثم انتقلوا الى مصر ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير ثم توجهوا مع طارق بن زياد فاتح الاندلس ثم أحبوا الانفراد ودخلوا الصحراء واستوطنوها ثم توحشوا وتوالد منهم قبائل كثيرة واختار ابن خلدون انهم ليسوا من العرب وانما هم من البربر وان نسبهم ينتهي الى يافث بن نوح عليه السلام ولما توحشوا في البوادي صاروا لايعرفون من الاسلام الا الشهادتين والصلاة ثم حج رجل منهم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة فلما رجع صحب معه واحدا من العلماء وكان فقيها صالحا اسمه عبد الله بن يس الكرولي وقصد بمجيئه به الى قومه أن يعلمهم الاحكام والشرائع

لجاء معه فأكرموه وصار يعلمهم وينقادون له ثم جعلوا عليهم أميراً من لمتونة وهو أبو بكر بن عمر وكان هو رأس لمتونة ثم صاروا يقاتلون أهل البغي والفساد ممن كان قريبا منهم فقوى أمرهم ثم خرجوا الى السوس الاقصى وصاروا يأخذون الزكاة ووقع بينهم وبين أهل السوس قتال الى ان انقادوا لهم ثم قاتلوا أهل سلجماسة الى ان انقادوا لهم أيضا ثم توفي أميرهم أبو بكر بن عمر بعد ان استخلف ابن أخيه أبا بكر بن ابراهيم بن عمر ثم توفي أبو بكر أيضا سنة ثنتين وستين وأربعمائة فاجتمعت طوائفهم على ابن عمه يوسف ابن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين فكثرت جموعهم وقوى أمرهم وكان يوسف المذكور مشهورا بالعقل والصلاح وحسن التدبير فظهر أمرهم وعلا شأنهم فقصدوا موضع مدينة مراكش وكان قاعا صفصفا لاعمارة فيه فاختط يوسف هناك مدينة مراكش ونزلها بمن كان معه من القبائل ثم لم يزل يتملك مدائن المغرب مدينة بعد مدينة حتى صار له من القوة والمتانة ماهو مشهور مذكور في التواريخ والكلام على ذلك طويل فلما نزل بأهل الاندلس مانزل من الكفار قصدوه فبعثوا اليه قاضي الجماعة بقرطبة القاضي عبدالله ابن محمد بن أدهم فسار الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمكاتبة من المعتمد بن عباد وعلماء قرطبة فأبلغه الرسالة وأعلمه مافيه المسلمون من الخوف من الاذفونش وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ففي الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس وأرسل الى مراكش في طلب من بقي من العساكر فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار الى ان اجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية فكانت غزوة الذلاقة المشهورة

﴿ ذكر غزوة الذلاقة ﴾

لما اجتمع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد باشبيلية وجده قد جمع عساكره وكان فيهم من أهل قرطبة عسكر كثير ومعهم من المتطوعة من سائر بلاد الاندلس خلق كثير فلما وصلت الاخبار الى الاذفونش الطاغية جمع عساكره وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا باللسان العربي كتبه له بعض المخذولين ممن يدعون الانتساب الى الاسلام تغلظ فيه القول ويصف ماعنده من القوة والعدد والعدة وبالغ الكاتب في الكلام وتجاوز الحد فأمر ابن تاشفين كاتبه أن يكتب الجواب لاذفونش فكتب كلاماً كثيراً فلما قرأه على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قال هذا كلام طويل أحضر كتاب الاذفونش واكتب في ظهره الذي سيكون ماستراه لا ماستقرؤه فلما رجع الكتاب الى الاذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم فازداد استعداداً وكان في جيشه

أربعون ألف دراع وجملة جيشه ثلاثمائة ألف بغاية الاستعداد فرای في منامه كانه راكب علی فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويل هذه الرؤيا فأحضر رجلا من علماء المسلمين فقص الرؤيا عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فطلب منه الامان على نفسه اذا عبرها له فأمنه فقال له تأويل هذه الرؤيا يؤخذ من كتاب الله عزوجل وهو قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة وقوله تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وهذا التأويل يقتضي هلاك هذا الجيش الذی جمعه فقال الاذفونش للذی عبر له الرؤيا بهذا الجيش ألقى اله محمد صاحب كتابكم وأقاتل بهذا الجيش الجن والانس وملائكة السماء فانصرف ذلك المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الاذفونش هالك وكل من معه وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وكان الاذفونش استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم وأيقنوا بالنصر والظفر اغترارا بكثرتهم وقوة استعدادهم وما علموا ان النصر من عند الله وان العاقبة للمتقين ثم سار أمير المسلمين والمعتمد بن عباد بجيوشهما وجيوش ملوك الطوائف حتى أتوا أرضا يقال لها الذلاقة من بلد بطليوس وأتى الاذفونش بجيوشه فنزل موضعا بينه وبينهم ثمانية عشر ميلا ولم يبق أحد من ملوك الطوائف بالاندلس الا بادر وأعان بالمال والرجال وخرج بنفسه وأخرج عساكره لكن لم يبلغ عدد مقدار جيش العدو وقيل لامير المسلمين ان ابن عباد ربما انه لاينصح ولا يبذل نفسه دونك فأرسل أمير المسلمين يأمره أن يكون في المقدمة ففعل ذلك وسار وقد ضرب الاذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمد في سفح جبل يتراأون ونزل أمير المسلمين وراء الجبل الذی عنده المعتمد وظن الاذفونش ان عساكر المسلمين ليس الا الذين يراهم مع ابن عباد فتيقنوا الغلب وأرسل الاذفونش الى المعتمد في ميقات القتال فقال يكون يوم الاثنين فقد وصلنا على حال تعب واستقر الامر على هذا فركب الاذفونش ليلة الجمعة سحرا وصبح بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة غدرا، ظنا منه ان ذلك الجم هو جميع عسكر المسلمين فوقع القتال بينهم نصبر المسلمون وأحاط عليهم الاذفونش بجموعه من كل جهة وحمى الوطيس واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وقاتل ابن عباد بنفسه قتالا لم يعهد منه لاحد وجرح جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة افراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسی

حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا وكان ابن عباد قد بعث الى أمير المسلمين يستحث لنصرته فبيناهم في القتال اذ وصل أمير المسلمين بجيوشه بعد ان كاد المسلمون ينهزمون وقصد خيام الفرنج ومحلة الاذفونش فاقتحموها وأحرقوها وقتلوا فيها وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الارض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجعت الروم الى محلاتهم بعد ان علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بالدرق والسيوف والمزاريق فطعنوا الرجال والخيل فرمحت الخيل بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وكان أهل الاندلس لايعرفون الجمال وليست في بلادهم فجاء أمير المسلمين معه بجمال كثيرة فكانت من جملة أسباب النصر لان خيل العدو كانت تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ومن منفعة تلك الجمال انه كان يحدق بها العسكر وقت نزولهم وكان يحضرها الحرب فيكثر رغاؤها ثم تحول أناس من جيش أمير المسلمين جاؤا الى موضع القتال فلقيهم من بين أيديهم ووضع السيف فيهم فلم يتمالكوا الثبات وأنزل الله النصر وأنزل السكينة على المسلمين فانهزم العدو وأخذهم السيف من كل جانب وصدق المسلمون جميعا الحملة فتزلزلت الارض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل في الدماء فانكشف الطاغية وفر هاربا منهزما وقد طعن في احدى ركبتيه طعنة بقي يخنع بها وأفلت فارا مع نفر يسير من قومه وهلك الباقون وكان موضع القتال متسعا جدا فما كان فيه موضع قدم الا وفيه من تلك الوقعة ميت أو دم وجمع المسلمون من رؤس القتلى كوما فكانوا يؤذنون عليها الى ان جيفت فأحرقوها قيل لم يرجع من الفرنج الى بلادهم غير ثلاثمائة فارس وغنم المسلمون كل مالهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك وجمع أمير المسلمين الغنائم وعف عنها وأعطاها ملوك الاندلس وعرفهم ان مقصده الجهاد ونيل الثواب العظيم وأقام أربعة أيام لجمع الغنائم وعاد ابن عباد الى اشبيلية ورجع أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء وعبر الى سبتة وسار الى مراكش ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن ابطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع الانوح الثكالى فاهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك هما وغما وهوى الى أمه الهاوية وكانت هذه الوقعة في يوم الجمعة في العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة فكانت هذه الغزوة من أعظم غزوات المسلمين وفتوحاتهم

ذكر ما كان بعد غزوة الذلاقة

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من غزوة الذلاقة أقام بالاندلس أياما ثم لما أراد التوجه الى مراكش ترك جيشا عظيما بالاندلس لقصد غزو الافرنج وشكا اليه كثير من علماء الاندلس جور ملوك الاندلس الذين اقتسموها وانهماكهم في اللذات والشهوات والمعاصي فوعظ الملوك وزجرهم ونهاهم عن المكوس وعن الظلم والجور والانهماك في اللذات والشهوات ثم رجع الى مراكش فجاءته الاخبار بأنهم تقاعدوا عن جهاد الكفار واستغرقوا الاوقات في اللذات والشهوات وزادوا في الظلم عما كانوا فاستفتى علماء العراق فيهم فأفتوه بجواز انتزاع الملك منهم فعبر اليهم في سنة أربع وثمانين وأربعمائة وانتزع الملك منهم واستولى على الاندلس بعد قتاله لبعض المتملكين لها وقتل بعضهم وأسر بعضهم وحملهم الى مراكش وحبسهم الى ان ماتوا وصار ملك الاندلس كلها بيده ويد عماله مضافا ذلك الى مابيده من المغرب الاقصى وأكثر من الغزو والجهاد بالاندلس هو وجنوده وتوفي سنة خمسمائة وكان الامام الغزالى لما بلغه حسن سيرته أراد زيارته فرحل من العراق الى الشام ثم بلغه موته قبل أن يصل اليه فرجع وكان يوسف بن تاشفين يخطب لبنى العباس وكان قدطلب منهم تقليدا لانه قيل له لاتجب طاعتك وتنفذ أحكامك الا اذا كانت ولايتك من الخليفة فأرسل رسلا الى الخليفة ومعهم هدية وطلب التقليد فكتب له المستظهر بالله العباسى بن المقتدى بامر الله بن القائم بامر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد وعقد له على الاندلس وبقية الممالك التى كانت تحت يده ولقبه أمير المسلمين وناصر الدين وبايعوا بعد وفاته ولده على بن يوسف بن تاشفين وكان حليما عاقلا صالحا عادلا

ذكر خروج الفرنج بالاندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين

لما توفي يوسف بن تاشفين قوى طمع النصارى في الاستيلاء على الاندلس فخرج الاذفونش الافرنجي صاحب طليطلة سنة خمس وخمسمائة يطلب مابأيدى المسلمين من ممالك الاندلس فجمع وحشد فأكثر فسار اليه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من مراكش في عساكره وجموعه فلقيه فاقتتلوا أشد القتال فكان الظفر للمسلمين وانهزم الافرنج وقتلوا قتلا ذريعا وأسر منهم شئ كثير وسبي منهم وغنم من أموالهم مايخرج عن الاحصاء فخافه الافرنج بعد ذلك وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج ابن ردمير من ملوك الافرنج بجموع كثيرة فالتقى مع أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بجموعه فكانت الهزيمة على

المسلمين ثم رجع ابن ردمير الى بلاده ثم اشتغل أمير المسلمين بأمر محمد بن تومرت الذى ادعى أنه المهدى فاتسع الخرق في الاندلس فأرسل أمير المسلمين ابنه تاشفين أميرا على الاندلس لجهاد الكفار ووقع بينه وبين ابن ردمير وقائع وانتصر في بعضها على ردمير فمات معموما من الهزيمة بعد عشرين يوما وكان من أشد ملوك الفرنج على المسلمين فكفى الله المسلمين شره وبقى من ملوك الفرنج الاذفونش الذى كان قد تملك طليطلة فوقع بينه وبين المسلمين وقائع ثم عقدوا معه صلحا عشرين سنة

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المدعى أنه المهدى المنتظر ﴾

اعلم ان هذه القضية الكلام عليها طويل مذكور في التواريخ وتلخيص ذلك باختصار ان محمد بن تومرت رجل من جبل السوس يدعى أنه شريف علوى حسنى قرأ علوما بالمغرب ثم ارتحل الى المشرق والعراق واجتمع بكثير من العلماء وأخذ عنهم قيل منهم الامام الغزالى وقيل لم يجتمع بالغزالى وكان يرى منامات يؤولها بالقيام بأمر الامة منها أنه شرب البحر مرتين وقيل كان له معرفة بالرمل والنجوم فقام في نفسه أنه المهدى المنتظر وكتم ذلك في أول أمره وأظهره في آخره وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة والتقشف فابتدأ أولا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتبعه جماعة يأخذون عنه العلم ويجتمعون معه على الذكر وكان أعظمهم عبد المؤمن بن على الكومى القيسى وأبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتى وعبد الله الونشريسي وكان الونشريسى عالما متضلعا بالعلوم فأمره أن يكتم ماعنده من العلوم ويجعل نفسه أبكم ويقوم بخدمة الشيخ وقال له أبق العلوم عندك مكتومة الى ان نحتاج الى اخراجها في وقت يكون اخراجها فيه كالمعجزة والبرهان لاتمام مانريد فامتثل أمره وبقى أبكم بين الناس ابله ولعابه يجرى على صدره ولا يتكلم الا مع الشيخ في وقت الخلوة ثم انهم دخلوا مراكش فرأوا نساء راكبات على بغال وهن سافرات الوجوه وكانت تلك عادة لهن في تلك البلاد فأنكروا عليهن وضربوا بعض البغال فسقطت من فوقها امرأة فاذا هى أخت أمير المسلمين فرفع الامر الى أمير المسلمين وأخبروه بأن هذا الرجل يتحدث في تغيير الدولة فأحضروه ومن معه وحضر عند أمير المسلمين جماعة من العلماء ووقع بينهم وبين ابن تومرت مجادلات فأقام الحجة عليهم بوجود كثير من المنكرات بين أظهرهم ولم ينكروها ووعظ أمير المسلمين حتى أبكاه فقال مالك بن وهيب وكان عالما صالحا يكثر مجالسة أمير المسلمين بل كان أحد وزرائه ان عندى النصيحة ان قبلتها حمدت عاقبتها فقال أمير المسلمين ماهى فقال انى خائف عليك من هذا الرجل وأرى انه لايريد الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر انما يريد فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه وان لم تقتله نخلده في الحبس فقال بعض الحاضرين من جلساء أمير المسلمين يقبح على أمير المسلمين ان يبكي من موعظة هـذا الرجل ثم يسيء اليه في مجلس واحد وان يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لايملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء فلما خرج من عند الملك قال لاصحابه لامقام لكم بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فساروا الى اغمات ثم ذهبوا الى جبل تينمل وكان جبلا عظيما فيه كثير من القبائل وكثير من الزروع والفواكه واتصلوا بالسوس وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة واجتمع عليه خلق كثير وتسامع به أهل تلك النواحي وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الاسلام وما غير منها وما حدث من الظلم والفساد وأنه لايجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عماهم فيه فتابعه قبائل كثيرة وسمى أتباعه الموحدين وأعلمهم ان النبي صلى الله عليه وسلم بشر بالمهدى الذى يملأ الارض عدلا. وان مكانه الذى يخرج منه المغرب الاقصى فقام اليه عشرة رجال أحدهم عبدالمؤمن فقالوا لايوجد هذا الا فيك فأنت المهدى فبايعوه على ذلك فانتهى خبره الى أمير المسلمين فجهز جيشا وسيره اليه مع بعض أصحابه ووعد المهدى أصحابه بالنصر فلقوا جيش أمير المسلمين فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوى ظنهم في صدق المهدى وأقبلت اليه أفواج القبائل من الحلل التى حوله شرقا وغربا وبايعوه وألف لهم كتابا في التوحيد سماه المرشد وكتابا في العقيدة ونهج لهم طريق الادب بعضهم مع بعض والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ويزهدهم في الدنيا وكان قوته كل يوم برغيف وقليل من زيت أو سمن وكان يحرضهم على قتال عدوهم واخراج الاشرار من بينهم وكان يستميل الاحداث وذوى الغرة بالراء بعد الغين المعجمة وكان ذو والحلم والعقل من أهاليهم ينهونهم عنه ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك فلما علم بذلك خشى أن يفسدوا عليه من اتبعه ويسلموه للملك فصار يسأل ويتجسس عن هؤلاء الذين يمنعون أولادهم وعشائرهم من اتباعه ويكتب أسماءهم في جريدة عنده ولم يطلع على ذلك أحدا الا عبد الله الونشريسى الأبكم الذى يخدمه ليرتب الامر معه وقد تقدم أنه أمر أن يكتم ماعنده من العلم ويظهر البله والبكم فقال له في هذا الوقت هذا وقت اظهار ماعندك وأمره أن يفعل ماسنذكره فخرج المهدى يوما لصلاة الصبح فرأى في جانب محرابه انسانا حسن الثياب طيب الرائحة فأظهر أنه لايعرفه وقال من هـذا فقال انا الونشريسى فقال المهدى

ماقصتك فقد كنت أبكم لاتتكلم فقال أتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والاحاديث فبكي المهدى بحضرة الناس ثم قال نحن نمتحنك فقال افعل وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أى موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والاصول وبقية العلوم فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم ان الله أعطاني نورا أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة وقد أنزل الله ملائكة الى البئر التى في موضع كذا يشهدون بصدقي وكان قد وضع في البئر رجالا ثلاثة يشهدون بصدقه فسار المهدى والناس معه وهم يبكون الى البئر وصلى المهدى عند رأسها ركعتين وقال ياملائكة الله ان عبدالله الونشريسى قدزعم كيت وكيت فقال من في البئرصدق فلما قيل ذلك من البئر قال المهدى ان هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل اليها الملائكة فالمصلحة ان تطم لئلا يقع فيها نجاسة أومالا يجوز وقال ذلك لئلا يظهر الرجال منها فيفشون السر فيفسد الامر الذى دبره فألقوا فيها من الحجارة والتراب ماطمها وأهلك من فيها من الرجال ثم نادى أهل الجبل بالحضور الى ذلك الموضع فحضروا ليتميز أهل الجنة من أهل النار فكان الونشريسى يعمد الى الرجل الذى عرفه المهدى به انه يخاف عاقبته وكتبه في الجريدة التى أطلعه عليها فيقول هذا من أهل النار فيقتل والى الشاب الغرومن لايخاف منه فيقول من أهل الجنة فيترك على يمينه ولم يزل يجمعهم في أيام مرة بعد أخرى ويفعل ذلك حتى تتبع كل من يخشى منه فقتله قال ابن الاثير في الكامل فكان عدة من قتلهم سبعين ألفا وصار الباقون معه على نيات صادقة وقلوب متفقة على طاعته فجهز منهم جيشا وجعل الامير عليهم عبد المؤمن بن على وسيرهم لقتال المرابطين قوم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وتتابع القتال بينهم مرارا وشرح ذلك يطول واستمر أمره يعلو الى سنة أربع وعشرين فمرض مرضا شديدا وكان عبد المؤمن غائبا مع الجيوش التى تقاتل أهل مراكش فأوصى المهدى بأن خليفته عبد المؤمن وأمرهم باتباعه وتسليم الامر اليه والانقياد له ثم توفي فلما رجع عبد المؤمن بايعه الناس وانقادوا له وتسمى دولته دولة الموحدين لان المهدى سماهم بذلك كما تقدم فجهز الجيوش وأزال ملك بنى تاشفين وفتح البلدان وملك كثيرا من مدائن المغرب وكل ذلك مبسوط في التواريخ وصار لعبد المؤمن ملك عظيم في المغرب والاندلس توارثه بنوه بعده الى سنة ثمان وستين وستمائة فانتزع الملك منهم بنو مرين فكانت مدة دولة بنى عبد المؤمن مع مهديهم مائة وثنتين وخمسين سنة قال في نفح الطيب كانت دولة بنى عبد المؤمن من أعظم

الدول الاسلامية وكان كل واحد يلقب أمير المؤمنين ومسلكهم مسلك الخلفاء وكانوا يدعون على المنابر لمهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة وتوفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة كثير البذل للاموال الا انه كان سفاكا للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن ترك الصلاة قتله وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ومما نقل من كرمه أن شاعرا مدحه بقصيدة مطلعها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فأشار اليه ان يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار فقيل له لم لم تسمع تمام القصيدة فقال عبد المؤمن وما عسى ان يقول بعد قوله ماهز عطفيه البيت يعنى انه لايمكنه ان يأتى بمدح أعظم مما في هذا البيت وفي المونس في أخبار تونس للعلامة أبي القاسم الرعيني القيرواني ان هذا الشاعر بعد ان قبض الالف الدينار عاد اليه من الغد وأنشده البيت المذكور فأسكته وأمرله بألف دينار أخرى ثم لم يزل ينشده كلمادخل عليه ويأمرله بألف دينار الى ان وصله بأربعين ألفا فحسده بعض الشعراء وقال له الى متى تفعل هكذا ومايؤمنك من تغير أخلاق أمير المؤمنين وقد وصلك بما فيه غناؤك فارتحل من فوره الى بلده ثم سأل عنه عبد المؤمن فأخبر برحيله فقال لاحول ولا قوة الا بالله لقد ظن بنا غيرما أردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك وكان لعبد المؤمن معرفة بالشعر والادب يحكى عنه انه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال فقال عبد المؤمن * قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت * فقال ابن عطية * حوراء ترنو الى العشاق بالمقل * فقال عبد المؤمن * كأنما لحظها في قلب عاشقها * فقال ابن عطية * سيف المؤيد عبد المؤمن بن على * ويقال لعبد المؤمن القيسى نسبة الى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ويقال له الكومى نسبة الى كومية قرية بتلمسان وكان المهدى محمد بن تومرت يقول له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس وأرجوان تكون أنت وكان أبوه صانعا في عمل الطين يعمل منه الآنية ويبيعها قال ابن خلكان في ترجمة عبد المؤمن كان في صباه يوما نائما تجاه أبيه وكان أبوه مشتغلا بعمل الآنية من الطين فسمع أبوه دويا في السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قدهوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على ابنه عبد المؤمن وهو

نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك الحالة فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه فقال لا بأس عليه بل انى متعجب مما يدل عليه ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ماذا يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي ومابه ألم فتفقدت أمه جسمه فلم تر به أثرا ولم يشك لها ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى اليه أبوه وأخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال ذلك الرجل يوشك أن يكون لولدك هذا شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما كان وتقدم ان من أصحاب المهدى عمر بن يحيي الهنتاتى قيل انه ينتهى نسبه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون الحفصيين استمر ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة واحدى وثمانين فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية وكانوا يلقبون بالحفصيين وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانيه وسبعين سنة وهم من فروع دولة المهدى محمد بن تومرت واختلف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء انه أراد اظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم انه كان على الامة شرا من الحجاج ويزيد والله أعلم بحقيقة الحال ولنذكر ما كان من الفتوحات في مدة عبد المؤمن وبنيه وفي مدة الحفصيين ملوك تونس

﴿ ذكر أول تجهيز لعبد المؤمن على الاندلس ﴾

قال ابن الاثير في الكامل في حوادث سنة احدى وأربعين وخمسمائة في هذه السنة سير عبد المؤمن بن على جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا مافيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبدالمؤمن لما كان يحاصر مراكش جاءاليه جماعة من أعيان الاندلس ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وانقيادهم لامره فقبل عبدالمؤمن منهم ذلك وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين وهم أتباع يوسف بن تاشفين ويقال لهم المرابطون فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد كان لعبدالمؤمن من كان بها وانتزعت عساكر عبد المؤمن كثيرا من مدائن الاندلس التى كانت في طاعة المرابطين مدينة بعد مدينة بعد حروب يطول ذكرها وفي سنة ثنتين وأربعين حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها

والنهب وملكوا أيضا مدينة شاسة وولاية حيان وكلها بالاندلس وفي سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين شئ في تلك الجهات الا واستولى الفرنج عليه وفي سنة خمس وأربعين سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج في أربعين ألف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهي في ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها لم يقدروا ان يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وأرادوا الاجتماع بالمسلمين المحصورين بقرطبة فسلكوا الجبال الوعرة والمضائق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما في الوعرة في مسافة أربعة أيام في السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة ليذهب اليهم وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وأمرائها فلما رحل الفرنج خرج من قرطبة لوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وقال له ادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد أوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لانى علمت ان السليطين ماارتحل الا طالبا لكم فان من الموضع الذى كان فيه الى الجبل طريقا سهلا ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم أنهم دخلوا قرطبة ولم يبق له طمع في قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر وفي سنة ست وأربعين سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع أبى حفص عمر الهنتاتى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضربه الخدم بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين جماعة ابن تاشفين فحصرها عمرو وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادى آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه وأتاه ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جيان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فأرسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى بلقوارة وبينها وبين

مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول القرنجي مع ملك برشلونة فرجع حيش عبد المؤمن وحصروا مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيليه فاقاموا بها وفي سنة احدى وخمسين استعمل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة فعبر أبو سعيد البحر الى مالقة وهي من الاندلس واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر الملتونى صاحب غرناطة ورضى انه يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل ذلك منه أبو سعيد وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة باهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى أبيه عبد المؤمن بمراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه وانقرض بذلك دولة المرابطين ويقال لهم أيضا الملثمون كما تقدم ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع أحمد بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدى الفرنج أخذوها من المسلمين سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا فلجأ الفرنج الى حصنها فحصرهم ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من يجدهما من أن يصل اليهما فجمع الاذفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين جموعا من الفرنج بلغت اثنى عشر ألف فارس ومعه محمد بن سعد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ليدفعوا المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين في عوده قبل أن يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد اليه وتسلم الحصن ورحل الفرنج في الغد عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهى لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد كما تقدم وصار من اتباع عبد المؤمن وفي طاعته وممن يحرض على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة طمع في الملك فسار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذى كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة أصحابهم المسلمين الذين بغرناطة فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق

الاندلس فأرسل اليه ألفى فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوهم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن من قبل وصول أبي سعيد اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد بمن معه فاقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا السير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به لابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فأقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جميع جهاتهم فما لحقوا ان يركبوا فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لاطاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن فبايع الموحدون ابنه محمدا ثم خلعوه بعد خمسة وأربعين يوما وبايعوا أخاه يوسف بن عبد المؤمن وتلقب بأمير المؤمنين كأبيه قال ابن خلكان كان يوسف فقيها حافظا متقنا نشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب واحفظهم لأيامها في الجاهلية والاسلام ويقال انه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن مع جملة من الفقه وسيأتى الكلام على فتوحاته ولتتميم الكلام على جميع فتوحات أبيه عبد المؤمن في غير الاندلس

﴿ ذكر فتوح المهدية ﴾

المهدية مدينة من مدائن افريقية كانت المهدية في يد الحسن بن على بن محمد بن تميم الصنهاجى وكان من عمال العبيديين ملوك مصر ثم تغلب عليها فملكها الفرنج وانتزعوها من يده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفر الامير المذكور منها وقصد عبد المؤمن فأكرمه وأحسن نزله وكان أهل سفاقس وزويلة يقاتلون الفرنج لتخليص المهدية فلم يقدروا وانهزموا مرة بعد أخرى وقتل كثير منهم وذلك سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم دخل الفرنج زويلة وقتلوا

من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الأموال فقصد جماعة من أهل زويلة عبد
المؤمن وهو بمراكش يستجيرون به فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس
في ملوك الاسلام من يقصد سواه فدمعت عيناه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين
وأمر بانزالهم وان يعطوا ألفي دينار ثم جهز الجيوش واستعد لذلك ثلاث سنين فاجتمع معه
مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وسار بجيوشه في شهر صفر سنة أربع
وخمسين وخمسمائة وكان يقع من حفظه لعسكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا يتأذى
منهم أهل الزرع ولا يصيدون شيأ منه واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة
واحدة ولا يتخلف منهم أحد كائنا من كان خوفا من عقابه لانه كان يقتل من يتأخر منهم
وقدم بين يديه أمير افريقية الذى فر منها حين أخذها الفرنج وهو الحسن بن علي بن محمد
ابن تميم الصنهاجى فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في شهر جمادى الآخرة من
السنة المذكورة وكان ملك تونس بيد أحمد بن خراسان وأقبلت أساطيل عبد المؤمن في
البحر سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازل تونس أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته
فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح
عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوا فلما جن الليل
نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهل تونس الى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم
فأجابهم الى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم
من أهل البلد فيؤمنهم على أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج
صاحب البلد هو وأهله منها فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر
من الدخول وأرسل امناءه ليقاسموا الناس أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام
على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة
تؤخذ عن نصف مساكنهم ثم سار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر
فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا
زويلة وبينها وبين المهدية غاية رمية سهم فدخل عبد المؤمن زويلة وامتلأت بالعساكر
والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ومن لم يجد له موضعا من العسكر نزل
بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد مايخرج عن الاحصاء واقبلوا
يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها
لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكان أول من بناها

واتخذها مدينة عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين بناها سنة ثلاث وثلاثمائة وكان الفرنج يخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فينالون منهم ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن ان يبنى سور من جهة غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ماراًى من حصانتها وعلم انها لاتفتح بقتال لابرا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة بالحصار وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صارت الغلات والاقوات في العسكر كالجبايين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقول متى حدثت هـذه الجبال فيقال لهم هى حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع عبـد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسـة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف فلما رأى أهل قفصة ذلك أطاعوه وكان الفرنج قد تملكوا صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة جاؤها بجموع كثيرة وانتزعوها من عامل العبيديين وبقيت في أيديهـم وصار لهم فيها قوة عظيمة فكانوا يمدون هؤلاء المحصورين في المهدية ففى شهر شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة جاء أسطول صاحب صقلية من ملوك الفرنج في مائة وخمسـين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبي أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليه ملك الفرنج يأمره بالمجيء الى المهدية فقدموا في التاريخ المذكور فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المينا فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن وركب فيه العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج مارأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب في قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكى ويتضرع الى الله تعالى ويدعوا للمسلمين بالنصر ثم اقتتلوا في البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع راجعين الى بلادهم فتبعهم الموحدون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لأخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبـد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر الحجة من السنة المذكورة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبـد المؤمن عشرة وسألوه الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهـم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام

اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم في البحر ولم يصل الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية يقول ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله أكثرهم بالغرق في البحر وكان مدة ملكهم المهدية ثنتي عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره ان يقتدى برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها ورحل من المهدية أول صفر من السنة المذكورة وتوجه الى بلاد المغرب وجهز جيوشا الى الاندلس

ذكر فتوحات يوسف بن عبد المؤمن

لما استقرت البيعة له بعد موت أبيه وخلع أخيه أخذ منهج أبيه وسار سيرته واستكثر من الجيوش ومهد البلاد فصار له ملك ضخم أكثر من أبيه فكان ملكه من قاصية افريقية الى بلاد القبلة وبلاد الاندلس يجبى اليه خراجها دون مكس ولاجور فكثرت الاموال وأمنت الطرق ثم رحل الى الاندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها وفي صحبته مائة ألف فارس ونزل اشبيلية وشرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدى الفرنج وكانوا قد استولوا على كثير منها فاتسع ملكه وحاصر الاذفونش في طليطلة وضيق عليه شهورا فراسله الاذفونش في انه يسلم المدينة ويعطيهم الامان على نفوسهم فامتنع يوسف من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ماكان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسلمين فهادنهم سبع سنين وانصرف عنهم الى اشبيلية وكان يرتفع اليه في كل سنة من خراج اشبيلية وأعمالها حمل مائة وخمسين بغلا خارجا عما يرتفع اليه من بقية البلاد وفي سنة خمس وستين وخمسمائة اتفق ابن مردنيش ملك شرق الاندلس هو والفرنج على يوسف بن عبد المؤمن فاستفحل أمرهم فجهز يوسف العساكر فجاسوا بلاد ابن مردنيش وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدة يتنقلون فيها ويجبون أموالها وفي سنة سبع وستين توفي الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرقى الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما وأوصى أولاده أنهم بعد موته يقصدون يوسف بن عبد المؤمن وكان قد اجتاز الى الاندلس في هذا العام في مائة

ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش نقدموا عليه بعد موت أبيهم مخين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه وفي سنة ثمان وستين توجه يوسف الى الاندلس بعساكره ونزل اشبيلية ثم سار منها وقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى فحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش في جمع كثير فلم يقدروا على لقاء المسلمين فاتفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم في جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وهو مع ذلك يجهز العسكر ويسيرها الى غزو الفرنج في كل وقت فكان له بها عدة وقائع وغزوات ظهر منها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد يوسف بن عبد المؤمن الى مراكش وأما وقائعه مع من خرج عن طاعته من المسلمين في افريقية فكثيرة لاحاجة بنا الى ذكرها وهي مذكورة في التواريخ وفي سنة ست وسبعين أتاه رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس الصلح معه فهادنه عشر سنين وفي سنة ثمانين وخمسمائة سار يوسف الى الاندلس في جمع عظيم من عساكر المغرب وقصد غربى بلاد الاندلس فحصر مدينة تشتير شهرا وهى للفرنج فأصابه بها مرض فمات به في ربيع الاول من السنة المذكورة وحمل في تابوت الى اشبيلية وقيل انه أصابته طعنة فمات منها وبعد أن وصلوا به اشبيلية حملوه في التابوت الى جبل تينمل ودفنوه هناك عند أبيه عبد المؤمن بجانب قبر المهدى محمد بن تومرت واتفق شيوخ الموحدين على مبايعة ابنه يعقوب فبايعوه ولقبوه المنصور (لطيفة) يحكى ان الاديب أحمد بن عبد السلام الكورانى كان من ظرفاء الندماء وكوران قبيلة من البربر وكان يجالس عبد المؤمن ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب فاتفق انه حضر يوما عند يوسف بن عبد المؤمن وهناك الطبيب سعيد الغمارى وغمارة أيضا قبيلة من البربر فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعر من كوران وطبيب من غمارة فقال الكورانى وضرب لنا مثلا ونسى خلقه أعجب منهما والله خليفة من كومية فقال يوسف في نفسه أعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه فعفى عنه ولم يعاقبه

﴿ ذكر فتوحات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ﴾

كان يعقوب المذكور دينا مقيما للحدود فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها فأقام راية الجهاد وأحسن السيرة في الناس ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها وكان يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وكان مشاركا في علوم كثيرة ومن

لطائفه انه بعث لبعض عماله أن ينظر له وجلا لتأديب أولاده فبلت له العامل رجلين
وكتب معهما كتابا يقول فيه بعثت اليك برجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه
فلما امتحنهما لم يرض بهما فوقع على ظهر كتاب العامل ظهر الفساد في البر والبحر وفي
سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهى في غرب الاندلس فتجهز اليها
بنفسه وحاصرها وأخذها وأنفذ في الوقت جيشا من الموحدين ومعهم جماعة من العرب
ففتحوا أربع مدن كانت بيد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك باربعين سنة
وخافه صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه خمس سنين وعاد الى مراكش فلما انقضت
مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف الى بلاد
المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الامر الى يعقوب وهو بمراكش فتجهز
لقصدهم في جيش كبير وذلك في سنة احدى وتسعين فسمع الفرنج بذلك فجمعوا خلقا
كثيرا من أقاصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه وبعدان عزم يعقوب على المسير بعد جمع
جيوشه أصابه مرض شديد حتى أيس منه أطباؤه فتأخر عن المسير فطمع المجاورون له
من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والاطراف وكذلك فعل
الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس فاقتضى الحال تفرقة جيوش الامير يعقوب
لاصلاح مافسد في الاطراف واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الاذفونش في البلاد
وبعث رسولا الى الامير يعقوب يتهدده ويتوعده ويطلب منه بعض الحصون من بلاد
الاندلس وكتب له رسالة من انشاء بعض من خذله الله ممن يدعى انه من المسلمين وهى
باسمك اللهم فاطر السموات والارض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته
الرسول الفصيح اما بعد أيها الامير فلا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب
أنك أمير الملة الحنيفية كما انه هو أمير الملة النصرانية وانك لايخفى عليك ماهو عليه رؤساء
الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعايا واخلادهم الى الراحات وانا أسوسهم بحكم
القهر الخسف وأخلى الديار وأسبي الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشبان ولا عذر لكم
عن التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله فرض عليكم
قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد فرض عليكم
قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا
ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لى انك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال
وتمطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدرى الجبن ابطأ بك أم

التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك انك لاتجد سبيلا الى الحرب لعلك مايسوغ لك التقحم لها فها أنا أقول لك مافي ذلك واعتذر عنك ولك ان تتوجه بجملة من عندك بالمراكب والشوانى وأجوز اليك بجملتى وأبارزك في أعز الاماكن عندك فان كانت لك الغلبة فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدنة مثلت بين يديك وان كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت أمارة الملتين والتقدم على الفئتين والحكم على البرين والله يوفق الارادة ويوضح السعادة لارب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون والجواب ماتراه لاما تسمعه أو تقرأه وكتب أيضا بيتا مشهورا للمتنبي

ولا كتب الا المشرفية والقنا * ولا رسل الا الخميس العرمرم

وأعاد الكتاب اليه وجمع العساكر الكثيرة من المسلمين وعبر الى الاندلس في جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيها ودانيها واقبلوا اليه مجدين مصممين على القتال واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة فاقتتلوا قتالا شديدا استشهد فيه كثير من المسلمين وكانت الدائرة في أول الامر على المسلمين ثم تراجعوا وعادوا على الفرنج فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا وقيل ثلاثون ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ كثيرا فمن الخيام مائة ألف وثلاث وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا وقيل ثمانون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وقيل أربعمائة ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لاابل عندهم بالاندلس ومن الدروع التى صارت لبيت المال ستون ألفا غير ماأخذه المسلمون منها وأما الذهب والفضة والجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجا الفنش بروحه وهو ملك النصارى اذ ذاك الى طليطلة في أسوء حال وحلق رأسه ونكس الصليب وحلف أن لاينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثار وصار يجمع الرجال من البلاد البعيدة ويستعد للقاء ثم لقيه يعقوب بالجيوش مرة ثانية فهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحصره فيها ورمى عليه بالمجانيق ولم يبق الا فتحها فخرجت اليه والدة الاذفونش وبناته ونساؤه يبكين بين يديه ويسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن بها ووهب لهم أموالا كثيرة وعفا بعد القدرة ورجع الى قرطبة فأقام بها شهرا يقسم الغنائم

فجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وهادنه خمس سنين وأمن الناس وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيأ فهو له وأحصى ماحمل اليه من السلب فكان زيادة على سبعين ألفا وهذه الوقعة تسمى وقعة الارك وهو اسم للموضع الذى كانت فيه الوقعة ولم يسمع بعد وقعة الدلاقة التي كانت على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمثل وقعة الارك هذه بل صرح بعض المؤرخين بانها أعظم من وقعة الدلاقة وكان جملة من استشهد من المسلمين في هذه الوقعة نحو عشرين ألفا وعظم أمر الاسلام بالاندلس بعد هذه الوقعة ومدح الشعراء يعقوب بعد هذا الفتح بقصائد كثيرة وأجازهم بعطيات وافرة فمنهم ابن منقذ وكان شاعرا بليغا مدحه بقصيدة منها قوله

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ماالأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى معدن الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا * بان نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك القنا فبلغتها * وادنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود باقيا * تبلغك الآمال ماأنت آمل

وعدد أبيات القصيدة أربعون بيتا فأعطاه أربعين ألفا وانما صالح يعقوب الفرنج وهادنهم لانه بلغه قيام ثائر من المرابطين بأفريقية فأراد يعقوب الرجوع الى مراكش لقمع هذا الثائر واخماده فرجع وقمعه وأخمده (لطيفة) قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضى الله عنه في الفتوحات المكية كنت بمدينة فاس سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد جازت الى الاندلس لقتال العدو فلقيت رجلا من رجال الله فسألني ماتقول في هذا الجيش هل يفتح له وينتصر في هذه السنة أم لا فقلت له ماعندك أنت في ذلك فقال ان الله تعالى قد ذكره في كتابه وبشر به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الالف في مبينا فانها الاطلاق الوقوف في تمام الآية فنظرت وحسبت الحروف فوجدت الفتح يكون في سنة احدى وتسعين وخمسمائة ثم جزت الى الاندلس في السنة المذكورة وقد نصر الله جيش المسلمين فهذا من الفتح الالهى لهذا الشخص اه

فتحا مبينا

وتوفي الامير يعقوب بمدينة سلا وقيل بمراكش سنة خمس وتسعين وخمسمائة ٤٨٩ ١٠٩٢
وعمره احدى وأربعين سنة قال ابن خلكان في ترجمة يعقوب المذكور ثم ٥٩١

حكى لي جمع كثير بدمشق سنة ثمانين وستمائة ان بالقرب من المجدل البايدة التي من اعمال البقاع العزيزية بالشام قرية يقال لها حمارة والى جانبها مشهد يعرف بقبر الامير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف اهـ قال في نفح الطيب توفي السلطان يعقوب سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا وكانت ولايته خمس عشرة سنة وما يقال انه ساح في الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ودفن بالبقاع لاأصل له وان حكى ابن خلكان بعضه وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم وقال ان ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور انتهى قال ابن خلكان وسمعت عن الامير يعقوب حكاية يليق ان تذكر ههنا وهي ان الامير أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي كان قد تزوج أخت الامير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت الى بيت أخيها يعقوب المذكور وأقامت عنده فسير الامير عبد الواحد في طلبها فامتنعت فشكا الامير عبد الواحد الى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بالامير يعقوب وقال له ان أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت الامير يعقوب ومضى على ذلك أياما ثم ان الامير عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الامير يعقوب وقال له انت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤني فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين ان الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية فسكت الامير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة لقي الامير عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنها فاجتمع القاضي بالامير يعقوب وقال له يا مولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فاما ان تسير اليه أهله والا فاعزلني من القضاء فقال له يا أبا عبد الله ماهذا الاجد كبير ثم استدعى خادما وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد فحملت اليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيأ يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لاوامره قال ابن خلكان وهذه حسنة تعدله وللقاضي أيضا فانه بالغ في اقامة منار الشرع بالعدل انتهى

ذكر محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

وما جرى في مدته من النزول لما توفي الامير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بايع شيوخ الموحدين ابنه محمد ولقبوه الناصر وكان النصارى بالاندلس لما سمعوا بموت يعقوب أخذوا يتغلبون على كثير من الحصون بالاندلس وكان محمد المذكور حديث السن عمره نحو تسع

عشرة سنة فاستخف بكثير من وزراء أبيه ورجال دولته وبكثير من رجال الاندلس العارفين بالقتال حتى انه قتل بعض رجال دولته وشنق بعضهم فكان ذلك سببا لفساد النيات ولقوة الشكيمة للافرنج فلما بلغه قوة شكيمتهم وطمعهم في التغلب على بعض الحصون بل أخذوا بعضها بالفعل شرع في التجهز للمسير لقتالهم فتجهز في ستمائة الف مقاتل ودخله الاعجاب بكثرة من معه من الجيوش واستعدله العدو بجموع كثيرة فلما التقوا وتقاتلوا في شهر صفر سنة تسع وتسعمائة انهزم المسلمون وكثر القتل فيهم ولم ينج من الستمائة الف الذين مع محمد بن يعقوب غير عدد يسير لم يبلغوا الالف فكانت هذه الوقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل على المغرب كله وما ذاك الا لسوء التدبير والاعتماد على القوة وكثرة الجند والله غالب على أمره واستولى العدو بعدها على كثير من الاندلس وتسمى هذه الوقعة بوقعة العقاب ثم كثر الثائرون والخارجون أيضا في المغرب وتوفي محمد بن يعقوب المذكور سنة ست عشرة وستمائة ثم تفرقت كلمة بنى عبد المؤمن وكثر الاختلاف والقتال بينهم مع بعضهم وانتشرت فتن كثيرة بينهم فكانوا كلما بويع لواحد منهم خلعوه وخرجوا عليه الى ان انقضت دولتهم وكانوا كلهم يدعون لمهديهم محمد بن تومرت على المنابر في الخطبة ويسترحمون عليه ويكتبون اسمه على سكة الدراهم والدنانير الا العاشر من خلفائهم وهو أبو العلا ادريس الملقب بالمأمون ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه أمر باسقاط اسم مهديهم محمد بن تومرت من السكة والخطبة والف في ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلاله وصار يلعنه وكان ادريس المأمون عالما فصيحا متمكنا في علم الاصول والفروع ناظما ناثرا وكان سفاكا للدماء وكانوا يسمونه حجاج المغرب قتل مائة من شيوخ الموحدين وسفك دماء كثيرة من دماء الخارجين الثائرين عليهم وقتل في يوم واحد أربعة آلاف ونصب رؤسهم على أسوار مدينة مراكش مات سنة ثلاثين وستمائة وكان تمام انقضاء دولتهم سنة ثمان وستين وستمائة فكانت مدة دولتهم مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة وجملة من تولى منهم مع مهديهم ستة عشر شخصا فسبحان الملك الباقى الذى لايعترى ملكه الزوال والنقصان وتفصيل ملوكهم مع الفتن التى وقعت بينهم ذكرته في تاريخ جمعته في أخبار الاندلس وكان المنتزع للملك من بنى عبد المؤمن جماعة من بنى مرين وسنذكرهم ان شاء الله تعالى ونذكر ما كان منهم من الغزو لكفار الاندلس لكن ينبغى قبل ذكرهم ان نذكر الحفصيين ملوك تونس لانهم من فروع دولة الموحدين والجميع من فروع دولة محمد بن تومرت المهدى على زعمهم والحفصيون ملوك تونس هم أولاد أبى

حفص عمر الهنتاني وهو الوزير الثاني لمحمد بن تومرت لانه اول قيامه بدعواه كان الملازمون القائمون بأمره ثلاثة عبد المؤمن بن علي وعبد الله اولنشريسي وأبو حفص عمر الهنتاني أما عبد المؤمن فقد تقدم الكلام عليه وعلى أولاده الذين ورثوا الملك منه الى ان ذهب ملكهم وأما عبد الله الونشريسي فقتل في بعض الحروب التي كانت أول ظهور محمد بن تومرت وأما أبو حفص عمر الهنتاني فكان وزيرا لعبد المؤمن وكان ولي العهد بعده ثم احتال عليه عبد المؤمن وخلعه وجعل ولاية العهد لابنه محمد ثم يوسف بن عبد المؤمن وكان عبد المؤمن في مدة ملكه اتخذ أباحفص عمر الهنتاني وزيرا وخليلا يقربه ويدنيه ويستشيره في أموره كلها ثم صار أبناء عبد المؤمن يقربون أبناء أبي حفص ويدنونهم ويتخذون منهم وزراء وأمراء وفي سنة ستمائة وثلاث في مدة ملك محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن جعلت ولاية تونس لعبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني وتوارثها بنو عبد الواحد المذكور وبقي ملك تونس فيهم الى سنة تسعمائة وواحدى وثمانين فانتزع ملك تونس منهم سلاطين آل عثمان فكانت مدة تملك تونس لبني حفص ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وعدة ملوكهم ثمانية وعشرون ملكا فدولتهم أيضا من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت وكان لهم ملك ضخم وجرى منهم غزوات وفتوحات سيأتي كثير منها بعد اتمام الكلام على دولة بني مرين المنتزعين ملك بني عبد المؤمن وبعد ذكر ما كان منهم من الغزوات والفتوحات بالاندلس

﴿ ذكر دولة بني مرين وغزواتهم بالاندلس ﴾

اعلم ان بني مرين قبيلة من قبائل البربر كانوا متوحشين يسكنون الصحراء والقفار وكانت لهم مواش ثم صارت لهم خيل وقوة فلما ضعف ملك بني عبد المؤمن ورأى بنو مرين ضعفهم واختلال ملكهم تخلصوا من الصحراء والقفار وتفرقوا في جهات المدن والامصار وأوجفوا بخيلهم وركابهم وظهرت لهم رياسة وقوة وشوكة فخلعوا طاعة بني عبد المؤمن من بعد أن كانوا تحت طاعتهم فصار كثير من رعايا بني عبد المؤمن يحتمون ببني مرين ويلتجئون اليهم لاسيما اذا وقعت عليهم مظلمة من بني عبد المؤمن فتمسك كثير من الناس بمتصمات بني مرين وأظلم الجو بينهم وبين بني عبد المؤمن وثار من ذلك فتن كثيرة بين الفريقين ووقع بينهم محاربات يطول الكلام بذكرها فصار بنو مرين يقوى أمرهم كلما ضعف ملك بني عبد المؤمن الى ان استلبوهم الملك وانتزعوه منهم واستولوا عليه وأول ماظهرت الرياسة في بني مرين بعد الخمسين والخمسمائة من الهجرة وأول من ظهرت عليه الرياسة منهم محيو بن

أبى بكر بن حمامة فقدموه رئيسا عليهم الى ان توفي سنة احدى وتسعين وخمسمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عبد الحق بن محيو الى ان توفي سنة أربع عشرة وستمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عثمان بن عبد الحق الى ان توفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ثم بعده اخوه محمد ابن عبد الحق الى ان توفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة ثم أخوه أبويحيى بن عبد الحق الى ان توفي سنة ست وخمسين وستمائة فقام بالرياسة بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وفي هذه المدة السابقة كانت محاربات كثيرة بينهم وبين بنى عبد المؤمن فقوى أمرهم وانتشر صيتهم واستولوا على مدائن وقرى منها مكناسة وفاس وتلمسان وطنجة وسبتة وغير ذلك الاتونس واعمالها فان ملكها كان بيد الحفصيين أبناء أبى حفص عمر الهنتاتى أحد أصحاب المهدى محمد بن تومرت وقد تقدم ذكر ذلك وكان تملك بنى مرين فاس سنة ست وأربعين وستمائة وآخر الامر ملكوا مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وقتلوا أبا دبوس الملقب بالواثق وهو آخر ملوك بنى عبد المؤمن واستقر الملك لبنى مرين على يد يعقوب بن عبد الحق فهو الذى ينبغى ان يكون أولهم ولما استقرت دولته بمدينة مراكش جاءته البيعة من أهل الاندلس وجاء جماعة منهم يستنصرون به على النصارى المتغلبين على أكثر الاندلس وسيأتى ذكر تجهيزه لغزو العدو بالاندلس ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر ما كان من استيلاء العدو على كثير من مدائن الاندلس مدة ضعف دولة بنى عبد المؤمن ﴾

كان بالاندلس عمال لبنى عبد المؤمن متفرقون في أقطارها ومدائنها فلما حصل الضعف لدولتهم وانتشرت الفتنة بينهم مع بعضهم وبين بنى مرين واشتغلوا بقتالهم اغتنم العدو الفرصة وصار يقتطع كثيرا من المدائن والمعاقل والحصون ويستولى عليها ولم يوجد بالاندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاتله وقد كثر ما استولى عليه الطاغية في هذه المدة التى ضعف فيها ملك بنى عبد المؤمن وبعض المدائن استولى عليها العدو قبل ظهور الضعف في دولتهم فمن ذلك مدينة تطيلة وأختها طرشونة استولى عليها الطاغية سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان ذلك في أول دولة بنى عبد المؤمن وآخر دولة المرابطين بل كان قد استولى قبل ذلك على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم حتى ان يوسف بن تاشفين لما عبر الاندلس وكانت وقعة الدلاقة عجز عن تخليص طليطلة من يد الطاغية واستولى الطاغية على مدينة سرقسطة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثم استرجعت ثم استولى عليها ثانيا سنة خمسمائة واثنتى عشرة واستولى على بلنسية سنة أربعمائة وسبع

وخمسين ثم ارتجعها المسلمون ثم تكرر إستيلاؤهم عليها واسترجاعها كما تقدم ثم تغلب العدو عليها وأخذها مرة أخرى سنة ست وثلاثين وستمائة واستولى على حصن روطة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان من أمنع الحصون سلمة ابن هود اصاحب طليطلة لما عجز عن مقاومته واستولى العدو على مدينة المرية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وكان قبل ذلك استولى على مدينة لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ثم ارتجع الموحدون المرية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين سنين ثم ارتجعها العدو خذله الله مرة أخرى واستولى على كورة ماردة سنة ست وعشرين وستمائة وعلى ميروقة سنة سبع وثلاثين وستمائة وعلى جزيرة شقرة سنة تسع وثلاثين وستمائة وعلى قرطبة دار الخلافة سنة ست وثلاثين وستمائة وعلى شرق الأندلس شاطبة وغيرها سنة خمس وأربعين وستمائة واستولوا سنة أربع وأربعين وخمسمائة على مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون الارادة وافراغة وعلى مرسية صلحا في العام المذكور وحصروا اشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة وملكوها في العام القابل وبيان وقائع أخذ الطاغية لهذه المدائن يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتقرح له الاكباد وتنسجم له العيون ولما أخذت قواعد المدائن وأمهاتها بالاندلس مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الاسلام الى قطعة من شرق الاندلس كانت بيد المسلمين منهم محمد بن يوسف بن هود الجذامي كان آباؤه لهم ملك بالاندلس من جملة ملوك الطوائف فكان محمد بن يوسف المذكور بمرسية من شرق الاندلس وكان هناك عمال لبني عبد المؤمن فتغلب عليهم واخرجهم واستعان على ذلك ببعض أهل الاندلس وعلمائهم وأعيانهم وصار الملك له وخطب لبني العباس وأقام الدعوة لهم ثم كثر المنازعون له والثائرون عليه من المسلمين ومن الفرنج وطمعوا فيه فاضطربت عليه الامور وكان ممن نازعه من المسلمين بنو الاحمر وهم قوم ينسبون الى سعد بن عبادة رضي الله عنه الانصاري سيد الخزرج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان تحت أيديهم بعض مدائن بغرب الاندلس فانتزعوا ما كان تحت يد محمد بن يوسف بن هود وضموه الى ما كان تحت أيديهم وكان أول من قام من بني الاحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر في دولة بني عبد المؤمن من أمراء الاجناد وكان محمد بن نصر يقال له محمد الشيخ وبويع سنة تسع وعشرين وستمائة وخطب لابي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني وكان أبو زكريا المذكور اذ ذاك صاحب تونس وكان قد استفحل ملكه بتونس وافريقية فخلع طاعة بني عبد المؤمن ودعا لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين فبايع ابن

الاحمر الناس له ليفسد على ابن هود بيعته لبنى العباس ودخل مع ابن الاحمر في تلك البيعة أهل
جيان وشريش وكان الطاغية في ذلك الوقت محاصرا بلنسية وذلك سنة ست وثلاثين وستمائة
ثم أرسل ابن الاحمر جماعة من أعيان أهل الاندلس لأبي زكريا الحفصي بتونس فقدموا
عليه وعقدوا له بيعة أهل الاندلس واستصرخوا به يريدون منه النجدة في قتال النصارى
فأجابهم الى مطلبهم وعقد أبو زكريا لتلك البيعة يوما مشهودا بتونس وأنشد شاعر أهل
الاندلس القصيدة المشهورة التي أولها

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ... ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهي قصيدة طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب فأجاب أبو زكريا بيعتهم ولبى دعوتهم
وجهز لهم أساطيل فيها المال والرجال فلما وصلوا الاندلس وجدوا الطاغية المحاصرة بلنسية
قد ملكها ثم ملك مرسية أيضا صلحا وكان ممن قام بالاندلس أيضا أبو محمد اشقيلولة
واستولى على قمارش ووادي آش وكان بينه وبين ابن الاحمر مصاهرة وقرابة مع منافسة باطنية
فاستعان به ابن الاحمر على ابن هود وكان ابن هود قبل ان يتغلبوا عليه قد جاءه خطاب
وتقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله بن الظاهر بن الناصر فقوى ابن هود لما جاءه التقليد
فبايعه ابن الاحمر وترك الخطبة لابي زكريا الحفصي صاحب تونس وافريقية ثم قام باشبيلية
أبو مروان الباجي فداخله ابن الاحمر على ان يزوجه ابنته فاطاعه أبو مروان فدخل ابن
الاحمر اشبيلية ثم فتك بابن مروان فقتله ثم ان أهل اشبيلية بعد شهر كاتبوا ابن هود
ودخلوا في طاعته وأخرجوا ابن الاحمر ثم تغلب ابن الاحمر على غرناطة سنة خمس
وثلاثين وستمائة بمواطأة من أهلها فجاءته بيعتهم وهو بجيان فجاء الى غرناطة فدخلها وجعلها
كرسي مملكته ثم تغلب على مالقة وفي هذه المدة التي وقعت فيها هذه الفتن بين المسلمين
بالاندلس قوى أمر النصارى وطمعوا فيما بأيدي المسلمين وتلقفوا كثيرا من مدائن
الاندلس وحصونها وداخلهم ابن هود وهادنهم بالصلح ليدفعوا عنه ابن الاحمر وأعطاهم
كثيرا من المعاقل والحصون قيل انه أعطاهم ثلاثين حصنا وجعل على نفسه ضريبة لهم
كل سنة أربعمائة ألف دينار ثم ثار على ابن هود وزيره ابن الرميمي فقتله واستولى
على ما بيده ثم استولى ابن الاحمر على ما بيد الرميمي سنة ثلاث وأربعين وستمائة ثم بايع
ابن الاحمر أهل ميروقة سنة ثلاث وستين وستمائة وحصل لاعقاب ابن هود في هذه الفتن
خطوب كثيرة وحروب بينهم وبين ابن الاحمر ثم دخلوا في طاعته فبعث ابن الاحمر ابن

اشقيلولة فتسلم منهم مرسية وخطب لابن الاحمر وعوضهم عن مرسية حصنا من عملها سنة ثمان وستين وستمائة ثم انقرضت دولة بني هود بالكلية وكان ابن الاحمر في أول أمره يداخل النصارى ويستعين بهم على ابن هود فلما داخل النصارى ابن هود وأعطاهم الحصون المتقدم ذكرها وجعل لهم الضريبة على نفسه فزع اليهم ابن الاحمر لانهم كفوا عن معاضدته التي كانت منهم له قبل ذلك وصاروا معاضدين لابن هود ثم لما رأى ابن الاحمر أمر النصارى يقوى ورآهم تغلبوا على قرطبة وغيرها خاف ان يستولوا على مابيده نسخطهم ونبذ عهدهم وصار محترسا منهم وحاز في تمالكه مدائن بغرب الاندلس وبالمتوسطة من الاندلس من ذلك غرناطة والمرية ومالقة ونحوها وتوفي ابن الاحمر محمد الشيخ بن يوسف بن نصر سنة ستمائة واحدى وسبعين فبويع بعده ابنه محمد الفقيه بن محمد الشيخ وكان ممن بقي من ملوك الاندلس بنو اشقيلولة وكانوا نظراء لابن الاحمر في الرياسة وبينهم وبينه مصاهرة ومنافسة وكان الرئيس فيهم أبا محمد صاحب مالقة وأخاه أبا اسحق صاحب وادي آش وقمارش ثم ان ابن الاحمر محمدا الفقيه في سنة ثلاث وسبعين وستمائة بعث جماعة من المسلمين الى بني مرين يستصرخون بهم ويسألونهم النصرة والاعانة على قتال النصارى وكان في ذلك الوقت تد تمكن الملك في مراكش والمغرب الاقصى لبني مرين وكان الملك في ذلك الوقت من بني مرين يعقوب بن عبد الحق

﴿ذكر أول تجهيز من بني مرين لغزو النصارى بالاندلس﴾

لما جاء الصريخ من أهل الاندلس مع الجماعة الذين بعثهم ابن الاحمر محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر جهز السلطان يعقوب بن عبد الحق جيوشا كثيرة من مدينة فاس ومراكش فاجتازت الى الاندلس مع بعض أولاد السلطان يعقوب والتقوا مع النصارى وقاتلوهم أشد القتال وهزموهم شر هزيمة وملؤا أيديهم من غنائمهم وأسلابهم وتحصن النصارى في حصونهم ومعاقلهم في المدائن التي ملكوها ورجع بنو مرين سالمين منصورين ولم يخلصوا في هذه الغزوة شيأ من المدائن التي ملكها العدو

﴿غزوة أخرى لبني مرين الى الاندلس﴾

في سنة أربع وسبعين وستمائة جمع أمير المسلمين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جموعا كثيفة واستنفر المسلمين من كل ناحية وغزا الاندلس بنفسه فلما وصل طريف لقيه ابن الاحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقة فأكرمهما وفاوضهما في أمر الجهاد ثم أمرهما بالرجوع الى بلديهما فانصرف ابن الاحمر

مغاضبا لكلمات صدرت من ابن اشقيلولة أغضبته وجاء الخبر للسلطان يعقوب ان زعيم النصارى جمع جموعا كثيرة يضيق منها الفضاء فرتب السلطان جيوشه للقائه ثم التقوا وتقاتلوا قتالا شديدا وهزم الله النصارى هزيمة قبيحة حتى قال بعض المؤرخين ان المسلمين بعدان هزموا يوم العقاب الذى كان في دولة الموحدين في مدة محمد بن يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن مانصروا حتى دخل السلطان يعقوب ابن عبد الحق المرينى الاندلس وفتك بهم وقتل الله زعيم النصارى في هذه الوقعة وكان اسمه ذننة وقتل من جيشه أكثر من أربعين ألفا وهزم الباقون شر هزيمة وملك السلطان من الاندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك وأعز الله به الدين بعد تمرد النصارى ولما قتل ذننة زعيم النصارى في القتال المذكور بعث السلطان يعقوب رأس ذننة إلى ابن الاحمر فقيل ان ابن الاحمر طيبه وأكرمه ورده الى النصارى وجعل ذلك صنعا عندهم وكرامة لهم وولاية أخلصها لهم وكان ذلك منه انحرافا عن السلطان يعقوب قال ابن خلدون وظهرت شواهده عليه بعد حين ورجع أمير المسلمين من غزوته الى الجزيرة منتصف ربيع الاول من سنته فقسم الغنائم في المجاهدين وما أخذوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم بعد اخراج الخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرف في مصارفه وكان مبلغ الغنائم في هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفا ومن الاسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين أسيرا ومن الكراع أربعة عشر ألفا وأما الغنم فشيء كثير خارج عن الحصر وكذا السلاح وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما

غزوة أخرى

بعد فراغ الغزوة السابقة ورجوع السلطان الى الجزيرة واقامته أياما خرج غازيا من الجزيرة الى اشبيلية فجاس خلال ديارها وتتبع نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها ثم ارتحل الى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح ثم رجع الى الجزيرة بعد شهرين ثم رجع الى المغرب من السنة المذكورة بعد ان رتب في الاندلس جيشا يقيم هناك ليدوم الغزو والجهاد للكفار

غزوة أخرى لبني مرين للاندلس

في سنة ست وسبعين وستمائة تجهز السلطان يعقوب بن عبد الحق وسار بجموعه ونزل بطريف آخر المحرم ثم ارتحل الى رندة ووافاه الرئيسان أبو محمد بن اشقيلولة صاحب مالقه وأخوه أبو اسحق صاحب قمارش يريدان الغزو معه ولم يأته ابن الاحمر محمد الفقيه

صاحب غرناطة فارتحل السلطان ومن معه الى منازلة اشبيلية وكان باشبيلية اذ ذاك ملك الجلالقة ابن اذ فونش نخار وجبن عن اللقاء وبرز الى ساحة البلد محاميا عن أهله فرتب أمير المسلمين جيوشه وجعل ابنه يوسف في المقدمة وزحف في التعبية فانحجز العدو الى البلد واقتحموا أثرهم في الوادى واثخنوا فيهم الى ان جاء الليل وبات العسكر ليلتهم على ظهور خيولهم وقد أضرموا النيران بساحة العدو وضربوا الحصار عليهم وبثوا السرايا والغزوات في سائر النواحى حتى أبادوا عمرانها وملكوا حصن قطيانة عنوة وكذا حصن جليانة وحصن القليعة واثخنوا في القتل والسبي ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة الخضراء بالغنائم فارتحل وقسم الغنائم في المجاهدين

غزوة أخرى

في منتصف ربيع الثانى من السنة المذكورة فارتحل السلطان من الجزيرة الخضراء غازيا الى شريش فأذاقها نكال الحرب واقفر نواحيها وقطع أشجارها وحرق كثيرا من ديارها وأعمالها ونواحيها واثخن فيها بالقتل والاسر وتحصن العدو بمدينة شريش وجبن عن اللقاء فأراد السلطان أخذ الاطراف ليسهل حصار البلد وبعث ابنه يوسف في سرية للاغارة على اشبيلية وحصون الوادى فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح اشبيلية واتكف الى أمير المسلمين فقفلوا جميعا الى الجزيره الخضراء فأراحوا وقسموا الغنائم في المجاهدين

غزوة أخرى

ثم لما كان السلطان بالجزيرة الخضراء حث المسلمين على غزو قرطبة ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها وخصب بلادها فانعطفوا الى جانبه وارسل لابن الاحمر يستنفره ودارت بينهما مكاتبات فيها عتاب زال به ما كان في نفس ابن الاحمر فعزم على لقاء السلطان وخرج أمير المسلمين من الجزيرة الخضراء لاول جمادى ووافاهم ابن الاحمر بناحية ارشدونة فأكرم وصوله فنازلوا جميعا حصن بنى بشر وملكوه عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء ونقلوا الاموال وخربوا الحصن ثم بث السرايا والثارات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الايدى وأثرى العسكر وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة وانحجزت حامية العدو من وراء الاسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وصياعها وترددوا على جهاتها وملكوا حصن بركونة عنوة ثم ارجونة كذلك وجبن العدو عن اللقاء وأيقن بخراب العمران فجنح

الى السلم وارسل لأمير المسلمين يطلب السلم فدفعه الى ابن الاحمر وجعل الامر في ذلك اليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه فاجابهم ابن الاحمر الى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين واذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الاندلس اليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم وقفل أمير المسلمين من غزواته وجعل طريقه على غرناطة كرسي ملك ابن الاحمر احتفالا به وخرج له أمير المسلمين عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الاحمر وقال له السلطان يعقوب يكون حظ بني مرين من هذه الغزوة الاجر والثواب مثل مافعل يوسف بن تاشفين مع أهل الاندلس يوم الزلاقة ودخل أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء في أول رجب من العام المذكور فأراحهم ونظر في ترتيب المصالح على الثغور وكان بنو اشقيلولة مع أمير المسلمين في هذه الغزوة وفارقوه بعد فراغ الغزو ولما قفلوا اعتل أبو محمد صاحب مالقة ثم مات غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد السلطان آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة فنزل للسلطان عن مالقة ودعاه الى احتيازها لانه رأى ابن الاحمر يطمع في انتزاعها منه ولا قدرة له على دفاعه وقال للسلطان ان لم تجزها اعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الاحمر فقبلها السلطان منه وعقد عليها أمير المسلمين لابنه أبي زيان منديل ثم سار أمير المسلمين اليها بعد انقضاء شهر الصيام فوافاها سادس شوال وبرز اليه أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بقدومه ودخولهم في ايالته وأقام فيها الى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيي وكان من صنائع دولتهم وأنزل معه المسالح وزيان ابنه أبي عباد بن عبد الحق في طائفة من أبطال بني مرين واستوصاه بمحمد ابن اشقيلولة ولما علم ابن الاحمر ان أمير المسلمين تملكها شق عليه ثم ارتحل السلطان الى الجزيرة ثم الى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما أعطاه الله من نصر المسلمين لكن نشأ من تملكه مالقة غيظ لابن الاحمر وعظم عليه الامر فتظاهر بطاغية النصارى واتفق معه على منع دخول السلطان الاندلس بعد هذه المرة ان أراد ذلك فاغتنم الطاغية مظاهرة ابن الاحمر له فنكث عهد أمير المؤمنين واغزى اساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره واحتال ابن الاحمر على عامل مالقة فأخذها منه وراسلوا بعض الثائرين على السلطان بالمغرب وحثوهم على افساد الثغور واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش وبلغه ان المسلمين في الجزيرة الخضراء في شدة من ضيق الحصار فعقد لابنه على الغزو واغزى الاساطيل في البحر الى جهاد العدو

غزوة أخرى لبني مرين بالاندلس

لما بلغ أمير المسلمين ماتقدم من نكث الطاغية العهد ومظاهرة ابن الاحمر فعقد السلطان لانه توصل الى طنجة في شهر صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة وأوعز الى البلاد البحرية لاعداد الاساطيل بسبتة وطنجة وسلا وقسم الاعطاآت واستنفر الناس فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت ولما رأى ابن الاحمر مانزل بالمسلمين في الجزيرة الخضراء من حصار الطاغية لها واشرافه على أخذها أخذته الحمية الاسلامية وأعد أساطيله وكانت اثنى عشر وبعثها مددا للمسلمين واغاثةلهم وكانت اساطيل أمير المسلمين تناهز السبعين وقيل اثنين وسبعين وبعث الامير صاحب سبتة خمسة وأربعين اسطولا واساطيل الطاغية تناهز أربعمائة وتلاقوا مع العدو واخلصوا لله عزائمهم وصدقوا في نياتهم ووعظهم خطباؤهم والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن الا كلا ولاحتى نضحوا العدو بالنبل فانكشفوا وتساقطوا في البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرفا الجزيرة وفرضتها عنوة فاختل عسكر الطاغية ودخلهم الرعب وخرج الناس المحصورون من البلد وانتشرت النساء والصبيان بساحته فغنموا كثيرا من الحنطة والادام والفواكه حتى ملؤا أسواق البلد من ذلك أياما وأجاز الامير يوسف من حينه الى الاندلس وارهب العدو في كل ناحية ثم صده عن التوسع شأن الفتنة مع ابن الاحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية صلحا ويصل به يدا لينازل غرناطة كرسى ملك ابن الاحمر فأجابه الطاغية الى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الاحمر في اعداده المدد لاهل الجزيرة وتظاهر الطاغية بالعداوة لابن الاحمر وبعث الطاغية اساقفته لعقد الصلح فأجازهم الامير يوسف الى أبيه أمير المسلمين فغضب لذلك وأنكر على ابنه ولم يرض بما أراده ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأرجعهم الى طاغيتهم مخفق السعى وجاء أهل الجزيرة الخضراء الى أمير المسلمين فلقوه بأرض السوس فولى عليهم ابنه أبا زيان منديل فنزل بالجزيرة وأتم الصلح مع الطاغية ونازل المرية برا وبحرا وكانت لابن الاحمر فامتنع أخذها عليه وانضوى اليه أهل الحصون القريبة بطاعتهم حذرا من الطاغية فتقبلهم ونازل الطاغية ابن الاحمر بغرناطة وحاصره فرجع ابن الاحمر مسالمة بنى مرين وبعث لابى زيان ابن السلطان في طلب الصلح فأنهى الامر الى أبيه فأشفق السلطان على المسلمين وعلى مانال ابن الاحمر من منازلة الطاغية فراسله السلطان الى ان تم الصلح بينه وبين ابن الاحمر وارتحل الطاغية من غرناطة واشترط السلطان على ابن الاحمر ارجاع مالقة للسلطان

غزوة أخرى

من لطف الله بالمسلمين وعنايته ببنى مرين ان اوقع الخلف بين الطاغية ابن اذفونش وابنه
شانجة حتى سلب اباه ملكه وتغلب عليه فوفد على السلطان بطارقة الطاغية وزعماء دولته
مستصرخين على ابنه شانجة مخبرين بأنه خرج على ابيه في طائفة من النصارى فغلبوه على
أمره فجاؤا يطلبون النصرة من أمير المسلمين ليرجع للطاغية ملكه وينتزعه من ابنه
ففرح أمير المسلمين بافتراقهم وأحب الدخول الى الاندلس ليقضى مأربه من جهاد الكفار
فأجاب أمير المسلمين رسل الطاغية ووعدهم بالقيام مع الطاغية ليرجع ملكه اليه وينتزعه
من ابنه الغاصب له فأوعز الى الناس بالجهاد وأمرهم بالنفير وجهز الجيوش واجاز الى
الجزيرة الخضراء فاحتل بها في ربيع الثانى سنة احدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه
مسالح الثغور بالاندلس وسار حتى نزل صخرة عباد فوافاه الطاغية بنفسه ذليلا لعز الاسلام
مؤملا صريخ السلطان فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره وذكر ابن خلدون وابن
الخطيب ان هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده اعظاما لقدره وخضوعا
لعزه فدعا السلطان بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع
المسلمين والفرنج والتمس الطاغية من السلطان ان يمده بشيء من المال يستعين به فأمده
لنفقاته مائة الف من مال المسلمين استرهن فيها الطاغية تاجه بقي بيد المسلمين فخرا
للاعقاب ودخل السلطان معه دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانجة ابن الطاغية الخارج
على ابيه السالب لملكه فقاتلها اياما ثم تنقل في جهاتها ونواحيها وارتحل الى طليطلة فعاث
في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى الى حصن مجريط من اقصى الثغر فامتلأت ايدى
المسلمين من الغنائم وضاق معسكره منها ورجع السلطان الى الجزيرة فاحتل بها لشعبان
من السنة ولما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية خشى ابن الاحمر غائلته فجنح الى موالاة
شانجة الخارج على ابيه ووصل يده بيده وأكد له العقد وأضرمت له الاندلس نارا
وفتنة ولم يغن ذلك شانجة شيئاً فلم يزل السلطان مع الطاغية حتى ظهر على ابنه وذلك
ان السلطان كان اشترط على ابن الاحمر ارجاع مالقة فلم يفعل فنهض السلطان الى مالقة
ونازلها فاتح ثنتين وثمانين فتغلب على الحصون القريبة ثم حاصر مالقة فضاق النطاق على
ابن الاحمر ولجأ الى الامير يوسف ابن السلطان وخاطبه مستصرخا لرقع هذا الخرق
وجمع كلمة الاسلام فجاءه واحز لشهر صفر فوافى السلطان أمير المسلمين بمعسكره على
مالقة ورغب منه السلم لابن الاحمر والتجافي عن مالقة فاسعف رغبة ابنه لما يؤمل في
ذلك من رضاء الله في جهاد عدوه واعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الاحمر

وتجددت عزائم المسلمين وقفل السلطان الى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة فخرج من الجزيرة غازيا غرة ربيع الثاني من سنة ثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى الى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح حصونا ثم رجع الى الجزيرة في شهر رجب وقسم الغنائم ثم رجع الى المغرب وفي فاتح سنة ثلاث وثمانين بلغه مهلك الطاغية ابن اذفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج على ابيه فتحركت الى الجهاد عزائم السلطان

غزوة أخرى

في سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على جهاد العدو بالاندلس فجمع الجيوش ونهض من مراكش في شهر جمادى الآخرة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى صومه ثم شرع في ارسال الجنود الى الجزيرة الخضراء الى خاتمة سنته ثم اجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة اربع وثمانين ولما انتهى الى الجزيرة سرح في بلاد العدو وبث السرايا والغارات في جميع النواحي فأثخنوا القتل والتخريب والسبي للنساء والذرية وركب غازيا بنفسه كثيرا من تلك الجهات وجرى في هذه الغزوات مايطول الكلام بذكره وتعداد الجهات والحصون التي أخربوها وسلبوا مافيها وبقي النصارى متحصنين في حصونهم المنيعة لايقدرون على المبارزة للقتال ولا على الخروج من حصونهم فاستيقن الطاغية شانجة واهل ملته أن بلادهم قد فنيت وارضهم قد خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية فجنحوا الى السلم وضرعوا الى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم واجتمع النصارى الى طاغيتهم شانجة خاشعة ابصارهم وسألوه ان يبعث الى أمير المسلمين الملأ من كبار النصارى يسألونه الصلح فأجابهم شانجة الى مادعوه اليه فأوفد الى أمير المسلمين وفدا من بطارقتهم وكبار دولتهم فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم فأعادهم الطاغية بترديد الرغبة على ان يشترط أمير المسلمين ماشاء من عز دينه وقومه وأسعفهم أمير المسلمين لماتيقن ذلهم اعز الاسلام ولانه اراد الرجوع الى المغرب لاصلاح مافسد من الرعايا بقيام بعض الثوار الخارجين عن طاعته فعقد الصلح مع طاغية النصارى واشترط عليهم ماأراد من ذلك أنهم يقفون عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أوعداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين المقيمين بدار الحرب من ممالكهم وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة

ذكر وفادة الطاغية على السلطان

لمارجعت رسل الطاغية اليه بعقد الصلح وفد على الطاغية رسل ابن الاحمر ليعقد السلم

معه دون أمير المسلمين وان تكون يده ويده واحدة على السلطان فأخبرهم بما عقده مع أمير المسلمين ثم قال هذا أمير المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا ثم اشار عليه بعض رجال دولته بالوفادة على أمير المسلمين لتتمكن الالفة فقبل اشارتهم والتقى قبل ذلك بولي عهد أمير المسلمين وهو ابنه يوسف وكان نازلا على فراسخ من شريش فلقيه وبات في معسكر المسلمين ثم ارتحل من الغد للقاء أمير المسلمين فأمر المسلمين بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه واظهار شعار الاسلام وأبهته فاحتفلوا وأظهروا عز الملة وشـدة الشوكة ووفور الحامية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يليق بها مثله من عظماء الملل وقدم هدية سنية لامير المسلمين وابنه فقبلاها منه وقابلاه بكفائها ومصاعفتها وكمل عقد الصلح وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الاسـلام وانقلب الى قومه وسأله السلطان ان يبعث له من كتب المسلمين التي استولى عليها النصارى فلما رجع بعث اليـه ستة عشر حملا وقفل أمـير المسلمين الى الجزيرة في آخر شعبان وصـام بها رمضان ثم أعمل نظره في الثغور وترتيب المصالح ثم اعتل وهو بالجزيرة واستمر به المرض الى ان توفي لآخر المحرم من سنة خمس وثمانين وستمائة فكانت مدة ملكه تسعا وعشرين سنة وكان ابنه ولي عهده في أقصى المغرب بعثه أبوه لتفقد الاحوال وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فأخذ البيعة له وزراء أبيه وعظماء قومه وحضر بنفسـه في شهر صفر فأخذوا البيعة على الخاصه والعامة وكان أول شيء أحدث من أمره ان بعث الى ابن الاحمر وضرب موعدا للقائه فبدر اليه ولقيه بظاهر مربالة لاول ربيع فلقيه هو بعزة وتكريم وتجاوزله عن جميع الثغور الاندلسية التي كانت لمملكة والده السلطان يعقوب ماعدا الجزيرة وطريف وتفرقا على أكمل حالات المصافات والوصلة ورجع السلطان يوسف الى الجزيرة فوافاه بها الطاغيـة شانجة فجددوا عقد السلم الذي عقد له أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فأجابه

غزوة أخرى

في سنة سبع وثمانين نما الخبر للسلطان يوسف بن يعقوب بأن الطاغية انتقض العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور فأرسـل السلطان الى قائد المسالح بالاندلس ان يدخل الى دار الحرب وينازل شريش ويشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك وجاس خلالها وتوغل في اقطارها وأبلغ في النكاية وفصل السلطان في ربيع الآخر سنة تسعين من تازى غازيا واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في اجازتهـم البحر وبعث الطاغيـة أساطيله فالتقوا مع أساطيل السلطان في شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ووقعت عليهم هزيمه

قدرها الله عليهم واستشهد كثير منهم محصهم الله تعالى ثم أغزاله ثانيا فجبنت أساطيل الطاغية عن اللقاء ثم ملكتها أساطيل السلطان

غزوة أخرى

ثم أجاز السلطان بنفسه في أواخر رمضان سنة أحدى وتسعين واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصنا منيعا ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو وردد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها الى ان بلغ الغاية في النكاية للعدو والاثخان وقضى من الجهاد وطرا وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع الى الجزيرة ثم أجاز الى المغرب فاتح سنة ثنتين وتسعين

غزوة أخرى

في سنة اثنتين وتسعين تظاهر ابن الاحمر والطاغية واتفقا على منع السلطان ان أراد المجيء بعد المرة السابقة وسبب ذلك انه لما أجاز السلطان الى الاندلس سنة احدى وتسعين وأبلغ من نكاية العدو أهم الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته وحذر ابن الاحمر أيضا غائلة السلطان ورأى ان مغبة حاله الاستيلاء على الاندلس وان يغلبه على أمره ويستابه ملكه ففاوض الطاغية وتحدثوا ان استمكانه من الاجازة اليهم انما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حواليه فان ذلك يسهل عبور شوانيهم وسفنهم وان أم تلك الثغور طريف وانهم اذا استمكنوا منها وملكوها من المسلمين تكون أساطيلهم بمرفاها بمرصد أساطيل المسلمين فتمنع عبورها فاعتزم الطاغية على منازلة طريف ليتملكها وزعم له ابن الاحمر مظاهرته على ذلك ووعده بالمدد وارسال الميرة لاقوات العسكر أيام منازلتها ووعده الطاغية انها تكون لابن الاحمر ان خلصت من أيديهم فأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات واحتلت أساطيله ببحر الزقاق فحالوا بين صريخ المسلمين ووصوله الى السلطان وجمع ابن الاحمر عساكره على طريف وهيأها قريبا منه وسرب اليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الاقوات واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونالهم من الحصار غاية المشقة فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد فصالحهم واستنزلهم ووفي لهم بعده واستشرف ابن الاحمر ان الطاغية يسلمه طريف حسبما كان الوعد بينهما فعرض الطاغية عن ذلك واستأثر بها بعد ان كان ابن الاحمر نزل للطاغية عن ستة من الحصون عوضا عنها ففسد ذات بينهما ورجع ابن الاحمر يطلب التمسك بالسلطان ليستعين به على الطاغية فأوفد ابن عمه أبا سعيد ووزيره أبا سلطان

الداني في وفد من رجال دولته على السلطان لتجديد العهد وتقرير المعذرة فوافوا السلطان فقبلهم وقبل ما اعتذروا به وأحكموا الصلح ورجعوا لابن الاحمر باسعاف غرضه من المواخاة وقد ذكرنا فيما تقدم انه كان جيش لبني مرين مقيما بالاندلس دائما للغزو فقدر الله ان في خلال ذلك توفي قائد الجيش الذي بالاندلس لبني مرين فعقد السلطان لابنه وولي عهده أبي عامر على ثغور الاندلس التي في طاعته مع النظر في أمر الجيش الذي بالاندلس وأنفذه الى قصر المجاز بعساكر فوافاه ابن الاحمر هناك وقدم له هدية وللسلطان هدية أيضا فتلقاه الامير أبو عامر واحتفل في مبرته ثم قدم ابن الاحمر على السلطان فوافاه بطنجة فبالغ في تكرمته وبسط له ابن الاحمر العذر في شأن طريف فقبل عذره ونزل له ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الاندلس كانت قبل ذلك لسلطان المغرب وعاد ابن الاحمر الى الاندلس خاتمة سنة ثنتين وتسعين محبوا مجبورا وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد السلطان على حربها لوزيره عمر الحزرباش فنازلها مدة فامتنع عليه أخذها فأفرج عنها وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستمائة واجتمع النصارى على ابنه اذفونش هراندة وحصل قيام ثائرين من المسلمين بتلمسان خرجوا عن طاعة السلطان فاعتزم السلطان على التجهيز والمسير اليهم بنفسه وانتشر بذلك فتنة يطول الكلام بذكرها فسار السلطان بجيوشه اليهم وطالت تلك الفتنة الى سنة احدى وسبعمائة ومات ابن الاحمر في هذه السنة بالاندلس وقام بالامر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع بن محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وبعث ولده للسلطان بتلمسان فأحكموا الامر والعهد بينهما وكتب السلطان الى رجاله المقيمين بثغور الاندلس في اعانتهم وأمدهم بالرجال سنة ثنتين وسبعمائة فكانت لهم نكاية في العدو ثم بدا لابن الاحمر محمد المعروف بالمخلوع ان يصل يده بالطاغية هراندة بن شانجة فكاتبه وأحكم عقد السلم بينه وبينه واتصل الخبر بالسلطان وهو محاصر لتلمسان فسخطه واستفره الصريخ فبعث ابنه أبا سالم لسد تلك الفرجة وجمع اليه العساكر واستعد ابن الاحمر لمدافعة ابن السلطان فداخل أهل سبتة في خلع السلطان والقبض على عامله فتم له ذلك فسار أبو سالم ابن السلطان بعساكره الى سبتة وحاصرها مرة ثم بيتوه ليلة فاختل معسكره فأفرج عنها منهزما فسخطه السلطان واعتزم على النهوض لذلك بنفسه الا أنه قد أشرف على فتح تلمسان فلم يمكنه النهوض بنفسه وكانت هذه الفتنة متصلا بعضها ببعض وانجر الامر فيها الى سنة ست وسبعمائة فقدر الله بهلاك السلطان يوسف وهو محاصر تلمسان طعنه خصي

من عبيده وهو على غفلة بمواطأة وزير من وزراء السلطان ثم صار الاختلاف الكثير بين أولاده واختلف بنو مرين فيمن يختارونه للملك منهم وبايعوا بعضهم ثم خلعوه وبايعوا آخر ثم خلعوه وبايعوا آخر من اخوته والكلام على ذلك طويل لاحاجة بنا الى ذكره ووقعت بينهم مع بعضهم فتنة هائلة واستمر الامر بينهم الى سنة عشر وسبعمائة فاستقر الملك لاخي السلطان يوسف المطعون وأخوه الذى استقر الامر له هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق وفي خلال هذه الفتن قتل بالاندلس أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه أخاه محمد المخلوع بن محمد الفقيه بن الاحمر وذلك سنة ثمان فثار عليه ابن عمه أبو الوليد اسماعيل ابن فرج الملقب بالرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف بن نصر وانقطع الملك عن أولاد محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وصار في أولاد ابن سعيد فرج الرئيس ابن اسماعيل بن يوسف بن نصر لانه لما ثار أبو الوليد على أبى الجيوش صالحه أبو الجيوش سنة سبع عشرة وسبعمائة على الخروج الى وادى آش فلحق بها وجدد له بها ملكا الى ان مات سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة ودخل أبو الوليد غرناطة فأصل لنفسه وبنيه ملكا وفي هذه المدة التى كانت فيها هذه الفتن اغتنم الطاغية الفرصة ونازل الجزيرة الخضراء ثم أقلع عنها على صلح بعد ان أذاقها من الحصار شدة وبعده نازل جبل الفتح المسمى جبل طارق وتقدم ان طارقا هو أول من فتح الاندلس وتسميه العامة الآن جبل الطار فتغلب عليه الطاغية وتملكه وذلك سنة تسع وسبعمائة وتراسل هراندة بن اذفونش مع صاحب برشلونة وأمره ان يشغل أهل الاندلس من ورائهم فنازل المرية وحاصرها ونصب عليها الآلات وحفر العدو تحت الارض سربا مقدار مايسير فيه عشرون راكبا وتفطن المسلمون لذلك فاحتفروا قبالتهم مثله الى ان نفذ بعضهم الى بعض فاقتتلوا من تحت الارض وبعث ابن الاحمر عسكرا مددا لاهل المرية ونبذ عهد الطاغية فلقيهم جمع للنصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة فهزمهم عسكر ابن الاحمر واستلحمهم ونزل قريبا من معسكر الطاغية وأقامت عسكر الطاغية على سماتة واسطبونة وزحفت عسكر بنى مرين المقيمون بالاندلس للجهاد على عسكر اسطبونة وقتلوا قائده العنش وثلاثة آلاف من قومه ودخل بعض عسكر المسلمين برجين فحاصرهم جموع النصارى فجاء مدد للمسلمين فانفض النصارى المحاصرون له وكان الطاغية بظاهر الجزيرة فارتحل يريد لقاء مدد للمسلمين فخالف أهل البلد الى معسكره وانتهبوا محلاته وفساطيطه وصار لمساكين الكوة وامتلأت أيديهم من غنائمهم وأسراهم ثم هلك الطاغية أثناء هذه الهزائم سنة ثنتى عشرة وسبعمائة وهو هراندة

ابن شانجة وولي بعده ابنه المنشة وكان طفلا صغيرا جعلوه تحت نظر عمه دون بطرة بن شانجة مع زعيم للنصارى اسمه جوان فكفلاه واستقام أمرهم على ذلك وشغل السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب بشأن ابنه علي فانه خرج على أبيه وكان بينهما مايطول ذكره فاغتنم النصارى الفرصة وقوي أمرهم بالاندلس فزحفوا على غرناطة كرسي سلطنة ابن الاحمر سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم فبعث أهل الاندلس صريخهم الى السلطان أبي سعيد وهو في شغله فيما كان بينه وبين ابنه وكان بالاندلس كما تقدم جيش لبني مرين جعلوه مقيما دائما بالاندلس لقصد الجهاد ودفع العدو وكان الرئيس على أولئك المجاهدين عثمان بن أبي العلا ادريس بن عبد الله بن عبد الحق المريني فلما جاء صريخ أهل الاندلس للسلطان أبي سعيد اعتذر اليهم السلطان بسبب ماهو مشغول به من أمر ابنه واعتذر اليهم أيضا بوجود عثمان بن أبي العلا رئيس الجيوش بالاندلس وكان له قوة ورياسة وكان السلطان يخشى منه التغلب على السلطنة فتفترق كلمة بني مرين فشرط عليهم ان يقبضوا على عثمان بن أبي العلا ويدفعوه اليه برمته فيبقى عنده ويبعث اليهم من يقوم بتدبير جيوش بني مرين بالاندلس مع مايمكنه من ارسال العساكر ثم اذا تم الجهاد يعيد ابن أبي العلا اليهم احتياطا على المسلمين لئلا تفترق الكلمة فلم يمكنهم ذلك لقوة رياسة عثمان بن أبي العلا بعصابته من قومه فأخفق سعي هؤلاء المستصرخين بالسلطان ولم تحصل لهم نجدة منه وأطالت أمم النصرانية الحصار على غرناطة واكثروا الجيوش وطمعوا في تملكها ثم ان الله تعالى نفس محنتهم ودافع بيد قدرته كما ستراه مذكورا حالا في هذه الغزوة العظمى

﴿ غزوة عظمى ﴾

لما أراد الله حصول النصر والفرج للمسلمين الذين حاصرهم العدو بغرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة وفق الله شيخ الغزاة من بني مرين المقيمين بالاندلس للجهاد وهو عثمان بن أبي العلا المتقدم ذكره حتى كان النصر بسببه واعانته فكانت هذه من الغرائب والعجائب بل هي من أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في نصرة الله لامته والقصة طويلة وملخصها ان النصارى عزموا في ذلك العام على استئصال المسلمين واخراجهم من الاندلس بحيث لايبقى شيء من الاندلس تحت يد المسلمين فتجهزوا لغزو غرناطة التي فيها أبو الوليد اسماعيل بن الاحمر وأتاها الطاغية دون بطرة في جيش لايحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا من ملوك الفرنج وكان النصارى وملوكهم قبل ذلك رحلوا الى من يرجعون اليه في

دينهم وهو البابا صاحب رومة فدخل ملكهم دون بطرة صاحب طليطلة على البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال من بقي من المسلمين بالاندلس وأكد عزمه فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا عن الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبدالحق المريني صاحب فاس ومراكش وأنفذوا اليه رسلا فاعتذر اليهم كما تقدم بيانه فرجعوا الى أعظم الادوية وهو الالتجاء الى الله تعالى وأخلصوا النيات مع حصول غاية الاضطرار وأقبل الافرنج في جموع لاتحصى فقضى ناصر من لاناصر له سواه بهزيمة جيش النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطرة ومن معه وكان نصرا عزيزا ويوما مشهورا مشهودا وكان سلطان الاندلس اذ ذاك الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وشيخ الغزاة المقيم بالاندلس من بني مرين الشيخ العالم أبو سعيد عثمان بن أبي العلا ادريس بن عبدالله بن عبد الحق المريني فاجتهد ابن الاحمر في تحصين البلاد والثغور فلما بلغ النصارى ذلك التحصين عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فانتدب ابن الاحمر لردهم وجهز الاساطيل والرجال فلما رأوا ذلك عزموا على استئصال المسلمين وتوجهوا الى طليطلة ليكملوا التأهب بذلك فأعدوا غاية الأهبة ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والاقوات والمراكب ووصل العدو الى غرناطة كرسي ملك ابن الاحمر وامتلأت الارض بهم فتقدم ابن الاحمر الى شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلا وسأله الخروج للجهاد وانجاد المسلمين بمن معه من الغزاة والشجعان فخرج اليهم يوم الخميس الموفي عشرين من ربيع الاول سنة تسع عشرة وسبعمائة ولما كانت ليلة الاحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرج اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة فقطعوهم من الجيش وفرت تلك السرية أمامهم الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح فاستأصلوهم فكان هذا أول النصر ولما كان يوم الاحد ركب شيخ الغزاة لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من اقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة فركب النصارى بجملتهم وحملوا عليهم فقاتلهم المسلمون أشد القتال وهزم الله الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وقتل الله دون بطرة ملك النصارى وقتل الملوك الخمسة والعسرين الذين كانوا معه جميعهم وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف وكان من جملة السبي امرأة الطاغية

وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فلم يقبل المسلمون ذلك وزادت عدة القتلى من النصارى في هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال أنه هلك منهم بالوادى مثل هـذا العدد لعدم معرفتهـم بالطرق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون واستمر البيع في الاسرى والاسـياب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتـل من المسلمين والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وكان عسكر المسلمين خمسة آلاف وخمسمائة منهم ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف رجالة وكانت الغنيمة تفوق أوصف وسلخ الطاغية دون بطرة وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى معلقا سنوات وطلب النصارى الهدنة فعقدت لهم وكانت هذه الغزوة سنة تسع عشرة وسبعمائة وكانت وفاة شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلا سنة ثلاثين وسبعمائة وعمره ثمان وثمانون سنة واستوفي في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة رحمه الله تعالى ورضى عنـه وكتبوا على قبره ترجمة طويلة تدل على علو شأنه في العلم والعمل والاخلاص في الجهاد وكانت وفاة ابن الاحمر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو الحجاج يوسف وتوفي السلطان عثمان المرينى سـنة احدى وثلاثين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى

﴿ ذكر استخلاص جبل الفتح من النصارى ﴾

قد تقدم ان الطاغية تملك جبل الفتح سـنة تسع وسبعمائة وكان هذا الجبل للمسلمين من أحسن الثغور وكان شجا في حلق العدو وهو فاصل بين أفريقية والاندلس فأهم المسلمين شأنه وكان ابن الاحمر قدم على السلطان في سـنة اثنتين وثلاثين فأكبر مقدمـه وأركب المسلمين للقائه وبالغ في اكرامه فتـذاكر معه في شأن استخلاص الجبل المذكور فاتفقا على التجهيز لاستخلاصه فأمر السلطان أبو الحسن بالتجهيز لاستخلاصه وعقد لابنه الامير أبى مالك على جيش من بنى مرين وأنفذه مع ابن الاحمر لمنازلة الجبـل فاحتل بالجزيرة وتتابع اليـه الاسطول بالمدد وأرسـل ابن الاحمر حاشرين في الاندلس يجمعون الناس ويستنفرونهم لذلك فتسايلوا اليـه واجتمع معسكرهم جميعا بساحة جبل الفتح وأبلوا في حربه ومنازلته بلاء حسـنا الى ان تغلبوا عليه وملكوه سـنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة وقتلوا من كان به من النصرانيـة وغنموا ما كان معهم ووافاهم الطاغية ومعه أمم كثيرة مددا لقومـه بعد مضى ثلاثة أيام من الفتح وقد شحنه المسلمون بالاقوات ونقلوها من الجزيرة على خيولهم ولما وصل الطاغيه أناخ بجيوشه عليه وبرز أبو

مالك بعساكره فنزل بحذائه ونزل أيضا عسكر الاندلس بحذاء الطاغية وتحصن العدو في محلتهم فبادر ابن الاحمر الى لقاء الطاغية وسبق الناس الى فسطاطه وتلقاه الطاغية راجلا حاسرا اعظاما له فسأله ابن الاحمر الافراج عن هذا المعقل فرأى الطاغية ان تملكه الجبل وانتزاعه من المسلمين شديد عسر عليه فأجاب ابن الاحمر الى ماسأل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل لفوره وأخذ الامير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر وسد فرجه وأنزل الحامية به ونقل الاقوات وكان هذا الفتح فتحا طوق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر طول الدهر وكانت مدة منازلة المسلمين الى ان ملكوه ستة أشهر ثم أراد السلطان أبو الحسن ان يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لايطمع العدو في منازلته ولا يجد طريقا للتضيق عليه عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق السلطان كثيرا من الاموال وارضى العمال حتى بنى سورا أحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ثم زاد في التحصين بعده ابنه أبو عنان

ذكر غزوة للسلطان أبي الحسن الى الاندلس

كان السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على جبل الفتح اشتغل بقتال جماعة ثائرين عليه بتلمسان واستمر ذلك الى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فرجعوا الى طاعته فتوجهت همته بعد ذلك لغزو النصارى بالأندلس فقصد أولا ولاية ابنه أبي مالك على ثغور عمله بالاندلس وصرفه اليها وكان الطاغية مدة اشتغال السلطان بقتال أهل تلمسان قد اعتز على المسلمين ونازل السلطان أبا الوليد بن الاحمر بغرناطة مرارا ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على دفاعه وأقبل الطاغية على التهام المسلمين بالاندلس فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أهل تلمسان دعته نفسه الى الجهاد فأوغر الى ابنه الامير أبي مالك أمير الثغور سنة أربعين بالدخول الى دار الحرب وجهز اليه عساكر كثيرة ثم شخص بنفسه غازيا فتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها وأكثر القتل والسبي وغنم عساكره غنائم كثيرة فلما شرع في الرجوع عن أرضهم اتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له وأجدوا السير في اتباعه فأشار عليه وزراؤه بالخروج من أرضهم وان يصير الى مدن المسلمين ويتحصن بها فامتنع من الرجوع وكان قرما ثابتا الا أنه غير بصير بالحروب لصغر سنه فصبحهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم قبل ان يركبوا وأدركوا الامير أبا مالك قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وكتب الله له الشهادة وقتلوا كثيرا من قومه واحتووا على عسكره بما فيه من الاموال ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن ففجع لهلاك ابنه واسترجع واسترحم له

واحتسب عند الله أجره وشرع في اجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجند وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب وارتحل الى سبتة ليباشر أحوال الجهاد فتسامعت أمم النصرانية بذلك فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله الى الموضع المعروف عندهم بالزقاق ليمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدو وبعث الى ملوك بني حفص بافريقية بتجهيز أسطولهم اليه فبعثوا اليه عشرين أسطولا مشحونة بالعساكر وتوافت أساطيل المسلمين بسبتة تناهز المائة فناجزوا أسطول النصارى التي بالزقاق وزحفوا عليهم وتواقفوا مليا ثم قربوا الاساطيل بعضها الى بعض وقرنوها للمصاف فلم يمض الا قليل حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح والقوا أشلاءهم باليم وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم الى مرسى سبتة استولى المسلمون عليها فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤس العدو في جوانب البلد ونظمت اصفاد الاسرى بدار الانشاء وعظم الفتح وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة وأنشدت الشعراء القصائد بين يديه وكان يوما من أعز الايام ولله الحمد والمنة ثم شرع السلطان في اجازة من عنده من العساكر الغزاة والمتطوعة والمرتزقة ولما استكمل اجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها وهي بيد النصارى وأحاط عسكره بفنائها ووافاه سلطان الاندلس ابن الاحمر بعسكر الاندلس وأحاط الجميع بطريف نطاقا واحدا ونصبوا عليها الآلات وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن العسكر وطال حصارهم للبلد ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات واختلت أحوال العسكر واحتشد الطاغية أمم النصرانية وأعانه البرتقال صاحب اشبونة وغرب الاندلس فجاء معه في قومه وزحف على المسلمين لستة أشهر من منازلتهم ولما قرب معسكرهم ارسلوا قطعة من جيش النصارى الى طريف فدخلوها ليلا على غفلة من العس وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددا ولبسوا على السلطان وقالوا له لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفا وتزاحفوا ولما نشب القتال كان للعدو جيش كمين فبرز وخلفوهم الى معسكر السلطان وعمدوا الى فسطاط السلطان ودفعه عنهم من كان عند الفسطاط من الحراسة فاستلحموهم وقتلوهم وكان مع السلطان في هذه الغزوة بعض نسائه فوصل هؤلاء الناجون الى النساء فدافع النساء عن

أنفسهن فقتلوهن وخاصوا الى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبي يحيي بن يعقوب وفاطمة بنت سلطان افريقية أبي يحيي الحفصي وغيرهن من حظاياه فقتلوهن عن آخرهن واستلبوهم وانتهبوا سائر القسطاط وأضرموا المعسكر نارا وأحس المسلمون الذين يقاتلون الكفار بما ورائهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد ان كان ابن السلطان هجم في طائفة من قومه حتى خالط الكفار في صفوفهم فأحاطوا به وقبضوا عليه وولى السلطان متحيزا الى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية بنفسه الى فسطاط السلطان أبي الحسن وأنكر على قومه قتل النساء والولدان ووقف منه لمنتهى أثره ثم انكفأ راجعا الى بلاده ولحق ابن الاحمر بغرناطة كرسي ملكه وخلص السلطان الى الجزيرة ثم الى الجبل ثم ركب الى سبتة ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم ولما رجع الطاغية من طريف استأسد أي صار كالأسد على المسلمين بالاندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها وجمع الآلات والايدى على حصارها واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه وذلك سنة أثنتين وأربعين وسبعمائة وانصرف الى بلاده وأما السلطان أبو الحسن فانه لما أجاز الى سبتة ألزم نفسه بالعود الى الجهاد وذهب الى فاس وبعث في الأمصار للاستنفار وأخرج قواده الى سواحل البحر لتجهيز الاساطيل حتى اكتمل منها عدة وافرة ثم ارتحل الى سبتة لمشارفتها وقدم عساكره الى العدوة مع وزيره وبعث الى الجزيرة بعض أقارب الوزير وبعث اليهم مددا وبلغ الطاغية الخبر فجهز أسطوله واجراه الى بحر الزقاق للمدافعة وتلاقت الاساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم اعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوا دور المسلمين وأقبل الطاغية من اشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفا أساطيل المسلمين وأمل ان ينظمها في مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع بالآلات وجمع الايدى عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل العسكر بيوتا من الخشب للمطاولة وجاء السلطان أبو الحجاج بن الاحمر بعساكر الاندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح على سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليبعث المدد من الفرسان والمال والميرة فلم يغنهم ذلك شيأ واشتد الحصار عليهم وأصابهم الجهد وأجاز اليه السلطان ابن الاحمر ليفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعداذن الطاغية له في الجواز مكرا به وترصد له بعض الاساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا الى الساحل بعد غص الريق وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر

السلطان وسألوا من الطاغية الامان على ان ينزلوا عن البلد فبذل الامان لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا الى المغرب وذلك سنة ثلاث وأربعين فأنزلهم السلطان أبو الحسن بلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ماأعاضهم عما فاتهم وخلع عليهم وأجازهم بجوائز سنية لايزال الناس يتحدثون بها وانكفأ السلطان الى حضرته موقنا بظهور امر الله وانجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ثم ثار على أبى الحسن ثائرون بالمغرب وتوالت فتن كثيرة الى ان توفي سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة وولى بعد ابنه ابو عنان وثار بينه وبين اخوته فتن كثيرة واما سلطان الاندلس ابو الحجاج ابن الاحمر فقتل في الصلاة يوم عيد الفطر طعنه اسود مدسوس عليه وولى بعده ابنه محمد الغنى بالله وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمائة ثم خلع سنة ستين ثم اعيد سنة ثلاث وستين والكلام على ذلك طويل لاحاجة لنا بذكره واستمر في ملكه الى ان توفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وكان قد قوى ملكه وسلطانه بعد رجوعه الى ملكه سنة ثلاث وستين حتى صار ملك المغرب وسلطان بنى مرين تحت امره ووقع في هذه السنين فتن بالاندلس بين النصارى مع بعضهم وذلك ان الهنش ملك النصارى هلك سنة احدى وخمسين وسبعمائة وولى بعده ابنه بطرة وثارت فتن وحروب بينه وبين اخوته وانتهز الفرصة ابن الاحمر وجمع جيوش المسلمين للجهاد ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في ارض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم ثم رجع الى غرناطة وذلك سنة سبع وستين وسبعمائة ثم تشوف المسلمون الى ارتجاع الجزيرة الخضراء الى المسلمين فتراسل ابن الاحمر مع ملك مراكش وفاس وكان السلطان حينئذ السلطان عبد العزيز بن السلطان أبى الحسن واتفقا على ان ابن الاحمر يزحف بعساكره وملك المغرب يمده بالمال والاساطيل لعزة جمع العسكر عليه لما كان فيه من الفتن فأوعز صاحب المغرب الى اساطيله فعمرت وسارت وبعث بمال كثير وذخائر وزحف ابن الاحمر بعساكره واستعدت الآلات للحصار فنازلها اياما قلائل فأيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد واقيمت فيه شعائر الاسلام ومراسمه ومحيت منه كلمة الكفر ومعالمه وكان ذلك في سنة سبعين وولى عليها ابن الاحمر من قبله ولم تزل تحت نظره الى ان تمحض له النظر في هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها فهدمت سنة ثمان وسبعمائة واصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس والبقاء لله وحده وتوفي الغنى بالله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن الاحمر سلطان الاندلس سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وولى

ابنه يوسف وتوالت فتن كثيرة فقصد الافرنج البرتغال مدينة سبتة سنة اربع عشرة وثمانمائة في مراكب كثيرة فقاتلهم اهلها ثم تغلب عليهم الفرنج فملكوها وبقيت معهم نحو مائتين وخمسين سنة ثم انتزعها الاسبانيول منهم ثم توالت فتن بين بنى الاحمر مع بعضهم في الاندلس وجرت أمور يطول الكلام بشرحها وآل الامر فيها الى خروج ملك الاندلس عن ايدى المسلمين فأخذ العدو مالقة سنة ثلاث وتسعين وثمانماية وأخذوا غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة وانقرض ملك بنى مرين سنة تسعين وثمانمائة وانتقل الملك لوزرائهم بنى وطاس ثم منهم للاشراف السعديين والكلام على ذلك طويل ولما حاصر العدو غرناطة أصاب المسلمون وقت حصار العدو لهم بها شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب فكاتبوا العدو في الصلح واشترطوا شروطا وعقدوا وثايق ومكنوا العدو من غرناطة وكانت الشروط سبعا وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال ومنها ابقاء الناس واماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولايحكم على احد منهم الا بشريعتهم ومنها ان تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك وان لايدخل النصارى دار مسلم وان لايغصبوا أحدا وان لايتولى على المسلمين في الاحكام نصرانى ولايهودى وان يفك من كان أسيرا منهم ومنها ان من اراد الجواز الى المغرب لايمنع ولايؤاخذ من قتل احدا من النصارى ايام الحرب الى غير ذلك من بقية الشروط ثم ان النصارى نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئاً ونكثوها عروة عروة الى ان آل الامر الى حملهم المسلمين على التنصر حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين ان جدك كان نصرانيا فأسلم في زمن كذا فلابد ان ترجع نصرانيا كما كان اجدادك السابقون فلما فحش هذا الامر قام جماعة من المسلمين كانوا بموضع يقال له البيازين فقتلوا النصارى الذين كانوا عندهم فخرج الامر من سلطانهم بقتل المسلمين الا من تنصر فانه ينجو من القتل فتنصر خلق كثير في البادية والحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى واجتمعوا في بعض القرى متحصنين بها فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا وبقى جماعة من المسلمين صعدوا جبلا واحتموا فيه وقاتلهم العدو فقتلوا من العدو خلقا كثيرا فأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من اموالهم ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين ولم يكن متنصرا في الباطن يعبد الله في خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكينة الضعيفة فضلا من غيرها من الحديد وقام المسلمون الذين تحصنوا في بعض الجبال على النصارى مرارا ثم تغلب النصارى عليهم ولم يقيض الله لهم ناصرا الى ان

كان آخر وقت أخرجهم النصارى فيه سنة الف وعشر فخرج الوف من المسلمين الى فاس والوف الى تلمسان ووهران وجمهورهم خرج الى تونس وتسلط على كثير منهم الاعراب ومن لايخشى الله ونهبوا أموالهم في البوادى والطرقات وأكثر النهب والاخذ وقع على الذين ذهبوا الى تلمسان وفاس وأما الذين ذهبوا الى تونس فأكثرهم سلم من ذلك وقد عمر هؤلآء الخارجون من الاندلس كثيرا من القرى الخالية في تلك المواضع التي ذهبوا اليها ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر واستخدم سلطان المغرب منهم عسكرا جرارا ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها لانهم كانوا عددا كثيرا لايحصيهم الا الله تعالى والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قال في نفح الطيب والسلطان الذى أخذت منه غرناطة آخر سلاطين بنى الاحمر الذى انقرضت بانقراض دولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها هو السلطان أبو عبدالله محمد ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان الغنى بالله محمد واسطة عقدهم والمشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج ابن اسماعيل بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى رحمهم الله جميعا وانتهى السلطان المذكور الى مدينة فاس باهله واولاده معتذرا عما اسلفه متاهفا على ماخلفه وبنى بفاس قصورا قال في نفح الطيب وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة سبع وثلاثين والف يأخذون من اموال الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم هذا خلاصة ماكان بالاندلس بغاية الاختصار ولنرجع الى اتمام الكلام على ماكان بالديار الشامية وغيرها وليكن الابتداء بذكر حرب الصليب

﴿ ذكر ابتداء الحروب الصليبية ﴾

اعلم ان المسلمين منذ افتتحوا الشام في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انما كان قتالهم في تلك الاراضى مع الروم ملوك القسطنطينية ثم صار من الخلفاء والامراء الاسلامية غزوات وفتوحات كثيرة افتتحوا فيها كثيرا من ممالك الروم وتقدم بيان ذلك ثم لما كان آخر القرن الخامس وظهر الضعف في الخلفاء العباسيين واستولى على مصر وبعض الشام الخلفاء العبيديون وتغلب على كثير من الممالك الاسلامية العمال الذين فيها طمع في ممالك الشام الافرنج الذين نشأت لهم دول في اوروبا بعد ضعف الملوك الرومانية فتجمعت جموع من الافرنج ملوك اوروبا وساروا لتملك الممالك الاسلامية التى في الشام

واعمالها وكان ذلك سنة اربعمائة وتسعين هجرية وكان من أسباب قيامهم وهيجانهم لتلك الحروب ان رجلا منهم اسمه بطرس الناسك ترهب وانفرد عن أهله سائحا متنسكا فزار بيت المقدس وأخذته الحمية في استخلاص تلك الاماكن من أيادى المسلمين فلما رجع الى بلاد ايطاليا اجتمع مع البابا وخاطبه في ذلك فوافقه البابا على استحسان افكاره وماقام بنفسه وعزم في الحال على اتخاذ الاسباب والوسائط المقتضية لاتمام هذا المشروع فأمر بطرسا ان يجول في اقطار البلاد مناديا ومبشرا للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص تلك الاراضى من أيادى المسلمين فأخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذرا ومحركا قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل فاجتاز من ايطاليا الى فرانسا ثم سار الى أكثر ممالك اوروبا زارعا بين الجميع هذه الافكار مهيجا اياهم للنهوض والقيام وفي أثناء ذلك عقد البابا عدة مجامع في ايطاليا وفرانسا وطرح فيها هذه المسئلة امام الجمهور الحاضرين منتهضا همتهم للمبادرة والاستعداد في هذا المشروع وجعل للرعايا القائمين بذلك انعامات ورفع عنهم كثيرا من الضرائب والخراجات فنهض أحد الاساقفة وطلب من البابا ان يكون أول من يجاهد في هذا السبيل فسلمه البابا راية الصليب فتبعه جملة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعا على صدورهم صورة الصليب بلون أحمر وجعلوا هذه العلامة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا الصليبيين ودعيت حروبهم بالحروب الصليبية واذا أراد الله ظهور أمر هيأ أسبابه فظهر لهم أمور وأسباب قوى بها عزمهم على ما أرادوا فمن ذلك ما ذكره بعض مؤرخيهم أنه في أثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهر لهم جملة من العجائب في السماء والارض منها تساقط بعض النجوم من السماء على الارض وظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جانب الافق وظهر لهم عمود نارى على شكل حربة ذات حديد بقرب الشمس وشوهد في الجو صورة مدن وعساكر وخيول وأسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها انه كان يرى في مدة ستة أيام متوالية على أثواب المسيحية صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لايمكن لاحد ان يمحوها بالماء ولا بالنار فهذه المرائى التى كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لايتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاثمائة الف مقاتل وكان الملك الكبير منهم المتقدم في قيادة جيوشهم يسمى بردويل وكان بينه وبين صاحب صقلية مصاهرة وصداقة فاراد ان يكون مرور جيوشهم على افريقية فيتملكوها ثم يسيرون منها الى الشام فارسل الى

صاحب صقلية يقول له قد جمعت جموعا كثيرة وأنا واصل اليك وسائر من عندك الى افريقية أفتحها وأكون مجاورا لك فجمع صاحب صقلية أصحابه واستشارهم في ذلك فقالوا وحق الانجيـل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد كلها بلاد النصرانية فرفع رجله لهم وضرط ضرطة عظيمة وقال وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا وكيف ذلك قال اذا وصلوا الى احتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندى ايضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى مايصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وان لم يفتحوا رجعوا الى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم أمير افريقية غدرت بى ونقضت مابينى وبينك من العهود وتنقطع الوصلة والاسفار بيننا مع أن بلاد افريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها وأحضر رسول بردويل وقال له اذا عزمتم على جهاد المسلمين فافضل ذلك فتح بيت المقدس تخاصونه من أيديهم ويكون لـكم الفخر وأما افريقية فبينى وبين اهلها عهد وايمان لايمكننى نقضها فلما لم يمكنهم صاحب صقلية من المرور عليه عزموا على التوجه الى الشام من طريق القسطنطينية فمنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده الابشرط أنهم يحلفون له أنهم يسلمون له انطاكية اذا ملكوها وكان يظن أنهم لايقدرون على تملك البلاد الشامية لما فيها من جنود الاسلام وهو يريد هلاك الافرنج خوفا من أنهم يتغلبون عليه لانه يرى قوتهم تزيد كلما مضى زمن من الازمان فلما اشترط عليهم ان يعطوه انطاكية اذا ملـكوها اجابوه الى ذلك وقبلوا شرطه وعبروا الخليج عند القسطنطينية طالبين القسطنطينية ليجتمعوا فيها وكانوا أجناسا عديدة وفرقا كثيرة من الايطاليين والفرنساويين وغيرهم من سكان أوروبا وكان بطرس الناسك المتقدم ذكره متوشحا بثوبه الرهبانى قائدا للفرقة الاولى منهم فسار بهم على طريق الماليا وهنكاريا وبلغاريا فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الاهالى وقاتلوهم وقتلوا منهم عددا كثيرا وبعد ان قاسـوا اهوالا شديدة انتهوا الى القسطنطينية فاذن لهم ملـكها ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقاؤهم ثم نقلهم ملك القسطنطينية في مراكبه الى سواحل آسيا فلما انتهوا اليها التقتهم عساكر الاسلام في نواحى قونية وكانت تلك العساكر للملوك السلجوقية الذين كانت ممالـكهم في الروم وأحاطوا بهم وقاتلوهم قتالا شديدا فاستظهر المسلمون عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم فلم ينج منهم الا القليل فهكذا كانت نهاية الوقعة الاولى واما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هـذه الوقعة متشكيا من عدم انتظام

الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم لرؤسائهم ولكن لما بلغته هذه الاخبار المحزنة أقسم بانه لايرجع قط عن عزمه حتى يشاهد حربا صليبيا ثانيا

ذكر تملك الفرنج قونية وانطاكية

قد تقدم ان الروم كانوا قد استولوا على انطاكية سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبقيت بايديهم الى سنة اربعمائة وسبع وسبعين فانتزعها منهم سليمان بن قتلمش السلجوقي فلما كانت هذه السنة أعني سنة اربعمائة وتسعين كان الامير العامل على انطاكية باغيسان التركماني وبلغ أهل اوروبا ماحل باصحابهم من النكال حزنوا جدا وتحركت عزائمهم على أخذ الثار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيش جرار وساروا كالاولين الى ان وصلوا الى قونيه فالتقتهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة وكانت الغلبة فيها لطوائف الافرنج فاستولوا على مدينة قونية وكان ملكها بيدقلج ارسلان السلجوقي وهو الذي قابلهم بجموعه فهزموه وملكوا منه قونية ثم تقدموا الى انطاكية فحصروها تسعة أشهر ثم ملكوها في جمادى الاولى سنة ٤٩٠ من صاحبها باغيسان التركماني بعد ان ظهر منه الشجاعة وجودة الرأى والحزم مالم يشاهد من غيره لانهم لما قدموا على انطاكية قابلهم بجيوشه وقاتلهم قتالا شديدا وجرت وقائع متعددة وهجمات هائلة ثم لما عجز هرب ثم قتل ولما دخل الافرنج انطاكية قتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا اموالهم ولما سمع صاحب الموصل بتملكهم انطاكية جمع عساكره وسار الى الشام وهو الامير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا ثم أقام بعساكره بمرج دابق واجتمع معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب وحمص وسنجار واجتمع كثير من الامراء وعظمت المصيبة على الافرنج وأرسلوا الى كربوقا يطلبون منه الامان لما أقبل بالجيوش على انطاكية فامتنع وقال لاتخرجون الابالسيف وحاصرهم ثم ان كربوقا المذكور أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه ولما ضاق الامر على الافرنج وقلت الاقوات عندهم خرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم قبل خروجهم ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقيسان الذى بانطاكية وهو شاء عظيم ان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم

ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم أبشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل فقال لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ولم يمكنهم من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية منهم أحد ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والاعراض عنهم وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج وتمت الهزيمة على المسلمين ولم يضرب أحد منهم بسيف ولاطعن برمح ولارمى بسهم وانهزم كربوقا معهم فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة اذلم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المسلمين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفا وغنموا مافي العسكر من الاقوات والاموال والأثاث والدواب والاسلحة فصلحت حالهم وعادت عليهم قوتهم

ذكر تملك الفرنج معرة النعمان

ثم سار الفرنج بجيوشهم الى معرة النعمان وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديدا ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد في حربهم والاجتهاد في قتالهم فعملوا عند ذلك برجا من خشب يوازى سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم اذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى من المسلمين منهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضا من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التى يليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج اليه على السلالم فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا مايزيد على مائة الف وسبوا السبي الكثير وملكوا المعرة وأقاموا أربعين يوما

ذكر مصالحة أهل عرقة وحمص للفرنج

ثم ساروا الى عرقة فحصروها اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها ثم ساروا الى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا الى عكا فلم يقدروا عليها

ذكر تملك الفرنج بيت المقدس

ثم ساروا لبيت المقدس وكانوا الف الف وكان فيها رجل يعرف بافتخار الدولة عاملا للعبيديين ملوك مصر لان بيت المقدس كان بايديهم انتزعوه من خلفاء بنى العباس فلما وصل الفرنج اليه حصروه نيفا واربعين يوما ثم ملكوا المدينة المذكورة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هجرية وركبوا الناس بالسيف ولبث الفرنج بالبلدة اسبوعا يقتلون فيه المسلمين وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى مايزيد على سبعين الفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا فضة نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالايقع عليه الاحصاء وورد المستنفرون من الشام الى بغداد صحبة القاضي أبى سعيد الهروى فاوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال وكانوا صياما في رمضان فلشدة ما أصابهم أفطروا وأنشأ الشعراء في ذلك قصائد تبكي لها العيون وتنفطر بها القلوب وكان ذلك في خلافة المستظهر بالله ابن المقتدى بأمر الله العباسى وكان في ذلك الوقت اختلاف كثير بين السلاطين السلجوقية وفتن قائمة بينهم بالعراق فلم تحصل منهم نتيجة ولا من الخليفة وبعث المصريون جيشا لقتال الفرنج لما بلغهم ماوقع بالقدس واقتتلوا مع الفرنج ثم انهزموا وحصرهم الفرنج بعسقلان وضيقوا عليهم فبذلوا لهم اثنى عشر الف دينار وقيل عشرين الفا فارتحلوا عنهم ورجعوا الى القدس وجعلوها دار ملكهم ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام فملكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون وكانت محنة فاحشة على المسلمين ثم في سنة أربع وتسعين واربعمائة ساروا الى مدينة عكا فلم يقدروا على فتحها وكانوا قد عمروا مدينة يافا وسلموها الى قمص من الفرنج وأقيم بملك القدس افرنجي آخر وقيل بل أقام بها بردويل بنفسه ومكث بيت المقدس بايدى الفرنج احدى وتسعين سنة وكذا ما جاوره من سواحل الشام وعجز ملوك الاسلام عن استرجاعه الى ان استرجع ذلك السلطان صلاح الدين الايوبى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى

ذكر تملك الفرنج مدينة سروج وحيفا وقيسارية

في هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من الجزيرة وقتلوا كثيرا من اهلها وسبوا حريمهم

ونهبوا أموالهم وملكوا ايضا مدينة حيفا بالقرب من عكا على ساحل البحر وملكوا مدينة قيسارية وقتلوا اهلها ونهبوا مافيها وفي سنة ٤٩٥ ساروا الى طرابلس الشام فقاتلهم اهلها وقتلوا من الفرنج نحو ثلاثمائة ثم هادنهم الفرنج على مال وخيل ثم رحلوا عنهم الى انطرسوس وهي من أعمال طرابلس فحصروها وملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ثم ساروا الى حصن الطوبان فقاتلهم ابن العريض وأسر فارسا من أكابر الفرنج فبذلوا في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبهم ابن العريض الى ذلك وفي هذه السنة أيضا سار الفرنج الى حمص وقائدهم ملك من ملوكهم يسمى صنجيل فحاصروها وملكوا أعمالها ونزل القمص على عكا وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والابراج وكان له في البحر ست عشرة قطعة فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا الى منجنيقاتهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم وكان ذلك نصرا عجيبا للمسلمين أذل الله به الكفار وفيها سار القمص الفرنجي الى بيروت وحاصرها وضايقها وأطال المقام عليها فلم ير فيها طمعا فرحل عنها وفيها في رجب خرجت عساكر من مصر الى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من بلاد الشام فسمع بهم بردويل صاحب القدس فسار اليهم وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل فاختفى في أجمة قصب فأحرقت تلك الاجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها الى الرملة فتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكر وخرج منها الى يافا وكثر القتل والاسر في أصحابه وفي سنة ٤٩٦ جاءتهم جيوش المسلمين من مصر ووقعت بينهم وقائع يطول ذكرها كانت الغلبة في بعضها للمسلمين وفي بعضها للفرنج وخرجت هذه السنة وبيد الفرنج لعنهم الله البيت المقدس وفلسطين ماعدا عسقلان وبيدهم أيضا يافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية وهم بالجزيرة الرها وسروج وكان صنجيل يحاصر طرابلس الشام والمواد تأتيه وبها فخر الملك بن عمار وكان يرسل أصحابه في المراكب يغزون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا وفي سنة ٤٩٧ أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين وفي هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج الى مدينة لاذقية فيها الاجناد والتجار فاستعانوا بهم على حصار طرابلس براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها أياما فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا الى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا أهلها قتالا شديداً فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانا وسلموا البلد اليهم فلم تف الفرنج لهم بالامان وأخذوا أموالهم وعاقبوهم بالعقوبات وأنواع العذاب فلما فرغوا من جبيل ساروا الى مدينة عكا واستعانوا بملكهم صاحب القدس على حصارها فنازلوها

وحاصرها في البر والبحر ثم ملكوها وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة ثم ساروا الى حران ووقع بينهم وبين المسلمين وقايع يطول ذكرها كان النصر فيها للمسلمين وقتلوا من الفرنج اثنى عشر ألفاً وأسروا القمص فافتداه الفرنج بخمسة وثلاثين ألف دينار وستين أسيراً من المسلمين وفي سنة ٤٩٨ سار الفرنج الى حصن أرتاح ووقع بينهم وبين المسلمين قتال شديد وانهزم المسلمون وقتل وأسر كثير منهم وملك الافرنج الحصن وفي سنة ٤٩٩ وقع بينهم وبين المسلمين قتال على حصن كان بيد الفرنج بينه وبين دمشق يومان فملكه المسلمون وقتلوا من كان بالحصن من الفرنج واستبقوا الفرسان أسرى وكانوا مائتي فارس وملكوا أيضاً منهم حصن رفنية وهو من حصون الشام وقتلوا به خمسمائة من الفرنج وفي هذه السنة ملك الفرنج حصن اقامية وكان من أمنع الحصون الشامية وقتلوا من فيه من المسلمين وفي سنة ٥٠٠ وقعت وحشة بين ملك القسطنطينية والافرنج الذين بالشام ثم وقع بينهم قتال شديد انهزم فيه الفرنج ولم يزل الفرنج يتابعون الحصار على طرابلس الشام وبيروت والكلام على ذلك طويل الى أن ملكوهما سنة ٥٠٣ وقتلوا وأسروا كثيرا من الرجال وسبوا النساء والاطفال ونهبوا من الاموال مالا يحصى ثم ملكوا بانياس وصيدا وصورا وحصن أرتاب وهو قريب من حلب وغير ذلك وفي سنة أحدى عشرة وقيل أربع عشرة قصد بردويل بجيوشه الديار المصرية ليأخذها فانتهى الى غزوة ودخلها وخربها وأحرق مساجدها ورحل عنها وهو مريض فهلك في الطريق والحاصل أن الفرنج لم يزالوا يتملكون كثيراً من الممالك الشامية ويقع بينهم وبين المسلمين الوقائع الهائلة التي يطول الكلام بذكرها حتى لم يبق بيد المسلمين سوى حمص وحماه والشام وحلب وبعض القرى الحقيرة واستمر الحال الى سنة ١١٢٨ مسيحية الموافق سنة ٥٢٢ هجرية فصار ملك حلب والموصل للسلاطين السلجوقية وانتزعوهما من بعض امراء المسلمين المتملين عليهما فأقاموا فيهما عماد الدين زنكى والد السلطان محمود نور الدين الآتى ذكره وكان لعماد الدين شجاعة وشهامة وعزم شديد على جهاد الكفار فشن على الافرنج الغارات ووالى عليهم الغزوات واسترجع كثيرا مما ملكوه وتوفي مقتولاً قتله بعض مماليكه سنة ٥٤١ وكان أبوه آق سنقر مملوكا للسلطان ملك شاه السلجوقى ولما قتل عماد الدين وصار ملك حلب لابنه السلطان نور الدين محمود كان على الفرنج أشد من أبيه فزاد في قتالهم ونكايتهم وكان من أهل العلم والصلاح والتقوى والاستقامة وله ترجمة طويلة سيأتى ذكرها فأول ما ابتدأ في ولايته انه جهز جيشا لقتال الافرنج وفتح مدينة ارتاح وأورفا وأماكن أخر وفي سنة ١١٤٧ مسيحية الموافق سنة ٥٤٢

هجرية اشتدت حروب السلطان محمود وتوالت غزواته وفتوحاته فاستمد الفرنج الذين كانوا في مدائن الاسلام بالفرنج أهل أوروبا فأمدوهم بنجدة عظيمة تحت قيادة ملك جرمانيا وألمانيا وملك فرنسا لويز السابع وقبل قدوم ملك فرانسا بأيام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثى لها اذ كان قد تلف أكثر من نصف جيشه في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التى أثارها عليهم الاعداء في أثناء الطريق فلما بلغ سواحل سوريا وافته مواكب السلطان نور الدين بجيوش الاسلام وفتكت بعساكره فانهزم مع باقي جيشه وبينما هو راجع التقى بملك فرنسا مع جنوده وقد وصلوا في حالة أحسن من حالته فالتقتهم جيوش الاسلام في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال واستمر القتال بينهم مدة أيام وكانت الدائرة على ملك الفرنسيس وجنوده فانقلب راجعا ببقية قواده وجيوشه ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى مافيه من العساكر مع بقايا العساكر الجرمانية وفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج طرابلس الغرب وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة غزا نور الدين الفرنج من نواحي انطاكية وقتل البرنس صاحب أنطاكية وهزم الفرنج هزيمة قبيحة وقتل منهم جمعا كثيرا وأسر مثلهم وأكثر الشعراء من القصائد بمدحه وتهنئته وفتح نور الدين في هذه السنة والتى تليها حصونا كثيرة وكان الفرنج نازلوا دمشق مرارا وحاصروها فلم يقدروا على تملكها واستمر القتال والغزوات بينهم وبين السلطان نور الدين الى سنة ١١٧٣ مسيحية الموافق سنة ٥٦٩ وكان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين فجهزه الى مصر سنة ٥٦٤ وتملك مصر وانتزعها من العبيديين وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ وكان السلطان صلاح الدين في العلم والتقوى والصلاح مثل السلطان نور الدين فلما توفي السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ جمع السلطان صلاح الدين بين ملك مصر والشام فصار الملك فيهما له وتابع الغزوات في قتال الفرنج لاستخلاص ما بأيديهم من ممالك المسلمين وأول قتال وقع بينه وبين الافرنج كان في حياة نور الدين سنة ٥٦٥ وذلك انه جاءت جموع كثيرة منهم وحاصروا مدينة دمياط وضيقوا على من بها فتجهز السلطان صلاح الدين من مصر بجيوش حافلة وقاتلهم وأمده السلطان نور الدين بجيوش كثيرة وشن عليهم السلطان نور الدين الغارات بالشام ووالى على المدائن التى بأيديهم الغزوات فارتحلوا من دمياط ورجعوا خائبين وفي سنة ٥٦٦ سار السلطان صلاح الدين من مصر وأغار على الفرنج بعسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه فأتاه ملك الفرنج بعساكر ليرده فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد ان أشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد صلاح الدين الى مصر ثم

غزا ايلة برا وبحرا وانتزعها من الفرنج وفي سنة ٥٦٩ كتب بعض أهل مصر أتباع العبيديين الذين انقرضت دولتهم الى الفرنج الذين بالشام والذين بصقلية ان يرسلوا اليهم جيوشا يستعينون بهم على اخراج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية فبعث اليهم الفرنج مائتى اسطول تحمل الرجالة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الرجالة خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة ونازلوا الاسكندرية في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ على حين غفلة من أهلها وطمأنينة نخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج في البر مما يلى البحر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد القتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال الى مصر الى السلطان صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية من كان قريبا من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل جهة فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وفشل الفرنج وكثر القتل فيهم والجراح واما صلاح الدين فانه لما وصله خبر منازلة الفرنج الاسكندرية سار من مصر بعساكره وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا وسير مملوكا له مبشرا لاهل الاسكندرية بقدوم صلاح الدين والعساكر فوصل المملوك الاسكندرية وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد يبشرهم بمجئ صلاح الدين والعساكر مسرعين ثم وصل صلاح الدين بعساكره في أثر المملوك فلما سمع الناس ذلك فرحوا وعادوا الى القتال وقد زال مابهم من تعب القتال وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بوصول صلاح الدين في عساكر فسقط في ايديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل في الفرنج فهرب

كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا بشوانيهم هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل واسير وكفى الله المسلمين شرهم وفي سنة ٥٧١ عظم ملك صلاح الدين فكاتبه الفرنج وطلبوا منه صلحا وهدنة فهادنهم على شروط معلومة وفي سنة ٥٧٣ انتقض الصلح لامور جرت فسار السلطان صلاح الدين من مصر بجيوشه قاصدا قتال الفرنج وكان ذلك في جماد الاولى من السنة المذكورة فوصل الى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر هو وجنوده فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد طمعوا وساحوا في الارض آمنين ووصل صلاح الدين الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والافرنج قد أشرفت عليهم بجنودها وابطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان اكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رأى الفرنج وقف لهم فيما معه وقاتلهم فقتل جماعة من الفريقين وقتل ابن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين ثم صارت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجي بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف قليلا ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى في نفر يسير الى مصر ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من الدواب جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى دخلوا بلاد الفرنج في الغارة فان أكثرهم ذهب ما بين قتيل واسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكارى وكان من أشد الناس قتالا وكان جامعا بين العلم والدين والشجاعة واسر أيضا أخوه الظهير وكان قد سارا منهزمين فضلا الطريق فاخذوا معهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين في الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وفدى أيضا جماعة كثيرة من الاسرى ولما حصلت هذه الهزيمة سار الفرنج الى مدينة حماه وحاصروها وكان الامير عليها شهاب الدين الحارمى فقاتلهم هو وأهل البلد وكاد الفرنج يملكون البلد واشتد القتال وعظم الخطب وهجم الفرنج على بعض البلد ودام القتال ليلا ونهارا واستقل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال ثم أنزل الله عليهم النصر فأكثروا القتل في الفرنج واخرجوهم من البلد فارتحلوا خائبين وكفى الله

المسلمين شرهم ثم ساروا وحاصروا حارم فلم يتمكن لهم أخذها فساروا عنها وفي سنة ٥٧٤ في ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج الى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا في النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى في طريقهم وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيمون بحماه ساروا اليهم وهم قليل متوكلون على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ماغنموا من السواد وكان صلاح الدين بحمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا لان الامام مخير في الاسرى بين القتل والفداء والمن بلا فداء وفي ذى القعدة من هذه السنة اجتمع الفرنج وساروا الى دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه ومعه كثير من العسكر فقاتلهم ونصره الله عليهم وقتل كثيرا منهم وقتل جماعة من مقدميهم منهم هنفرى كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأى في الحرب فأراح الله من شره وفي سنة ٥٧٥ بنى الفرنج حصنا منيعا بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام فكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع ذلك صلاح الدين بذل للفرنج ستين ألف دينار ليهدموه بغير قتال فامتنعوا فسار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على الفرنج ثم سار الى الحصن بعساكره فحاصروا الحصن وقاتلوا من به وعادهو الى بانياس وخيله تغير على بلاد العدو وارسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجدا فوافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر كثيرا منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من مشاهير فرسانهم فأما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين ثم عاد صلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فأحاط به وبث العساكر للاغارة على الفرنج في تلك الاطراف ثم زحف المسلمون على الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ونقبوا الحصن وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور وكان عرضه تسعة أذرع بالنجارى فلم يسقط الا بعد أيام فدخل المسلمون الحصن عنوة وقتلوا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا

من أسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق فسجنوا واقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالارض وكان جملة من الفرنج قداحتموا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه تفرقوا وفي سنة ٥٧٨ فتح المسلمون شقيفا وأخذوه من الفرنج وهومن أعمال طبرية مطل على السواد وكان على المسلمين منه أذى شديد ولما بلغ الفرنج مسير صلاح الدين من مصرالى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة وربما عاقوا المسلمين عن السير بأن يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه ابن أخي صلاح الدين الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام وقصد ما بأيديهم من البلاد وأغار عليها ونهب وبورية وما يجاورها من البلاد وأسر الرجال وقتل وسبي النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما لما كان يحصل لهم من الأذى منه ولما وصل صلاح الدين الى دمشق سار الى طبرية وكان الفرنج بجموعها نازلة بطبرية فنزل بالقرب منها وأغار ابن أخي صلاح الدين على بيسان فدخلها قهرا وغنم مافيها وقتل وسبي وأغارت العساكر والعربان في تلك الولاية حتى قاربوا مرج عكاوسار جماعة من الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وأثخنوا القتل فيهم فرجعوا ورجع صلاح الدين الى دمشق ثم سار منها الى بيروت يريد حصارها وفتحها فأتاه الخبر ان البحر ألقى مركبا للفرنج فيه جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسر المسلمون من بها بعد ان غرق كثير منهم وكان عدة الاسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر وسار اسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا أسطولا للفرنج فيه ثلاثمائة منهم معهم الاموال والسلاح مرسلين الى فرنج الساحل فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم واخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم وغنموا مامعهم ثم أغار صلاح الدين على بيسان فأحرقها وخربها وقتل من فيها ثم أغار على الكرك وأطرافها ثم وصل الى نابلس فأحرقها وخربها وقتل واسر وسبي ولم يزل يشن على الفرنج الغارات في كل الاطراف ويطول الكلام بذكر وقايعه مع الفرنج الى أن فتح طبرية بعد قتال شديد ووقايع هائلة وأكثر القتل والاسر في الفرنج وكان جيش صلاح الدين لما حاصر طبرية ثمانين ألفا فلما اشرف عليها وحاصرها وافاه ملك الفرنج الذى ببيت المقدس بجيوش هائلة للمدافعة والمحاماة عن أهل طبرية لانها كانت عندهم من أهم مراكز البلاد وهناك التقى العسكران وماجت الارض بالعساكر واستمر القتال بين الفريقين وكانت

الدائرة على أهل الصليب فانقلبوا منهزمين على الاعقاب طالبين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين ألفا ووقع الملك أسيرا مع خواصه وأكابر رؤسائه في أيدى الاسلام وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين مائتين وثلاثين رجلا من أعيان الافرنج المأسورين وأما الملك فانه أرسله الى دمشق ثم سار صلاح الدين الى عكا وحاصرها وضيق عليها فطلب أهلها الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا متفرقين وحملوا ماأمكنهم حمله وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون عكا يوم الجمعه مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم تتابعت الفتوحات بعد فتح طبرية وعكا وهما فتحان عظيمان وفي الحقيقة هما أول الفتوحات والذى كان قبلهما انما كان اغارة في الأطراف وغزوات وسريات وسبب تأخر الفتوحات الى سنة ٥٨٣ مع ان السلطان نور الدين توفي سنة ٥٦٩ وصار الملك بعده لصلاح الدين ان كثيرا من عمال السلطان نور الدين الذى تحت حكمهم كثير من ممالكه امتنعوا من الدخول تحت طاعة السلطان صلاح الدين ووقع بينه وبينهم محاربات في هذه السنين يطول الكلام بذكرها حتى أدخلهم تحت طاعته وصفى له الامر وقبل ذلك ما كان متمكنا من التفرغ لقتال الفرنج كل التفرغ وأما في هذه السنة سنه ٥٨٣ فقد تفرغ لهم كل التفرغ وتوجه غاية التوجه ولما ارتحل الفرنج من عكة ودخلها المسلمون غنموا مابقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والبندق والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثيرمنها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله فغنمه المسلمون وأقام صلاح الدين بعكا أياما لاصلاح حالها وتقرير قواعدها ثم ارتحل وفرق العساكر الى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيوف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا بماسد الفضا وبعث أخاه سيف الدين الى مدينة يافا فحصرها وملكها وغنم مافيها وأسر الرجال وسبي الحريم وجرى على أهلها مالم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وسار صلاح الدين وابن أخيه تقى الدين وكثير من العساكر وحاصروا تبنين وضايقوها وهى من القلاع المنيعة على جبل فلماضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة ثم أرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وسيرهم الى مأمنهم ثم رحل الى صيدا فاجتاز في طريقه بصرفند فاخذها صفوا عفوا بغير قتال ثم سار الى

صيدا وهي من المدن الساحلية المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ثم سار عنها الى بيروت وهي من أحصن مدن الساحل فلما وصل اليها رأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد أخرى فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى غلبة وقهرا فارسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فارادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الامان فامنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان مدة حصرها ثمانية أيام ثم أراد صلاح الدين السير الى جبيل وكان صاحبها من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فامر بارساله اليه فاحضره مقيدا وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر يضرب به المثل بينهم وكان للمسلمين عدوا أزرق فكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ماسيأتى بيانه ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس عنده أهم لاسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات فيسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه سيف الدين العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر من دمشق ملك الفرنج الذى أسر في وقعة طبرية ومعه مقدم الداوية وقال لهما أن سلمتما البلاد الى فلكما الامان فارسلا الى من بعسقلان من الفرنج يامرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينه ونصب المنجنيقات عليها وزحف بجيوشه اليها مرة بعد أخرى وتقدم النقابون فنقبوا منه شيئاً وملكهم يكرر اليهم المراسلات بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من

البحر واجلب الخيل والرجل من أقصى بلاد الفرنج وادانيها وهم لايجيبون الى مايقول ولا يسمعون مايشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اشترطوها فأجابهم صلاح الدين اليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفي لهم بالامان ثم أقام صلاح الدين بظاهر عسقلان وبث السرايا من اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرمله والداروم وغزة والخيل وبيت لحم وبيت جبريل وانطرون وكل ما كان للداوية ثم لما فرغ من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد سار الى فتح بيت المقدس وكان قد أرسل اسطولا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه وكان في بيت المقدس البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شانا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خاص فرسانهم كثيرون وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق يبلغون ستين ألفا مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض مايجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة وانه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات فيمنعون من يريد الدنو منه والنزول اليه فلما قرب صلاح الدين منه رأى على سوره من الرجال ماهاله وسمعوا لاهله من الغابة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود اوكنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتل كل من الفريقين أشد قتال كل يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون فلايمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين بن مالك وهو من أكابر الامراء

وكان محبوبا الى الخاصة والعامة فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج من مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحفوا والرمالة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس لصلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان فامتنع السلطان صلاح الدين من اجابتهم وقال لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأله فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال أيها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لايعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد ان يحمى دمه ونفسه وحينئذ لايقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لايخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرى عاقبة الامر فيه عن أى شئ تنجلى ونحسب انهم أسرى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويؤخذ من الطفل من الذكور والاناث ديناران ومن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان يوما مشهودا

ورفعت الاعلام الاسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أمينا من الامراء ليأخذ من أهله مااستقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه امانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه مايعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف انسان مابين رجل وامرأة وصبي وأظهر صلاح الدين من علو الهمة والشفقة والرحمة مالا مزيد عليه فكان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عليهم حتى أنه أطلق ثلاثة آلاف رجل بدون فدية وكان في المدينة الملكة زوجة الملك المأسور وعند مقابلة صلاح الدين اياها أظهر لها من الرقة واللطف وكرم الاخلاق مالا يوصف وكان يكلمها ودموعه تجرى وأطلق لها مالها وحشمها واستأذنته في المسير الى زوجها وكان محبوسا بقلعه نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه أموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها مالا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ مامعه يقوى به المسلمين فقال لاأغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وأمر صلاح الدين تطهير المسجد والصخرة من الاقذار ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمود كان قد عمل منبر البيت المقدس رجاء ان يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه واتقانه لم يعمل في الاسلام مثله فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمل المنبر وحمله مايزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وازالة ماأحدثوه من التصويرات وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها وكان سبب تعطيتها بالرخام أن القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من دخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعله فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فأمر بها ففرش فوقها الرخام حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا واما الافرنج من أهله فانهم أقاموا

وشرعوا في بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم واموالهم وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الافرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج التى تركوها أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق وغير ذلك وتركوها أيضا من الرخام الذى لايوجد مثله من الاساطين والالواح وغير ذلك شيأ كثيرا وساروا وفرق صلاح الدين على أرامل وايتام القتلى من الفرنج مالا كثيرا وسمح للمتولين على القشلات والمستشفيات ان يبقوا في المدينة سنة أخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم ثم أقام صلاح الدين بظاهر القدس الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب امور البلد واحوالها وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهى في غاية ما يكون من الحسن وكانت مدة استيلاء الفرنج على بيت المقدس احدى وتسعين سنة لانهم ملكوه سنة اثنتين وأربعمائة واخذ منهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكان قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وكان تاجرا من تجارهم وقد ساسهم احسن سياسة وبالغ في تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا واقام فيها اياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لايمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار في الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على ان الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليهما فان المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال انما هو في الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والشروخ والدبابات والعرادات شئ أصغر من المنجنيق والشرخ نصل لم يركب والدبابة آلة تتخذ للحرب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها وكان عشيرة صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شوانى وحراقات

يركبون فيها في البحر ويقفون من جانب الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالشروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم على المسلمين لان أهل البلد يقاتلونهم بين أيديهم واصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثر الجراحات في المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى بلد فأرسل صلاح الدين الى الشوانى التي جاءته من مصر وهي عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها فكانت في البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه براً وبحراً وضايقوهم حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن في الحساب وذلك ان خمس قطع من شوانى المسلمين باتت في بعض تلك الليالى مقابل مينا صور ليمنعوا من الخروج والدخول اليهم فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم فازالتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من ارادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور والمسلمون في البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشوانى في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية وأمرهم بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من في شوانى المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا أنفسهم من شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفي بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد ان كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لماسقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة ايام فلما رأى صلاح الدين ان امر صور يطول رحل عنها وندم على مافرط منه قبل ذلك فانه كان كلما فتح مدينة وأمن أهلها الفرنج يجهزهم باموالهم ورجالهم الى صور من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك فصار فيها بالساحل فرسان الفرنج بأموالهم واموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصر وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها فلا ينبغي للملك أن يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم ويكون الحزم أعذر له عند الناس فرحل عنها آخر شوال الى

عكا وأذن للعسكر بالعود الى أوطانهم والاستراحة في الشتاء والعود في الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام ومصر وبقي في حلقته الخاصة مقيما بعكا وكان قد أرسل قبل ذلك جماعة لحصار هونين فلما كان محاصرا مدينة صور أرسل أهل هونين يطلبون الامان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفي لهم بالامان ولما دخل المحرم سنة ٥٨٤ سار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب وهى مطلة على الاردن ونازلها ظنا منه أن ملكها سهل وهو في قلة من العسكر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعدا هذه الحصون وكان أهل هذه القلاع يقطعون الطريق على المجتازين فكان أحب شيء ان يتملكها ليأمن الطريق للمجتازين فلما حصرها ورآها منيعة يبطىء ملكها رحل عنها وجعل عليها جماعة يحاصرونها وسار الى دمشق وكتب الى البلاد جميعاً باجتماع العساكر وسار من دمشق منتصف ربيع الاول ووصل الى حمص ثم أغار على مواضع للفرنج ووصل الى قريب طرابلس وابصر البلاد وعرف من أين يأتيها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا يحصى ونزل على حصن الاكراد من الجانب الشرقى من حمص وأقام الى آخر ربيع الآخر وكانت جبلة من أعمال انطاكية بيد الفرنج وفيها كثير من المسلمين ولها قاض مسموع الكلمة عند الفرنج والمسلمين وجعله الفرنج يحكم على المسلمين واسمه منصور ابن شبيل فاحذته الغيرة للدين فجاء الى السلطان صلاح الدين وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جماد الاولى فنزل بانطرسوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ماوجدوه من ذخائرهم وحاصر احد البرجين فنزل اليه من في أحدهما بأمان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وترك من في البرج الآخر فخرب صلاح الدين ولاية انطرسوس ورحل عنها واتى مرقية وقد رحل عنها اهلها وساروا الى المرقب وهى من حصونهم التى لاترام ولاتحدث احدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه والطريق تحته والحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لايسلكه الا الواحد بعد الواحد واتفق ان ابن صاحب صقلية ارسل نجدة الى فرنج الساحل ستين قطعة من الشوانى وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما

رأى صلاح الدين ذلك أمر يوضع سرر واخشاب فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثانى عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله كان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع اعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهاينهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكانوا بانطاكية وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها أميرا

ذكر فتح اللاذقية

وسار الى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لهما على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوار وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج العطب دخل اليهم قاضى جبلة يخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعو الاعلام الاسلامية الى الحصنين وسلم صلاح الدين اللاذقية لابن أخيه تقى الدين عمر وجعله أميرا عليها ولما نازل صلاح الدين اللاذقية وصل اسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بازاء مينا لاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم أهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها الفرنج غيظا عليهم حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية فكان ذلك سبب مقامهم فيها ثم ان مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال مامعناه أنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج مافعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر مالا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه مع اظهار القوة والاستهانة بكل من يجىء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ماأذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

ذكر فتح صهيون

ثم رحل صلاح الدين في السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا ان الجبل متصل بها من

جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لايرى قعره وبخشبة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات أيضا فرأى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسى اليد والشرخ وغير ذلك فخرج أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم فتعلقوا بحزنة من ذلك الجبل فتسلقوا بين الصخور حتى التحقوا بالسور فملكوا منها ثلاثة وغنموا مافيها من ابقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقصة التى للقامة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على انفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين فحصنه وجعله من احصن الحصون

ذكر فتح عدة حصون

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحى فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهى وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لاترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه أمرهم بزحفهم ونصب المنجنيق اليها ففعلوا ذلك ورموا بالمنجنيق فلم يصل من احجاره الى القلعة شئ الا القليل الذى لايؤذى فبقى المسلمون أياما لايرون فيها طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح فبينماهم في الحديث اذ أشرف عليهم أفرنجى ونادى يطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة ايام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه وسبب استمهالهم انهم أرسلوا الى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه ان يرحل عنهم المسلمين

والا سلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله في قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم احد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قليج وأمره بعمارته ورحل عنه وكان قد سير ولده الظاهر غازى صاحب حلب الى سرمينية لحصرها وضيق على أهلها واستنزلهم على قطعة قدرها عليهم ثم هدم الحصن وعفى أثره وكان في هذه الحصون من اسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا واعطوا كسوة ونفقة واتفق ان فتح هذه الحصون كلها في ست جمع مع انها كانت في ايدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا اراد ان يسهل الصعب فعل وهى جميعها من اعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودربساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى

ذكر فتح قلعة برزية

ولما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكان قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها في اعمالها وبينهما بحيرة تجمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الاذى فلما وصل اليها نزل شرقها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لايمكن ان تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانها لايقدر أحد ان يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيراً حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا أبطلها وكان ابن الاثير صاحب التاريخ مع صلاح الدين في هذه الغزوة طالبا للجهاد قال ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لايصل منه شئ اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لاينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا ويزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فانه لم يكن عندهم من الكثرة ماينقسمون كذلك فاذا تعبوا واعيوا سلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الاقسام وزحفوا وخرج الفرنج

من حصنهم فقاتلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنوبات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قربوا من الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شئ فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاصة فقاتلوا قتالا شديداً وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم وبيده جماق يردهم وصاح في القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا مابين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج مالا قبل لهم به وكان القسم الاول قد استراحوا فقاموا ايضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرب والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة في الخيام شرقى الحصن فرأو الفرنج قد اهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا في الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهراً ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من اسرى المسلمين الى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحى القلعة كبروا في سطح القلعة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا أعلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا مافيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا من صاحبها وأهله وأمست خالية لاديار بها والقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت قال ابن الاثير وأعجب مايحكى من السلامة انى رأيت رجلا من المسلمين في هذه الوقعة قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو في الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الارض فوق موضع الرجل فضربه المتحدر عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من

بجانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام الرجل حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست ام الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له ومعها زوجها فتفرقتهم العسكر فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها ثم بعد فتح برزية رحل صلاح الدين من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من عسكره

ذكر فتح درب ساك

ثم سار عنه الى درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من القلاع الحصينة التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئاً يسيراً فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعاقوه فسقط واتسع المكان الذى يريدان المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينظرون جوابه اما بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم في التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فأمنهم على شرط ان لايخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شئ مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب سنة اربع وثمانين وخمسمائة

ذكر فتح بغراس

ثم سار صلاح الدين عن درب ساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج ان يكون اكثر العسكر في اليزك مقابل انطاكية فاذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل اكثر عسكره يزكا مقابلا انطاكية يغيرون على

أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم تؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الأمر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الامان فأجيب الى ذلك فأذن له في الحضور فحضر وطلب الامان لمن في الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم الى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين المسلمين بتخريبه فخرب ثم ندم على ذلك بعد لانه حصل منه بعد ذلك مضرة على المسلمين لان ابن اليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى منهم السواد الذى لحلب

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف صاحب انطاكية من ذلك وأشفق منه فأرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار صلاح الدين من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس يفترعوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فأجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية في ذلك الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت صاحبها وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائباعنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق أكثر العساكر وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين ابو فليته قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى قوله في أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فاشير عليه بتفريق من بقى من العسكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج من الحصون الكرك وصفد وكوكب وغيرها ولابد من الفراغ منها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت ازواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان صلاح الدين قد جعله على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك ويغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذى يحصرها فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضاً مايقاربه من الحصون كالشويك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق من بقي من العسكر قال لاعدمس الافرنج من صفد وكوكب وغيرها فأقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى اليها ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وازوادهم ان تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم فلما رأى أهله جد صلاح الدين في قتالهم خافوا ان يقيم الى أن يفنى مابقي معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ماعندهم من القوت فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنه وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا في وسط البلاد الاسلامية

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الافرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم يبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج واجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى ان رجلا من المحاصرين كوكب خرج متصيداً فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذى اقدمه الى هناك فاقر بالحال

ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم الى مقدم العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب في طائفة من العسكر الى الموضع الذى اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفات منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الفرنج فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما فلما أمر بقتلهما قال له احدهما ماأظن أن ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان يفعل فيه الاعتذار والاستعطاف فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمى الاحجار اليهم وزحف مرة بعد أخرى وكانت الامطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والخروج فلم يقدر أحد منهم ان يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم وتابعوا الرسل الى الفرنج الذين في أوروبا والاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويطلبون الامداد والنجدة وفي كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى اعمال بيروت لايفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد وكوكب سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فاقام بها حتى انسلخت سنة ٥٨٤ ودخلت سنة ٥٨٥ وهي مسيحية سنة ١١٨٩ ففي ربيع الاول من هذه السنة سار الى شقيف ارنوم وهى من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكراً فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له انا محب لك ومعترف باحسانك وأخاف ان يعرف المركيس صاحب صور مابينى وبينك فينال اولادى وأهلى منه أذى فانهم عنده فأحب ان تمهلنى حتى أتوصل في تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا وهم

عندك واسلم الحصن اليك وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ماسأل فاستقر الامر بينهما على ان يسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فأمر تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه غيرهم ويكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد في البحر وأن ملك الفرنج الذي كان أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو وصاحب صور بعد اختلاف كان بينهما وانهما قد اجتمعوا في جمع لايحصى وخرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا واشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع صاحب الشقيف في مدة الهدنة يشتري الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن به واذا قيل له عنه ماهو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى ان يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدي فضيحته ويظهر مخالفته لايصدق فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم واحضر عنده أرناط صاحب الشقيف وقد بقي من الاجل ثلاثة ايام فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده واهله وان صاحب صور لم يمكنه من المجيء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالته الى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر اهله العصيان فأرسل صلاح الدين ارناط صاحب الشقيف الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه من الذخيرة والرجالة وجاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنه لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديد يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضاً جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع

الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله تعالى ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم ولما وصل صلاح الدين الى إليزك وقد فاتته الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب في بعض الايام في عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة انه على قصد المصاف في الحرب فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخافوا السلطان وراءظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدةمن الامراء يردونهم ويحمونهم الى ان يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا ان وراءهم كمين فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فأتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم مايخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا ان أناموهم وقتل منهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ماجرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم في عسكره فحملوا على الفرنج الى الجسر وقد اخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم الى المعسكر والمخيم ولما عاد صلاح الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متمددين فكتب الى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمينا في موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى ان يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما ترا آى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين ان يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين اليهم قاصدين فأتوهم وهم في شدة الحرب فاذا زاد الامر شدة على شدته وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة طي وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلك مسلك

اصحابهم فسلكوا الوادي ظنا منهم انه يخرج بهم الى اصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادي فعلموا انهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة واخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبوك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من لغد الى مواضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا الا كان له فيه الأثر العظيم

ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه مع ان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الامان وسيرهم اليها باموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لايعد ولا يحصى ومن الاموال مالا يفنى على كثرة الانفاق في السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسيسين وخلقا كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويحثونهم على الاخذ بثار البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه وقد جعلوا الدماء في صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران ومن لم يستطع منهم الخروج بنفسه استأجر من يخرج عوضا عنه يعطيهم مالاً على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال مالا يتطرق اليه الاحصاء حتى ان بعض الاسرى منهم حدث ان له والدة ليس لها ولد سواه وما كانت تملك من الدنيا غير بيت فباعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنفاد بيت المقدس فأخذ أسيرا فكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ماهذا حده فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحرا من كل فج عميق وحاصروا عكا ثلاث سنين حتى ملكوها وكان ابتداء تجمعهم وسيرهم هذا المسير سنة ٥٨٥ وهي مسيحية سنة ١١٨٩ فنازلوا عكا منتصف رجب من السنة المذكورة والامداد تأتيهم في كل وقت بالمال والرجال والمسلمون يقاتلونهم وفي سنة ١١٩٠ مسيحية وهي سنة ٥٨٦ هجرية قامت لهم التجريدة الثالثة ونفروا نفرا عاما من بلاد اوروبا

تحت راية فليب ملك فرنسا وفريد ملك جرمانيا وريكاردوس. الأول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعا وقصدوا بلاد فلسطين بمائتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى مدينة صور وهي الباقية بأيديهم تقدموا منها الى مدينة عكا وحاصرها مع من كان قبلهم محاصرها حتى تم عدد المحاصَرين ستمائة ألف ولاقى المسلمين من حربهم أشد البلاء وكان ابتداء مسيرهم من صور ثامن رجب سنة ٥٨٥ يموج بعضهم في بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم ولزموا ساحل البحر في سيرهم لايفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها فقالوا لاحاجة بنا الى احتمال المشقة في مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا مانريده منهم والرأى اننا نسير في الطريق الواسع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المعجلة فوافقهم وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا لصقوا بالارض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق واسع فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم فلم يقدم الفرنج عليه مع قتالهم فلو ان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا كان بلغ منهم غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين طريق الى عكا فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل القياطية وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه الناس من كل البلاد وكانت الامداد تأتى المسلمين في البر وتأتى الفرنج في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة مابين صغيرة وكبيرة ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكة حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم بالقتال بجده وحديده واستدار

عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين ابن أخي صلاح الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لايلوى أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابه واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كثيرة

ذكر وقعة أخرى

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغدر وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم في استيصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع عن الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم أن جماعة من الفرنج تخرج من الناحية الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع الفرنج على عادتهم حمل عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فاحسن اليهم بالجوائز والخلع

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الواقعة المذكورة بقي المسلمون الى عشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهروا من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضروا والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضروا فالرأى انا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر والامداد اليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عن بعضهم مقابل انطاكية ليردصاحبها عن اعمال حلب وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقي من عسكر مصر لم يصلوا

لطول بيكارهم فكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور الى قتال المسلمين واصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو في خيمته ومنهم من قد توجه في حاجة من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر بن اخى صلاح الدين فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر فلما رأى صلاح الدين الحال وهو في القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى تقى الدين فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين يديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم ولم يبق بين ايديهم في القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ثم ان الفرنج نظروا الى ورائهم فرأوا امدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا ان ينقطعوا عن أصحابهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع منهم معه جماعة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فاخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد وقتل أكثرهم وأخذ الباقون اسرى وكان عدة القتلى عشرة آلاف قتيل سوى من كان جانب البحر ثم أمر بالقتلى فالقوا في النهر الذى يشرب منه الفرنج وكان من جملة الاسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ولولا ان العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والاهلاك على ان الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلهم يفرغون منهم فجاء المسلمين الصريخ بأن رحالهم وأموالهم نهبت وكان سبب هذا ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فسار بهم اوباش العسكر وغلمانه فنهبوه واتوا عليه وكان في عزم صلاح الدين ان يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء باحضار ما اخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهوى والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى اننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع أرجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه لما يريد الله ان يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وارسل لمن في عكا من المسلمين يأمرهم بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم أيضا في البحر يحصرها وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن في الحساب وكان اليزك كل يوم يواقعهم وهم لايقاتلون ولا يتحركون انما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل انه غير صواب وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لايقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم احضر معهم لايفعلون شيأ وربما كان من الشر أضعاف مانرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفي فتمكن الفرنج وعملوا ماأرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا أنفسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد ولما برئ صلاح الدين من مرضه كان الشتاء قد دخل عكا فأقام بمكانه الى ان ذهب الشتاء وكان يزكه وطلائعه لاتنقطع عن الفرنج وفي منتصف شوال وصلت اليه العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين فقويت نفوس الناس به وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعه من الرجالة الجم الغفير ووصل بعده الاسطول المصرى ومقدمه الامير لؤلؤة وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة ووقع في طريقه على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها اموالا كثيرة وميرة عظيمة

ودخلت سنة ست وثمانين فلما دخل صفر سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى في المعسكر عندهم قليلاوان الوحل الذى في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من اراد ان ينحدر الى اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا نفوسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشاب المسلمين فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لاينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فاقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبه منه دمشق وحمص وحماه وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول

كان الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار من احراقها واصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين في ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندق البلد فاشرف البلد على ان يملك عنوة وقهرا فأرسل أهل البلد الى صلاح الدين انسانا سبح في البحر فأعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدم الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما شغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا الا ان الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا من ملازمته ليلاً ونهاراً والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده واذن من احرق الابراج وكان سبب ذلك ان انساناً من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على

ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى انما اشتهى معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لايمنعها شئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقى أن يرمى في المنجنيق المحاذى لبرج من هـــذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا لقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعـالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا ان نوافقه على قوله فأجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدر لايحرق شيأ يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج والتصق به حتى اذا جاءته النار اشتعل سريعا ألقى قدرا مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيــه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الاولى لاتعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيـا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون الذين مع صلاح الدين خارج البلد ينظرون ويفرحون وقداسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله في البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفردة وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وارسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية فاول من أتاه صاحب سنجار بعساكره وديار الجزيرة ثم صاحب الموصــل بعساكره ثم صاحب أربل بعساكره وكان كل منهم اذا وصــل يتقدم الى الفرنج بعساكره وينضم اليهم غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاســطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا يلقاه ويقاتله فركب صــلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين براوبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج

مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا ان القتل في الفرنج كان أكثرمنه في المسلمين ووصل الاسطول الاسلامي سالما

ذكر وصول ملك الالماني الشام وموته

في هذه السنة كان خروج ملك ألمان من بلاده والالمان نوع من الفرنج من أكثرهم عددا واشدهم بأسا وكان قدأزعجه تملك المسلمين بيت المقدس فجمع عساكره وازاح علتهم وسار عن بلاده وكان طريقه على القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية عقد صلحا مع صلاح الدين وصار يكاتبه ويظهر له المودة فأرسل ملك الروم لصلاح الدين يخبره بقدوم ملك الالمان وبعده انه لا يمكنه من العبور في بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن احدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على بلاد الاسلام وهي مملكة الملك قلج ارسلان السلجوقي وكان من ملوك الاسلام فلما وصلوا الى اوائلها سار بهم المسلمون فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويأخذون ماقدروا عليه من أموالهم وكان الزمان شتاء والبرد في تلك البلاد شديد والثلج متراكم فأهلكهم البرد والجوع والقتل والاخذ فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين بن قلج ارسلان السلجوقي ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية فساروا حتى بلغوا انطاكية وكانوا نيفا واربعين ألفا ووقع فيهم مرض ووباء فمات كثير منهم ودخل ملكهم في نهر ليغتسل فغرق فجعلوا ابنه ملكا عليهم بدله ثم ساروا حتى وصلوا الى عكا فلما رأوا ما نالهم من المشقات أراد كثير منهم العود الى بلادهم فركبوا في مراكب غرقت بهم ولم يبق منهم الا القليل ولما بلغ صلاح الدين اقبالهم استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل ان يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير بعض عساكره الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * لكن كفى الله شرهم واقل عددهم بما اصابهم من العوارض والبلايا في طريقهم

ذكر واقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفي هذه السنة اعني سنة ٥٨٦ في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أخو صلاح الدين فركب المصريون واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فكر المصريون ورجعوا عاطفين عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم القوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ولما جرت عليهم هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم فلما كان بعد يومين أتتهم أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هنرى ابن أخي ملك فرانسا لابيه وابن أخي ملك انكلترا لأمه ووصل معه من الاموال شيء كثير يفوته الاحصاء فلما وصل جند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا انهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم وكانت منزلة المسلمين قد أنتنت بريح القتلى فاختاروا الانتقال الى موضع يتسع فيه المجال فانتقلوا من مكانهم الى الخروبة في السابع والعشرين من جماد الآخرة ثم ان الكند هنرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات للتوصل الى دخول عكا فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكند هنرى بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا آخر فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين الذين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد فكان الفرنج ينقلون التل الى القرب من البعد بالتدريج ويستترون به فلما قرب الى البلد وصار بحيث تصل من عنده حجر المنجنيق نصبوا من ورائه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب الى عكا فتأخر انفاذها فسير الى نائبه بمدينة بيروت في ذلك فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل مايريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم فرفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم الى ان أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحي الاسكندرية وأخذ من

معها ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من البابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وكان قوله عندهم كقول النبيين لايخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومة الكبرى يأمرهم في كتابه بملازمة ماهم بصدده ويعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمه بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجندلهم الكند هنرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال من السنة المذكورة في عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ على عكا ولقي الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماه ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ماكاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية ان تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وانما لله في كل شئ حكمة وله أمر هو بالغه ولاراد لما أراد فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفي الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض جماعة أخرى من المسلمين للفرنج فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جاوزوا الكمين

فخرج من كان في الكمين من المسلمين عليهم فقتلوهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ولما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لانها لم تمكن من الميناء فسيروها الى صور لانها كانت بأيديهم فانفتح الطريق الى عكا في البحر للمسلمين فأرسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فأمر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم فتفرق خلق كثير فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الامن سابح يأتى بكتاب ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

﴿ذكر وصول فليب ملك الفرنسيس ثم ملك انكلترى﴾

في هذه السنة أعنى سنة ٥٨٧ ثانى عشر ربيع الاول وصلت أمداد الافرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك الفرنسيس ومعه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوسهم وكان صلاح الدين يركب كل يوم ويقصد الفرنج يشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ماعنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من وصول شئ من شوانيهم الى عكا ففعل ذلك صاحب بيروت وسير الشوانى في البحر فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد المسمى دريكلدوس الاول وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها من ملك الروم لانها كانت بأيديهم فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب انكلترا فغلبهم المسلمون واستظهروا عليهم وغنموا امامعهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من موضعه الذى كان فيه ونزل قريبا من خنادق الفرنج مقابلة لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجئ اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خنادقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلترى ثالث عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ بعد ان استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها

بالمكر والخديعة من الروم فانه لما وصل اليها غــدر بصاحبها وملكها فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من بعكا من الفرنج فوصــل اليهم في خمس وعشرين قطعة كبار مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لامثل لها ولما وردت الاخبار بقدومه أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سـبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلترا مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتاله فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع مافيها وكانت عكا محتاجة الى رجال ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لاينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مسـتطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من ورائه لاينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للسلمين فيه حيلة لابالنار ولابغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهـم فلم يقدر لهم على نفع ولامنع

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ سبع وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من في عكا ان الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيــه ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد على بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبا في شئ صغير وخرجا سرا من أصحابهم ولحقا بعسكر المسلمين وخرج معهما جماعة فلما أصبح الناس وعلموا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج أرسلوا الى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك واشترط ان يطلق من أسراهم بعــدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل الى من بعكا من المسلمين ان يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم

الى تلك الجهة التي يخرجون منها بما كره فشرعوا في ذلك واشتغلوا باستصحاب ما يملكونه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه من استصحاب ما يملكونه لظهوره فلما عجز الناس عن حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليرها المسلمون الذين في خارج البلد وكانت هي العلامة اذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم وكان الفرنج زحفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب ان صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيله المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده مائة ألف دينار وجمع الامراء واستشارهم فأشاروا عليه بأن لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك والداوية طائفة من الفرنج كان لهم وفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لانا نخاف غدر من عندنا وقال ملوك الفرنج اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء له فقالوا لا نحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد عندنا حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يعبأ به ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس

والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وهم خلق كثير واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذى كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى الشام وكان ملك الفرنسيس قد توجه قبل ذلك الى صور لترتيب أموره وبقي في عكا ملك انكلترا الى ان تم استيلاؤه عليها وغدر بالمسلمين وفعل بهم ماتقدم وارتحل الى عسقلان في عشر شعبان واستمرت عكا بايديهم بعد استيلائهم عليها وبقيت عندهم مائة سنة وثلاثين الى سنة ستمائة وتسعين فافتتحها وانتزعها منهم السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون وسيأتى انه سار اليها بجيوشه وعساكره ونصب عليها المجانيق العظيمة وقاتله عليها أشد القتال الى أن ملكها وقتل من فيها من الفرنج وغنم منها أموالا لاتحصى وكان نزوله عليها في أوائل جمادى الاولى من السنة المذكورة أعنى سنة ٦٩٠ وفتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ومن عجائب الاتفاق ان الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه انها تفتح في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة على يد صلاح الدين بن قلاوون فكان فتوحها في مثل الشهر الذى ملكها فيه الفرنج وفي مثل اليوم الذى ملكوها فيه من الشهر ولقب السلطان الذى فتحها مثل لقب السلطان الذى أخذت منه اذ كل منهما يلقب صلاح الدين ولله في كل شئ حكمة وكل شئ عنده بمقدار لايتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص لاراد لما قضاه وقدره ثم فتح السلطان صلاح الدين قلاوون بقية البلدان التى كانت بيد الفرنج من أرض الشام وقطع دابرهم وطهرت أرض الشام وسواحلها منهم فلله الحمد على ذلك

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان ﴾

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا رحلوا مستهل شعبان قاصدين عسقلان وكان توجههم من جهة حيفا مع شاطئ البر لايفارقونه ومراكبهم تسايرهم في البحر محاذية لهم فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا اليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة فلما وصل الفرنج حيفا نزلوا بها ونزل المسلمون قريبا منهم ثم ساروا الى

قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويقتلون من قدروا عليه منهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها ونزل المسلمون قريبا منهم ولما نزلوا قيسارية خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون فقتلوا منهم واسروا ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة فألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتلوا كثيراً منهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة منهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لايلوى أحد على أحد والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج انها هزيمة تبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين قطعة كثيرة الشجر فدخلها المسلمون فظن الفرنج انها مكيدة فعادوا وزال عنهم ماكانوا فيه من الضيق ثم سار الفرنج الى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ثم سار صلاح الدين الى الرملة وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا قد رأيت ماكان منا بالامس واذا جاء الفرنج عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لاشك يقاتلوننا فنزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ماكنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجب أحد الى ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية مالا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لايبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى لما كان بعكا أحس من ملك انكلترا الغدر به ليتملك منه صور فهرب من عنده الى صور فحصنها وكان رجل الفرنج شجاعة ورأيا وكل هذه الحروب هو الذى أثارها فلما خربت عسقلان أرسل ملك انكلترا يقول له مثلك لاينبغي ان يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك ياجاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولاحصار فانه ماخربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو

أنني معك كانت عسقلان بأيدينا اليوم لم يخرب منها غير برج واحد وقدعمر الفرنج عسقلان في المحرم سنة ٥٨٨ وملكوها ثم ان صلاح الدين لما خرب عسقلان مضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار صلاح الدين الى القدس وحصنها واعتبر مافيه من ذخائر وسلاح وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفي مدة اقامة الفرنج بيافا خرج ملك انكلترا من معسكره ومعه نفر من عسكره فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديداً وكاد ملك انكلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً وقعت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج كان النصر فيها للمسلمين

﴿ ذكر رحيل الفرنج الى نطرون ﴾

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته الى نطرون ثالث عشر رمضان وخيم بها فراسله ملك انكلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة ان ملك انكلترا يزوج أخته من الملك العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بأيدى الفرنج من البلاد لاخت ملك انكلترا مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها الاول فعرض العادل ذلك على أخيه صلاح الدين فأجاب الى ذلك فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان الى أخت ملك انكلترا وأنكروا عليها ذلك فامتنعت من الاجابة وكان الملك العادل في مدة الخوض في الصلح يجتمع في بعض الاوقات مع ملك انكلترا ويتذاكران حديث الصلح وطلب من الملك العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين فاحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ثم ان الصلح لم يتم بينهما لما امتنعت أخت ملك انكلترا ثم تبين أن ملك انكلترا كان يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج اظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة ومعه العسكر وترك الأثقال في نطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوماً ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات ينتصر فيها المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى نطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فقرب بعضهم من بعض وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين فلقوا من ذلك شدة شديدة واقبل الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما

﴿ ذكر مسير صلاح الدين الى القدس ﴾

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متتابعة والناس فيها في ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العسكر قد طال عليهم البيكار فأذن لهم في العبور الى بلادهم للاستراحة وسار هو الى بيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا جميعا داخل البلد وقدم اليه عسكر من مصر فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من نطرون ثالث ذى الحجة على قصد بيت المقدس فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات أسر المسلمون في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد مارث منه فأحكم الموضع الذى تملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصل وسلم كل برج لامير يتولى عمله ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة فيقتدي به الامراء والعسكر فكان يجتمع من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام ثم ان الفرنج رجعوا الى الرملة في العشرين من ذى الحجة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون مايريدونه من الساحل فلما بعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون مامعهم ثم ان ملك انكلترا قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فاني مارأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ماعدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبروه أنه عميق وعن المسالك فقال هذه مدينة لايمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لاننا ان نزلنا في الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع احدى الطائفتين ولم يمكن للطائفة الاخرى انجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى ان يخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى مايتعذر علينا من ايصال ما نحتاج اليه من العلوفات والاقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين ثم دخلت سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة فعمر الفرنج عسقلان كما تقدم وجرى بينهم وبين المسلمين حين عمارتها قتال شديد وعدة وقائع فكان المسلمون تارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع عليهم الميرة وأخذوا منهم قوافل كثيرة وفي شهر ربيع من هذه السنة جعل صلاح الدين

الباطنيين من الاسماعيلية عشرة آلاف دينار ان قتلوا ملك انكلترا أو المركيس صاحب صور فتمكنا من قتل المركيس صاحب صور فقتلاه ثم قتلا فتملك صور الكندى هنرى وتقدم أنه ابن اخت ملك الفرلسيس من ابيه وابن أخت ملك انكلترا لامه وفي تاسع جمادى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق كثيرا من عساكره لاجل الشتاء ليستريحوا فظنوا أنهم ينالون غرضهم فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق ابراج البلد على الامراء وسار الى الفرنج وكانوا على فرسخين من القدس فصب عليهم البلاء وتابع ارسال السرايا فعلموا أنهم اذا نزلوا القدس كان الشر اليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون اكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى وفي تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج خروج قفل كبير من مصر فأسر الفرنج اليهم وأخذوا بعض القفل بنواحى الخليل وسلم البعض ثم ان الفرنج أيقنوا انهم لا طاقة لهم بالمسلمين اذا فارقوا البحر وبعدوا عنه فرجعوا الى عكا واقاموا بها فلما علم صلاح الدين بذلك جمع العساكر وسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها الى ان ملكها بالسيف عنوة في عشرين من رجب وغنم ما فيها وقتل كثيرا وأسر كثيرا وكان بها أكثر الاموال التي غنموها من قفل مصر وتحصن من بقي من الفرنج بالقلعة فحاصرهم فجاءتهم نجدة من عكا ومعها ملك انكلترا فأخرج من بيافا من المسلمين وتتابع اليه المدد من عكا وبرز الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه احد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل وأكل ثم رجع الى يافا

ذكر الهدنة مع الفرنج

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وسببها ان ملك انكلترا لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل بلد للمسلمين يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده فأرسل الى صلاح الدين في الصلح فلم يجبه صلاح الدين بل طلب منه المصاف والحرب فأعاد الفرنجي رسله مرة بعد اخرى وأرسل الى الملك العادل اخى صلاح الدين في تقرير الهدنة فأشار هو وجماعة من الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوا صلاح الدين ما عند العساكر من الضجر

والملل وما قد هلك من اسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجي انما طلب الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج الى البقاء هنا سنة اخرى فيعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول في هذا المعنى فأجاب صلاح الدين حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين من الفرنج باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس ومن جملة ما قال لصلاح الدين ما عمل احد في الاسلام مثل ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فانا أحصينا من خرج الينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة الف مقاتل ما عاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلته انت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة اذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وعادت كل طائفة الى بلادها ورجع ملك انكلترا الى بلاده وأقام بالساحل الشامي ملكا على الفرنج وعلى البلاد التى بأيديهم الكند هنرى وصار صلاح الدين الى القدس وصام به رمضان ثم سار الى دمشق في شوال وفرح الناس به لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام وكانت هذه الهدنة من لطف الله بالمسلمين لان الله لما علم قرب وفاة صلاح الدين قدر وقوع هذه الهدنة لانه لو توفي صلاح الدين في مدة الحرب لزاد طمع الفرنج في بلاد الاسلام وانتشر شرهم وربما انه لا يوجد بعده ما يقوم مقامه وكانت وفاة صلاح الدين بدمشق في السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩ تسع وثمانين وخمسمائة بعد أن مرض اياما وكان رحمه الله عالما صالحا حليما حسن الاخلاق متواضعا صبوراً كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحاته تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتاً واحدة ولم يخلف دارا ولا عقارا ولم يوجد في خزائنه غير سبعة واربعين درهما ودينارا واحد صورى وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة وكان مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه الشام قريبا من تسع عشرة سنة وكان رحمه الله مشغوفا بالانفاق في سبيل الله تعالى فكان اذا عقر او جرح لاحد من العسكر فرس في سبيل الله يعوضه مثله ويزيده في عطائه وحسبوا ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين فكان اثنى عشر الف رأس وكان كريماً شديد الكرم كثير البذل للاموال لا سيما للمجاهدين ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب لانسان من المجاهدين أو موعود به وصاحبه ملازم في طلبه وما حضر للقتال الا واستعار فرسا يقاتل عليه فاذا نزل عنه جاء صاحبه وأخذه وكانت

مجالسه حافلة بأهل العلم والدين والفضل يحب مناظرة العلماء بين يديه ويشاركهم في المناظرة احسن مشاركة في المسائل الغامضه حتى صار لمداومة مجالسته للعلماء أعرف منهم بالاحكام الفرعية والادلة الشرعية وكان كثير الاكرام للعلماء متواضعا لهم مواظبا على الفرائض الخمس لم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان متوكلا على الله لا يفضل في عزمه يوما على يوم وكان كثير التغافل عن سيآت خدمه واتباعه وزلاتهم يسمع ما يكره ولا يتأثر به ولا يخبر بخطيئة من اخطأ منهم حتى ان بعض مماليكه رمى بعضا آخر بسر موزة فأخطأته ووقعت قريبا من السلطان وكادت تصيبه فالتفت الى الجهة الاخرى تغافلا عنها وصار يكلم من بجانبه وكان طاهر المجلس طاهر اللسان قال العماد الكاتب مات بموته الرجال وفات بفواته الافضال وغاضت الايادى وفاضت الأعادى وانقطعت الارزاق وادلهمت الآفاق وفجع الزمان ورزئ الاسلام وكانت مجالسه كلها مجالس الآخرة لانها اما في اقامة عدل ينشره أو جهاد يتجهز له أو سماع الاحاديث النبوية أو بر يوليه أو احسان يوصله الى ذوى الحاجات وارباب الضرورات الى غير ذلك من انواع البر وابواب القربات مع ما انطوى عليه من السجايا الجليلة والاخلاق الطاهرة والحياء الذى لا مزيد عليه والسخاء الذى لا يلحق فيه وكان يهب الجزيل ولا يراه بل يرى الفضل لآخذه وكان دائم البسر والبشاشة لا يرد سائلا ولا يصد نائلا ولا يخجل قائلا ولا يخيب آملا سأل مرة بعض الامراء عن تخلفه عن غزوة تخلف عنها فذكر دينا عليه فأحضر الغرماء وتحمل الدين عن ذلك الامير وكان ذلك الدين اثنى عشر الف دينار وكان كل مماليكه وخواصه وجميع امرائه واجناده يقتدون به في اخلاقه وكرمه وحسن سجاياه فكانوا اعف من الزهاد وا كثر عبادة من العباد قال العماد الكاتب ورأى لى يوما دواة محلاة بشئ يسير من الفضة فأنكرها فقلت له ان الامام أبا محمد الجوينى ذكر وجها في جواز مثل ذلك فقال لى لا تتبع الرخص فلم أكتب بها بعد ذلك وكان كثير الاوراد والاذكار وتلاوة القرآن أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علما وعملا قلبا وقالبا قد هجر لذة الدنيا وزينتها وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها فكان كالاسير في هذه الدار لا يؤمل بفك الاسر عنه الا في دار القرار وكان لشدة حبه لسماع الحديث النبوى على قائله أفضل الصلاة والسلام يسمعها بين الصفين وسبب ذلك انه قيل له انك يامولانا سمعت الحديث في جميع المواطن الشريفة الا بين الصفين حين القتال فأحضر جزأ من أجزاء الحديث وقرئ عليه هو وجنده بين صفين خيل بين الصفين يمشون تارة ويقفون أخرى ورؤس تندر و رؤس تقصر وواظب على ملازمة ذلك وتكراره في كثير من مواقفه

وكان ذلك من أسباب النصر العظيم والفتح المبين وكان رحمه الله شجاعا من أعظم الشجعان قوي النفس والقلب شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر حتى كان يقابل بالجمع القليل من جنده الجيوش الكثيرة من الفرنج مع ان نجدتهم كانت أيضا متواصلة وعساكرهم متواترة وهو مع ذلك لايزداد الا قوة نفس وصبر ولقد وصل في ليلة واحد من الفرنج مايزيد على سبعين مركبا عند محاربة عكا وصار بعض أتباعه يعدون تلك المراكب من بعد العصر الى غروب الشمس وكلها كانت مشحونة بعساكر الفرنج ويخبرونه بهـا وهو مع ذلك لايزداد الا قوة نفس وشجاعة وشهامة قال القاضي ابن شداد ولما انعقد الصلح سألت بعض ملوك الفرنج وهو جالس بين يدي السلطان يوم انقطـاع الصلح عن عدتهم فقال خمسمائة ألف قلت فكم هلك منكم فقال أما بالقتـل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فكثير لا نعلم عـددهم وما رجع الى بلادهـم الا القليل وكان رحمه الله اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق صفوف العساكر من الميمنة والميسرة ويأمرهم بالتقدم تارة والوقوف تارة في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاورهم ليدبر الامر على مايقتضيه الحال وكان رحمـه الله له كمال المعرفة بتدبير الحرب ومكايده وما استعظم عدوه قط ولا استكثره لشدة توكله على الله تعالى وقوة وثوقه به وكان رحمه الله تعتريه أمراض في أيام منازلته للعدو فكان شديد الصبر ولا يخل المرض بشيء مما يلزمه واعتراه أيام محاربة عكا دماميل كثيرة من وسطه الى ركبتيه بحيث أنه لايستطيع الجلوس فكان لم يزل متكئاً على جنبيه وهو في الخيمة وامتنع من الجلوس على الطعام مع من كان يجالس معهم لعجزه عن الجـلوس فكان يأمر بالطعام ان يفرق بين الناس وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى الظهر يطوف على الاطراف ويدبر أمر جيوشه صابراً على شـدة الالم وقوة ضربان الدماميل فكانوا يتعجبون من شـدة صبره فكان يقول لهم اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل وهـذه كرامة عظيمة أكرمه الله تعالى بها وكان رحمه الله اذا جاء الشتاء يعطي الجيش دستورا فيتفرقون ويبقى هو في طائفة يسـيرة من جنده في مقابلة العدو اكثر ممن معـه بأضعاف مضاعفة وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الله شـديد القيام على المبتدعة والفلاسفة لاتأخذه في الله لومة لائم وكان حسن العشرة نظيف الاخلاق جميل المحاضرة طيب الفاكهة حافظا لانسـاب العرب ووقائعهم عارفا سيرهم وأحوالهم عالمـاً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث ان محاضره يستفيد منه مالا يسمعه من غيره ومن محاسن أخلاقه مع خدمه أنه طلب الماء مرة فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم

يحضر فقال يا أصحابنا قد قتلني العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديداً أرجف عليه بالموت فلما برئ منه ادخل الحمام فكان الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شئ على الارض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذر اليه فسكت عنه ومن كرمه أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ويكفي دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية مع ان أولاده الذين خلفهم كانوا سبعة عشر ولداً وبنتاً فلم يبال بكونه لم يترك لهم مالا يرثونه بعده ولا خلف داراً ولا عقاراً ولا ضيعة ولا بستانا وذلك لشدة زهده في الدنيا وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ولما انقضت دولة العيديين بمصر واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما يفوت الاحصاء ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيأ ومن تواضعه رحمه الله انه لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين وكان يحضر عنده الفقراء الصوفية ويعمل لهم السماع المعروف عند الصوفية فاذا قام أحد منهم لتواجد يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ ذلك الفقير ولم يلبس قط شيأ مما ينكره الشرع ولما مرض مرض الموت حضر عنده ليلة من تلك الليالى القاضى الفاضل وكان القاضى الفاضل أعظم وزرائه وحضر أيضا بعض أولاده والعماد الكاتب قال العماد فأجلسناه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حره فغير وعرض عليه ثانيا فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله لا يمكن أحدا تعديل الماء قال العماد فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد منا البكاء لما شاهدناه من مرضه والقاضى الفاضل يقول انظر الى هذه الاخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره وكان رحمه الله له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذا عرفه متقيا متجنبا الاثم وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ولم يكن يلتفت الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا لا يتعيف ولا يتطير ولا يتعين ولا يتحير بل اذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بفضيلة اسمع ... وما زال ناصرا للتوحيد وقامعا جميع أهل البدع بالتبديد شافعى المذهب

أصولاً وفروعاً مستقلا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه ويقصي أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستفادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون في عدله والعالمون في نصه والبلاد في أمنه والعباد في منه وكان رحمه الله حسن العقيدة وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع معتقد أهل السنة والجماعة فحفظها وكان يحفظها الصغار من أولاده وكان من القائمين بالليل للتهجد وكان يحب سماع القرآن العظيم ويشترط على من يتخذه اماما ان يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان رحمه الله خاشع القلب سريع الدمعة اذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالفا انه ما انفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد لصدق وبر في يمينه ولقد هجر في محبة الجهاد الاهل والاولاد والوطن والمسكن وسائر الملاذ وقنع من الدنيا في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ذات ريح وكادت تقتله لما وقعت عليه ولا يزيده ذلك الا رغبة ومسابرة واهتماما ومناقبه رحمه الله كثيرة قد أفردت بالتأليف اللهم اجعل مقره جنات النعيم وأقر عينه بالنظر الى وجهك الكريم ياارحم الراحمين اجمع بيننا وبينه في دار كرامتك مع الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو مع ماجمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمود نور الدين بن زنكى فان السلطان محمود نور الدين هو الذى اقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين وقد تقدم الوعد بذكر ترجمة للسلطان نور الدين المذكور عند ذكر وفاته سنة خمسمائة وتسع وستين وترجمته واسعة افردت بالتأليف ولنذكر نبذة منها لعلنا ننال ببركة السلطانين أنواع التشريف وقد تقدم ان السلطان نور الدين هو ابن عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر كان جده آق سنقر من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى ولاه الولايات الجليلة ثم بعده ابنه عماد الدين زنكى ولى كثيرا من الولايات وفتح اعظم الفتوحات ثم صار الامر بعده لولده السلطان محمود نور الدين فكان له ولاية حلب والموصل وغيرهما من الممالك وفتح كثيرا من البلاد التى استولى عليها النصارى وبعث السلطان صلاح الدين الى مصر فنزعها من ايدى العبيديين فمما ذكروه في ترجمة السلطان نور الدين انه كان عالما فقيها على مذهب الامام ابى حنيفة رضى الله عنه عابدا ورعا زاهدا فمن زهده وورعه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذى يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته الضيق فأعطاها ثلاثة دكاكين

في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو عشرين دينارا فاستقلها فقال ليس لي الا هذا وجميع مايدي أنافيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه أورادحسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وسمع الحديث واسمعه طلبا للأجر من الله تعالى وأماعدله فانه لم يترك في ممالكه على سعتها مكسا ولا عشورا بل ابطلها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان الولاة قبله قدجاروا في ذلك غاية الجور حتى وصلوا الى أنهم يأخذون في المائة خمسة وأربعين فأبطل ذلك كله فبارك الله له في الغنائم وفتح له الفتوحات حتى انتزع هو والسلطان صلاح الدين كثيرا من الممالك الشامية وغيرها من أيدي النصارى وكانوا قد استولوا عليها قريبا من مائة سنة وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند احكامها وله في ذلك اخبار عجيبة فمن ذلك ان بعض رعيته ادعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة وشكاه على القاضي الذى اقامه هو لتنفيذ الاحكام الشرعية فاستدعاه القاضي فحضر مجلس الحكم وقال للقاضي انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيري وساوى خصمه في المجلس وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال أشهدوا أنى قد وهبت لخصمى هذا كل الذى حاكمني فيه وقد كنت اعلم انه لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته فحيث ظهر ان الحق لي وهبته له وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتفرق الكلمة والا فقد انقاد الى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر بن الخطاب وعلى بن ابي طالب رضي الله عنهم ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما كان يوجد في غير ولايته وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملا ولقب بأمره بالملا لان الشيخ عمر المذكور كان يملى تنانير الجص بأجرة يتقوت منها فكان لايأكل الا من كسب يده وذلك حلال وكان نازلا بالموصل وكان السلطان نور الدين يرسل اليه من حلال من يأتيه منه بشئ يفطر عليه في رمضان يكون حلالا فكان الشيخ عمر ملا يرسل لسلطان نور الدين أكياسا فيها الفتيت والرقاق فكان نور الدين يفطر عليه

وكان اذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا ويقبل قوله ويعمل باشارته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة ان يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا اشارته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه فاتفق أنه كثر الدعار وارباب الفساد بالموصل والجزيرة فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له انه قد كثر الدعار وارباب الفساد ولا يستقيم الامر الا بشئ من السياسة كالقتل والصلب واذا اخذ مال انسان في البرية من يجئ يشهد له فلو كتبت الى السلطان نور الدين ان يأذن لنا في شئ من السياسة فوافقهم الشيخ عمر الملا وكتب للسلطان نور الدين يسأله في أن يأذن لهم في شئ من السياسة التى يمتنع بها الدعار وأهل الفساد وقال اذا أخذ مال انسان في البرية من يجئ يشهد له فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره ان الله تعالى خالق الخلق وهو اعلم بمصالحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه كامل فيها ولو علم ان الشريعة تحتاج الى زيادة لا تمام المصلحة اشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى فلما وصل الكتاب الى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا في كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد فعرفوا أن ماقاله السلطان نور الدين هو الصواب وان الصلاح انما يكون بالعمل بالشريعة وكان السبب في اسقاطه المكوسات ان وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى رأى في منامه انه يغسل ثيابه فقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمر بكتابة اسقاط المكوسات وقال هذا تفسير منامك وكان في تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك ان يجعلوه في حل وقال والله ما أخرجناها الا في جهاد عدو الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وكان رحمه الله لا يفعل شيأ من الاعمال الا بنية صالحة من ذلك انه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل في صورة اللعب ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكر والفر فكتب اليه الشيخ عمر ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة فكتب اليه نور الدين والله مايحملنى على ذلك اللهو واللعب وانما نحن في ثغر والعدو قريب منا وبينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب في الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذى يحثنى على ذلك قال ابن الاثير فانظر الى هذا الملك العظيم العديم النظير الذى يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله

فان من يجيء الى اللعب بنيـة صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل في العالم مثله وفيه دليل على انه كان لايفعل شيأ الا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين بعلمهم وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبويه مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفا على قراءة القرآن حريصا على فعل الخـير عفيف البطن والفرج مقتصداً في الانفاق متحريا في المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره وأشهى ماإليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد الى سنة يتبعها قال ابن الاثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى زمننا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه فلو كان في أمة لافتخرت به أما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين واذا أراد أخذ شيء من الاموال المرصدة لمصالح المسلمين أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحل له من ذلك فيأخذ ماأفتوه بحـله ولم يتعده الى غيره البتة ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضـة ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن ادخالهـا الى بلدها وكان يحد شاربها الحد الشرعي وكل الناس عنده فيه سواء وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ينام ويستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة الى بكرة فيظهر ويشتغل بمهمات الدولة ومصالح المسلمين وأرسلت له زوجته تخبره بأن النفقة قلت عليها ولم يكفها ماكان قرره لها وطلبت منـه الزيادة فتنكر واحمر وجهه وقال للرسـول من أين أعطيها مايكفيها والله لاأخوض النار في هواها ان كانت تظن ان الذى بيدى من الاموال لى فبئس الظن انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال للرسول لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها وكان يحصل منها قدر قليل وذلك نحو عشرين دينارا وحكى انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبينماهم معه في حديثها اذ قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له فقيل انها لاتصلح لهـذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له ليبيعها وينتفع بثمنها فاني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة فسلمت الى ذلك الصوفي فسار بهـا

الى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة وقيل باعها في همدان بألف دينار وكان الملوك قبله كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لايعرف معروفا ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيـه وألزم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به عماله ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبي اليه الاموال الكثيرة فليذكر نبي الله سليمان عليه السـلام فانه مع ملكه كان سيد الزاهدين في زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضر موت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين من جميع العالمين وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما فمن عدله انه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشراً بل أطلقها رحمـه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل واعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليـه وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان القوى والضعيف عنده في الحق سواء وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلا جرم سار ذكره في شرق الارض وغربها ومن عـدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن مسحرون لها نمضي أوامرها حكى أنه دخل يوما الى خزانة المـال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل له ان القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال ان هذا المـال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده واعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه فأرسـله متولى الخزانة الى كمال الدين فرده كمال الدين الى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني انه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فانكر على النواب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال الى أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسـول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال وأما أنا فرقبتي دقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى يعاد قولا واحدا ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب مايحكى ان انسانا كان بدمشق غريبا استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله تعالى فلما توفي تعدى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكا فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شـق ثوبه وهو يقول يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالايحصى

وكلهم يبكى ويصيح فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له أحفظ البلد والرعية والاخرج عن يدك فارسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين والناس معه وطيب قلبه وأزاح ظلامته ووهبه شيأ انصفه فبكى أشد من بكائه الاول فقال له صلاح الدين لم تبكى قال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكلما ترى فينا من عدل فنه تعلمناه ومن عدل نور الدين رحمه الله انه بنى دارا للكشف سماها دار العدل فكان يجلس فيها لفصل الخصومات في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما فانه اصبر الناس في الحرب واحسنهم مكيدة ورأيا واجودهم معرفة بأمور الاجناد واحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك وكان الناس يقولون انهم لم يروا على ظهر الفرس احسن منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان اذا حضر الحرب أخذ قوسين وترسين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم ادركها سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فانك عمادهم ولئن أصبت والعياذ بالله تعالى في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف واخذت البلاد فقال يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذى لا اله الا هو وكان رحمه الله يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ماملكه من بلادهم بحسن تدبيره في اعمال الحيل عليهم ومن جيد الرأى ما سلكه مع سليح بن ليون ملك الارمن فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً وكان يقاتل به الافرنج وكان يقول انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة وليس لنا طريق اليها وهو يخرج منها اذ أراد فينال من بلاد الاسلام فاذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيأ من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج ولما توفي نور الدين وملك غيره وغير هذا الطريق ملك متولى الارمن بعد سليح كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه وكان رحمه الله يكرم العلماء ويكثر الاحسان اليهم ويبالغ في تعظيمهم حتى انه اذا دخل عليه الفقيه او الصوفي او الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه مع أنه كان له هيبة عظيمة في قلوب الملوك والامراء وما كان احد من الامراء يقدر ان يجلس في مجلسه الا بعد الاذن له في ذلك وكان يكاتب العلماء بخط يده وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا واذ اعطى احدا من العلماء اوالفقراء شيأ يقول ان

هؤلاء لهم في بيت المال حق فاذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء لاتنتهك فيه الحرم ولا يذكر فيه الا العلم والدين واحوال الصالحين والمشاورة في امر الجهاد وقصد بلاد العدو ولا يتعدى هذا وقد حضر الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجالسين فيه ما لاحد له فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعه فقام وبقى مدة لايحضر المجلس الصلاحى وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال نزهت نفسى عن مجلسك فانى رأيتـه كبعض مجالس السوقة لايستمع فيه الى قائل ولا يرد فيـه جواب متكلم وقدكنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤسنا الطير تعلو الهيبة والوقار فاذا تكلم انصتنا واذا تكلمنا استمع لنا فأمر صلاح الدين أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ ابن عساكر قال ابن الاثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله تعالى مضبوطة محفوظة وأما حفظ اصول الديانات فانه كان مراعيا لها لا يهملها ولا يمكن أحداً من الناس من اظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ في ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والاذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه مايناقضه وهو الاصل وحكي ان انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر النسك والزهد وقد كثر أتباعه وأظهر شيأ من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه فطيف به في البلد جميعه ونودى عليه هذا جزاء من اظهر في الدين البدع ثم نفاه الى حران فأقام بها الى أن مات وكان لنور الدين رحمه الله مجالس يقرأ فيها كتب الحديث مع جماعة من العلماء فمر به يوما ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفه وكان من عادة الجند انهم يربطون سيوفهم بأوساطهم فلما سمع هذا الحديث أبطل ما كان عليه الجند وخرج من غد ذلك اليوم متقلداً سيفه فاقتدى به الجند وفعلوا مثل مافعله فهذا يدل على انه لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل سنة تبلغه عنه وأمر رحمه الله باسقاط ألقابه في الدعاء له على المنبر وطلب من ابن القيسرانى أن يكتب له صورة ما ينبغى أن يدعى له به فكتب له اذا أراد الخطيب أن يدعو له يقول اللهم أصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد في سبيلك المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه مقصودى ان لايكذب

على المنبر أنا محل بكل مايقال لا افرح بما لا أعمل وكتب في آخر الرقعة ثم تبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم أسعده اللهم انصره اللهم وفقه من هذا الجنس ودخل في أيام نور الدين الى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف ولدا صغيرا ومالا كثيرا فكتب بعض من كان يحاب الى نور الدين يذكر له أنه مات تاجر موسر وخلف ولدا صغيرا وخلف عشرين ألف دينار وحسن له أن يرفع المال الى الخزانة وينفق على الصغير شئ يسير ويمسك الباقي الى الخزانة فكتب على رقعته أما الميت فرحمه الله وأما الولد فأنشأه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعي فلعنه الله وكى السلطان نور الدين منقبة ما ذكره العلامة السيد السمهودى في تاريخ المدينة المسمى خلاصة الوفا في اخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم ان السلطان المذكور رأى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة يا محموداً نقذنى من هذين الشخصين وهما شخصان أشقران تجاهه فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر ذلك له فقال هذا أمر حدث بالمدينة النبوية ليس له غيرك فتجهز بمقدار ألف راحلة وما يتبعها وسار حتى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ثم أمر بكتابة أسماء الناس ليتصدق عليهم وتصدق باموال كثيرة ولا يعطى كل انسان الا بيده لينظر اليه وجاء ان يرى الشخصين الاشقرين اللذين أراه اياهما النبي صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق أحد ولم يشاهد فيمن حضر عنده الشخصين الاشقرين فسأل هل بقي أحد فقالوا لم يبق الا رجلان مجاوران من أهل الاندلس نازلان في الرباط الذى في قبلة حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فجدوا في طلبهما حتى أحضروهما فلما رآهما قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما فقالا جئنا للمجاورة فقال لهما أصدقانى وعاقبهما حتى أقرا أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكى ينقلا من بالحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهما ووجدهما قد حفرا الارض من تحت حائط المسجد القبلى لجهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب في بئر في الرباط وقيل كانا يجعلان التراب في محفظتيهما ويخرجان يلقيانه في الخارج فضرب اعناقهما عند الشباك الذى هو شرقى الحجرة خارج المسجد ثم أحرقهما بالنار وحفر خندقا حوالى الحجرة الشريفة وسكب فيه الرصاص والنحاس المذاب واستحفظه غاية الاستحفاظ ثم ركب السلطان نور الدين راجعا الى الشام وكان السلطان محمود المذكور موصوفا بكثير من الصفات الحميدة وقد اتسع ملكه وخطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن ويذكرون اسمه بعد ذكر الخليفة العباسي والسلطان السلجوقى وترجمته واسعة قد أفردت بالتأليف وفي هذا القدر كفاية وانما ذكرنا ترجمته وترجمة السلطان صلاح الدين لغرابة وجودهما في الزمن

الذى كثر فيه جور الملوك والسلاطين ليعلم أنهما فتحا البلاد وانتزعاها من النصارى بالعدل لاسيما في بيت المال وليعلم أيضاً أن الخلفاء الراشدين انما فتحوا البلاد بالعدل في بيت المال وقد ذكر كثير من العلماء ان الدعاء مستجاب عند قبر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين اللهم اجعل مقرهما جنات النعيم وأقر أعينهما بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين واجمع بيننا وبينهما في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اه ولنرجع الى تمام الكلام على ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات فنقول بعد وفاة السلطان صلاح الدين وقع اختلاف كثير بين أولاده ليس هذا محل ذكره وصار ملكه مقسما بين أولاده وأخيه الملك العادل ثم تغلب أخوه عليهم فمنهم من انتزع الملك منه ومنهم من مات في ملكه ثم صفا الامر لاخيه فقسم الممالك بين أولاده كما سيأتي ذكره ولما مات صلاح الدين كان ملك مصر لولده الملك العزيز عثمان فجدد الهدنة من الفرنج وزاد في مدة الهدنة واستمر الامر الى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائه وكان الملك الافضل على بن صلاح الدين ملك دمشق بعد وفاة أبيه فانتزعها منه أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وجعل فيها عمه الملك العادل وأعطى الافضل صرخد وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك الى الملك العادل أخى صلاح الدين وكان بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك فأرسل الفرنج الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تنجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة سنة ٥٩٣ وكان أكثرهم من ملك ألمان فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب العساكر وكذا من بقية الاطراف واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال سنة ٥٩٣ ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التى بها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف وأخذوا كل من بها اسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بما وقع فعادوا وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فعزم المسلمون على تخريب بيروت فسار اليها الملك العادل بجمع من العسكر فهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز

بينهم الليل وسار الفرنج سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقى منها فان صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين ثم أتاهم الخبر ان الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكراً يحمونه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة ٥٩٤ أربع وتسعين وخمسمائة وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل الى الملك العزيز بمصر يطلب منه الحضور بنفسه فسار العزيز مجدا بمن معه من العساكر فلما سمع الفرنج بوصوله رحلوا الى عكا وعاد العزيز الى مصر وبقى العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج وانعقد بينهم صلح وعاد العادل الى دمشق

﴿ ذكر ملك الفرنج القسطنطينية ﴾

في سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة ملك القسطنطينية في شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم تزوج أخت ملك الفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا وكان لملك الروم أخ فوثب الاخ على الملك فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولد الملك الى خاله ملك افرنسيس مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ بيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محارباً لهم فوقع القتال بينهم في ذى القعدة سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخل الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى أطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان في الروم من يريد الصبي فالقوا النار في البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من ابواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام في البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضا فعظم

ذلك على الروم وتحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبي الذى تملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد واغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ٦٠٠ ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فأرسلوا الى السلطان زكى الدين السلجوقى صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لايظهر أمرهم فتواطؤاهم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فأصبح الروم كلهم مابين قتيل أو فقير لايملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى أيا صوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بأيديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة وكان رؤساء الفرنج الذين ملكوا القسطنطينية ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وكان شيخا أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والثالث يقال له كندا فلند وهو أكثرهم عددا فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتى ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة ملكوه عليها وعلى مايجاورها وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة أقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسى البلاد التى هى في الخليج مثل أزنيق ولازيق ولكن لم يحصل لاحد منهم شئ غير الذى أخذ القسطنطينية وأما الباقى فلم يسلم له من به من الروم بل دافعوا عما بأيديهم وبقى لهم واما البلاد التى كانت لملك القسطنطينية شرقى الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين السلجوقى ومن جملتها زنيق فانه تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه كسكرى وبقيت بيده ولم تزل القسطنطينية بأيدى الفرنج من هذا التاريخ الى سنة ستين وستمائة فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت لملكهم ولما ملك الفرنج القسطنطينية في السنة المذكورة أعنى سنة ٦٠٠ تقوى ملكهم بالشام فخرج كثير منهم من القسطنطينية في البحر الى الشام وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس حرسه الله فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحى الأردن وسبوا وفتكوا في المسلمين وجاء اسطول منهم

الى قوة من الديار المصرية فاستولوا عليها ونهبوها خمسة أيام وعساكر مصر في مقابلتهم وبينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم سفن وكان الملك العادل بدمشق فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر فساروا ونزل من القرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على بعض الاطراف منها فأخذوا كل من بها ودام الأمر في اغارات بينهم وبين المسلمين الى ان انقضت السنة ودخلت سنة احدى وستمائة فانعقد صلح بينهم وبين الملك العادل على ان دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام يبقى له ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماه فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين بن أخي صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان في قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتال الفرنج فقتلوا منهم جماعة ثم عاد الفرنج الى عكا بعد ان انعقد صلح بينهم وبين صاحب حماه وفي سنة ٦٠٣ ثلاث وستمائة ملك غياث الدين السلجوقي أنطاليه باللام مدينة للروم على ساحل البحر وهي غير أنطاكية بالكاف وكان تملكه لها بعد قتال وحصار لأهلها ثم قتل من كان فيها من الفرنج

ذكر غارات الفرنج بالشام وحصن الأكراد

في سنة ٦٠٤ أربع وستمائة كثر الفرنج الذين بطرابلس الشام وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركو قوة ولا قدرة على دفعهم ومنعهم فاستنجد بالملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر غازى فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فحاصرها وغار على أطرافها فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من اطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص ثم منها الى طرابلس وحاصر موضعا منها يسمى القليعات ثم ملكه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب واحرق وسبى وغنم وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم يتم ودخل الشتاء فجعل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في ردما أخذوه ويقول له نحن في صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لى عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى

صاحب عكا فأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل بينهما حال فسار بالعساكر وفعل بعكا ماذكرنا فأجابه حينئذ صاحب عكا الى ماطلب وأرسل الاسرى ثم لم تزل الوقائع تتوالى وتتتابع والصلح يتم تارة وينقطع أخرى الى أن دخلت سنة أربع عشرة وستمائة فحصلت وقائع شتى

ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى مصر وملكهم دمياط

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وحاصلها أنه في سنة أربع عشرة وستمائة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال الا أن المتولى لها كان صاحب رومية البابا لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لايرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر كل ملوك الفرنج ان يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى الدوبرز وسار الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه في شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه في قلة بالنسبة اليهم لان عساكره كانت متفرقة في البلاد فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد في تجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم ان الفرنج لايقدمون عليه فلما أقدموا كان اقدامهم على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل مافي بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى واطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى مالا يحصى كثرة سوى ماقتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا فيها ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذى سلم من تلك البلاد وكان محما قدر على النجاة ولما سار العادل الى مرج الصفر رأى رجلا في طريقه يحمل شيأ وهو يمشى تارة ويقعد تاره يستريح فعدل العادل اليه وحده

فقال له ياشيخ لاتعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال ياسلطان المسلمين أنت لاتعجل فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل قال ابن الاثير وبالجملة فالذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس يمنع الفرنج عن بيت المقدس ولما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوك الفرنج فعادوا عن القلعة وتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار مصر فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى أن ألحقها بالارض لانها قريبة من عكا يتعذر حفظها

ذكر حصر الفرنج دمياط الى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا في البحر الى دمياط فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بنى المسلمون في النيل برجا كبيرا منيعا وجعل فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها من أقاصي ديار مصر وأدانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات وأبراجا يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج الذى للمسلمين في النيل ليقاتلوا من فيه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يضروا منه بشئ وكسرت آلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل

عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التى كان فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها وكانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شئ لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لايصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل ان الملك العادل والد الملك الكامل توفي بالشام في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة فلما جاء خبر وفاته لابنه الملك الكامل ضعفت نفوس الناس لان الملك العادل هو السلطان في الحقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا أنهم تحت حكمه والامر اليه وهو الذى ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون له ويطيعونه لاسيما الاكراد فاتفق هذا الامير مع غيره من الامراء ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الملك الكامل ففارق المنزلة ليلا مع بعض أصحابه وسار الى قرية يقال لها أشمون طناح فنزل عندها فأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شئ من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا أحدا من المسلمين على شاطئ النيل كجارى عادتهم فبقوا لايدرون ما الخبر واذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم في العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما في عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج قد ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل بعد هذه الحركة بيومين وصل الى أخيه الكامل

والناس في أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر ابن الملك العادل ولم يمهل الله تعالى ابن المشطوب بل أخذه أخذة رابية فانه بعد اتصاله بالملك الاشرف والتحاقه بجنده وقعت منه خيانة فقبض عليه وحبسه الى أن مات ولما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا في الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط انها لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها براً وبحراً وعملوا عليها خندقا يمنعهم ممن يريد من المسلمين وكانت هذه عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا صبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم نحو ثمانية أشهر من أواخر ذى القعدة الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد من هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا السرايا في كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرع الفرنج في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى انها بقيت لا تكاد ترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب بيت المقدس في ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة الخسف في شرق الارض وغربها لأن التتر أقبلوا من المشرق حتى وصلوا الى نواحي العراق واذربيجان وايران وغيرها وأقبل الفرنج من الغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على ان تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من

كل جانب ولو مكنهم الملك الكامل من الجلاء لتركوا البلاد خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى أخويه الملك المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار الملك المعظم بنفسه الى الملك الاشرف فرآه مشغولا بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن يطيعه فعذره وعاد عنه وبقي الامر كذلك مع الفرنج الى سنة ثماني عشرة وستمائة ثم ان الملك الاشرف زال عنه الخلاف ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثماني عشرة وستمائة علم الملك الكامل بزوال المانع للاشرف عن انجاده فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار الملك الاشرف بعساكره الى دمشق ثم سار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمونه بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس انهم يملكون الديار المصرية فلما سمع الملك الكامل بقرب أخيه الملك الاشرف فرح بذلك فلما وصل الى مصر توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار الى دمياط ظنا منه ان أخويه وعسكريهما قد نازلوا دمياط وقيل بل أخبر في الطريق أن الفرنج قد توجهوا الى دمياط فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى الخليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا شواني الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجل وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم والرسل مترددة بينهم وبين الفرنج في تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينما الامر في هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لا تقوم لهم ولا تقدر على مقابلتهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين

الى الارض التى عليها الفرنج فحجروا النيل وخرقوا مواضع منه حتى خرج منه ماء كثير وسال كالبحر فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبر العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق في تلك الحال انه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليه شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمركب المذكور وما معه من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقتهم دمياط في أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وارادوا الزحف على المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين مايشتهون لكثرة الوحال والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا انهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وان المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير له وهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط كما تقدم فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط وكان أولئك الملوك الذين صاروا رهاين كثيرين منهم فليب ملك الفرنسيس ونائب بابا صاحب رومية وملك عكا وكندريش وغيرهم وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط في تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ومما اتفق انه لما انعقد الصلح وحضر ملك الفرنسيس وملوك الفرنج عند الملك الكامل محمد وكان في مجلس الكامل أخواه الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى وكثير من ملوك الاسلام قام راجح الحلى وأنشد قصيدة بليغة تهنئة للملك الكامل محمد وفيها بيت ظريف وهو قوله أعاد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسى جميعا يخدمون محمدا

وأشار الى الملك المعظم عيسى والملك الاشرف موسى والملك الكامل محمد ولما أراد ملوك الفرنج الحضور عند الملك الكامل طلبوا منه رهينة تكون عندهم فأرسل لهم ولده الملك الصالح أيوب وعمره خمس عشرة سنة ثم لما تم الصلح وتسلم المسلمون دمياط ارتحل ملك الفرنسيس فليب ومن معه من الملوك الى بلادهم وكانت مدة ملك فليب على الفرنسيس ثلاثا وأربعين سنة وهلك سنة ستمائة وعشرين هجرية ولما دخل المسلمون دمياط وأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التي بالشام ليعيدوا لهم دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد التي بالشام بأيديهم على حالها فالله تعالى هو المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم أيضا شر التتر كما سيأتي

﴿ذكر وفاة الملك العادل التي تقدمت الاشارة اليها﴾

قد تقدم أن الفرنج لما دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ساروا في البحر الى دمياط ووصلوها في صفر وكان الملك العادل بالشام في مرج الصفر ثم انتقل الى عالقين ومرض وتوفي سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ونقل الى دمشق ودفن بها وكان ابنه الملك الكامل أقامه هو ملكا في مصر نيابة عنه وكان وقت وفاة أبيه مشتغلا بقتال الفرنج النازلين على دمياط كما تقدم وكان عمر الملك العادل لما توفي خمسا وسبعين سنة لان ولادته كانت سنة أربعين وخمسمائة وقيل ثمانية وثلاثين وخمسمائة وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل حازما للامور صالحاً محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لارباب السنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقويس وذكر اسمه في خطبته وسيره اليه من بلاد خراسان وكان الملك العادل في حياة أخيه صلاح الدين تابعا له تحت طاعته ينقله في الولايات وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وقع بينه وبين أولاد أخيه صلاح الدين أمور يطول الكلام بذكرها الى أن استقل بمملكة الديار المصرية والشامية وكان استقلاله بمملكة الديار المصرية سنة ست وتسعين وخمسمائة واستقلاله بمملكة الديار الشامية سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وملك بلاد اليمن سنة اثنتي عشرة وستمائة وسير اليها ولد ولده الملك المسعود ابن الملك الكامل ثم ان الملك العادل لما انتزع الملك من أولاد أخيه صلاح الدين واستقل به قسم ممالكه بين أولاده وكان رجلا مسعودا وكذا أولاده لم يخالف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد وكان يتردد بينهم

وينتقل اليهم من مملكة الى أخرى وكان بالغالب يصيف بالشام لاجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش في أرغد عيش وكان يأكل كثيراً خارجا عن المعتاد حتى يقال كما في تاريخ ابن خلكان انه كان يأكل وحده خروفا لطيفاً مشويا وخلف ستة عشر ولداً ذكرا غير البنات رحمه الله تعالى

(ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا وتملكهم بيت المقدس)

لما توفي الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل طمع الفرنج في الشام وكانت وفاة الملك المعظم سنة أربع وعشرين وستمائة في ذي القعدة وصار ملك دمشق لولده الناصر داود ثم انتزعها منه عمه الملك الكامل وأعطاه الكرك بدلا عن دمشق وبعد وفاة الملك المعظم خرج كثير من الفرنج من بلادهم القاصية الى بلادهم التي ملكوها في الشام عكا وصور وغيرهما فكثر جمعهم وكان معهم أمبراطور الالمان واسمه فردريك وقيل بل هو صاحب جزيرة صقلية ومعنى الامبراطور بلغة الفرنج ملك الامراء فاستولوا على صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين فملكوها وعمروا سورها وكان خرابا وأزالوا عنها حكم المسلمين فعظمت شوكتهم وقوى طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وكانت عند ملك انكلترا ولما بلغ الملك الكامل انهم يقصدون دمشق وبيت المقدس خرج بعساكره من مصر وترددت الرسل بينه وبين الامبراطور واستقرت القاعدة بينهما على الصلح ان المسلمين يسلمون للفرنج بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من اعماله ويكون باقي البلاد للمسلمين مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وكان سور بيت المقدس قد خربه الملك المعظم كما تقدم فلما تسلم الفرنج بيت المقدس شرط عليهم عدم عمارة السور واستعظم المسلمون تملك الفرنج بيت المقدس وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وكان تسلمهم اياه سنة ست وعشرين وستمائة وفي سنة ٦٢٨ ثمان وعشرين وستمائة انتهى تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وتوفي مؤلفه سنة ثلاثين ببلاده الموصل وفي سنة ثمان وعشرين أيضاً قصد الفرنج الذين بالشام مدينة حماة وهي من المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وكانت حينئذ بيد شهاب الدين أتابك تابع الملك العزيز بن الظاهر غازى بن صلاح الدين وكان شهاب الدين الأتابك مملوكا للسلطان الظاهر غازى فلما بلغه دخول الفرنج مدينة حماة سير اليهم العسكر فقاتلوا الفرنج وقتل كثيراً منهم وأخرجهم واسترد الأسرى والغنيمة وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة أغار الفرنج على ربض دير ساك وهي لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والاسر

وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤس الفرنج وكانت هـذه الوقعة من أعظم الوقائع وفي سنة خمس وثلاثين توفي الملك الكامل وأخوه الملك الاشرف موسى وكثر الاختلاف بين أولاد الملك الكامل وليس هـذا محل ذكره وكان الملك الكامل من أعظم الملوك وله مشاركة في العلوم وملك مصر أربعين سنة عشرين نيابة عن أبيه وعشرين استقلالا وتوفي وعمره ستون سنة

﴿ ذكر استرجاع بيت المقدس للمسلمين ﴾

في سنة سبع وثلاثين وستمائة قصد الناصر داود بن الملك المعظم القدس وحاصرها وفتحها وكان الناصر داود ابن الملك المعظم له ملك الكرك أعطاه اياه عمه الملك الكامل بعد ان انتزع منه دمشق كما تقدم فصار بيت المقدس له أيضاً لما فتحه وتقدم ان تسليم بيت المقدس للافرنج كان سنة ست وعشرين فتكون مدة بقائه تحت أيديهم الى أن استرجعه الناصر داود احدى عشرة سنة ومن غريب الاتفاق ان الناصر صلاح الدين استخلص بيت المقدس أولا والناصر داود استخلصه ثانيا ولذلك قال جمال الدين بن مطروح

المسجد الاقصى له آية ٭ سارت فصارت مثلا سائراً ٭ اذ غدا للكفر مستوطناً
أن يبعث الله له ناصراً ٭ فناصر طهره أولاً ٭ وناصر طهره آخراً

وفي سنة اثنتين وأربعين وقع اختلاف بين صاحب دمشق وهو الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل وبين ابن أخيه صاحب مصر وهو الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل وأدى ذلك الاختلاف الى القتال فلما كان القتال بينهما استعان صاحب دمشق بالفرنج الذين في عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بعسكر دمشق ووصل لقتالهم عسكر مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج وعسكر دمشق واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وبيت المقدس انتزعه من الناصر داود ووصلت الاسرى والرؤس الى مصر ودقت بها البشائر عدة ايام ثم استولى الملك الصالح أيوب على دمشق سنة ثلاث وأربعين وستمائة وانتزعها من عمه الصالح اسماعيل ابن الملك العادل وفي سنة خمس وأربعين وستمائة فتح الملك الصالح عسقلان وطبرية بعسكر جهزه مع فخر الدين بن الشيخ وقد كان تسليمها الافرنج سنة احدى وأربعين وستمائة فاستمرتا الى الآن فتحتا

﴿ ذكر ملك الفرنج دمياط مرة أخرى غير المرة السابقة ﴾

في سنة سبع وأربعين وستمائة سار لويز ملك الفرنسيس في خمسين ألفا وقصد دمياط وحاصرها ثم ملكها في شهر صفر وكان ذلك في مدة سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل فركب في عصايب المسلمين لقتالهم فحاصرهم واستمر محاصراً لهم الى أن

توفي في شعبان وكان ولده توران شاه غائباً بحصن كيفا فقام بالامر شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح الى أن حضر ابنه توران شاه فقام مقام أبيه وتقدم الفرنج عن دمياط الى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان وقعة عظيمة ثم نزل الفرنج شرمساح ثم قربوا من المسلمين ثم كبسوا المسلمين على المنصورة ثم اشتد القتال بينهم وبين المسلمين برا وبحرا فكان النصر أخيرا للمسلمين بعد ان كان أولا للفرنج وكانت لهم مراكب كثيرة بالبحر وفي حسن المحاضرة للجلال السيوطي ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان مع عسكر المسلمين فقال بأعلى صوته مشيرا الى الريح ياريح خذيهم فجاءت ريح قوية على مراكب الفرنج فكسرتها وحصل الفتح والنصر للمسلمين وغرق أكثر الفرنج وصرخ صارخ في المسلمين قائلا الحمد لله الذى أرانا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر الله له الريح وحمل المسلمون على الفرنج فردوهم على أعقابهم وأخذ المسلمون من مراكبهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوانى فضعف الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض السواحل الشامية ويتركون دمياط فلم تقع الاجابة الى ذلك وكانوا قد فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط اليهم فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا متوجهين الى دمياط فركب المسلمين أكتافهم وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وبلغت عدة القتلى ثلاثين ألفا وانحاز ملكهم ومن معه من الملوك الى بلد هناك وطلبوا الامان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم أحيط عليهم وأحضروا الى المنصورة وقيد ملكهم وأركب على جمل وضيف به ثم حبس في دار ابن لقمان ووكل به الطواشى صبيح ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وان يطلق ويدفع ثمانمائة ألف دينار وقيل انه افتدى نفسه بقناطير من الذهب تبلغ سبعة ملايين فرنك فاطلق ورجع الى بلاده فلما وصلها أخذ في الاستعداد ونوى الرجوع لحرب المسلمين فندم المسلمون على اطلاقه فأنشأ جمال الدين ابن مطروح قصيدة كتبت وأرسلت اليه وأنشدها القاصد بين يديه وهو قائم منها قوله

قل للفرنسيس اذا جئته * مقال صدق عن قؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها * تحسب ان الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لايرى منهم * غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم ان أضمروا عودة * لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشى صبيح

فلما سمع المقالة ذات نفسه وثنى عن العودة الى مصر ثم أراد ان يأخذ ثاره من تونس لامر جرى بينه وبين ملكها وهو أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصى الملقب بالمستنصر

بالله وحاصل ما كان بينه وبين ملك الفرنسيس المذكور انه جرى ذكره يوما عند المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذى أسره هؤلاء وأطلقوه وأشار الى بعض الاتراك الذين كانوا يخدمون بين يديه وكان قد استخدم منهم جماعة فبلغت مقالة المستنصر ملك الفرنسيس فحقد عليه وتجهز بجنوده يريد أخذ تونس وذلك سنة ثمان وستين وستمائة فسار ومعه ثلاثون ألفا وأساطيله ثلاثمائة بين كبار وصغار وحاصر تونس ستة أشهر فقال بعض أدباء تونس

يافرنسيس هذه أخت مصر * فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فقدر الله هلاك ملك الفرنسيس وهو محاصر تونس قيل أصابه سهم فقتله وقيل أصابه مرض الوباء فقتله وذلك سنة تسع وستين وستمائة وهلك كثير من جنده بالوباء وتملك بعده ابنه فعقد صلحا مع أهل تونس وارتحل عنهم وكفى الله شرهم وذكرنا قصة تونس قبل مجىء الموضع الذى ينبغي ان تذكر فيه أعنى سنة تسع وستين لتتصل هذه القصة بالقصة السابقة لما بينهما من التناسب

(ذكر خروج التتر وتملكهم بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد)

قال ابن خلدون ان التتر من شعوب الترك وان الترك كلهم من ولد كومر بن يافث بن نوح عليه السلام ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون وهم أمم كثيرة وسيحون نهر مما وراء النهر قريب خجند بعد سمرقند وهو في حدود بلاد الترك ويطلق أيضاً على نهر الهند وأما جيحون فهو نهر خوارزم وجيحان نهر بالشام وفي سنة ست وخمسين وستمائة كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية وينبغي قبل ذلك ان نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الاسلام ذكر كثير من المؤرخين ان حادثة التتر حادثة عظمى ومصيبة كبرى عمت الخلائق وخصت المسلمين بشدة بلائها فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام الى وقت خروج التتر لم يبتل بمثلها لصدق فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس وما بيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا أحدا بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل

[الاخبار] الاخبة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون ثم منهاالى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهمافيملكونها ويفعلون بأهلها مما سنذكره ثم تعبر منهم طائفة الى خراسان فيفرغون منها ملكا وقتلا وتخريبا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاداذربيجان وأرمينية وغيرهما ويخربونها ويقتلون أكثرأهلها ولم ينج الا الشريد النادر في أقل من سنة هذا مالم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وأرمينيه ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللزك ومن كان هنالك من الامم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا الا بقدر مسيرهم لاغير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة واعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسيجان وكرمان ففعلوا فيها مثل مافعل هؤلاء وأشد هذا مالم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة في نحو سنة ولم يبت أحد من أهل البلاد التى يطرقونها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لايحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم بل كان معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لاغير وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لاتعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لايحتاجون الى شئ من خارج وأما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبنى آدم ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف أباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون في مدتهم بمصائب لم يبل بها أحد من الامم فهؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وكانوا كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام وخربوا الجوامع وأحرقوا المصاحف

وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها وفي مدتهم أيضا كان خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام ثم قصدوا ديار مصر وانتشرت الفتن في ممالك الاسلام فانا لله وانا اليه راجعون قال ابن الاثير نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وهؤلاء التتر نوع من الترك ومساكنهم كانت جبال طمغاج من بلاد الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر وهى منقسمة ستة أجزاء كل جزء مسيرة شهر وعلى كل جزء ملك يقال له عندهم خان وواحد منهم رئيس على الجميع ولما انتهت الرياسة الى واحد منهم يقال له جنكزخان كان ابتداء خروجهم على بلاد الاسلام وذلك سنة ست عشرة وستمائة في خلافة الناصر لدين الله العباسي بن المستضئ بأمر الله بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وكانت مدة خلافة الناصر ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر لأنه كانت ولايته الخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ووفاته سنة ثنتين وعشرين وستمائة فكان أكثر فتنة التتر في مدته وكان سبب خروجهم ان ملكا من ملوك الاسلام كان مالكا لخراسان وما وراء النهر يقال له خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان وكان خوارزم شاه منتسبا الى شخص يقال له أنوش تكين وهو مملوك لبعض أمراء السلجوقية وكان حسن الطريقة فترقى الى أن صار مقدما مرجوعا اليه فولد له ابن يقال له محمد خوارزم شاه وانتشأ عارفا أديبا واشتهر عنه العقل وحسن التدبير فقدر الله ان وقعت فتنة في خوارزم سنة أربعمائة وتسعين وقتل أمير خوارزم وكانت تحت حكم السلاطين السلجوقية والخلفاء العباسية فولوا ملك خوارزم لمحمد خوارزم شاه ابن أنوشتكين ثم توارث الملك بنوه واتسع ملكهم وعظم أمرهم وصار كل ملك منهم يقال له خوارزم شاه ولم يزل ملكهم يقوى ويتسع حتى تغلبوا على الممالك وصار ملكهم من حد العراق الى تركستان وملكوا خراسان جميعه وغزنة وكابل وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وبعض فارس فلم يزالوا يتوارثون الملك الى سنة خمسمائة وست وتسعين فكان الملك منهم في التاريخ المذكور لمحمد خوارزم شاه بن تكش بن ارسلان بن أطسز بن محمد خوارزم شاه ابن أنوش تكين واتسع ملكه غاية الاتساع حتى صار يتطاول على بغداد قال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء في وصف خوارزم شاه المذكور أنه أباد الملوك وأخذ

الممالك وعزم على قصد الخليفة فلم يتهيأ له مدة وكان خوارزم شاه قسم ممالكه بين أولاده وكانوا أربعة وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته وكان تحته سبعة وعشرون ملكا تضرب نوبة لكل واحد منهم في أوقات الصلوات وانفرد هو بنوبة ذى القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها وكانت سبعا وعشرين دبدابة والدبداب هو الطبل الكبير وكانت هذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بانواع الجواهر فلما انتهى أمر ملكه الى هذا الحد احتقر أمر التتر سكان الصين وصار يغازيهم ويغير على بلادهم وهم أيضا يغازونه ويغيرون على بلاده ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة وصار تجارهم يأتون الى بلاده ثم ان عامل خوارزم شاه على آخر مملكته مما يليهم كانت له قوة ومعه عشرون ألف فارس وكان خال خوارزم شاه فسرهت نفسه الى أموال التجار واتفق انه دخل في محل ملكه كثير من التجار والاتراك معهم أموال للتجار من التتر واموال لملك التتر فكتب ذلك العامل الى خوارزم شاه يقول له ان هؤلاء القوم قد جاؤا بزى التجارة وما قصدهم الا التجسس وان أذنت لى فيهم قبضت عليهم فأذن له فقبض عليهم وأخذ أموالهم ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم شاه في اطلاقهم وكتب ملك التتر لخوارزم شاه يتهدده ان لم يطلقهم فغضب وأمر بقتلهم فقتلهم ذلك العامل وسير اليه ما كان معهم من الاموال وكان شيأ كثيرا ففرقه خوارزم شاه على تجار سمرقند وبخارى وأخذ منهم قيمة تملكهم فلما بلغ الخبر جنكز خان أرسل جماعة الى خوارزم شاه يتهدده ويقول أنت قتلت جماعتي فاستعد للحرب فانى واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به فقتل خوارزم شاه كبير هؤلاء الجماعة وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى جنكز خان فقالوا له ان خوارزم شاه يقول لك انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم منك وافعل بك كما فعلت باصحابك وتجهز خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم وأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا المقاتلة ملك من ملوك الترك فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم فجدوا السير وأدركوه قبل ان يخرج من أرضهم وتصافوا للحرب واقتتلوا اقتتالا لم يسمع بمثله ثلاثة أيام بلياليها وجرى الدم في الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته وأحصى من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ثم رجع الكفار الى بلادهم ورجع المسلمون الى بخارى واستعدوا لمجىء جنكز خان اليهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(تم الجزء الأول من الفتوحات الاسلامية ويليه الجزء الثانى أوله ذكر تملك جنكز خان بخارى)

4932

5/A